شاي تركي من فضلك
تركيا من الماضي إلى الحاضر

تأليف

كاثرين براننج

ترجمة

أسماء عادل

شاي تركي من فضلك

تركيا من الماضي إلى الحاضر

كاثرين براننج



شاي تركي من فضلك

تركيا من الماضي إلى الحاضر

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير

عبد المولى علي حربيع

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-540-3

رقم النشر

485

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 حـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

صفحة فارغة

فهرس

مقدمة

لطالما أعجبت بحقبتين من التاريخ أكثر من الحقب الأخرى كلّها:

الأولى: هي عصر التنوير في أوروبا؛ وذلك يرجع بشكل كبير إلى الأدِيبات الكثيرات اللامعات اللاتي ظهرن آنذاك.

أما الحقبة الثانية فهي حقبة الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، إنّها حقبة السعي الدؤوب نحو النقاء والجمال في الفنون المختلفة؛ فكان من الطبيعي لِزامًا أن تؤثر فيّ بشكل خاص "رسائل السفارة للسيدة مونتاجيو" عندما قرأتها أوّل مرة.

كانت السيدة ماري مونتاجيو (١٦٨٩-١٧٦٢م) امرأة استثنائية؛ فهي إحدى السيدات المذهلات الكثيرات اللاتي لمعْنَ كالنجوم الساطعة في ثريا أوروبا التنوير خلال القرن الثامن عشر، استطاعت أن تصنع لنفسها اسمًا من خلال أسلوبها المثير في كتابة الرسائل، وغدا أسلوبها مرآة لذكائها الاستثنائيّ ومعرفتها الواسعة، تألّق ذكاؤها الحاد في تعليقاتها الخاصة بالحياة اليومية التي ضمنتها رسائل عدّة كتبتها من الخارج لأسرتها وأصدقائها، وكذلك سطع اسمها أدبيًّا من خلال أحداث زواجها المضطرب، وشجاعتها في مواجهة مرض الجُدَري، وعلاقتها الصعبة بأبنائها، ورحلاتها الكثيرة، ومناداتها الصريحة بمبادئ المساواة بين الجنسين، وأنشطتها السياسية وغربتها عن إنجلترا التي فرضتها على نفسها، وأسلوب حياتها الطليق في أعوامها الأخيرة، كلُّ ذلك موثّق في مئات الرسائل التي وصلت إلينا.

ولدت السيدة مونتاجيو -وسُمِيَت ماري بيربونت- عام ١٦٨٩م في نوتنجهامشير بإنجلترا في غرفة من مجموعة غرف يبلغ عددها "٢٢٤" غرفة بمنزل أبيها الفخم الذي بني على طراز القرن الثامن عشر، ويحمل اسم ثورسبي هول، وقد تلقت تعليمًا متميزًا؛ وكانت طفلة محظوظة فهي ابنة دوق كينجستون.

برز ذكاؤها الفطري في سنٍ مبكرة جدًا فقيل: إنها تعلمت اللغة اللاتينية قبل سنّ الثامنة، قابلَتْ السيد ورتلي مونتاجيو المحامي والسياسي البارز وهي لا تزال في سنّ المراهقة، وتحابّ الاثنان خلال فترة مغازلة امتدت أكثر من سبع سنوات، وعندما تقدم لخِطبتها رفضه والدها دوق كينجستون؛ إذ رآه لا يتمتع بالاستقرار الماديّ الكافي من وجهة نظره، ووجد لها شخصًا ثريًا على ذوقه، إلا أنها وجدته غليظ الطبع، وفي لفتة أولية تنم عن استقلالها المذهل الذي غدا سمة أساسيّة في حياتها؛ تحدت والدها، ورتبت لأن يختطفها مونتاجيو في طريقها للزفاف؛ وهرب الاثنان وتزوجا في عام ١٧١٢م.

غير أنّ الأحداث التي تلت هذه القصة الخيالية لم تحقق أحلام خيالها الطموح؛ فتبيّن لها أن الحياة الزوجية صعبة، وها هي رسائلها تقدم الكثير والكثير من اكتشافاتها التأملية التي تعبر عن تزايد تحررها من الوهم، ولكي تنفس عن هذه التعاسة؛ شرعت في بناء نفسها أديبة من خلال كتابة المقالات الأدبية والنقدية.

وعندما انتقل الزوجان إلى لندن باتت ماري محبوبة لدى مجتمع لندن الراقي الذي قدّر ما تتمتع به من توليفة الجمال الأخاذ والذكاء المتقد والكتابة المتميزة؛ وشعرت ماري في تلك الفترة بالسعادة النسبية رغم مشكلاتها الزوجية المستمرة؛ ووُلد ابنها إدوارد بعد سنة من الزواج.

وفـي العام التالي (١٧١٦م) سـافرت عائلة مونتاجيو إلى تركيا، حيث عُيـن السـيد ورتلـي مونتاجيو سـفيرًا؛ وكانـت مهمته التفـاوض من أجل السـلام بين العثمانيين والنمساويين، وحماية المصالح البريطانية التجارية والبحرية في بلاد الشام.

في ذلك الوقت كانت السيدة ماري في السابعة والعشرين من عمرها، وولدت طفلتها ماري في تركيا في يناير/كانون الثاني عام ١٧١٨م، وخلال إقامتها بتركيا -وهي ثلاثة عشر شهرًا- أرسلت خمسًا وعشرين رسالةً إلى أصدقائها وأهلها في موطنها، وقد عُرفت تلك الرسـائل-التي نُشـرت بعد وفاتها- باسم "رسائل السفارة".

وهكذا تلاقت قصتي وقصتها...

***

وأودّ أن أعبر عن خالص شـكري للشـاعر محسـن إلياس صوباشـي لتشـجيعه ودعمه المسـتمر لجهدي في الكتابة والبحث، كما أود أن أعبر عـن خالـص حبي لزوجي سـتيفن إيب جوتليب؛ فمـا يقدمه لي من حنان وتفاهـم دائبيـن في كل ما أفعل هو مـا يجعله أحب الناس قاطبة إليَّ، كما أشكر بالطبـع شعب جمهورية تركيا، نعم سأتحدّث عن معالِم تركيّا إلا أن حبي لشعبها هو السبب الرئيس وراء وقوعي في عشق هذا البلد الرائـع.

كاثرين برانتج

صفحة فارغة

الجزء الأول

زوجتا سفيرين
وجسران للتعارف

صفحة فارغة

الرسالة الأولى

آلاف الأكواب من الشاي

أصدقائي وأهلي الأعزاء،

في يوم من الأيام قال لي صديقي الشاعر المؤرخ القيصري محسن إلياس صوباشي: أنت تذكّريني بالسيدة مونتاجيو من عدة نواحٍ، وأعتقد أنك إذا كتبت كل الأشياء التي رأيتِها هنا طوال الثلاثين عامًا الماضية فسيكون ذلك ذا أهمية كبيرة عند الأتراك بل عند سائر العالم أيضًا؛ فجميعهم سيكون شغوفًا أن يرى تركيا بعيون أجنبيّ تردَّد إليها كثيرًا.

في البداية اعتقدت أنه اقتراح مستحيل؛ لأنني لم أكن أتخيل أنّ تجاربي في تركيا قد تهم أي شخص غيري، غير أنني كلما فكرت فيما قال اقتنعت أنه ربما يكون على حق، وأنني أحتاج لأن أكتب بعض تجاربي التي مررت بها أثناء سفري؛ ومن خلال ذلك ربما أستطيع أن أفسر سبب استمراري في الذهاب إلى هناك طوال كل تلك السنوات...

وهكذا قررت أن أبدأ مراسلة خيالية مع السيدة ماري العظيمة نفسها، وأكتب انطباعاتي وتأملاتي الشخصية في رسائل موجهة إليها كما لو أنني أحدِّث معلوماتها عن البلد الذي وقعت في غرامه.

ورغم أنّ الرسائل التالية موجهة إليها فهي موجهة إليكم أيضًا -أصدقائي وأهلي- ولأي شخص آخر قد يهتم بقراءتها، وللشعب التركي أيضًا.

إنني لا أكتب دليلًا للسائحين المتجهين إلى تركيا؛ لذا فهذه الرسائل ستكون مختلفة تمامًا عن معظم الكتابات الأخرى التي كتبها زوّار تركيا عبر

القرون الأربعة الماضية، وخاصة تلك التي كتبت في العقدين الأخيرين.

هذه الرسائل لن تكون سجلًا يوميًّا للرحلة؛ لأن الرَّحالة غالبًا ما يغامرون بالذهاب إلى أماكن غير مألوفة، ولكن الأماكن في تركيا مألوفة لي بطريقة ما، وأيضًا فأنا لا أريد أن يُصاب القارئ بالملل بسرد قصص الرحلات التي تتناول أشياء سخيفة تافهة تتعلق بالسفر مثل غثيان معدتي، أو الطائرات والحافلات التي فاتتني، أو ما فقدته من مال أو متاع؛ لن تجدوا هنا قصص المستكشف الشغوف التي تجدونها في كتابات ريتشارد بيرتون، وألكساندرا دافيد نيل، وفريد برنابي.

ولا أودّ أيضًا أن أكتب دليلًا يصف المشاهد الخلابة التي يسهل العثور عليها في كتب رحلات كثيرة مطبوعة حاليًا أو موجودة على الإنترنت، لن تكون تلك الرسائل بمنزلة كتاب تمهيدي عن تركيا يقدّم حقائق وتفصيلات تاريخية يسهل العثور عليها في أي دليل جادّ؛ إن قرائي لا يحتاجون إلى معرفة كل ما فعله أتاتورك، ولا إلى قصص الحريم، ولا تقاليد الحمامات، ولا ما فعله الحيثيون في مستوطنة تشاتالهويوك.

ولن تكون هذه الرسائل أيضًا دراسة مجتمعية عن الأنماط الحياتية التركية؛ فتركيا تتغير على نحو مطرد، فالإحاطة بها أمرٌ مستحيل، ولن تكون الرسائل تحليلًا سياسيًّا أيضًا.

نعم، أنا لا أستطيع أن أغض النظر عن السلبيات أو أن أخفي المشكلات، لكن لا يمكنني أن أدعي -وأنا أجنبية- أنني أستطيع إزالة الغموض عن هذه البلاد المليئة بالتباينات والمتناقضات، سوف أترك هذه المهمة لعلماء الاجتماع والسياسيين.

ولا أود ألبتة أن تغدو هذه الرسائل مذكرات لي أو سيرة ذاتية؛ فحياتي ليست جذابّة لهذا الحد، وقصص رحلاتي لا تحمل الكثير من المغامرات المثيرة؛ ولذلك لا ينبغي لي أن أطلق العنان لنفسي فيصيبكم الممل.

وأهمّ من ذلك أني لا أريد أن أتهكّم أو أسخر من الأتراك؛ فلطالما كانت وجهة النظر الغربية ضدهم وبشكل غير لائق أحيانًا؛ وقد تبادل كتاب مشهورون مثل لامارتين، ونرفال، وجيد، ولوتي، وجوتيه، وتوين، وستارك، وبارنبي، وغيرهم الأدوار في وصف عادات الأتراك؛ ما آخذه على هؤلاء الكتاب الرحالة بشكل رئيس -لا سيما رحالة القرن التاسع عشر العظماء الذين عبروا "الشرق الساحر"، وسردوا قصصهم البطولية المبالغ فيها حول الصعوبات التي تغلبوا عليها- هو أنهم يبدون لئامًا مستكبرين؛ يزدرون الموضوع الذي يتناولونه بشكل صريح.

لا أرغب في سرد قصص مطولة ومملة تفضي بالقارئ إلى طريق ملتوية كي أصل إلى السخرية من مدى غرابة العادات والتقاليد في هذا البلد، ولا أرغب أيضًا في المساس بالكبرياء التركي من خلال قص حكايات استهزائية أو فكاهية، أريد فقط أن تشاركوني بعض القصص التي حدثت معي، وماذا تعني بالنسبة لي، فلسوف تتضمن هذه الرسائل تجارب شخصية حِرتُ في تفسير بعضها.

تعلمت من سنوات سفري ومن حياتي المهنية بكاملها في مجال العلاقات بين الثقافات المختلفة الكثير والكثير، لكن أكبر درس تعلمته هو أنه ينبغي على المرء أن يخطو بحرص شديد عندما يتكلم عن بلد أجنبي وشعب أجنبي، وتعلمت أن وجهة نظرك حول العالم غالبًا ما تكون متأثرة بالتصورات التي تحملها داخلك، والتي ورثتها من بلدك الأمّ ومن نشأتك.

عندما تكون بصدد موقف غير قابل للتفسير ينبغي أن تأخذ نفسًا عميقًا، وترجع إلى الوراء، ثم تنزع نظارتك الغربية المهيمنة، عندها ستتمكن من البدء في تحديد ما هو لهم، وما هو لك، وما هي الحقيقة.

لا شك أنك عندما تفتح عينيك لتدرك قيمة شعوب أخرى وبلاد أخرى ومجتمعات أخرى تختلف عن بلدك وشعبك ومجتمعك فإن ذلك

أمـر لا يقـدر بثمن، ولا يوجد بلد آخـر في العالم يجعل هذه التجربة أرق وأكثر نبضًا بالحياة من تركيا.

أنـا أطـوِّف في تركيـا وأتعامل مـع شـعبها منذ وقت طويـل، وقد نما فيّ حبّ هذا البلد وثقافته بقدر حبي لوطني وثقافتي أو بقدر حبي لفرنسا وطني الآخر بالتبني.

أعـرف أنكم جميعـا لا تفهمون كيف أكنّ تلك المشـاعر القوية تجاه البلـد الذي ظهر بصورة سـيئة في فيلم "محاولة الهـروب" وتجاه هؤلاء "الأتـراك البغيضيـن"، مـا أريـده منكم هـو أن تعطوا تركيـا فرصة، فهذه الرسـائل هي محاولة مني بأسـلوبي البسيط لترسـيخ تفاهم أكبر بين تركيا وسائر العالم؛ وعليه فآمل أن يكون في هذا العمل ردٌّ على أسئلتكم إذا ما سألتموني جميعًا: لماذا أسافر إلى تركيا عامًا بعد عام، وأذهب مرة أخرى للأماكن المُغْبرّة نفسِـها بدلًا من استكشاف أركان العالم الأربعة كما فعل فيلياس فوج[1]؟

غيـر أنـي كما قلت من قبل لا أوجه هذه الرسـائل لأهلي وأصدقائي والقـراء الآخريـن فحسـب بـل هـي للشـعب التركـيّ أيضًـا، وأتمنى أن تمثل رسـائلي رسـالة شـكر طويلة وبسيطة لتركيا وشـعبها، وتعبيرًا بسيطًا عن تقديري وحبي لهذا البلد ومواطنيه.

هذه الرسـائل هي طريقتي لردّ الجميل، وردًّا على آلاف الأكواب من الشـاي التي قُدمت إليّ خلال السنوات الثلاثين الماضية، فيا لَها من كمية كبيرة من الشاي، حقًّا حقًّا، وأقول لهم: نعم، أريد كوبًا آخر من الشاي.

مـع تقديري

كاثرين

(١) بطل فيلم «حول العالم في ٨٠ يومًا» (المترجم).

الرسالة الثانية

قلم توازن وإدراك

عزيزتي السيدة ماري،

آمل ألا تنظري إلى هذه الرسالة على أنها تطفل مني، وأن تغفري لي تبجحي في الإقدام على الكتابة إليك؛ فقد شجعتني رغبتي في التعبير عن إعجابي بأسلوبك في الكتابة على مخاطبتك بشكل مباشر، وأودّ أيضًا التعبير عن الصلة التي شعرت أنها تربطنا بعد قراءتي للرسائل التي كتبتِها إلى وطنك أثناء فترة إقامتك في تركيا من عام ١٧١٦م حتى عام ١٧١٨م.

أرجو أن تسمحي لي بأن أقدم لك نفسي: اسمي كاثرين براننج، امرأة أمريكية وأمينة مكتبة، أشترك معك في عدة أشياء فمثلاً: كلٌّ منا تركت وطنها في سن صغيرة لتعيش في بلد أجنبي، كما أن كلتينا اختارت أن تغترب عن وطنها عدة سنوات من حياتها ، أنا متزوجة أيضًا، وكلتانا تؤمن بأهمية التعليم، والأهمّ من هذا كلِّه أننا نتشارك تركيا، فقد قضيت وقتًا طويلاً في السفر داخل تركيا خلال العقود الثلاثة الماضية.

أنـا كاتبة رسـائل مثلك، أسـعد أيما سـعادة بكتابتهـا، وأحبّ أن أرى الصفحـة وهـي تمتلئ بالسـطور مثلما يمتلـئ حوض الاسـتحمام بالمياه الدافئـة، وأن أشـعر بالتوتـر قليـلًا بينما يتحـرك رأس القلم علـى الورقة، وأن أختـار أدواتـي فـي كتابة الرسـائل بعناية: أفخر أنواع الـورق الكثيف أو البطاقات الملونة، وقلم رشـيق التصميم جيد الصنـع يتوازن بشـكل تام فـي يدي، وطوابـع بريد مختارة بدقة مليئة بالألوان والإشـارات التاريخية أو القضايا التي أفضلها.

كتابة الرسـائل تحمـل قدرًا كبيرًا مـن الأمل والإثارة، حتى إنني أشـعر وأنـا أكتب أننـي أعمل بنفس الحب الذي أعمل بـه وأنا أطهو وجبة متميزة لأحبائي، وأتخيل سلسـلة الأشـخاص الذين سـتمرّ بهم الرسـالة وهي في الطريق، والسعادة على وجه صديقي عندما يرى الرسالة في صندوق بريده، وفضوله وهو يحل شفرة الطوابـع، وحماسه وهو يلتقط مفتاح الرسائل ويفض الظرف، ثم فرحته عند قراءته لما أودّ أن أقوله له، ولكن فوق ذلك كلّه أعتقد أن أكثر ما أتلذذ به هو الحميمية التي تقدّمها كتابة الرسـائل بين شـخصين، وحالة الشخص وهو يتقدم أو يتأخر كما يحبّ عند تعبيره عن عاطفة ما لديه؛ وأقدّر كيف يستطيـع المرء أن يخفي الأفكار السرية خلف الكلمات، وكيف يستطيـع أيضًا أن يخطو للأمام مـع تلك الأفكار نحو دائرة الضوء.

لا شيء يمكن أن يحلّ محلّ الحميمية التي تسمح بها سطور الرسالة، وأنت يا سـيدة ماري قد حظيت بذاك القدْر دون شـك... بين القسـطنطينية وإنجلترا، وبين حياتك الجديدة الغامضة وحياتك المألوفة التي تركتها وراءك.

وعلـى الجانـب الآخر، تقـدّم كتابة الرسـائل قـدرًا كبيرًا مـن الحرية والصراحـة والطاقـة؛ فكتابة رسـالة ذات لهجـة لاذعة تمكننـي من تبديد الحزن الذي يصيبني في كثير من الأحيان.

لقد كتبتِ خمسًا وعشرين رسالة من تركيا خلال السنة التي قضيتِها هناك، وهو عدد غير قليل؛ بالنظر لأنك كنت مشغولة بأمور منزلك الجديد، وبطفلك الصغير الذي يبلغ من العمر أربع سنوات، وبالاستعداد لولادة طفلك الثاني، ومنذ أن كتبتِ هذا العدد من الرسائل نجحت في أسر خيال عدد لا يحصى من القراء والفنانين، وخاصة خيالي أنا باعتباري رحالة كاتبة.

وبمرور الوقت اكتسبت مكانة مرموقة بصفتك واحدةً من أبرز كتاب الرسائل باللغة الإنجليزية؛ فقد وصل إلينا نحو تسعمائة رسالة مطبوعة من رسائلك منذ أن كتبتِها، أما تلك الرسائل التي كتبتِها في تركيا ونشرت بعد وفاتك فلا تزال تُقرأ إلى اليوم، وتمثل منجمًا للاقتباس بالنسبة لكثير من كتاب الرحلات، كما تقدم الكثير والكثير من المادة الأولية للبحوث الأكاديمية عند دعاة الحداثة والمستشرقين ودعاة المساواة بين الجنسين.

لدي صديق تركي، وهو كاتب أيضًا، يقول: إنني أذكّره بك، ويا له من إطراء! لا أعتقد أنه يعني أنني أمتلك نفس مواهبك وذكائك، بل أعتقد أنه يقصد أنني أحاول أن يكون لدي نفس النظرة المتفتحة المحايدة تجاه ما حولي كما فعلتِ أنت، وهذا ما يجعل أسلوبك في كتابة الرسائل على هذا القدر من التميز في رأيي؛ فهذا التميز لا يرجع إلى ما تَعرضين من نظرات ثاقبة في التاريخ والحياة اليومية خلال تلك الحقبة، بل إلى إدخالك عنصري السهولة والاتزان في موقف شخص غريب يعيش ثقافة مختلفة.

أنا معجبة بكيفية نقلك للأحداث والحقائق بشكل صريح وصادق، لا بشكل سلبي أو نقدي؛ فقد كنت سائحة لديها القدرة على الاعتراف بالجميل والتقدير، وتصرفت دائمًا كما لو كنت ضيفة في بيت أحدهم؛ فلم تكن نبرتك أبدًا نبرة الموبخ القاسي الذي يحتقر الأتراك وكأنّه يمتاز عنهم أخلاقيًا، وأعطيت لنفسك حرية الشك في التركيبة المجتمعية الخاصة

بمجتمعك أنت، لا في تركيبة المجتمع التركي، ولم تصدري أبدًا أحكامًا متحيزة ضدهم، وفهمتِ المعنى الحقيقي للتبادل الثقافي، وخاصة في مناقشاتك مع معلمك "السيد أحمد"، وبحثت عن التناقضات بين أوروبا الغربية وتركيا، وكذا التناقضات داخل أوروبا وداخل تركيا.

أنا أستمتع بتخيل شخصية المرأة التي أراها وراء تلك الكلمات؛ لقد سعيتِ بفضول وشغف تتعلمين كل ما تستطيعين تعلُّمه عن الحياة اليومية بدءًا من الدين إلى المواقد والأطعمة، وغمست نفسك في عالمك الجديد، ولم تعطي الفرصة لأي شيء ليعيقك عن استكشافه.

أشعر أنك امرأة ذكية ذات روح مبتهجة، يكون تألق ذكائها وسحرها في قمته دائمًا عند نهايات رسائلها المتفائلة، وتقدّم رسائلك إشارات بأنك تستطيعين أن تكوني ذات إرادة قوية وقلب طيب أيضًا تبعًا للموقف.

ما أروع الرسائل التي كتبتها لوطنك من تركيا يا سيدة ماري! وما يدهشني دائمًا أن الكثير والكثير من المسافرين إلى تركيا عبر القرون المختلفة تقابلهم نفس القضايا ويتعرّضون لحوادث سوء التفاهم والإحباطات نفسها؛ يبدو أن الجميع يفاجأ بنفس الأشياء سواء كانوا من العسكريين المغامرين في القرن التاسع عشر، أو من دعاة الحداثة في أواخر القرن العشرين؛ بعض الأشياء لا تتغير أبدًا، وبعض الصراعات لا تجد حلًا أبدًا؛ فالكثير من الأسئلة لا تزال دون إجابة.

عندما أنظر إلى تجاربي وأرى مدى محاكاتها لتجاربكِ، أشعر بأن هناك ارتباطًا بيني وبينك؛ كنتِ عازمة على تحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه في كلّ موقف، والاستمتاع بالحياة، والحصول على كل ما تستطيعين من كل ما يصادفك.

أحـاول أن أتخيـل كيف كان رد فعلك تجاه الحـوادث اليومية، وكيف تعاملتِ مـع سـوء التفاهم والارتباك المتكررين مرارًا بينما كنت تحتفظين بذهـن صـافٍ لا يصـدر أحكامًـا؛ حقًّا إنّ ذلـك كان منك بيسـر ونبل دون تكلف أو شكوى على الإطلاق، ولطالما أعجبت بهذا فيكِ.

لقـد حاولـت أن أتبنّى نفس أسـلوبك المتفتح فـي عملي ورحلاتي، ولكن بصفتي غريبة أيضًا يستحيل عليّ أن أرى أي شيء بوضوح؛ فالغريبة ترغب أن تكون كالمواطنة، ويغلب عليها احتمال التحيز والإمبريالية.

وفـي النهايـة، أحاول عندما أسـافر أن أطبق نفس الاسـتراتيجية التي ترشـدني فـي مهنتي بصفتـي أمينة مكتبة: أجمـع المعلومـات، ثم أنظمها، ثم أنشـرها، ولا أحاول تفسـيرها أو تعديلها، بل أنشـرها فقط، أو هذا ما أحاوله، كما قلت أنتِ في رسـالتك من راتيسـبون: "من الحكمة أن يبقى المرء محايدًا" أو كما قلت من فيينا: " الكياسـة والنشـأة الجيدة تختلفان فـي الأجـواء المختلفة، تمامًا مثلما تختلـف الأخلاق والدين؛ ولن نعرف مَن على الصواب حتى يوم الحساب".

أنا متأكدة أنك تومئين برأسـك وتبتسمين بسبب كثير من تعليقاتي التي شـعرتِ بها قبلي منذ (٢٩٠) سـنة، ولكن ليحيَ هذا التواصل، وهذا البحث الأبدي المسـتمر عـن التفاهم، وهذه المقارنة، وهـذا التحدي؛ ففي ثقافات العالم الكثير لتشاركه وتكتسبه بعضها من بعض، وفي النهاية ربما نستطيـع أن نتعلم كيف نشارك بشكل أمثل في حركة الإنسانية الحرّة نحو مجتمـع يسوده التفاهم والاحترام والسلام، قد يبدأ كل ذلك بكتابة رسالة، أليس كذلك؟

إذًا هـل تسـمحين لـي بمكاتبتك؟ سـوف أسـعد كثيرًا بأن أشـاركك انطباعاتـي الخاصـة عـن بلـد كلتانا تعشـقه؛ أتمنـى أن تسـتمتعي بمعرفة التفاصيل عن تركيا في أواخر القرن العشـرين، وسـوف تطمئنين أن الكثير

والكثير من القيم والمعالم التي أعجبت بها كثيرًا سائدة في هذا البلد ولا تزال كما هي، ولسوف تسعدين أيضًا برؤية تطور ونمو هذا البلد وشعبه، أشخاص مثلك ربما أسهموا في تدعيم هذا النمو من خلال توضيحهم للأتراك بأن الغرب والغربيين يمتلكون من الكرم والطيبة ما يمتلكون.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين برانج

الرسالة الثالثة

في العالم مكان يسمى سيواس

عزيزتي السيدة ماري،

آه يا سيدتي! لم تكوني في يوم من الأيام مضطرة للتعامل مع أي سؤال بالغ الصعوبة في رسائلك، ولا عليك سوى أن تشاركي بانطباعاتك عن هذا البلد الذي كنت تزورينه، وما أروع ما قدمت في هذا الشأن برأيي! ولكن لم يكن عليك أبدًا تبرير وجودك هناك، صدقيني غالبًا معالجة هذا الموضوع ليس أمرًا سهلًا؛ فقد أوفدْت إلى تركيا، لمرافقة زوجك؛ فلم يكن لك خيار في هذه المسألة.

أعتقد أنك كنت تستطيعين البقاء في بلدك حول المدفأة في منزلك الكبير بالريف الإنجليزي، غير أن ذلك لم يكن ليمثل خيارًا بالنسبة لامرأة تمتلك هذا القدر الكبير من الفضول مثلك، لكن الأمر كان مختلفًا عندي؛ فقد ذهبت إلى تركيا استجابة لهوس لديّ.

أمّا السؤال الذي يُطرح عليّ دائمًا "لماذا تركيا؟" فغالبًا ما أشعر بالإحراج الشديد ولا أفصح عن السبب الحقيقي لذهابي إلى هناك لأول

مـرة، فأحيانًـا يكون الأسـهل علـيّ أن أتلعثم ثـم أقول: إن لـديّ أصدقاء أتـراكا، أو بشـكل أدق: إنّ لـدي حبيبا تركيًا -ويبدو أن هـذه هي الإجابة التي يودّ كل الناس سـماعها- أو إنني أسـتمتـع بدراسة اللغات النادرة، أو إننـي مـن هواة جمـع السـجاد، أو إن لدي عملًا في تركيا، ولكن السـبب الحقيقي وراء ذهابي إلى تركيا لأول مرة هو رغبتي الجارفة في رؤية مبنى، نعم مبنى، ولكن ليس أي مبنى؛ إنه مبنى من القرن الثالث عشر، أقدم من أي شـيء قد يتصور أمريكيٌّ وجوده أو رؤيته في بلدنا، فعندما رأيت هذا المبنى لأول مرة معروضًا خلال محاضرة بالجامعة لمادة تمهيدية لدراسة تاريـخ الفن الإسـلامي زُرعت بذرة في رأسـي ظلت تكبـر تدريجيًا حتى استحوذت على حديقة خيالي بكاملها.

كنت في التاسعة عشرة من عمري فتاة من وسط الغرب الأمريكي من ولاية أوهايو، سـافرت بعيدًا جدًا عن وطني للدراسـة في إحدى جامعات فرنسا، كان اليوم الذي حدثت فيه هذه المصادفة في فصل الشتاء بباريس، وكالمعتاد في شتاء باريس كان الجوّ رماديًا وممطرًا وقارسًا وكنت جالسة في المدرج الضخم المظلم في يوم من أيام شهوري الأولى هناك، وكنت أشعر بالوحدة قليلاً.

شـعرت بالوحدة لأننـي لم أكن قد كونت صداقـات بعد، وبالإحباط لأن لغتـي الفرنسـية لـم تكن جيدة بما يكفي لكي أفهم كل شـيء بشـكل تـامّ، وباليـأس لأنني وجدت نسـق المحاضرات الفرنسـية غير ودي على الإطلاق؛ فقد بدت تلك القاعات الضخمة رسـمية تمامًا مقارنة بالفصول الصغيرة المفعمة بالمشاركة التي تعودت عليها في نظام التعليم الأمريكي.

كنت أفتقد الشـدّ والجذب بين الطالب والمدرس، والهياج والكياسة اللذيـن يميزان الفصل الدراسـي في الولايات المتحـدة، حتى إنني بدأت

أشكّ في مدى ملائمة المسار الدراسي الذي اخترته؛ وذلك لأن كل شيء كنت قد قابلته حتى تلك اللحظة بدا منفصلاً للغاية عن أية حقيقة تربط بين الفنّ والحياة، ولا يتناسب مع اهتماماتي بشكل كبير، كنت قد قضيت شهورًا في محاضرات مادة تاريخ الفنّ في دراسة الحفريات الفرنسية الشهيرة في بلاد ما بين النهرين القديمة، مع ساعات طويلة من المحاضرات المليئة بصور لا تنتهي للفائف التعاويذ والتماثيل الخرقاء التي ترجع إلى حضارات ميتة، كل ذلك بدا غير مثير للانتباه وعديم الفائدة ومملاً.

لكن في هذا اليوم الشتوي الرمادي، في منتصف المادة التمهيدية لتاريخ الفن الإسلامي، "أطلّ الملك من مركبه"، كما يُقال في الروايات الإغريقية؛ فقد ظهرت على الشاشة فجأة بلا سابق إنذار صورة هزتني وأسقطت عني كل تشاؤمي وكآبتي، كانت صورة لمبنى بدا وكأنه قد بُني بحجارة من الذهب، وفجأة ظهر ما يبدو أنَّه كالسِّحر... إنها شمس الأصيل، ومن ورائها ضوء أصفر يتدفق من الشاشة ليضيء تلك القاعة الكئيبة، فشعرت فورًا أنني أقف في أرض فضاء في يوم من أيام الربيع تحت سماء تشبه زرقتها زرقة أحجار القرميد الخزفية التي رأيتها تزين جدران المبنى، كانت على هذه الأحجار الذهبية نقوش عميقة لحيوانات راقصة، ونجوم، ونباتات، وأشجار، وكتابة بحروف متصلة، وطيور يغلفها جميعًا شريط من زخرفة (الأرابيسك) التوريق العربية، يشبه جمالها وتعبيرها السحري تماثيل الأديرة الفرنسيّة الرومانسية التي أعشقها.

قال الأستاذ: "...والآن ها نحن نرى مدرسة جوك الدينية في سيواس" لم أكن قد سمعت من قبل كلمات "مدرسة (*medrese*) وجوك (*Gök*) وسيواس (*Sivas*)" ولم يكن لدي أدنى فكرة أين يقع هذا المبنى

بالطبـع -ولكـن عندما كنـت أكتب هـذه الكلمات في دفتـري بأفضل ما أمكنني- وأسـرعت في تسـجيل هذه الكلمات على دفتري وأحسست أن تلك الكلمات هي مفردات للغة جديدة سأتعلّمها.

ما الذي أَسَرَ خيالي في هذا المبنى على هذا النحو؟ سأخبرك عن هذا في رسـالة لاحقة، ولكن الكثير من رسـالاتك أنت تمتلئ بأوصاف لمبان رأيتهـا؛ ولذلـك فإني واثقة من أنك تستطيعين إدراك ما أعنيه بشـكلٍ ما، يكفـي أن أقـول لـك: إنّ الأمر كان يشـبه أول مرة تحدِّقيـن فيها في عيني رجل سوف تتزوجينه؛ عرفت تمامًا أنّ الأمر حقيقي.

نعـم، الحجـارة لديها القـدرة على ترجمة الدفء والحيـاة، والمعمار يستطيـع تجسيد المشاعر الأكثر عمقًا ويجعلها حقيقية وملموسة، نعم لقد تأكدت من هذا في تلك اللحظة.

سـارعت إلـى المكتبة بعد المحاضـرة للبحث عن كتاب يسـتطيـع أن يوضـح لـي تلك الكلمات ويفسـر معناهـا، عثرت على كتـاب فيه خريطة توضح موقـع هذا المكان الذي يسمى سيواس:

"سبسـطية": مدينة في وسـط تركيا تمامًا، وأصبحت تلك النقطة على الخريطة بمنزلة رأس مؤشـر البوصلة عندي، مثل علامة على خريطة الكنز تحـدد المـكان الذي دفنت فيـه جرة الذهب؛ عرفت أننـي يجب أن أذهب لرؤية البلد الذي تمكن من إنتاج مبنى كهذا بشكل مباشر.

استمرت الصورة تلازمني وتستحوذ على فكري مثل النبات المتطفل على سـاق شـجرة، وتظهـر بشـكل مفاجئ ليل نهـار، وبعد فتـرة قصيرة أدركـت أننـي بحاجة لأحد أمريـن: إما أن أزيل العشـب الضار عن تلك الحديقـة، وإمَّا أن أمدّها بالسـماد، فقررت أن أسـافر إلـى تركيا، وأذهب إلى هذا المكان الذي يسمى سيواس لأعثر على هذا المبنى؛ فأنا أستطيع

-كما ترين- أن أجده، فهو ليس كنزًا مدفونًا، إنه هناك! الكل يستطيع رؤيته! أردت أن أقف أمامه، وأن ألمس تلك الأحجار الدافئة، وكنت مقتنعة بأنها سوف تكلمني، ومتأكدة أن لديها القدرة على الاستمرار في تحويل أيامي المظلمة إلى أخرى مشمسة.

وعندما كنت في تركيا أقف أمام هذا المبنى عرفت أنني قد عثرت على جرة الذهب في شوارع سيواس، لم يكن الأمر بحثًا عقيمًا لا فائدة منه؛ فقد عثرت على غنيمة أكبر من المبنى ذاته؛ عثرت على مثال جيد لانعكاس التطلعات الفنية إلى داخل الحياة اليومية: هذا معمار يتكلّم وتلك الحجارة تتحدث.

ومنذ ذلك الحين عاهدت نفسي أن أصبح صديقة لهذا البلد الذي يسمى تركيا، أردت أن أعثر على مبانٍ أخرى مثل هذا المبنى، أردت أن أستكشف كيف شُيِّدَ هذا المبنى، وعلى أيدي مَن من البشر؟

وكلما زادت معرفتي بتركيا أكثر فأكثر من خلال الرحلات السنوية، والبحث، والاستكشاف، وعدد هائل من الحجارة طوال الثلاثين سنة التالية، لم يساورني الشك لحظة واحدة أنني سأبقى مرتبطة إلى الأبد بذلك البلد العظيم الذي يمتلئ بأشخاص لديهم قلوب دافئة تمامًا مثل تلك الحجارة.

صديقتكم

كاثرين برانّنج

SIVAS





سيواس



دليل السائح وظرف الفندق، سيواس عام ١٩٧٨م



مدرسة جوك في سيواس عام ١٢٧١م



الرسالة الرابعة

بناء جسر

عزيزتي السيدة ماري،

لقد ذكرت في الرسالة التي كتبتها لـ "القس كونتي" التي تصفين فيها المرحلة الأخيرة من رحلتك البرية عبر أوروبا إلى القسطنطينية أنك قضيت ليلتك في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجي، تشتهر هاتان المدينتان بالجسور العثمانية الشهيرة التي أثارت إعجابك مثلما تثير إعجاب الزائرين اليوم:

> "مررنا في بقية رحلتنا عبر مروج مصبوغة بالألوان الجميلة على شاطئ بحر مرمرة "بروبونتس قديمًا"، وقضينا ليلتنا التالية في سيليفري -كانت قديمًا بلدة راقية-، وهي الآن مرفأ بحري جيد جدًا، مبنية بشكل منسق ومنظم، وفيها جسر يحتوي على اثنتين وثلاثين قنطرة... ثم قضينا الليلة التالية في بلدة تسمى "بويوك شكمجي" أو "الجسر الكبير"، والليلة التي تليها في "كوتشوك شكمجي"، أو "الجسر الصغير" في نُزُل مريح جدًا، كان في السابق تكيّة للدراويش، وكان أمامها ساحة واسعة تحيط بها حجرات رخامية تتوسطها نافورة رائعة، إنّ المشهد من هذا المكان والحدائق المحيطة به من أروع ما شاهدت، وهو دليل على أن رجال الدين في كل الأديان يعرفون كيف يختارون أماكن خلوتهم".

قام السلطان سليمان القانوني قبل وفاته بفترة وجيزة عام ١٥٦٦م بتكليف سنان معماري السراي بتشييد جسر "بيوك جكمجه" الذي يمر فوق بحر مرمرة بقناطره المميزة المحدّدة الرأس، وتشييد جسر "سِيْلِيوْري".

لا شك أنّ قوات السلطان أحمد الثالث التي شاهدتِها في أدريانوبل (Adrianople) "أدرنة" قد عبرت هذين الجسرين قبلُ في رحلتها إلى ساحة القتال في النمسا، وهي في طريقها للاشتراك في الحرب ذاتها التي حاول زوجكِ أن يفاوض لعقد هدنة لها، لم تخفت حدة حلم الأتراك الدائم في مدّ نفوذهم في أوروبا منذ الأيام المجيدة الأولى لبناء هذين الجسرين المقنطرين.

يحدوني الفضول لمعرفة انطباعاتك عن هذين الجسرين؛ لأن الجسور التركية قد لعبت دورًا في حياتي؛ ففي نفس الوقت الذي عثرت فيه على هذه الأحجار المتحدثة في مدرج الجامعة حدث موقف آخر يستحيل أن يكون بمحض الصدفة، كان بمنزلة سهم آخر يشير في خريطة حياتي إلى الطريق المؤدي إلى تركيا.

حينما انتقلت للحياة في باريس وأنا طالبة شابة، كان من الضروري أن أجد عملًا لأدفع نفقات معيشتي، وقد أسعدني الحظ بالعثور على وظيفة في شركة تقدم خدمات الترجمة لشركات الهندسة المدنية الفرنسية الكبرى؛ وهكذا عملت مع فرق من المهندسين الذين يحاولون فك شفرة وثائق فرنسية صعبة وترجمتها إلى الإنجليزية، مثل وثائق الرموز الصناعية، وطلبات العطاءات، ومعايير البناء، والمناقصات، ووثائق التشييد، وما شابه، كان عملًا رتيبًا جدًّا لكنني أحببت فيه الدقة والإتقان والوضوح؛ لهذا أشعر كثيرًا أن هذه التجربة قادتني للعمل أمينة مكتبة، عندما بدأت العمل في هذه الشركة كنت فتاة صغيرة بريئة مبتدئة،

فكنت خائفة بعض الشـيء؛ لهذا كان أول مشـروع ترجمة يُسند إليّ يعتبر خطـوة مهمـة لأثبت نفسـي وقدراتـي، وحينما علمت أنني سـأعمل على ترجمة مناقصة لتشـييد جسر شـعرت فجأة بالألفة تجاه المشروع والرغبة الشديدة في تشييد جسور بين فرنسا والدول النامية.

غيـر أن هذا الجسـر لم يكن كأي جسـر، فمن المقـرر أن يعبر واحدًا من أشـهر المجاري المائية في العالم "مضيق البوسـفور" في إسـطنبول بتركيا؛ إنه جسر جديد سيبنى شمال الجسر الأول الذي بُني عام ١٩٧٣م.

بالطبـع كنـت أعـرف جغرافيا المـكان جيـدًا، لكنني في تلـك الليلة أحضرت الخريطة ونظرت عن كثب إلى موضـع التشييد المحدد، وكانت الصدفة أن موقعه في نفس الأرض ذات الأحجار المتحدثة التي شاهدتها في الصفّ، ولـم أنس ذلك مطلقًا.

على مدار الأشـهر التالية بذلنا جهدًا كبيرًا في ترجمة وثائق هذا العطاء، التي كانت تمثل الأوراق التجارية التي ستقدمها إحدى أكبر شركات التشييد الفرنسية لهذا المشروع الدولي الضخم.

لقـد هالتنـي ملاييـن الـدولارات المرصودة لهـذا المشـروع، علاوة علـى حجـم البنـاء، وكمية المعـادن، وحمـولات المحمل، والحسـابات المتخصصة، كل هذه الأمور أربكتني، ومـع أنني نشأت في بلد كبير معتاد على تشـييد مبانٍ ضخمة، فإنني لـم أتعامل سـابقًا مباشرة مـع مشروع بهذا الحجم الهائل.

بعد سـاعات من ترجمة معاملات الإجهـاد ومعادلات تحميل الحِمل كنـت أعـود إلى منزلي ليلًا وأحضر كتابًا لدراسـة صور مضيق البوسـفور، وكنـت أحاول الإجابة عن بعض الأسـئلة التي تطـرأ في ذهني حول دوري في هذا المشـروع، أسـئلة مثل: ماذا سـيكون دور "جسري"؟ كيف سيغير

حياة الناس المقيمين على جانبيه؟ هل سأضر بهؤلاء الأشخاص كما تسحق الأبراج الضخمة أشجار الأرجوان على ضفاف البوسفور؟ هل هذا الجسر يحترم التاريخ والبيئة الطبيعية هناك؟ ما مقصد قادة البلد من إتمام هذا المشروع؟ ظللت أنظر إلى صور قديمة وحديثة، وإلى مجموعة رسوم شهيرة رسمها ميلينج تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، وحاولت استيعاب تاريخ المنطقة وسياقها.

الفرق شاسع بين الرسوم الحجرية القديمة التي تعكس صورة المياه الهادئة وقوارب التجديف الخشبية المتكاسلة، والعالم الحديث المليء بالسيارات المسرعة المكتظة بالركاب والشاحنات المزعجة الممتلئة بالبضائع.

ومع ذلك، كلما قرأت أكثر عن تركيا وتاريخها وأحلامها بدأت أفهم أن هذا الجسر ليس مجرد قناة لعبور السيارات والأشخاص، بل إنه بمنزلة ممر لنقل الأفكار والقيم؛ إنه يرمز لتقدم هذا البلد، إنه المسمار الذهبي الذي سيربط الطريق الممتد عبر القارات ليصل آسيا بأوروبا.

وهكذا بدأت أربط أهداف هذا الجسر وحجمه بالأرض التي سيُبنى عليها، حينها شعرت فجأة أنني جزء من شيء عظيم إنه ميلاد بلد قوي، وأن مشاركتي الصغيرة سيكون لها أثر في حياة الأشخاص الذين سيعبرون هذا الجسر يوميًا، في البلد الذي تستقر فيه أبراجه، وفي عالم الأفكار الذي سيسافر عبره من الشرق إلى الغرب والعكس.

شرعت أقرأ بِنَهم عن تاريخ هذا الشعب، وخاصة عن الرجل الذي سيحمل الجسر اسْمُه "السلطان محمد الفاتح"، المجاهد الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م؛ وأدركت أن هذا الجسر قُدِّر له أن يواصل مسيرة العظمة والتوسع التي بدأها السلطان، كما أن هذا الجسر سيحقق

طموحات رجال عظماء آخرين، مثل سليمان القانونيّ وأتاتورك فضلاً عن قادة الجمهورية التركية الحديثة.

أدركت أنّ شعب تركيا ما زال يتحلى بعد مرور مائتين وستين عامًا بنفس روح "الفاتح"، ولأنني نتاج بيئة غرب أمريكا المتوسط؛ تفهمت هذا الطموح وأعجبت به، أردت أن أعرف المزيد عن هؤلاء البُناة المتحمسين، وحلمت بعبور الجسر معهم.

يمكنكِ أن تري يا سيدة ماري، كيف عايشت قصة جسر الفاتح في مرحلة من حياتي؛ شعرت بصلة قرابة مع هذا البلد المتلهف لتحديث نفسه، وهذه عادتي دائمًا، فأنا أدعمهم في هذا.

تعلقت بهؤلاء الأشخاص الذين سيعبرون يومًا ما "جسري"، وتخيلت شعورهم في تلك اللحظة التي يتمكنون فيها من تحريك رأسهم لرؤية الأفق الشرقي والغربي، علاوة على شريط المياه الزرقاء الحريري أسفلهم.

أثناء عملي مع هذه الوثائق بدأت أفكر أيضًا في مشروع بناء حياتي؛ فمشروع الجسر قد أصبح المحك الذي أختبر عليه الأسئلة التي حيرتني خلال انتقالي من مرحلة الشابة المتلقية إلى الراشدة المنتجة: هل أريد أن أصبح صانعة جسور لربط الثقافات؟ هل أريد أن أساعد الناس على العبور من مكان إلى آخر؟ هل أريد أن أبنيَ بالفعل أشياء كما فعل والدي الذي امتهن البناء؟ هل أريد أن أكون مترجمة لإبداع الآخرين أم أكون أنا المبدعة؟

أفترض أنك طرحتِ نفس هذه الأسئلة على نفسك يا سيدة ماري عندما شرعت في مهنتك بوصفك كاتبة: ما الذي دفعك لالتقاط القلم في البداية؟ ما الذي شجعك وحثك على التقدم بسرعة في مساعيك الأدبية، بالرغم من القيود الاجتماعية التي كبلتك؟ أيًا كان الدافع الذي شجعك على ذلك فيبدو أنه بالنسبة لي كان الجسر التركي.

للأسـف لـم تحصل الشركة الفرنسية التي أتحدث عنها على عقد بناء جسـر الفاتـح، لكنها اسـتمرت -وكذلك فعلتُ- في بناء جسـور أخرى، ومستشـفيات في إفريقيـا، وجامعات في المملكة العربية السـعودية، لكن الحقيقـة أننـي لـم أجد أية وثائـق بين التـي ترجمتها تحمسـني وترضيني أو تمس قلبي مثل وثائق جسر البوسفور.

بعـد إتمـام جميـع وثائق العطاء وإرسـالها، كنت متأكـدة أنني قدمت أكثـر مـن مجـرد ترجمـة؛ فقد وجـدت المحك الذي سـأقيس عليـه بقية حياتـي، نعـم، لقد أردت بناء أشـياء، فضلًا عن الشـعور بالقـوة والإنجاز الناجمين عن ذلك.

نعم، لقد أردت مسـاعدة الناس على العبور من ضفة إلى أخرى على جسـر التفاهـم، والأهم من ذلك كله أنني علمت أن تركيا ستشـكل جزءًا مهمًّا في حياتي القادمة.

تحـدث الكثيـرون منـذ ذلـك الحيـن عـن جسـر الفاتـح ومـا يرمـز لـه بوضـوح مـن عناصر مختلفة للصـراع الثنائي العنيف الـذي اعتمل في قلب كل تركي قرونًا بين الشـرق والغـرب، والقديم والحديث، والدنيوي والدينـي، والأوروبي والآسـيوي، والتراث العثمانـي والرؤية الأتاتوركية، والبسطاء والعلماء، والفقر والثراء، والمدينة والريف.

ما زالت هذه الرموز تشـغل الكتّاب حتى الآن، وما زال الجسـر يكرر نفـس السـؤال الملـح: "فـي أي جانب تقـف؟" إن الكابـلات الحديدية المزدوجـة التـي تعلّـق هذا الجسـر قويـة ومرنة معًـا، مثلها مثـل القضايا الجغرافية، واللغوية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية المتعددة التي تدور الآن فـي جمهورية تركيا، لكن الجسـور في النهاية رمز القوة؛ فالشـخص الذي يتحكم في الجسر يتمتع بتفوق استراتيجي، هذا هو الموضـع الذي

اختارته إسطنبول لنفسها بمساعدة هذا الجسر؛ لتغدو الحلقة المركزية في السلسلة الأوروبية والآسيوية.

وكما ترين يا سيدة ماري؛ لهذا سألتكِ عن انطباعاتك عن هذين الجسرين في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجي، فقد كنتِ حينها مثلي ومثل تركيا -وقت بناء هذين الجسرين العثمانيين وجسر الفاتح- على مشارف حياة جديدة؛ لم تعرفي وقتها ماذا يوجد في الجانب الآخر من هذا الجسر ذي الاثنتين والثلاثين قنطرة، أو إلى أين يؤدي الطريق في الجانب الآخر، لكنك عرفت -بمجرد بناء جسر في هذا المكان- أن الجانب الآخر يستحق الوصول إليه، وهذا هو ما يجعل عبور الجسور تجربة مثيرة.

مع تحيات صديقتكم

كاثرين برانبج



جسر بويوك شكمجي ذو القناطر التسع عام ١٥٦٧م



جسر سيليفري ذو الاثنتين والثلاثين قنطرة "وما زالت القناطر كلها واضحة كما كانت في أيام السيدة ماري مونتاجيو" عام ١٥٦٨م



جسر الفاتح في إسطنبول عام ١٩٨٨م

الرسالة الخامسة

عبور الجسور

عزيزتي السيدة ماري،

وهكذا توجهت صوب بلاد الجسور والأحجار المتحدثة في صيف ١٩٧٨م.

لم أسجل بدقة انطباعاتي عن الزيارة الأولى في دفتر رحلاتي؛ ربما لأنني كنت منبهرة لدرجة تفوق تصوري، فلم أتمكن من توثيق كل شيء.

غير أنني أذكر بوضوح شعوري بالسعادة عند رؤيتي أول مسجد ذي مآذن تشبه قلم الرصاص وأنا في الطائرة فور وصولي إلى إسطنبول "الاسم الحالي لمدينة القسطنطينية التي تعرفينها".

ماذا كان انطباعكِ عن هذه المدينة الرائعة يا سيدة ماري؟ لقد وصفت أول مرة ترين فيها إسطنبول قبلي بنحو مائتين وتسعة وخمسين عامًا بالآتي:

"... وصلنا في الليلة التالية إلى القسطنطينية، لكنني لا أستطيع أن أخبركم الكثير عنها بعد؛ لأنني انشغلت تمامًا بتلقي الزيارات... قصرنا يقع في منطقة بيرا[1]، وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية تشبه ضاحية ويستمنستر خارج لندن، ويقيم جميع السفراء بالقرب منا.

يطل أحد جوانب منزلنا على المرفأ والمدينة وجناح الحريم في قصر السلطان، وعلى تلال آسيا البعيدة، ولعلها أجمل إطلالة في العالم كله!

ذات مرة قال كاتب فرنسي: " إن حجم القسطنطينية ضعف حجم باريس..."

بالطبع كان جسر البوسفور الأول من أهمّ الأشياء التي تركت انطباعًا قويًّا في نفسي، ذلك الجسر الذي بدا وحيدًا وقتئذ؛ لأن "جسري" جسر الفاتح لم يكن قد بُني بعد؛ يا له من مشهد جليل؛ فبموقعه الحيوي وامتداده يكاد يشبه جسر البوابة الذهبية، أو جسر بروكلين في بلدي!

في وقت لاحق اختبرت بنفسي شعور الفخر الذي شعر به الأتراك نحو هذا الجسر؛ ففي زيارة لاحقة لتركيا نزلت عند أسرة صديقة لي في مدينة سوادي على الجانب الآسيوي من الجسر، وذات يوم أخبرتني الأسرة: أنها قد أعدت مفاجأة لي، حينها لم أكن أفهم اللغة التركية جيدًا؛ لذا لم أعلم ما هي المفاجأة، لكنني كنت مستعدة لها. ركب جميع الأعمام، والعمات، وبعض الأبناء، وأنا، وصديقتي في سيارة قديمة من نوع "شيفروليه" وانطلقنا.

(١) بيوغلو حاليًا (المترجم).

كان يومًا شاتيًا متجمدًا والثلوج تتساقط؛ لهذا سعدت بالدفء المنبعث من تكدس ثمانية أفراد في السيارة.

حينها كانت تركيا تمر بحالة من الفقر والصعوبات الشديدة في شتاء عام ١٩٨٠م، بعد أن فُرضت الأحكام العرفية؛ ومن هنا أدركت أن حرق الوقود الشحيح في رحلة كهذه يدل على أنها رحلة مميزة جدًّا.

فور أن بدأنا الرحلة أخبروني أنهم سيعبرون بي جسر البوسفور، وقالوا: "نريدك أن تحلقي فوق المضيق كالطائر، وتشاهدي العبارات من أعلى، لتجربي إحساس العبور من قارة إلى أخرى!"

كانوا في غاية الفخر وهم يمنحون ضيفتهم هذه التجربة، وقد خانتني الكلمات حينها، ولا أحد فيهم يعرف علاقتي الشخصية بمضيق البوسفوروالجسور.

وإذا ظننت يا سيدة ماري أنّ الإطلالة من منزلك كانت "أجمل إطلالة في العالم كله"، فيجدر بك مشاهدة هذه التلال الآسيوية من أعلى الجسر على ارتفاع خمسة ومائة قدم في الهواء؛ فهكذا عبرت أول جسر لي في تركيا في تلك السيارة المليئة بالأتراك المفعمين بالحماس، خطوت خطوة رمزية مهمة لما بقي من حياتي؛ إذ شعرت بإثارة الانتماء لشيء أكبر مني.. شيء يجذبني بخيوط سحرية.

بعد عبوري الجسر لم يعد شيء كسابق عهده مطلقًا؛ فقد بدأت السير من أحد جوانب الجسر بوصفي زائرةً سائحة، ووصلت إلى الجانب الآخر وأنا أكثر من ذلك.

حينما سافرت إلى فرنسا في البداية عدت ذات ليلة في أواخر شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر إلى منزلي سيرًا على الأقدام تحت أضواء الليل،

وفـي تلـك الليلـة الخريفيـة الباريسـية غرس فـيّ ضـوءُ الغسـق المترامي على محطة قطار "مترو رو دو باك" شعورًا لن أنساه ما حييت، فجأة رأيت كل شيء بوضوح، وشعرت أنني أنتمي إلى هذا المكان، ملأني شعور بأنني مقبولة، وأنني أستطيع العثور على مكاني، وأستطيع النمو في هذا المكان، وأنني في هذه الرحلة سـأكون وسـط رِفاق، وأنني سـأتلقى دعوة للمشاركة في الحياة هناك عسى أن أقدِّم لهم شيئًا ذا بال.

شعرت أن المكث هناك والبحث عن سعادتي من حقي، وكما أحببت باريـس أحبتنـي وبادلتني الشـعور، وهذا هـو نفس الشـعور المؤكد الذي ملأني عندما عبرت جسر البوسفور.

تركيا مثلي، تتفقد مسارها مع مرور السنين، وتنمو، وتتسع؛ لقد غدت تركيـا بمنزلة جسـر لي، أو مكان آمِن فوق الميـاه الهادئة والمضطربة؛ إنها تذكرني باستمرار أنني أعبر لأذهب إلى مكان ما، وأنني دائمًا بين ضفتين: الضفة التي أنا عليها، والأخرى التي أستطيع الوصول إليها أو بلوغها.

يعلمنـي عبـور الجسـور أن أكون مسـتعدة ومتسـلحة بالثقافـة لعبور طريقـي، سـواءً هنـا أو في وطنـي، وأن أبحث عن شـخصيتي في تواريخ الآخرين المتباينة؛ لقد تركت تركيا بصمتها على حياتي كما تركتُ بصمتي على حياتها، وأنا أواصل السفر وعبور الجسور لأفهم هذا الرابط العاطفي الدائم الذي يربط شاطئي بشاطئها.

حتى يومنا هذا أجد متعة وإثارة في عبور أي جسر، وما أكثر الجسور في تركيا، لا يقتصر الأمر على الجسـرين الواقعين خارج "أدرنه" اللذين عبرتهمـا يا سـيدة ماري، أو الجسـرين اللذيـن يعبران مضيق البوسـفور، بـل ثمـة مئـات الجسـور الأخـرى التي بُنيـت على مـدار آلاف السـنين، على يد الرومان أو البيزنطيين أو السلاجقة أو العثمانيين، وهي إنَّما بُنيت لتربط طرق الاتصال والثقافة والتجارة المتفرقة.

وأنا أحرص في رحلاتي أن أعثر على الجسور وأسير فوقها، وحين أعبرها ببطء شديد أشعر أنني أستمد من صخورها القوة، وأفكر في كل الأشخاص المشهورين والمجهولين، البسطاء والمهمين، الذين خطوا نفس خطواتي؛ فالحيوانات والفلاحون والمسافرون والمحاربون والملوك والسلاطين والدراويش كلهم عبروا قبلي هذه الجسور.

من بين الجسور اللافتة التي عبرتها: "الجسر المقوس" في ضواحي مدينة سيواس، حيث تمرح كلاب الكنجال التركية على ضفتيه، وجسر "أك" الذي يقع في وسط مدينة أنقرة النشطة، وهو يعود إلى القرن الثالث عشر، وجسر "خان كيسك كبور" الطويل ذو القناطر الثلاث عشرة، و"جسر مالابادي" الكبير، وجسر "البيزنطيين" الذي يعود إلى القرن السادس ويقع خارج أسوار مدينة ديار بكر ويمكن رؤيته من الفضاء، والجسر المفضل لديّ "الجسر السلجوقي" الصغير الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات، فهذا الجسر يلهمني بجماله وموقعه وبساطته والرسالة التي يحملها؛ فقد تمكن ثلاثة إخوة يتنافسون على العرش السلجوقي أن يضعوا خلافاتهم جانبًا ليبنوا هذه التحفة الفنية الصغيرة التي تربط محور التجارة الجديد من الشمال إلى الجنوب في مملكتهم.

دعونا نحن أيضًا -حكامًا ومواطنين وأممًا- نضع خلافاتنا جانبًا لنبني بعض الجسور، ونعبرها معًا خطوة تلو الأخرى.

صديقتكم

كاثرين برانج



جسر ''هادريان'' الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات عام ١٢٥٠م



جسر البوسفور، إسطنبول عام ١٩٧٣م

صفحة فارغة

الجزء الثاني

وطـــن

صفحة فارغة

الرسالة السادسة

وطن بعيدٌ عن الوطن

عزيزتي السيدة ماري،

لم تكن هناك ولايات متحدة أمريكية وقت كتابتكِ لخطاباتك، لكنك عرفتِ بالطبع المستعمرة البريطانية غرب المحيط الأطلنطي، حيث هاجر الكثيرون من بلادك لتأسيس أعمال تجارية ومستوطنات ومزارع.

كثير من أبناء وطنك من المتحضرين وأصحاب المتاجر المتعلمين والتجار وأصحاب الحرف المهرة والمزارعين تطلعوا لحياة جديدة في هذه المستعمرات، كما أن نسل آل كويكرز الذين عاشوا شمال ميدلاندز -القريبة من بيت عائلتك "ثورسبي هول"- أقاموا مدينة شكّلت جزءًا مهمًّا من تاريخ أمريكا، إنّها مدينة الحب الأخوي "فيلادلفيا".

وقدِم الهولنديون والسويديون والألمان أيضًا، وتعلّمت هذه المجموعات من المستوطنين بعد البقاء معًا مائة عام كيفيةَ تقبل الآخر، واحترام الاختلاف في التقاليد والديانات.

وفي سبيل الحفاظ على ما يتمتعون به من ممتلكات واستقلال، ولمواجهة "الضريبة بدون تمثيل برلماني" تلك التي فرضها الملك جورج الثالث ابن الملك الذي كان في الحكم عندما سافرتِ إلى تركيا؛ قام هؤلاء "الأمريكان" بالتحالف معًا والفوز في معركة حامية لنيل استقلالهم، وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية.

لا أسرد لك كل هذا لأسخر من عدم قدرة ملككم القوي على الاحتفاظ بهذه المستعمرة، ولكن لأخبرك أن بلادًا رائعة قد وُلدت نتيجة لذلك، إنها

أول دولـة ديمقراطية في العالم بأسـره، فالمبادئ التـي قامت عليها كانت ثمارًا لجهد رجال رائعين حضر أغلبهم من الشواطئ الإنجليزية.

حينما ذهبت إلى تركيا أول مرة في صيف عام ١٩٧٨م حدث لي شيء عجيـب، شـعرت بأنني لـم أذهـب إلى بلد غريب، بل شـعرت أنني عدت إلى وطني أمريكا، ذاك البلد ذي التنوع في العادات والأعراق والديانات.

ولأنـك لا تعرفيـن أمريكا؛ فأنا واثقة أنه من الصعب عليك أن تدركي مـا أتحـدث عنـه؛ لذلك دعينـي أحاول أن أشـرح ذلك لك: أذكـركِ أنني وقت زيارتي الأولى لتركيا كنت أقيم في فرنسا سنوات، أنتِ أيضًا تعرفين فرنسـا والفرنسـيين جيـدًا؛ فقـد قضيـتِ بعـض الوقت في ليـون وباريس فـي طريـق عودتـك مـن القسـطنطينية إلـى إنجلتـرا، وكانـت لـك بعض الملاحظـات الشـائقة الصائبـة حـول المجتمـع والحضـارة الفرنسـية؛ فقلـتِ مثـلًا: "تتفوق فرنسـا على إنجلتـرا بنظافة أرصفة الشـوارع، وبناء كل المنازل من الحجارة، وأن أغلب منازل الأشـخاص رفيعي المسـتوى تزينها الحدائق"، لكنكِ لم تتحملي السـيدات الفرنسـيات، فهنّ على حدّ قولـك: "تافهات في اختيار ثيابهنّ ومتصنعـات في زينتهن"، علاوة على انزعاجك من "الإطراء الغث وقلم لوبران المتكلف".

يعجبني هذا البلد وحضارته كثيرًا، لكنني أقر أنه ليس مكانًا يسهل على غريب العيش فيه أحيانًا؛ فكثيرًا ما يشعر المرء في هذا المجتمـع بالإقصاء لاختـلاف محـل ميـلاده أو تراثـه أو ديانتـه أو مهاراته اللغويـة، بالإضافة إلى أن الثقافة الباريسية تسعى دائمًا لتحقيق الرقي والكمال.

ومـع أنني أجنبية فقد كان يُتوقـع مني أن أسير وفق نفس هذه القـواعد في السعي وراء التميز، وفي بعض الأحيان كان من الصعب تحمل ذلك.

قارنـوا معـي، هـذه تركيا بلد متسـامح ومتقبـل للآخـر؛ عندما ذهبت إلـى تركيـا لأول مرة شـعرت بالتحرر من هذا النسـيج المجتمعي الصارم،

لـم أشـعر بـأن الأشـخاص يراقبـون كل خطواتـي فـي انتظـار أن أخطئ، بل وجدتهم متسامحين وطيبين، مثلهم مثل أهل أمريكا حيث نشأت.

قد يكون من الصعب أن أشرح لك ذلك يا سيدة ماري، لكنني عندما تعرفـت إلـى هذا البلد وقابلـت أهله الودودين، أدركت أنهم سـيفهمونني لأننـا نتحدث نفس اللغة، لقد شـعرتِ أنك ذاهبة إلـى ثقافة مختلفة تمامًا عنك أمّا أنا فشعرت أنني عدت إلى وطني.

وكلما عرفت عن تركيا أكثر زاد اقتناعي أنها تشبه بلادي أمريكا على مستويات مختلفة:

أولاً علـى المسـتوى الشـخصي، نشـأت فـي عائلـة مـن الوعّـاظ والمعلميـن، ولـم أتخـل عن نظرة سـكان الغرب الأوسـط المتطلعة نحو المدينـة والأماكـن الغربية والثقافات الأخرى؛ فسـهول الغزلان الواسـعة التـي رأيتها خارج سـيواس بدت لـي كحقول الذرة والقمح الواسـعة في أمريكا، وهدير الجرارات ورائحة الطين والسماد أعادتني إلى البراري في حقل عمي في كانسـاس، أما إزنك فقد بدت مثل قرية صغيرة في أوهايو تصطف أشجار الجميز على جانبي شارعها الرئيس وذكرتني مدينة توقات بقرية من قرى رعاة البقر.

والحياة في هذه القرى تشبه الحياة في قرى الغرب الأوسـط، حيث أكوام الحبوب والجرارات والمقاهي، يمكنك فقط أن تسـتبدلي المقاهي بحدائـق الشـاي، لكـن الصداقـات المتينـة والحـوارات المتبادلـة حـول المحاصيل والضرائب ستظل واحدة.

يطعّـم النـاس في البلدين أحاديثهم بمقتطفات مـن النصوص الدينية، كمـا يتشـابهون في دفاعهم الشـديد عن القيـم المشـتركة الخاصة بالدين والعائلة، والأطفال، والأرض الجيدة، والمجتمـع، والمشاركة، والبساطة، والإيمـان بـالله وطاعتـه، وحبّ الطبيعـة، والحيوانـات، والحيـاة اليومية، والحب، والزواج، والكفاح من أجل البقاء، وفوق كل هذا حب الوطن.

السؤال الآن: هل أتيت إلى تركيا في رحلتي الأولى متحاملة على الأتراك؟ لا أعتقد ذلك؛ لأنني أمريكية ولست أوروبية، فلست متأثرة بحصار الأتراك لفيينا، بل إنّي لأذكر وقوف الجنود الأتراك جنبًا إلى جنب مع أبناء وطني في كوريا، وانحيازهم إلى جانبنا في الناتو.

مجرد النظر إلى جغرافيا البلدين كافٍ لإيجاد القواسم المشتركة بين الولايات المتحدة وتركيا؛ فأمريكا بلد كبير، وتركيا بلد كبير أيضًا مقارنة بالبلاد الأخرى في أوروبا؛ فهي أكبر من فرنسا وألمانيا مجتمعتين، والبلدان لهما جغرافيا متميزة؛ فكلتاهما تضم سبعة أقاليم متنوعة ومختلفة، وتكوينهما متشابه جدًا؛ فالشمال الشرقي، والأطلنطي، والجنوب، والبحيرات العظمى، والسهول العظمى، والشمال الغربي، والجنوب الغربي في الولايات المتحدة؛ كلُّها تشبه كثيرًا الأقسام السبعة لتركيا: هضبة الأناضول، والمرتفعات الشرقية، والجنوب الشرقي، والمنطقة المركزية، ومنطقة البحر الأسود، والبحر المتوسط، وبحار إيجه وتراقيا ومرمرة، وتركيا كأمريكا ثرية بالشواطئ والسهول والجبال وبعض الصحاري وبمناخها المتنوع، ويحيط بكلتيهما بحران، وتتعرض كلتاهما لتغيرات مناخية واسعة شديدة، بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية الخطيرة كالزلازل والأعاصير والعواصف والفيضانات والانهيارات الثلجية، والولايات المتحدة الأمريكية تمر فيها سلسلتان أساسيتان من الجبال من الشمال إلى الجنوب، بينما تمران في تركيا من الشرق إلى الغرب، والبلدان بهما أنهار عظيمة مثل: دجلة والفرات والميسيسبي وأوهايو، وكلتاهما بلد القمم الجبلية المهيبة: (أرارات، وأرجيز، وأولوداغ، وماكنلي، ورينييه)، وتتخللهما سلاسل من البحيرات (بحيرات منطقة أغيردير، والبحيرات العظمى، وبحيرات الإصبع)، وبهما حياة برية خلابة وطيور، وبهما وفرة في الموارد الطبيعية كالماء والفحم، بالإضافة إلى المحاصيل المتنوعة من الفواكه الاستوائية كالموز والموالح، وكلّ أنواع الحبوب الممكنة.

وبالنظـر إلـى تكوين المجتمـع فهناك أوجه للتشـابه أيضًا: فتركيا مثل أمريـكا تعتمد نظام الكفاءة والاسـتحقاق؛ فالمجتمـع يتكون من مواطنين وصلـوا إلـى مكانتهـم بالعمـل الجـادّ، وليـس نتيجة مـا ورثوه مـن طبقة اجتماعية أو مزايا الميلاد كما في فرنسا وإنجلترا بلدكِ.

يوفر البلـدان لمواطنيهما قدرة هائلة على الحَراك الاجتماعي؛ فقطاع الأعمـال التركـي نشِـط جـدًّا كما فـي أمريكا، ومسـتعد أن يدخـل القرن الحادي والعشـرين بخطى موازية لباقي العالـم، وتركيا مليئة بأفراد أقوياء إيجابيين ذوي إرادة، عازمين على النجاح، لا يهابون الوقوع في الأخطاء، تمامًا مثل مواطني بلدي.

لكن ربما يكون أكثر ما يشعرني بتشـابه البلدين هو ملامح السكان؛ فهنـاك أنـواع كثيـرة مختلفة من الأتـراك! لقد تركـت كل الثقافات أثرها علـى موروثـات الأطفـال الذيـن وُلـدوا هنـاك: الرومـان، والبيزنطيين، والفارسـيين، والأرمـن، والعـرب، واليونانييـن، والجورجييـن، والبـدو القادمين من وسـط آسيا، والسـلاجقة من إيران، والمنغوليين من الشرق والعثمانيين؛ فكما تتمتـع تركيا بالتنوع الإقليمي الواسـع فإنّ لديها تنوعًا بشـريًّا كألوان الطيف.

معنى أن تكون تركيًا أن تكون مواطنًا في الجمهورية التركية، فالكلمة تشير إلى الجنسية لا إلى الهوية العرقية.

الأتـراك ورثـة العـادات الثقافية الدولـة العثمانية ومُثـل التجديد التي تبناها أتاتورك والغرب.

نحـن مواطنـو الولايـات المتحدة الأمريكيـة نتفهم ذلـك؛ فكلنا أتينا مـن أماكن مختلفة بلغات وديانات وثقافـات مختلفة، واتّحدنا بهدف بناء بلد عظيم.

ليس التشـابه في سـمات الأشـخاص والأراضي فقط هو ما يجعلني أشـعر أنني فـي وطني، بل إن مشـكلاتنا متشـابهة أيضًا؛ لقـد رأيت قرى معدمة مليئة بأطفال جياع وبيوت مهدمة، فالفقر في تركيا الشرقية كما هو في أبالاتشيا، وحجم التباين بين الأغنياء والفقراء صاعق كما في أمريكا.

كذلـك واجـه البلـدان مؤخرًا كـوارث طبيعية قاسـية: زلـزال أزميت عـام ١٩٩٩م، وإعصـار كاترينـا الـذي ضرب نيـو أورلينز عـام ٢٠٠٥م، والمجتمعان يعانيان من مشكلات داخلية وعنف ونزاعات.

وكلانـا وا أسـفاه لديه مشـكلات مـع مجموعات ترفـض الانضمام لحلم الديمقراطية، ومع ذلك ما زالت أمامنا فرصة لتحقيق هذا الحلم.

لدى عودتكِ إلى الوطن كتبتِ إلى القس كونتي "لا يسعنى سوى النظر بانحيـاز إلـى بـلادي"، وذكرت أيضًـا أن جُل ما نحصل عليـه من الترحال هو "رغبة عقيمة في دمج المتع المختلفة وأسباب الراحة في أماكن مختلفة من العالم، ومع ذلك لا يمكن تحقيقها في أيّ منهم".

أمـا أنـا فـلا أعود إلـى بلادي بعد سـفري إلـى تركيا لأقـارن نقاط تفوق بلادي، وعمومًا فقد سـاعدني السـفر إلى تركيا أن أشـعر بالفخر بالإنجـازات التـي حققتهـا بـلادي والبلـد الـذي زرتـه للتـو.

إن أوجـه الشـبه بيـن البلديـن تبـرز لـي بوضـوح شـديد الـدروس التـي يمكن أن يتعلمها بعضنا من بعـض، حتى نبني مجتمعًا أفضل للأمم التي نحيا فيها، ذاك الشَّبه ساعد غريبًا مثلي أن يشعر أنه من أهل البلد.

على أية حال فالشخص الذي يشعر دائمًا أنه في وطنه بعيدًا عن وطنه مواطن أمريكي من أوهايو في بلاط السلطان عثمان.

صديقتكم

كاثرين برانتج

الرسالة السابعة

وطني الحبيب!

عزيزتي السيدة ماري،

علـى منحدر جبلـي خارج منطقة أرضروم تظهـر لافتة ضخمة مكوّنة من مجموعة أحجار مطلية باللون الأبيض على شـكل حروف، كتبها بكل عنايـة وحب جنود الجيش، ويمكـن رؤيتها على بُعد أميال، واللافتة عبارة عن كلمة واحدة: *Türkiyem* (تركيتي: وطني الحبيب).

"تركيتي: وطني الحبيب" يا لها من كلمة بسـيطة تعبر عن فخر المرء ببلاده! لا داعي لقول المزيد، فكل شخص يمكنه تفسير الكلمة كما يشاء.

حينمـا كنـت أحدق في هذه اللافتة أدركت أن لها دلالة خاصة عندي بعد أن كوّنتُ مفهومي الخاص عن كلمة "بلد".

"تركيتـي: وطني الحبيب" ليسـت تركيا التـي يعرفها ٩٩٪ من زوار تركيا وربما ٩٥٪ من الأتراك أنفسـهم؛ فهي ليسـت تركيا التي تضمّ مدنًا رفيعة المسـتوى وغنية ومصقولة مثل إسطنبول وأنطاليا وبورصة وأنقرة، بل إنها تركيا التي تضم سـهول الأناضول؛ فقلبي معلق بشـرق أنقرة.

أنتِ -كمعظم السائحين- سافرت إلى العالم الواسع المتنوع متعدد الجنسيات لمدينتي القسطنطينية وأدريانوبل "أدرنة اليوم"، وقلتِ في رسالة كتبتها في أدرنة: "إن أخلاق البشر لا تختلف كثيرًا كما يريد كُتّاب الرحلات أن يقنعونا"، ومع ذلك لم تحاولي المخاطرة بالابتعاد عن هذا الحيز العالمي الغني لاستكشاف الفرق، أو للتعرف إلى أهالي المناطق الريفية المجاورة لتلك المدن، أعتقد بشدة أنكِ كنت ستستمتعين كثيرًا لو أنكِ فعلت ذلك!

معظم السائحين يعرفون تركيا بما يرونه في إسطنبول والشواطئ الجنوبية، ولكن تركيتي مختلفة؛ إنها تركيا الواقعية التي يعيش فيها المرء على الأرض يكدح ويعمل بجد، إنها تركيا الهضاب الجافة لا تركيا الشواطئ المترفة.

من السهل الافتتان بلؤلؤة العالم إسطنبول، مبتغى كل إنسان، ولكنني وقعت في حب السهول الجرداء التي تشبه حقول وسط الغرب الأمريكي، وتعكس القوة المطلقة للطبيعة وحلم الإنسان في العمل لتحقيق المزيد، أغلب الناس ينظرون إلى هذه السهول فيرون أراضي مكشوفة مملة، لكنني أراها مساحات مفتوحة حرة لا نهاية لها كالبحر، مليئة بالآمال.

حينما ذهبت إلى تركيا لأول مرة كانت قلة من الأجانب تأتي إلى مثل هذه الأقاليم، أما الآن فالجميع يهرع إلى إسطنبول لقضاء ست وثلاثين ساعة أو العطلة الأسبوعيّة، فها هم الأجانب يملؤون أسواقها، ويعيشون حياة المغتربين بكل معالمها، وهم يتركزون في الأغلب في إسطنبول التي تعد في الواقع مركزًا حضاريًا رفيعًا لا يقل مستوى عن باريس ونيويورك.

لطالما شعرت أن إسطنبول نقطة التقاء تجمع بين سمات نيويورك والجزائر والبندقية، لكنها لا تزال منطقة حضرية خاصة بكل سماتها المتفردة.

والوضع في "تركيتي" مختلف؛ فأنا أعشق السفر إلى المدن الصغيرة حيث الأسواق المحلية وعدد محدود من المطاعم أو المقاهي.

أعتقد أن الأمريكان عندما يسمعون اسم تركيا يفكرون في مكان غامض غريب، ولا يعرفون فيها سوى مدينتين هما إسطنبول وأنقرة، لكنك قد تندهشين عندما تعلمين أن هاتين المدينتين لا تمثلان تركيا الحقيقية الكبيرة، تمامًا كما يستحيل أن تمثل مدينتا نيويورك وبوسطن أمريكا التي ترعرعت فيها، فالريف الممتد خارج المراكز الحضرية الكبيرة يكاد يكون بلدًا آخر؛ لهذا تحيّر الناس في سبب تفضيلي للقرى المبنية بالجص والسهول المتربة الجرداء على الجبال والبحر والمياه الفيروزية للبحر الكاريبي والريفييرا بل على جنوب تركيا أيضًا، ربما أكون شخصية مختلفة غريبة، لكن ثراء التجارب التي مررت بها في تلك المناطق ليس له حدود.

"تركيتي" بلد يقيم مهرجانات من كلّ لون وشكل؛ فعلاوة على المهرجانات الفنية الكثيرة المرموقة التي تُقام في مدنها الكثيرة مثل مهرجان "البرتقالة الذهبية" السينمائي في "أنطاليا" هناك مهرجانات متعددة لتكريم الفن الشعبي وأبطاله "نصر الدين خوجا، ويونس أمرهْ، وحاجي بكتاش"، أو للاحتفال بالمنتجات المحلية وتميزها مثل: مهرجان مصارعة الإبل في سلجوق ودينيزلي، والبجع في بريجيك، وحلوى "باور جام" في مانيسا، ورياضة جيريت "نوع من أنواع البولو يُمارس بطريقة الرجبي" في قونيا وأرضروم، والأفاعي في ماردين، والفراولة في بارتون، والشاي في ريزي، والمشمش في مالاطيا، والطماطم في توقات، والبندق في أوردو، والعسل في تشانقورو، والطهاة في مينجين، والخزف في كوتاهيا، ومحصول العنب في كابادوكيا، والبطيخ في ديار بكر "بلغ وزن ثمرة البطيخ الفائزة العام الماضي إلى ثمانية وتسعين رطلًا"، ومصارعة الثيران في أرتفين، والتين في جيرمينجيك، والفحم في زونجولداك، ورقص الدراويش "المولوي" في قونيا؛ لا شك أن هذه المهرجانات تتفوق على مهرجان ولاية أوهايو بفرق شاسع.

في ''تركيتي'' لا ينتظرني البحر، أو المنتجعات، أو الأندية الراقية، أو أشخاص رائعون يرتدون أثواب السباحة، أو أندية الرقص، أو منحدرات التزلج، بل إن السحر يكمن في أشياء أخرى؛ إنه يكمن في المنازل الخشبية، والمراعي الجبلية، وأشرطة النذور المربوطة في الأشجار، وينابيع المياه المتدفقة على جانب الطريق، والشعراء الغنائيين والدراويش، والجسور المُحْدودبة، وأحواض المياه، والغابات والأنهار الجارية، وعازفي "الساز"، والطيور المغردة، وأيام وجبات الأرز اللذيذة، واحتفالات الختان، والنوافذ والمداخل المليئة بالأزهار المزروعة في علب زيت زيتون فارغة، وأبراج الساعات، والمطاعم ذات الغرف الخاصة بالنساء، وحدائق الشاي المظللة بتعريشات العنب، والنساء اللاتي تبذرن البذور في الحقول أو تفرزن المشمش أو البصل، والمنازل ذات الهياكل الخشبية، والأودية الخضراء الخصبة، والكِلِيم المغسول وقد وضِع في الهواء ليجف، والستائر اللاسيه، والنساء المحجبات، والأبواب المصنوعة من الطوب المحفور، والأصوات الخافتة، والنوافذ المظللة بالمشربيات، والسهول المتربة، والأسقف المكسوة بالآجر، والحدائق المسوّرة التي تتسلق جوانب التلال، وحافلات القرى المكتظة بالأطفال والحيوانات وحقائب البطاطس والإطارات الاحتياطية أو أجزاء المعدات، والبحيرات المالحة في منتصف السهول الجافة، واللحم المشوي على أوراق العنب والغار، والعامل الذي يسير وحيدًا على حافة الطريق وبيده حقيبة أدواته، والأسقف الخشبية المحفورة والمطلية، والعربات التي تجرها الخيول، والينابيع الساخنة، والكهوف، والمزارعين المتأرجحين في الشاحنات في طريقهم إلى الحقول، والفتيان والفتيات الذين يكررون آيات القرآن ليحفظوها عن ظهر قلب، ومساقط المياه، وأصوات الطبول العالية المعلنة عن حفل ختان أو زفاف، ومستنقعات القصب، والجرارات والعربات

التـي تجرها الحمير، وحقـول البطيخ والطماطم، والمـدن المزينة بالقلاع والحصـون التي تعلوها أعـلام خفاقة برمز الهلال، والهدوء الشـديد الذي تكاد تلامسـه بيديك، والذبـاب الطنان، والكِلِيم الملـون بألوان قوس قزح المشرقة الذي يغطي أرضيات المساجد، وكبار السن المتكئين على العصي فـي طريقهـم إلى نادي القريـة للقاء أصدقائهـم، والأرصفـة المنثور عليها لب دوار الشـمس، وتربة الجنوب الشـرقي السـاخنة الملتهبة، والأحداث العائليـة المفجعة، وحفلات الزفاف الرقيقـة، والأغصان القصيرة، والتراب الأصفـر، وحافـلات نقـل الـركاب داخل القـرى المنطلقة سـريعًا، وخرير الأنهـار، والمناظـر الخلابة المتعاقبة في الطرق الجبليـة الملتفة، والأخرفة مجزوزة الصوف أو مذبوحة، وتسـاقط الثلوج بسـرعة وكثافة تسد الشوارع في ساعات قليلة، والدراويش والبكتاشيين، والرجال الذين يقضون ساعات في رسـم آيات من القرآن بالخطوط العربيـة المزخرفة، والمنازل العثمانية ذات الهيـاكل الخشـبية، والطرقـات المرصوفـة بالحصـى التـي سـار فيها جنود الحيثيين والفرس واليونان والرومان والسـلاجقة والعثمانيين وجنود أتاتورك، والسهول الذهبية المترامية عبر الأفق، والينابيـع الساخنة، والهزات الأرضية، والتاريخ الذي يطل عليّ من وراء كل حجر، والأسواق الأسبوعية الصاخبة، وقمم الجبال المكسـوة بالجليد، ومتاجر الحلوى والمكسـرات، وغابـات التَّنُّـوب الكثيفة، والشـعاب الجبليـة، وأبراج المقابـر المخروطية المليئة بالأضرحة المخضرة، وأسـواق الخضراوات المفتوحة، والأسـواق المسقوفة، والشوارع الخلفية التي تعج بالنجارين والحدادين وصنّاع السرج والسـباكين، وكلاب الرعـي الكنجال بلون السـهول التـي تلاحق الخرفان مغبـرة اللون، وبيوت الطيـور المليئة بالنُّحَام الزهري، والأفق الذي تغشـاه الحـرارة، وقطعـان الغنم عريضة الذنب وتراها ترغو، وطيور السـنونو التي تهبـط سـريعًا، والأطلال المهجورة، ورؤية البحيـرات الزرقاء المتلألئة من

أعلى الطريق، والنساء اللاتي يراقبن الطريق من مقاعدهن خلف إطارات النوافذ الغائرة، والمقابر المليئة بالشواهد العتيقة المتهدمة، والسهول متناثرة الأجمات، والغابات شبه القاحلة، والنساء الكرديات اللاتي يرتدين ملابس بألوان الزهور البرية المذهلة، والمروج الواسعة حيث تركض الخيول والأمهار بِحُريّة، وشجيرات الزهور المتفتحة في كلّ مكان، وثمار التوت الأبيض الطازجة، ورائحة الدم والخبز الطازج والتراب والسماد وقشر البطيخ، والمنازل المشيدة بالخشب، والحجارة، والطوب اللبِن، والتلال الخضراء المتقاربة، والخيام السوداء والأخرفة البيضاء، والبدو الرُّحل وأصحاب المتاجر، والسهول المنخفضة الممتدة إلى سلاسل تلال لا تنتهي، والمنازل ذات الأرضيات الترابية المضغوطة، وأسراب الإوز أو الأغنام المتهادية التي تسد الطرق، ونقطة التقاء السماء بالأرض، وورق الإعلانات الصغير المصفر الخشن، وعصير المشمش الطازج، وتسلق الشعاب الجبلية، ورؤية البانوراما الكاملة للوحة السهول الخضراء المرقعة من الأعلى، والرائحة المنبعثة عن اشتعال السماد، ومذاق الماء من كوب مملوء من نبع متدفق على جانب الطريق، والبدر الكامل الذي يبدو حجمه وضوؤه ضعفهما في أي مكان آخر في العالم، والمناشف المعلقة أمام متاجر الحلاقين لتجف، والخيل المكتسية بمنسوجات مطرزة وخرز أزرق، والجسور القديمة، وتيجان الأعمدة الساقطة، والكهوف الغامضة، وآثار الحضارات البائدة منذ ألفي عام، ومظاهر الطبيعة ذات الأصوات العالية مثل الضفادع والحشرات والطيور والمياه الجارية، والمزارعين الكادحين، والحقول البنية التي تتناثر فيها أزهار دوّار الشمس الصفراء وثمار البطيخ الأصفر، والزوابع الترابية، والمدن التي يوجد فيها طريق تصطف على جانبيه سلسلة من المباني القديمة التي تعود إلى ثماني مائة عام ومبانٍ سكنية إسمنتية حديثة، والمدارس المكوّنة من فصل دراسي واحد، وأبراج تخزين

الحبوب، والجمعيات التعاونية الزراعية، والسهول الشاسعة جدًّا ولا تتسع لها عدسة الكاميرا متسعة الزاوية أو لا يمكنني رؤيتها كلها بنظرة واحدة.

هـذه هـي "تركيتـي" التـي أحبّهـا حبًّـا جمًّـا، البعيدة عن إسـطنبول المتحضرة الرفيعة المسـتوى، كيف تستطيع الشواطئ المحمومة وملاهي الرقص المليئة بالأجانب أن ترقى لمسـتوى إثارة أيّ مما ذكرت؟ يا سـيدة مـاري، أتمنى لو اسـتطعت أن أكون مرشـدتكِ في أرجـاء "تركيتي"، أنا واثقة أنك كنتِ ستعشقينها كما أعشقها.

صديقتكم

كاثرين برانج



صفائح زيت الزيتون



منزل شاكر أغا العثماني، بيرجي عام ١٧٦١م



سوق عثماني، أماسيا



الأم وبنتها، منطقة جاي



نزل "تاش خان"، أقشهر عام ١٢٥٠م



مشهد من الشارع، بورصة



عبور جسر كوش في أماسيا



حارس القبر، ألانيا



مشهد من الشارع، إزنك



بطاقة بريدية من عام ١٩٧٨م



يوم السوق، منطقة شاي



شارع الأطباء قسطموني



مشهد الغروب على بحيرة بَيْشِهير



مشهد من الشارع، كوتاهيا



منبع نهر الفرات، بالقرب من أرزينجان

الرسالة الثامنة

تبنتني عائلة تركية!

إلى سعادت صوباشي هانم أفندي

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة أمر يتعلمه المرء سريعًا جدًّا في تركيا، ألا وهو أن البلد لا يديره ساسة الحكومة أو أباطرة الأعمال أو الشيوخ على مآذنهم العالية، بل تديره الأسرة، لن تصادفي مجتمعًا آخر يتسم بقوة وتماسك الروابط الأسرية في تركيا.

إن تماسك الأسرة أفضل سمة في أي مجتمع مهما كان مركزه على سطح الأرض، لكن الروابط الأسرية في تركيا أقوى منها في أي مكان آخر، إنك لَتجد كل أسرة تُدار كأنَّها شركة مصغرة.

إن القيم الأسرية طريقة حياة وليست مجرد كلمات تتكرر في الخطاب السياسي أو الديني كما هو الحال في بلادي فالأسر عندنا أكثر تحررًا وتفككًا.

لقد اختبرت هذين الهيكلين الأسريين بنفسي يا سيدة ماري؛ فأنا أنحدر من أسرة مسيحية مترابطة من الغرب الأوسط، ومع أن والديَّ كانا يتيمين فإن العمات والأعمام وأبناء العمومة كانوا بمنزلة مجموعة مترابطة سعيدة؛ ففي أيام الآحاد بعد القدّاس كان اثنا عشر شخصًا منّا على الأقل يلتفون حول مائدة أحدنا في "دعوة الأحد" الكبيرة، ومقابل هذا لي أصدقاء كثر علاقتهم بأسرهم غير وثيقة.

سيدة ماري، لقد تحديت والدكِ وهربت مع السيد ورتلي، أما أنا فتركت أسرتي في سن مبكرة لأعيش في الخارج، نحن الاثنتين نشأنا في ثقافات تشجع الأطفال على الاستقلال عن أسرهم منذ الصغر، والآن أعيش في مدينة تبعد ألف ميل عن أقرب قريب لي؛ لهذا قد يكون من الصعب علينا أن نفهم الروابط الإسمنتية التي تربط الأسر التركية.

لقد حالفني الحظ "وتبنتني" عدة أسر تركية، فأتاح هذا لي الفرصة أن أقارن بين أوساط الأسر التركية والغربية.

للأسف لم يحالفكِ الحظ مثلي يا سيدة ماري، صحيح أن الجميع استقبلك بالترحاب في بلاط وقصور السلاطين والحريم والسفراء، لكنك لم تجلسي حول مائدة الإفطار مع أفراد أسرة تركية، ولم تشاركيهم جلسات احتساء الشاي وسرد القصص، ولم تتح لك الفرصة لحمل أطفالهم الرضع بين يديك، وهكذا حُرمت من جزء كبير من تركيا.

شعرت أنا أيضًا بالترحاب والاحتفاء من عدة جوانب في منازل صغيرة مكونة من غرفة واحدة كما شعرت أنت في صالونات الباب العالي، وكثيرًا ما يكون الاهتمام الذي تحيطك به الأسر التركية هائلًا أحيانًا، إنّه شعور رائع.

مـا سِـرّ قـوة الروابـط الأسـرية فـي تركيـا؟ أعتقـد أن هـذا راجـع إلـى إحسـاس الأتـراك العالي بمعنى الأمّـة "*ulus*"، والشـعور بالتحالف القبلي الذي ورثوه عن أسلافهم الأتراك.

والأمـة تنظيـم مجتمعـي يحـدد وظائـف كل الأشـخاص الأتـراك: مثل التنظيم الإداري، والهيكل، والوظيفة، والسياسة، وأنماط حركة الرعي والهجرة، والقوات العسكرية، والخلافة، والسلطة.

مفهوم الأمة هو ما سـاعد الأتراك علـى الهجرة بنجاح إلى الأناضول وتأسيس الدولة السلجوقية نواة تركيا الحديثة.

أما مفهوم الأمة اليوم فتمثّل في شـكل كل أسـرة على حدة ، وقادتها هم الآباء الأتراك المعروفون باسم "بابا".

فـي هـذا الكَيان تجديـن كلّ العلامات المميزة في الحيـاة –كالميلاد والختـان والـزواج والوفاة– منظمـة كما كانت في أمـة الماضي، وتميزها طقوس محكمة ومكثفة، فالأسرة التركية الحديثة التي يديرها الأب ضاربة بجذورها في تقاليد "الأمة".

مظاهـر التبجيـل المطلق للوالدين في تركيا مقدسـة كقدسـية أي أمر قرآنـي، فرجـل الأسـرة أو "بابـا" يُعامـل باحترام شـديد وخضـوع، يليه فـي السـلطة الابن الأكبر "آبـيّ: أخي الكبيـر" الذي يكـون بمنزلة نائب عـن الوالـد في غيابه، وهـذا الابن لا يُناديه إخوته وأخواته باسـمه مطلقًا، بل دائمًا ما يُنادى بلقبه "آبي: أخي الكبير".

ثمة أسـماء أخرى تُطلق على مختلف أفراد الأسرة، تعتمد على درجة قرابتهم، سواءً كانت من جهة الأب أو الأمّ؛ فلن تجد في تركيا أحدًا يُدعَى "العم" أو "العمة" أو "أخا الزوج" فقط، بل يحصل كل فرد في الأسـرة

على لقب دقيق يلتصق به، ويحدد دوره في الأسرة.

وهـذه المصطلحات المختلفة التي تصف علاقات القرابة من أصعب التحديـات فـي تعلم اللغة التركية وفهم الثقافة؛ فهناك أربعة ألقاب لأخت الـزوج وحدها! وهكذا يا سيدة ماري، يمكنك أن تـري أنه ليس مجتمعًا مفككًا.

إن الرباط الذي يجعل الأسـر التركية متماسكة لهذا الحد بسيط جدًّا، هو الحب والاحترام.

فـي الواقـع إنّ هاتين الكلمتيـن المهمتين اللتيـن تعلمتهما في بلدي تشـكلان أساسًـا كاملًا للثقافة التركية بأوسـع معانيها، تسـعى كل الأسـر جاهـدة لتدريـب أبنائهـا علـى هاتيـن القيمتيـن المهمتين: احتـرام الكبير والعطف على الصغير، فظاهرة تقبيل أيدي الوالدين والأقارب كبار السـن شائعة في تركيا، وطقوس تقبيل يد الكبير التي تتضمن الانحناء وتقبيل اليد ثم رفعها لتلامس الجبهة من أكثر الدلالات المؤثرة التي رأيتها في حياتي.

تسـعى الأسـر التركية كما في ثقافات عدّة لتوفير كل الفرص المتاحة لأطفالها، حتى إنها تبذل في سـبيل ذلك جهدًا كبيرًا، ويسـعدني أن أعلن أن أقـوى حافـز يحرك الآباء الأتراك هو ضمان حصول أبنائهم على تعليم جيد، فالآباء مستعدون لفعل أي شيء لتوفير هذه الفرصة لأبنائهم، فمنهم من يشـغل عدة وظائف ويعمل طوال الوقت لكسـب المال اللازم لشـراء الكتب، وحقائب المدرسـة، وتوفير نفقات الـدروس الخصوصية الباهظة اسـتعدادًا للاختبـارات، ودفـع مصروفـات المـدارس الخاصـة، أو حتى إرسال الأبناء للدراسة في أمريكا؛ وهو حلم كل والد.

يساهم الأخ الأكبر "آبي" أيضًا في مساعدة إخوته وأخواته الصِغار، ويتشرف بدفع نفقات دروس أخته من ماله الخاص بدلًا من شراء أغراض شخصية لنفسه.

علاوة على ذلك يؤمن الأتراك بقوة بأهمية الشهادات العليا؛ والأسر مستعدة -خاصة أسر الطبقة الأرستقراطية- لإرسال أبنائها للخارج للدراسة، ويشارك في هذا التشجيع التعليمي كل أفراد القرية، وإذا كان أحد الأبناء لا يتمتع بالقدرة أو المهارة التي تؤهله للالتحاق بالجامعة فإن أسرته تحرص على مساعدته في تأسيس عمله الخاص، بل تبحث له أيضًا عن شريكة حياة مناسبة.

ذات مرة كنت أزور مسجدًا في بُنيان فدنا مني شخص وبدأنا نتحدث، ثم ذهب إلى بعض الأطفال المتحمسين الواقفين على مقربة منا وقال لهم: "أترون! إنها أمريكية وتتحدث التركية! ماذا تفعلون أنتم لتكونوا متميزين؟ انصرفوا وعودوا إلى منازلكم لتذاكروا!".

ومن الملاحظات الأخرى أن أفراد الأسر التركية متلاحمون ومترابطون بشدة؛ فهم يتصلون عدة مرات بعضهم ببعض على هواتفهم النقالة فقط للاطمئنان وسماع صوت القريب المحبوب، وهم يعسكرون في غرف المستشفيات عندما يمرض أحدهم، ويراعون المريض بطريقة تعجز عنها الممرضات المنهكات، كأن يراقبوه ويغسلوه وينظموا مواعيد تناوله الدواء، إنها الرعاية الطبية النابعة من الحب.

ولا أظن أن أشخاصًا كهؤلاء يفكِّرون في أهمية مجموعات الدعم أو فكرة التمريض الخارجي؛ لأن الأسرة تتولى مسؤولية هذا الدور في عملية الشفاء.

ومن العادات السعيدة الأخرى التي أستمتع بحضورها حفلات الختان، فبعد عامين من مغادرتكِ إسطنبول يا سيدة ماري أقام السلطان أحمد الثالث -الحاكم حينها- واحدًا من أكبر الاحتفالات في التاريخ العثماني؛ إنه احتفال مشترك بختان أبنائه الأربعة، استمر الاحتفال خمسة عشر يومًا، واشتمل على مواكب استعراضية، ومفرقعات، وسباقات بالقوارب، وعزف، ورقص، وسباحة، من المؤسف أنك لم تشاهدي كل ذلك!

صحيح أن احتفالات الختان اليوم كبيرة وتُجرى في فنادق فاخرة، إلا أنني أستمتع أكثر بالاحتفالات المتواضعة التي تُجرى في نطاق الأسرة، فأي صبي يبلغ الثامنة من العمر تقريبًا يحظى بهذه الطقوس الخاصة بهذه السنّ، وتحرص الأسر على الاحتفال بذلك حتى تكون مناسبة لا ينساها الصبي مطلقًا، فيلبسونه زيًّا تقليديًّا مزركشًا ويغرقونه بالحلويات والهدايا.

وإذا كانت إحدى الأسر أفقر من أن تتمكن من إقامة حفل لابنها تكفل بالحفل أحد الأثرياء المحليين أو تتحمل المدينة نفقات الحفل؛ لذا كثيرًا ما يسمع المرء في أيام الآحاد من فصل الصيف أصوات أبواق السيارات، ويرى صبيانًا سعداء متأنقين مع أسرهم في زيارات للمواقع المقدسة في طريقهم لحفلات الختان.

أما أكبر دليل على قوة روابط الأسرة التركية فهو مائدة الإفطار؛ قدّمتِ وصفًا في إحدى رسائلك لمأدبة عشاء مع السلطانة، لكنني أؤكد لك أن مائدة الإفطار في تركيا تحظى بنفس القدر من الاهتمام ومراعاة التقاليد، فوجبة الإفطار في تركيا تحدد مسار باقي اليوم، يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، والحبّ يملأ المكان، وكل ثمرة زيتون على المائدة تبشر بالخير الذي سيعمّ اليوم وبالسعادة التي ستنتشر فور رفع المائدة، لا أحد يأكل وحده، ولا أحد يشرب فنجانًا من القهوة ويتناول قطعة خبز محمصة في الطريق إلى الخارج.

لا أحـد يبـدأ يومـه بدون جرعة مـن الحب، ولا أحد يبـدأ يومه دون المشـاركة في مظهر من مظاهر الترابط الأسـري، وموائد الإفطار الفاخرة في الفنادق التركية ليسـت سـوى امتداد لهذه العادة الأسـرية، وسـتجدين أن أكثـر الفنـادق تواضعًا فـي أفقر الأحياء تقدم وجبـة الإفطار بكل عناية واهتمام وحب.

قد يكون "بابا" هو من له الأمر في الأسـرة، لكن الأطفال في الواقـع هـم أصحـاب الكلمة الأخيرة؛ ذلـك أن الأتراك غارقون فـي حب أبنائهم ويدللونهم ويسمحون لهم بفعل أي شيء.

إن أوّل سؤال يُوجّه إلى أي امرأة هو "كم طفلًا لديك؟" كما أن قبور النساء العثمانيات مزينة بنقوش أزهار، ترمز كل زهرة إلى كل طفل ولدته المرأة، وفي القرى تُزرع شجرة كلما وُلد طفل.

أتعلميـن أن تركيـا هـي البلد الوحيد فـي العالم الـذي يخصص يومًا رسـميًّا للاحتفـال بالسـيادة الوطنيـة للأطفـال؛ ففـي كل عام فـي الثالث والعشرين من شهر نيسان/أبريل تستضيف تركيا عدة مهرجانات وفعاليات لتكريم الأطفال وضمان مستقبلهم وحريتهم ورفاهتهم.

ينتشر الأطفال في كل أنحاء تركيا، فنسبة ٧٠٪ من السكان تحت سن خمسـة وثلاثين عامًا، وبوجه عام كل الأطفال سـاحرون بأعينهم الواسعة وابتسـاماتهم العذبـة، وهـم دائمًـا يتلقون الأحضـان والقبـلات والرعاية والمداعبة.

أخبرنـي بسـتاني تركـي ذات مرة أنه اختـار هذه المهنـة بالذات؛ لأنه شـعر أن الأزهار كالأطفال، كل زهرة مختلفة وجميلة وتحتاج إلى الحب والرعايـة، ففكـر أنـه لا يوجد فـي الحياة عمـل يبعث على السـعادة أكثر من عمل البستاني.

يتسم سلوك الأطفال الأتراك بالانضباط بوجه عام؛ سافرت في رحلة بالحافلة مدتها ثماني ساعات ويجلس في المقعد خلفي طفل في الثالثة من العمر ولم أسمع صوتًا طوال الرحلة، فالأطفال الأتراك لا يثيرون الجلبة في الأماكن العامة، بل يجلسون في هدوء مع ذويهم دون الحاجة إلى ألعاب أو أشياء لشغل انتباههم أو تسليتهم، بل يتعلم الأطفال الاعتماد الكامل على الذات منذ سن مبكرة، وهي من أعظم الميزات، ولا يمر يوم دون أن تـرَيْ مجموعة أطفال تلعب كرة القدم، ففور أن تتوفر مساحة كافية وكرة يبدؤون اللعب، وقد تكون الكرة مجرد حجر أو قصاصات أقمشة بالية ملفوفة معًا، وقد رأيت أطفالًا في القرى يلعبون بعصي، وقطع من حبال، وقشر جوز، وأحجار، مبتكرين ألعابًا خيالية تؤنسهم لساعات.

عندما يغدو الأطفال الأتراك مراهقين غالبًا ما يحتفظون بنفس الرقة والعذوبة؛ ويندر أن ترَيْ شبابًا يضحكون بصوت عالٍ، أو يلقون النكات الخارجة، أو يتبادلون السباب، أو يتدافعون، أو يتعاركون، أو يتصرفون بشكل غير لائق على الملأ.

والكلمة التركية التي تصف الشباب هي "*delikanlı*" وتعني "صاحب الدم الحامي"، لكن تجربتي مع المراهقين الأتراك أثبتت أنهم في قمة الأدب، غير أن هناك مجموعة من الشباب اليافعين المزعجين الذين لاحقوني باستمرار، وأصروا أن يرشدوني في تركيا بحجة تحسين لغتهم الإنجليزية، أحيانًا يكونون مزعجين جدًا ويرفضون الابتعاد، بالطبع يصعب عليّ تجاهل هذه الرغبة الحماسية في تقوية اللغة، وأرضخ في النهاية وأقضي معهم بعض الوقت، لكنه يكون أمرًا مرهقًا ومزعجًا عندما يزيد عن حده، فكلما قضيت وقتًا مع أحدهم يظهر غيره، لكنهم لا يتسببون في أي أذى.

ثمة موقف حدث مع بعض الفتيان المراهقين في إسطنبول من شأنه أن يسلط الضوء على طبيعة الشباب الأتراك وتربيتهم: ركبت القطار المعلق ذات مرة لصعود التل، وكانت هناك مجموعة من المراهقين الصاخبين يجلسون في العربة يضحكون ويمزحون ويتدافعون، وكان المقعد الوحيد الشاغر يتوسطهم؛ فذهبت لأجلس فيه لكن رفيقتي في السفر قالت: "كلا! لن أجلس بجوار هؤلاء المزعجين" لكنني ذهبت لأنني كنت أشعر بالحرارة وأكاد أفقد وعيي، ولم أعتبرهم سوى مجموعة من الصبيان يتصرفون كعادتهم.

بعد أن جلست تحدث أحد الفتية لزملائه بصوت منخفض قائلًا: "هلّا هدأتم! ألا ترون المرأة الأجنبية الشقراء التي تجلس بجوارنا، من الأفضل أن نحسن التصرف بدلًا من أن تأخذ انطباعًا سيئًا عنا"؛ بالطبع لم يعلم الفتية أنني أتحدث التركية وأفهم كل ما قالوا، ولم يعلموا مدى امتناني لهم لأنهم يعرفون كيف يحسنون التصرف في الأماكن العامّة، خاصة عند وجود ضيف أجنبي.

يستمتع الأتراك بكسب الأصدقاء أكثر من أي عمل آخر، يفعلون ذلك بدعوة الشخص للانضمام للأنشطة العائلية كأنّه فرد من العائلة، وقد نزلت ضيفة على عدد من المنازل التركية، وشعرت في كل واحد منها أن الأسرة تبنتني، ربما أنزل عندهم فترة بعد الظهيرة أو يومًا أو أسبوعًا، كانوا يشعروني دائمًا أنني جزء من حياتهم، وكانت أكواب الشاي المتعاقبة تمهد الطريق دائمًا لهذا الشعور بالمؤاخاة.

على سبيل المثال قضيت فترة بعد الظهر ذات مرة أشاهد الصور الفوتوغرافية بصحبة أسرة القائم على دير دراويش إقليم أماسيا، وقضيت يومًا أقشر الجوز في ساحة دار عثمانية عمرها مائتا عام خارج قسطموني

بصحبة مزارع وأسرته، وفي نهاية اليوم ساعدت ابنته في إعادة الأبقار من المرعى إلى الحظيرة في الطابق الأرضي من المنزل، وقضيت يومًا آخر بصحبة جدة تعيش في منزلها خارج مدينة كيرشهير، وقدمت لي الأسرة خبز الشابورة المخبوز حديثًا مع الشاي، وتلقيت دعوة لمنزل حارس متحف في مدينة سافرانبولو، جمعت لي زوجته ثمار التين الطازجة من الحديقة لأتناولها مع الشاي.

وعندما تحين لحظة الرحيل تكون الطقوس متشابهة؛ إذ نتبادل العناوين حتى نظل نتبادل الرسائل والهدايا والأخبار والصور، أو أظل أتذكرهم في أفكاري ودعواتي، وقد بكى البعض عند رحيلي، وبعض النساء سكبن الماء على درج الباب تيمنًا بأن تسير رحلتي بسلاسة كسيلان الماء، وقدم لي البعض هدايا وزهورًا عند ركوبي في الحافلة؛ إن أسرتي الحقيقية لا تغدق عليّ بمثل هذا الحب والاهتمام، هل تفعل أسرتكِ ذلك يا سيدة ماري؟

هل تصدقين أنني كدت أصبح فردًا في أسرة تركية في نيويورك؛ تأمّلي: ذات مرة وأنا في المطار طلبت مني امرأة تركية لا أعرفها من قبل أن أعتني بابنها البالغ ستة عشر عامًا في رحلته الأولى إلى تركيا.

أما أقرب الأسر التركية إلى نفسي فهي الأسرة التي تبنتني واعتبرتني ابنتها الكبرى "أبلة"؛ إنها أسرة محسن إلياس صوباشي في قيصري، منحتني الأسرة اسمًا تركيًا وعاملتني باحترام واهتمام ومراعاة أكبر مما تلقيت أنتِ خلال زياراتك الدبلوماسية الرسمية يا سيدة ماري، أصبحت واحدة منهم وصديقة لهم، وتعرفت برب الأسرة عن طريق رسالة كهذه؛ إذ أرسلت إليه لأثني على الكتاب الذي ألفه حول تاريخ قيصري فردّ عليّ، وعلى الفور بدأنا نتبادل الرسائل حتى استقبلني في منزله، وهو منزل هادئ وجميل يقف عاليًا بين التلال خارج قيصري، يستقبل النسيم البارد، ويطل على الفوهة البركانية لجبل أرجييس.

والمنزل تعمه السكينة، ولا تُسمع فيه أصوات مزعجة أو موسيقى صاخبة أو حتى صوت التلفزيون؛ إنه بيت رجل نبيل "أفندي" يمتلك سبعة آلاف كتاب، ويحتفظ بها بعناية شديدة في مكانها المخصص في الطابق الثالث بمكتبه.

يقع المنزل في منتصف حديقة تزخر بأشجار الكرز والتفاح والمشمش والفواكه المزهرة، بينما تفيض أحواض الخضراوات بثمار الطماطم والفلفل.

والمنزل بالكامل مفروش بأثاث مريح وبه مساحات خالية وإضاءة جيدة ومزهريات رائعة، أما نساء المنزل فهن نساء قويات، فزوجته وبناته الثلاث يشرفْن على كل شيء، ويدرن المنزل كأنّه مصنع زُيِّتتْ آلاته جيدًا فهي تعمل بكفاءة وسلاسة.

وأوّل ما يراه المرء عند مدخل البيت ثلاثون زوجًا من الأحذية مختلفة المقاسات بانتظار أي ضيف ليلبسها ويدخل، وكثيرًا ما يزورهم الجيران لاحتساء الشاي أو القهوة وتبادل الأخبار والقيل والقال.

وقد شيدت الابنة المتزوجة بيتها بجوار بيت الأسرة، واعتاد زوجها أن يحضر للأسرة هدايا خاصة يحضرّها بنفسه، مثل البهارات المطحونة حديثًا وأوعية اليخنة الكبيرة التي تكفي لإطعام الإنكشاريين كلهم.

في هذا البيت تُسرد أبيات الشعر بعد العشاء بحضورهم جميعًا، وفيه يشعر الجيران بالترحاب الشديد فيقطعون الحديقة سيرًا على الأقدام في طريقهم إلى منازلهم.

إنه بيت منظم لن تجد فيه شيئًا مهملًا أو في غير مكانه أو صحنًا غير مغسول، في هذا المنزل يتم تحضير الوجبات الضخمة، وخاصة وجبة

قيصـري الشـهيرة "فطائـر اللحم" (الرافيولـي التركي)، فـي مطبخ مجهز جيدًا، وتقوم البنات بتقديمها بكياسة على صينيات رقيقة.

إنـه منـزل يتـم فيـه تقديـم خمسـة عشـر طبقًـا تحـت تعريشـة عنب في الحديقة خلال وجبة الإفطار في الصباح مبكّرًا؛ لذا فهذا المنزل أجمل مـن أي قلعـة مـن قـلاع إنجلترا يا سـيدة مـاري، أو أي قصر مـن قصور السلاطين التي زرتها.

إنـه منـزل ينبض بالحياة تسـكنه أسـرة متحابة؛ وهذا مـا يجعله منزل الأحـلام، أصبـح لـي فيه مـكان بفضـل طيبة الأسـرة التركية التـي تبنتني وعاملتني فردًا من أفرادها.

صديقتكم

كاثرين برانج



الإفطار مع سعادت هانم في قيصري



صبيان وكلاب الكنجال التركية، نكسار



مراسم الزفاف في توقات



احتفال عائلي بالختان، أنقرة



عربة خيل مطلية، بازار



قرية اليوروك



أول يوم في الدراسة، إغيردير أيلول/سبتمبر عام ١٩٩١م

الرسالة التاسعة

السر في اسم عظيم الشأن

عزيزتي السيدة ماري،

أنـت تحملين لقب "ليدي" (سـيدة) بصفة رسـميّة؛ فأنـت ابنة مالك مزرعة إنجليزي وزوجة سـيد نبيل، عندما سـافرتِ إلى تركيا أخذت معك لقبكِ الذي اكتسـبته بفضـل ميلادك وتراثك ونشـأتك وثروتك وتعليمك وعلاقاتك؛ فتفتحت كل الأبواب في وجهك فورًا بسـبب منزلتك العالية، ومعارف زوجك السياسيين، وجواز سفرك الدبلوماسي.

لقـد منحـك لقـب سـيدة بكل مـا يحمل معه مـن تراث ميـزة خاصة سـبقتكِ قبل أن تعبري الحدود وتجذبي الأنظـار إليك؛ ناداكِ الكل بلقب "السـيدة" أينمـا ذهبـتِ كما اعتـدت أن يفعل الناس جميعًا فـي إنجلترا، لكن لعلك لم تنتبهي أن لقب "سـيدة" لا يمنحك ميزة خاصة في تركيا، لأن كل امرأة هناك "سيدة".

وأنا أيضًا "سـيدة" في تركيا، سـيدة تختلف عنك إلى حدٍّ ما، لكنني سـيدة بالرغـم مـن ذلك؛ لـم أولـد لمالك مزرعـة، لكنني اكتسـبت النبل من كوني امرأة؛ فالأتراك يضعون كل النساء في مرتبة خاصة، منذ أيام إلهة

الأمومـة لدى الحيثيـين، وعندما يخاطبك أحد يتوجه إليك بلقب "هانم" أي سـيدتي، فيسـتخدمون هذا اللقب بعد اسـمك الأول إذا كانوا يعرفونه وتصبحين ذات لقب حالًا.

أنا لست مجرد كاثرين في تركيا بل "كاثرين هانم" أينما ذهبت، وهذا اللقب يجعلني أنظر لنفسي بطريقة مختلفة، وأشعر بالتميز نوعًا ما، وبأنني محظوظة لأنني وُلدت في هذه الفئة النبيلة فئة النساء.

يتعامل الأتراك مع لقب سـيد (بيهْ) وسيدة (هانم) بخصوصية شديدة، ويستخدمونهما في كل مرة يتحدثون إليك؛ فلا يقولون مثلًا: "السيد ديفيد جونز" أو "السـيدة سـارة هارت" بل "ديفيد بيه" و"سارة هانم"، وليس من الشـائع اسـتخدام الاسـم ثنائيًا في تركيـا، وبالرغم مـن كل اتجاهات التفرنج التي شاعت خلال السنوات الأخيرة فإن الأتراك ما زالوا يتعاملون بالأسـماء الأولى فقط؛ فاسـتخدام الاسـم ثنائيًـا يبدو غريبًـا عليهم، وهم يعتبرون أنه يضفي جوًّا من الرسمية الشديدة ويمنـع التواصل بشكل ملائم.

حينمـا كنـتِ في تركيا يا سـيدة مـاري، كان الوضـع كذلـك؛ إذ كنت تتعامليـن مـع معارفك فاطمـة وأحمد باسـمهما الأوّل، وهي حرية وألفة لم تكوني لتحظي بها في وطنك إنجلترا.

في الواقـع لم يسـتخدم أحد اسـم عائلته في تركيا إلا منذ فترة قريبة، بـل عـاش الأتـراك قرونًـا وهـم يسـتخدمون الاسـم الأول فقـط، أو كما هي العادة المتبعة في الدول الإسلامية يستخدمون لقباً مثل: "علي مبارك" أو "محمد الصقر".

سـاد هـذا النظـام قبـل ظهـور مصطفى كمـال أتاتـورك، الـذي أخذ على عاتقه مهمة سن قانون إصلاحي من شأنه أن يغير للأبد طريقة التعامل بالأسماء في تركيا.

كان "قانون التسمية" عام (١٩٣٤-١٩٣٦م) خطوة متعمدة في طريق الفرْنَجة، علاوة على عدد من الإصلاحات الاجتماعية الموجهة سياسيًّا التي شنها خلال الأعوام الأولى للجمهورية التركية.

تبنى "قانون التسمية" تشريعًا يفرض على كل مواطن أن يقوم بتسجيل اسم عائلته، الأمر الذي أربك الأتراك وتركهم في حيرة ابتكار أسماء لأنفسهم، ومع أن الأتراك المتمدنين لم يجدوا مشكلة في هذا القانون الجديد، فإن سكان الريف وجدوا صعوبة في إدراك المغزى من هذا القرار، وفي آخر الأمر تم تبني عدة أنماط لاختيار الاسم وتحديد ما هو مهمّ.

توضح أسماء العائلة القيم المجتمعية السائدة في ذلك الوقت، التي ما زالت إلى حد ما سارية إلى يومنا هذا.

وكان من أوائل الأنماط لاختيار أسماء عائلية تحديد العلاقة العائلية التي تعكس الاحترام البالغ للكبار الذين تحدثت عنهم في رسالتي السابقة، وظهر ذلك جليًّا في استخدام كلمة "أوغلو" (ابن)، وإلحاقها بالاسم؛ فهنا في تركيا من العادي أن يكون اسمك الثاني "ابن صانع البنادق" مثلًا.

يعرف الأتراك تمامًا من هم ومن أين أتوا، ويفخرون بانتمائهم لتلك المنطقة؛ لهذا يختارون في الأغلب أسماءً تعكس هذا الفخر مثل "أحمد قونيالو أي أحمد من قونيا"، ويفخرون بأسلافهم العظماء ويختارون أسماء وطنية للقبائل العظيمة، سواءٌ كانت من نسل أبناء آسيا الوسطى أو السلاجقة أو العثمانيين، مثل: "علي سلجوق أوغلو أي علي ابن السلاجقة"، أو "محمد كارامان أوغلو أي محمد ابن الكرامان"، أو ألقاب السلاطين العثمانيين المشهورين مثل: "يلدرم أي الصاعقة"، و"ياووز أي العازم"، أو أسماء بعض السلالات القبلية

الرحالة مثل ''كليتشليلار أي السيَّافة''، أو ''كارني بويوك أي أصحاب البطون الكبيرة''.

وعلى مستوى أوضح كثيرًا ما يختار الأتراك أسماء أشياء شائعة محبّبة وملهِمة مثل: ''أسلان أي الأسد''، و''بوزكورت أي الذئب الرمادي''، و''سياه بيتشاك أي السكين الأسود''، و''أوزكايماك أي الزبد الخالص''.

أنا أفضل بوجه خاص أسماء العائلة التي تم اختيارها لأنها جذابة وشاعرية أو بسبب ما تستحضره من معانٍ محببة مثل: ''كولن أي المبتسم''، و''يوجيل أي المُعظم''، و''يغموردريلي أي القادم من الوادي المطير''، و''جوكديمير أي السماء الحديدية''، و''بويوك دوغاني أي البدر المكتمل''، و''جوموشكمر أي الحزام الفضي''، و''أكدومان أي الدخان الأسود''، و''كارادومان أي الدخان الأسود''، و''دوست أوغلو أي ابن الصديق الغالي''، و''أسكي بهليوان أي بطل المصارعة القديم''، و''بيشكنسوت أي اللبن المحضّر جيدًا'' و''تاتليسَس أي صاحب الصوت الجميل'' و''تشاملي بل أي ممر أشجار الصنوبر''.

من أسماء العائلة المبتكرة جدًّا تلك التي تُختار لأن الشخص يتسم بميزة بدنية ظاهرة مثل: ''تشولاك أوغلو أي ابن الرجل ذي اليد الواحدة''، و''أوكسوز أوغلو أي ابن اليتيم''، و''بوسكوللو أوغلو أي ابن الرجل ذي الشُرَّابات''.

أما أسماء العائلة المفضلة لديّ فهي التي يتم اختيارها لتحديد المهنة؛ فأنا أرى أنَّ في ذلك تتجلى أسمى الصور لفخر الأتراك بمهنهم، ومن هذه الأسماء على سبيل المثال: ''قهوجي أي صانع القهوة''، و''أوكجو أوغلو أي ابن النبّال''، و''منامنجي أوغلو أي ابن صانع البيض المخفوق''، و''لبلبيجي أوغلو أي ابن محمّص الحمص''،

و"مومجو أوغلو أي ابن صانع الشمعدان"، و"يورجانجي أوغلو أي ابن صانع اللحاف"، و"فندكتجي أوغلو أي ابن زارع الفستق"؛ فهذه الأسماء ستظل تذكّر الأتراك بطريقة حياة سادت في تلك الفترة من تاريخهم.

أما اليوم فاختيار اسم العائلة غالبًا سيكون مثلًا "عليّ ابن مطور برامج الحاسوب"، لكن في عام ١٩٣٤م كانت الأوضاع مختلفة.

ورغم مرور أكثر من خمسة وسبعين عامًا على تبني قانون التسمية لأتاتورك ما زال الاسم الأول هو السائد؛ فبمجرد التعارف بين شخصين يبدأ التعامل بينهما بالاسم الأول، الأمر الذي يخلق شعورًا بالألفة والمودة اللتين تُدْهشانِنَا في أحوال كثيرة نحن أبناءَ الحضارة الأكثر تحفظًا.

تعلمت في نشأتي أن لا أنادي شخصًا باسمه الأول إلا إذا سُمح لي بذلك، أمّا هنا فالعلاقة وثيقة منذ البداية، وتحتاج عملية رفع الكلفة هذه إلى اعتياد من الغربيين.

بالرغم من كل جهود أتاتورك فما زال الأتراك حتى يومنا هذا يفضلون مناداة أحدهم باسمه الأول، ولم يعتادوا على استعمال اسم العائلة في كلّ المواقف.

ولم يبدأ دليل هاتف إسطنبول في سرد الأسماء أبجديًا باعتماد اسم العائلة إلا في عام ١٩٥٠م، أي بعد وقت طويل من تبني قانون التسمية، وعملت سابقًا متطوعة في جمعية خيرية تركية مقرّها في الولايات المتحدة، وأُوكلت إليّ مهمة تحديث قاعدة بيانات أسماء الأعضاء التي اكتشفت لاحقًا أنها مرتبة وفق الاسم الأول.

والأسماء الأولى مبتكرة وممتعة بقدر أسماء العائلة؛ ففي الماضي كانت الأسماء التي استخدمها الأتراك العثمانيون مستوحاة من طبيعة

العرب والمسلمين، أمّا اليوم فهناك اتجاه حديث لاختيار أسماء الأطفال التركية الأصل (أصلان، وأورهان، وأوزير، وتورهان، وكوبيلاي، وتيمور، وإلهان) أكثر من الأسماء المتأثرة بالتقاليد الفارسية والعربية.

وعلاوة على التفضيل المتزايد للأسماء التركية التقليدية ذات الأصول العائدة إلى آسيا الوسطى، بدأت تظهر أسماء أوروبية وأسماء غريبة مثل اسم "تايفون" الذي وجدته غريبًا إن لم يكن شاذًا.

تكون الأسماء الأولى مثلها مثل أسماء العائلة ملهِمة وشاعرية وجميلة؛ فالأتراك يميلون لتسمية الصبيان أسماء قوية وحماسية، مثل: "جنكيز" و"تيمور" و"يلماز"، والاسم الذي أفضله هو "طارق" أي النجم الساطع في السماوات.

أما الفتيات فيحصلن على أسماء رقيقة وعذبة، وعادة ما تكون أسماء مخلوقات طبيعية مبهجة أو أوصافًا لأفكار شاعرية، مثل: "سندس" و"لؤلؤ" و"أحلام" و"نبع العسل"، وأكثر اسم أفضله هو "إريم أي حديقة الجنة".

إذا أضفت اسمًا أول نابضًا بالحياة إلى اسم عائلة مميز، فغالبًا ستكون النتيجة ملحمة متكاملة، مثل "يلدرم أكبولوت أي السيد سحابة البرق البيضاء" أو "أوزديمير كالباكتشي أوغلو أي السيد الحديد الخام ابن صانع قبعات الفرو" أو "إلهان ديميركايا أي السيد صخرة الفولاذ المنغولي" أو "كايا أوزتوبراك أي السيد صخرة الأرض الحقيقية" أو "دورسون ديليجول أي السيد الزهرة البرية المزهرة دائمًا"، وهذه مجرد أمثلة أعجبتني.

هل يتخيل شخص أن يكون اسمه "اللورد سحابة البرق البيضاء"؟ كم تمنيت أن يكون اسمي "الزهرة الحريرية" أو أي اسم مماثل! لو كان لي أخ اسمه "طارق" فربما يصبح مستكشفًا أو رحالة عندما يكبر،

لكن اسـمي الأول عادي جدًّا، ذات مرة سـألني صديقي التركي الشـاعر: ''ما معنى اسـمك يا كاثي؟'' وكم شـعرت بالحرج عندما لم أجبه؛ لأنني في الحقيقة لا أعرف معنى اسمي ولا سبب اختيار والديّ له!

حينهـا أدركـت مدى إجـداب حضارتنـا الغربية التي تمنـح الأطفال أسماء لا معنى لها، وتحرمهم من الأسماء الملهِمة وفرصة النمو وتحقيق مغزى تلك الأسماء؛ لهذا قدّرت الأتراك المبدعين الذين ينسبون لأبنائهم سمات، مثل: الأمل، والقوة، والشِعر.

نظرًا لأن صديقي رجل تركي مسؤول؛ قرر منحي اسمًا تركيًا، وتوصل إلى اسم على وزن اسمي الحقيقي وفي الوقت نفسه يحمل معنى يلائمني؛ وهو ''قدرية''، ويعني الشخصية الموقرة المقدرة الجليلة.

واتضح لي أنه اسـم قديم، لكنني كلما قدّمت نفسـي باسـم ''قدرية'' جاء رد فعل الأتراك مخالفًا تمامًا لرد فعلهم عندما أذكر اسمي الحقيقي.

بالطبـع يسهل عليهم حفظ هذا الاسم ونطقه مقارنة باسمي الإنجليزي، لكنه فوق كل شـيء يميزني بأنِي امرأة تسـتحق الاحتـرام والتقدير؛ ولهذا سـأظل ممتنـة للأبـد لصديقـي الـذي منحني هذا الاسـم، جعلني أشـعر بالترحاب وبأنني جزء من الثقافة التركية، وقد أصبح اسمي الآن ''قدرية'' بالنسبة لأي تركي أتعرف إليه، وبالنسبة لجميع أصدقائي الأتراك.

وبخلاف هذا الاسـم حصلـت على عدة ألقاب أيضًا كلها تسـتخدم مـع لقب سـيدة؛ فقـد أسـموني ''السـيدة السـابحة'' و''سـيدة الخان'' و''سـيدة الزهرة الصفراء'' و''سـيدة العيون الباسـمة'' و''سـيدة العيون الزرقـاء''؛ بالطبـع لا يمكننـي نسـيان هـذه اللفتـات المبدِعـة الصادقـة لأصدقاء منحوني اسـمًا بسـيطًا.

بالفعل لكلّ مسمًّى من اسمه نصيب كما تقول المقولة القديمة، إذًا عمَّ تخبرنا أسماء الأتراك؟ تخبرنا أنه شعب معتز بتراثه وأهله ومهنه؛ شعب يحب الطبيعة والجمال بصدق؛ شعب يحب أن يحلم ويتمنى أن يخلق هوية قوية لأبنائه، تخبرنا عن الجانب الإبداعي والترفيهي في شخصيته؛ فهذه الأسماء التركية تجعلنا نكتشف شعبًا محترمًا وودودًا، حقًّا إنَّه يمكن لشيء بسيط كالأسماء أن يخبرنا بالكثير عن هذا الشعب.

هل فكَّرْتِ يومًا يا سيدة ماري في اسم العائلة الذي ستختارينه إذا أتيحت لك الفرصة؟ حقًا سيكون هذا من أصعب الاختيارات، على الأرجح سأختار لنفسي اسم "السيدة قيّمة الكتب"، وأنت سيكون اسمكِ "السيدة صاحبة القلم المتدفق"، لكنني بالرغم من كل شيء أتفق مع الأتراك؛ فمن ذا الذي يحتاج إلى اسم عائلة! وأخيرًا أظن أن اسم "السيدة قدرية الزهرة الصفراء" يلائمني تمامًا.

صديقتكم

قدرية برانانج

الرسالة العاشرة

صباحات سعيدة!

إلى معلماتي التركيات في الماضي والحاضر

عزيزتي السيدة ماري،

مـن بين التعليقات الأكثر تأثيرًا في نفسـي وكنت قرأتها في "رسـائل السفارة" تلك التي كتبتها إلى أختك من فيينا:

> "تتجسـد أقصى سـعادة في الحياة في محادثة منتقاة مع عدة أشخاص نكنّ لهم التقدير"

إنهـا كذلـك بالفعل، ولعـل هذا هو سـبب اهتمامي الشـديد باللغات الأخرى؛ فهي تسمح للمرء بالقيام بتلك المحادثات المنتقاة مع "أشخاص يقدرهـم" من مختلف بقاع الأرض، وقد كان هذا حافزي الأسـاس لتعلّم اللغة التركية؛ إذ أدركت أنني إن أردت حقًّا التعرف على هذا البلد وأهله فلا بد أن أتحدث لغتهم، وما أشد غفلتي حينها عن التحديات التي سأواجهها!

أنتِ أيضًا أيقنت أن تعلم اللغة التركية سيمنحك تميزًا في بيئتك، كما سيساعدك على الاطلاع على المؤلفات التركية، وهو أمر أثار اهتمامك أكثر من أي شيء آخر، تلخص هذه المعاني عبارة لأتاتورك محفورة فوق مدخل مبنى علم الإنسانيات في جامعة أنقرة: ''العلم هو المرشد الحقيقي في الحياة''؛ ونظرًا لإيمانك بهذه العبارة كانت دافعًا لكِ لبدء برنامج تدريبي صارم لتعلّم اللغة التركية قبل أن تَصِلي إلى القسطنطينية.

يبدو أنكِ لم تواجهي صعوبة كبيرة في تعلم اللغة التركية، إنها الحقيقة، أنت تعلمتِ اللغة اللاتينية قبل أن تستكملي الثامنة من العمر، ولا بد أن أقِرّ أنني أشعر بالغيرة قليلًا من قدرتك على التعلم بسرعة! ربما يرجع الفضل إلى معلمكِ الممتاز؛ فبعد مغادرة فيينا مكثتِ في بلجراد ثلاثة أسابيع فتعلمت اللغة التركية على يد أحمد أفندي الذي قلت عنه: ''شرح لي أبياتًا كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا، فهو شعر مقفى، له جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدة العاطفة ومفعمة بالحياة...''

لقد فتح لكِ أبواب عالم الأدب العربي، والفارسي، والعثماني، ولا شك أنكِ كنت طالبة استثنائية؛ إذ أرسلت إلى صديقك أليكساندر بوب بعد أسابيع قليلة بعض ملحوظاتك حول اللغة التركية، قلت في رسالتك: ''إن اللغة المستخدمة في البلاط تختلف كليًا عن لغة عوامّ الأتراك''، وأوضحت له أسلوب كتابة الشعر بإرسال قصيدة لأحد النبلاء، وتباهيت أمامه بسعة علمك الأدبي حينما قلت: ''كما ترى فقد قطعت شوطًا كبيرًا في تعلم لغة الشرق''.

لا بد أن أعترف أنني مذهولة من سرعة تعلمكِ كل ذلك في وقت قصير، واعجبًا فأنت التقيت فاطمة ''الجميلة كالملاك'' مرّة أخرى

في القسطنطينية بعد مرور عام كنتِ قادرة على التحدّث معها باللغة التركية، وهو أمر مثير للإعجاب بالفعل! وأرسلتِ رسالة إلى صديق بعد مرور عام على وصولك، وتحديدًا في أبريل/نيسان عام ١٧١٨م تقولين فيها: "أصبحت أتحدث التركية على نحو جيد، وأسعدني الحظ بتكوين صداقات مع نساء تركيات أعجبن بي، ويمكنني أن أفتخر بأنني أول امرأة أجنبية تحظى بهذا الشرف".

عقب وصولك إلى القسطنطينية تابعت برنامج تعلمك الذاتي، ووضعت نظامًا يوميًّا صارمًا لتعلم اللغة، وقد وصفت لصديقك بوب جدول أنشطتك التدريبية الأسبوعي الذي اعتبرتِه أهم من مشاغلك في إنجلترا فقلتِ: "أسعى جاهدة لإقناع نفسي أنني أعيش حياة متنوعة ومنسجمة أكثر منك، وأن مراقبة طائر الحجل يوم الاثنين، وقراءة الأدب الإنجليزي يوم الثلاثاء، وتعلم اللغة التركية يوم الأربعاء -وأنا أتقنها جيدًا الآن- ودراسة المؤلفين الكلاسيكيين يوم الخميس، والكتابة يوم الجمعة، والانهماك في الخياطة يوم السبت، وتبادل الزيارات والاستماع إلى الموسيقى يوم الأحد، ذلك كلُّه أسلوب مناسب لقضاء الأسبوع أفضل من الجدول الروتيني الدائم في لندن"، نعم تعلُّم اللغة قد يصبح حقًّا مغامرة مثيرة وجذابة.

غير أنك لست الشخص الوحيد الموهوب في تعلم اللغات؛ فالأتراك ماهرون في ذلك أيضًا، وربما يرجع ذلك إلى مهارتهم الفطرية، أو إلى وجودهم الدائم في مفترقِ طرقٍ لغويّ، علّقتِ في رسالة لك بتاريخ ١٦ آذار/مارس عام ١٧١٨م على سعة معرفتهم باللغات المختلفة:

"...أنا أعيش في مكان يعتبر أفضل تمثيل لبرج بابل؛ ففي منطقة بيرا يتحدثون التركية، واليونانية، والعبرية، والأرمنية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والوالاكية، والألمانية، والهولندية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والمجرية؛ والأكثر من ذلك أن هناك عشرًا من هذه اللغات مستخدمة في بيتي: فسائسو الخيل عرب، والخدام فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيتي أرمنية، وخادماتي روسيات، وهناك ست خادمات أخريات يونانيات، ومدير المنزل إيطالي، والجنود الإنكشاريّون أتراك، فأصبحت أستمع باستمرار إلى هذا المزيج من اللغات، وهو ما يترك انطباعًا استثنائيًا على الأشخاص الذين يولدون هنا، فهم يتعلمون كل هذه اللغات في الوقت نفسه دون أن يتقنوا أيًا منها بالقدر الكافي الذي يؤهلهم لاستخدامها في الكتابة أو القراءة، وثَمَّة عدد محدود من الرجال والنساء والأطفال الذين يعرفون كلمات بخمس أو ست لغات... قد يصعب تصديق هذا الأمر ، وأنا أرى أنه أحد الأمور اللافتة للنظر في هذا البلد، كما أنه ينتقص كثيرًا من مزايا سيداتنا اللاتي يدعين العبقرية الفذة بفضل معرفتهن السطحية باللغة الفرنسية والإيطالية".

هناك عدة لغات "مختلفة" يتحدثها الأتراك حتى يومنا هذا: العربية في محافظة هاتاي، والكردية في شرق تركيا، واللغات الأوروبية التي تستخدمها العائلات الشامية القديمة في بيرا "الفرنسية واليونانية والإيطالية غالبًا"، وقد اكتشفت لغة أخرى جديدة في إسطنبول: هي لغة الأسواق، كم تدهشني مهارة أصحاب المتاجر والباعة -الذين يتعاملون مع السياح- في الانتقال بسلاسة ويسر بين الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية، واليابانية أحيانًا بدون أدنى مجهود، وهم لا يتحدثون هذه اللغات فحسب، بل يتمتعون بمهارة تحويل العملات المتعددة ذهنيا؛ فيمكنهم حساب ثمن أي سلعة بسرعة فائقة تنافس سرعة الآلة الحاسبة.

ليتني أستطيع التفاخر بمهاراتي في اللغة التركية كما تفاخرين بمهاراتكِ أمام صديقك بوب، ومع أنني قد حظيت بعدة معلمين ممتازين للغة التركية، فلم أتمكن من إتقانها تمامًا، يمكنني قول أيّ شيء أريد، لكنني عندما أتحدث التركية أرى في أعين المستمعين صراعًا لفهم ما أحاول قوله، أو أجد أعينهم تبرق بدهشة لدى سماع عباراتي المفككة، قضيت أعوامًا عدة في تدريس اللغات الأجنبية وتشجيع الآخرين على تعلّمها، وأدرت واحدة من أكبر مدارس اللغات في العالم؛ وهذا يعني أنني ملمّة بالتحديات ومشاعر الإحباط والسعادة المصاحبة لتعلّم لغة جديدة، بل إنني أشهد أن اللغة التركية قد أمدتني بنصيب وافر من التحديات ليست اللغوية فحسب بل الثقافية أيضًا.

أدركت مبكرًا أن القاعدة الأولى للتواصل في العائلات التركية هي نفس القاعدة التي تحكم كل علاقات التواصل، ألا وهي الاحترام؛ فالأتراك يهتمون جدًا بالتواصل مع الآخر بأسلوب يعكس قدرًا كافيًا من الاحترام، وهذا الاحترام يعتمد على عدة عوامل منها السن، والثروة، والمعارف، والمنصب الذي يحتله الشخص في مهنته أو مجتمعه، والويل لمن لا ينجح في إظهار القدر الملائم من الاحترام للطرف الآخر، إن التواصل عند الأتراك يعني في المقام الأول إبداء الاحترام بترك الطرف الآخر يتحدث مطولًا دون مقاطعته، والإنصات باهتمام لما يقول، ويُحظر معارضة الطرف الآخر؛ لأن هذا قد يعتبر دليلًا على مجاهرة العداء، والأتراك حساسون جدًا تجاه هذه النقطة، تعلمت هذا الدرس بالطريقة الصعبة، لأنني اعتدت في ثقافتي -وخاصّةً في مدينة نيويورك حيث إيقاع الحياة السريع- على إجراء عدة محادثات في آن واحد، أما في فرنسا فالاعتراض أثناء المحادثات أمر متوقع؛ لأن المرء إذا لم يعترض فهذا يعني أنه غير منتبه لكلام الآخر، لكن الأمر مختلف في تركيا.

وبعيدًا عن مجرد تبادل الحديث، فمن الضروري فهم الشكليات الصغيرة الواجب مراعاتها في كل الحوارات الناجحة، فعلى سبيل المثال ليس من المستحب الاقتراب من شخص وطرح سؤال مباشرة دون الاستهلال بكلمة: "مرحبًا" أو "عذرًا" أو "أنا آسف على الإزعاج"، إلى غير ذلك، بل إن الأتراك غالبًا ما يبدؤون حديثهم بالكلمة البسيطة الرقيقة *Acaba* التي تعني " أتساءل..." أو " ياترى هل يمكن هذا...؟!" وسرعان ما يدرك المرء أنه إذا لم يراع هذه القواعد والشكليات البسيطة فإن علاقته بالآخرين ستحيد عن الصواب، وسيُنظر إليه أنَّه شخص فظ، فمثلًا إذا اقترب منك شخص وعرض المساعدة في توجيهك إلى أي مكان تريد، فلا بد أن تقبل عرضه الصادق وأن لا ترفضه وإن كنت تعلم جيدًا المكان الذي ستذهب إليه؛ لأن رفض مساعدته تصرف غاية في الغلظة، ويجب أيضًا دائمًا قبول كوب الشاي المقدم إليك، ولعل أكثر الحالات لسوء الفهم اللغوي التي تحدث للأجانب في تركيا تكون بسبب كلمة "لا"؛ فعندما يرغب شخص تركي في الرفض لا يقول ذلك، بل يعبر عنه برفع حاجبيه بجدية وصرامة، وإصدار صوت طقطقة من فمه، مع إمالة الرأس إلى الوراء قليلًا، وأحيانًا يلاحظ المرء كلّ هذه الإيماءات أو واحدة منها فقط، ومع أنها قد تكون غير واضحة غالبًا لكنها مستخدمة، ونادرًا ما تُنطق كلمة "لا"، بل تُستخدم الإشارات للتعبير عنها؛ لهذا لا بد من الانتباه للإشارات، ومحلّ سوء الفهم أن الأجانب الذين لا يتلقون إجابة على سؤالهم كثيرًا ما يظنون أنه قد تم تجاهلهم، في حين أنهم قد تلقوا إجابة بالفعل عبر هذه الإشارات الصامتة.

لعل قواعد التواصل العالمية تحمل أهمية قصوى في تركيا بفضل الوعي الشديد لإبداء الاحترام، ولتفادي حالات سوء الفهم ينبغي ملاحظة الأمور الخفية لا الأمور الجلية فحسب ، فكل أنواع التواصل

تحمل ثلاث رسائل مختلفة: الرسالة التي تريد إرسالها، والرسالة التي تخرج من فيك، والرسالة التي تصل بالفعل إلى الطرف الآخر ويؤولها وفق مستواه العقلي وتفكيره، فكل شخص يجلس معك في الغرفة سواءٌ كان في القرية أو في المتجر أو في مركز حضاري أو في اجتماع أعمال في المدينة يتصرف وفقًا لتأثير الحوار عليه، أو بحسب علاقته بالآخرين، والأجانب الذين يراعون هذه النقطة وينتبهون لإبداء الاحترام الواجب يسهل على المجتمع تقبلهم.

من المفيد أيضًا محاولة البحث عن الدعابة في مواقف التواصل الغريبة التي تحدث يوميًا؛ فلا ينبغي اعتبار أي لقاء أو موقف من المسلّمات، مع التسليم بأن المرء لن يفهم كلّ شيء، حتى عندما يتم تفسير المواقف ربما يعجز المرء عن فهمها لأنه بكل بساطة ليس تركيًا؛ فمواقف كثيرة ربّما تكون شائعة أو عادية لكن نظرًا لأنني أعجز عن فهم الدافع وراءها تبدو محيرة في نظري، قيل لي ذات مرة إنني أشبه الفرس، وهو تشبيه تركني منزعجة عدّة أيام؛ لأنه يعتبر إهانة صريحة في ثقافتي، ولم أعرف إلا بعد مرور وقت طويل كيف يقدّر الأتراك الخيل تقديرًا شديدًا؛ حينها فقط أدركت أنني تلقيت واحدة من أسمى المجاملات في الواقع.

في السنوات الأولى التي قضيتها في تركيا كان من النادر جدًا أن أجد أجنبيًا يتحدث اللغة التركية، خاصة المناطق الريفية التي أكثرت السفر إليها، وكان من الشائع أن تتسبب عبارة بسيطة أقولها بالتركية مثل "مرحبًا، صباح الخير، هلّا تدلّني على طريق المسجد الكبير!" في تدافع الأتراك المفاجئ حولي كسرب طير في حقل حبوب، أظنّك واجهت مواقف مشابهة يا سيدة ماري؛ ففي رسالتك لصديقتك السيدة بريستول

في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م حكيتِ كيف جذبت أنت وزوجة السفير الفرنسي أنظار الجميع في نزهتكما:

"خرجت معها منذ عدة أيام في جولة حول المدينة في عربة تجرها الخيول وقد رُفع غطاؤها، وبصحبتنا موكب مشترك من الخدم، يسبقه الحراس الذين اجتذبوا الناس لرؤية مشهد لم يروه من قبل، ولن يروه بعد؛ إنهما سفيرتان شابتان مسيحيتان لم يسبق لهما المجيء معًا إلى البلاد، ولا أظنّ أن هذا سيتكرر، يمكن لسيادتك أن تتخيلي حشد المتفرجين الضخم الذي وقف يراقبنا في صمت مطبق، لو أن أحد هؤلاء العامة فكر أن يتجاوز حدوده فإن الجنود الإنكشاريين لم يكونوا ليترددوا عند أول حركة أو موقف غريب في الانهيال عليه بسيوفهم المعقوفة..."

قد يكون جذب كل هذه الحشود مخيفًا في بعض الأحيان، وقد شعرت في عدة مواقف بالخوف حتى أدركت أن هؤلاء الأشخاص مجتمعون حولي بدافع الفضول المحض، وحينما فهمت أخيرًا أنهم ليسوا مجتمعين حولي بسببي، ولكن بسبب أخطائي التركية ولهجتي الغريبة شعرت بالراحة، في رأيي إنها المرة الأولى التي يستمع فيها معظم هؤلاء الأتراك إلى لغتهم بلسان أجنبي؛ فحداهم الفضول إلى معرفة كيف سأركّب العبارات وأختار الكلمات، وفوق كل شيء أرادوا الاستماع إلى لهجتي، لقد اكتشفت أن نطق التركية بلهجة مختلفة قد يساعد كثيرًا في تلقي خدمة رائعة في المطاعم؛ ففور أن أجلس يهرع إليّ خمسة نادلين لتلقي طلباتي، وتعديل المنديل، وصب الماء لي، وكل ذلك بهدف الاستماع إلى لهجتي الغريبة.

صحيح أنني حينما سافرت إلى تركيا في البداية لم يكن هناك سوى مدارس قليلة لتعليم اللغة التركية، وعدد محدود من كتب القواعد، وانعدام تام للكتب الدراسية الخاصة بتعليم اللغة التركية للأجانب، لكن صارت اللغة التركية الآن تُدرّس في الجامعات والمدارس في مختلف أنحاء العالم، والأتراك يؤلفون الكتب الدراسية بغزارة حول تعلم اللغات الثانية، وهناك مسابقات لغوية لصغار الطلاب الذين يتعلمون التركية، وتبنى الأتراك الإطار الأوروبي الموحد لإرشادات تعليم اللغات في مدارسهم قبل أن أتبناها بوقت طويل.

ومع ذلك ظلّ تعلّم اللغة التركية صعبًا ومحيّرًا في نظري، وكان أصعب شيء إجراء مكالمة هاتفية؛ لأنني أرتبك وأقترف أخطاء شنيعة تنتهي بفترات صمت طويلة بيني وبين الطرف الآخر، ولأن إجراء مكالمة أمر مقلق؛ فإنني ألجأ غالبًا لكتابة ما أود قوله في ورقة، والقراءة منها أثناء المكالمة، ولاحظت أنني إذا أردت التأكد من معلومة فإن سؤال امرأة يكون أفضل؛ لأن لغة النساء أسهل في الفهم ولعل النساء في مختلف أنحاء العالم تميل للحديث بنفس اللكنة! وخلال المحادثات الطويلة غالبًا ما أصاب بالإحباط والإرهاق والتعب من المجهود العقلي المضني الذي أبذله لاختيار كلمات مفهومة وتركيبها في عبارات ذات معنى، أو جرَّاء من الانتباه المستمر ومحاولة فهم كل شيء، وهو ما ينهكني، وفجأة يتوقف عقلي عن العمل، ويكون الحل الوحيد أن أرحل متمنيةً ألا يعتبرني الآخرون غير مهذّبة أو ينقصني احترام الآخرين.

بقدر صعوبة تعلم اللغة التركية تبدو سهلة جدًّا بفضل المساعدة التي يقدمها لك الأتراك عندما تحاول التعبير عن نفسك؛ فهم يشجعونك على البحث عن الكلمات والعبارات للتعبير عن أفكارك، وعندما تتحدث

بلغة تركية ركيكة لا يقاطعونك مطلقًا، بل يكملون الحوار معك، وهم في ذلك مختلفون تمامًا عن الفرنسيين المتأهبين دائمًا لتصحيح أي خطأ طفيف يرون أنه قد يسيء إلى لغتهم، أما الأتراك فهم يشجعونك كفرس منطلق في مضمار السباق، ويحمسونك دائمًا بتهنئتك على الوصول إلى خط النهاية عندما تتمكن من إنهاء عبارة بنجاح، بالإضافة إلى كل معلميَّ فإن البلد كله كان مكرَّسًا لأتعلم اللغة التركية.

علاوة على ذلك فإن حرص الأتراك على إبداء الاحترام خلال التواصل أمر يرحب به الأجانب ويقدرونه، فالأتراك ينتظرون حتى تنتهي تمامًا مما تقول وإن كانوا لا يفهمون كلمة مما قلت، وكثيرًا ما يومئون برؤوسهم، لا يصحح الأتراك مطلقًا أخطاءك اللغوية -فذلك يوحي بالتناقض والاعتراض- أو ينظرون إليك باستهجان وعدم فهم وهم مقطبو الجبين، وتجدهم يكررون اسمك باستمرار في سياق الحوار لتظل منتبهًا ومركزًا، وعندما يشعرون أنك لا تفهم ما قيل فإنهم يتوقفون ويعيدون صياغة الفكرة بكلمات وعبارات يوقنون أنك ستفهمها، فصبر الأتراك لا حدود له، ومن المستحيل أن ترتكب خطأ لغويًا فادحًا؛ لأنّ الأتراك لن يتركوك تصل إلى هذه المرحلة، فبمجرد أن يشعروا أن الأمور ليست على ما يرام يبدؤون في مساعدتك بهدوء؛ إذ يصعب عليهم فهم ما تحاول قوله كما يصعب عليك فهم ما يقولونه، لكنهم لا يبدون ذلك قط، إنهم سادة في التواصل لأنهم يراعونك على طول الخط، وهذا يعني أن طبيعة الأتراك الحقيقية تظهر في علاقات التواصل مع الأجانب؛ إذ تتجلى سمات الاحترام والطيبة والكرم والصبر وروح الدعابة في أوضح صورها.

إذا كانت اللغة التركية صعبة إلى هذا الحد فلماذا أثابر على تعلمها؟ فضلًا عن ترقّب تلك ''المحادثات المنتقاة'' وقراءة أشعار نديم فهناك

أشـياء كثيرة تجذبني فـي اللغة التركية، فمن الناحيـة اللغوية يعتبر تركيب مفرداتهـا الإلصاقي مذهـلًا؛ إذ يضيف المرء للكلمـة اللواحق واحدة تلو الأخرى مثل مقطورات، وكما هو الحال في اللغة الألمانية فإنني أستمتع بالعثـور علـى الفعل في اللغة التركية في آخـر الجملة كالمقطورة الأخيرة للقطار، فيفسـر ويوضح كل الأسـماء والصفات السـابقة له، كم تحيرني إمكانيـة بنـاء عبـارة كاملـة من كلمـة واحدة تقـف في منتصـف الجملة! وبالمثـل تحيرني الجمل التي تبـدو -على عكس اللغة الإنجليزية- مركبة مـن النهايـة إلى البداية أو بالمقلوب، ويبهرني وجـود زمن "الماضي غير المشهود" في اللغة التركية الذي يجعلك تروي أحداثًا لم ترها أو تسمع عنها مباشرة، فهو يسمح لك أن تكون مجرد ناقل لأخبار يُحتمل ألا تكون صحيحة، ويذهلني وجود زمن يمكنه أن يكون حاضرا أو ماضيًا أو مستقبلًا بحسـب الموقـف، فعلى سـبيل المثال هـذه العبارة "مكتـب البريد الذي أمامه المرتدية السـترة الحمراء -المسـتعدة لشـد شعرها- الأجنبية تقف" ليست كلامًا مبهما، بل إنها عبارة تركية مثالية التركيب؛ لهذا تجعلني اللغة التركيـة منتبهـة دائمًا لأنني لا أعلم موقعي في الجملة، في المرات النادرة التي يتمكن فيها عقلي من فهم الرموز اللغوية المستحيلة لقطار الكلمات المتراص في الجملة أشعر أنني فككت شفرة سرية مُحكَمة.

أحـبّ أيضًـا صـوت الحديـث باللغـة التركيـة؛ فعندمـا يتحـدث بها الرجال يصدر صوت أشبه بتدفق المياه في غدير مشجر، وعندما تتحدث بهـا النسـاء (خاصـة نسـاء إسـطنبول) يصدر صوت أشـبه بحديـث طائر مغـرد، ويسـعدني اسـتعارة الأتـراك كلمات كثيـرة من اللغة الفرنسـية في مجـالات الإدارة والأزيـاء والفنـون؛ فقد سـهل ذلـك الأمور علـيّ كثيرًا لأننـي غالبًـا ما أجد كلمة مألوفـة، وبالإضافة إلى الاسـتعارة المبدعة من لغـات أخرى تسـعدني قـدرة الأتـراك الفنية علـى ابتكار كلمـات جديدة

تواكب التقدم الحضاري، مثل "حاسب المعرفة" إشارةً إلى الكمبيوتر و"هاتف الجيب" إشارةً إلى الهاتف المحمول، وتعجبني أيضًا قوة وصرامة بعض صيغ الأمر التي تستطيع بقوتها وقف صاروخ في الفضاء: "*Yapma! Ayıp! Dur!*" (لا تفعل ذلك! عار عليك! توقف!)، ومن المتع الحقيقية في اللغة التركية آلاف الأمثال التي تزخرف الحديث؛ فالأتراك يحبون استخدام العبارات التراثية التقليدية، ولديهم باقة متنوعة منها، ومن هذه الأمثال الشعبية: "الحمار لن يقدّر عصير الفاكهة"، و"المصارع المهزوم لا تنهكه المصارعة"، و"مشتري البقول العفنة رجل أعمى"، و"من يدخل حمامًا تركيًا فسيعرق"، و"ثمة أسد في كل قلب"، و"الكفن لا جيوب له"، و"الديك الذي يصيح قبل الموعد سيُقطع رأسه"، بل إن هناك معاجم كاملة مخصصة لتلك الأمثال.

أسعد بسماع الكلمات الرقيقة التي يتبادلها الأتراك في الحياة اليومية، مثلًا "سلمت يداك" لمن يطهو أو يفعل شيئًا ممتازًا، و"شفاك الله" للمريض، و"الله يعينك" عند المرور بعمّال يعملون بأيديهم، والعبارة المؤثرة "عسى أن تكون أسوأ أيامنا كهذا اليوم" التي تُقال في المناسبات السعيدة، وتتمتع اللغة التركية أيضًا ببعض الخصائص الرائعة، وأبرزها كلمة *Yok* التي تحمل معاني عدة، بدءًا من "لا" وصولًا إلى "حتمًا أنت تمزح" و"إياك!" أما العادة الخاصة المفضلة لديّ فهي تمني صباحات وأمسيات سعيدة للآخرين، وعندما استفهمت عن معنى ذلك كان الرد نظرات مستغربة؛ إذ يبدو أنهم بسخائهم غير المتناهي لا يمكنهم تمني صباح سعيد واحد فقط للآخرين، بل لا بد من تمني حياة مليئة بالصباحات والأمسيات السعيدة.

قضيت وقتًا طويلًا في ترجمة القصص والأشعار التركية إلى الإنجليزية، وواجهت تحديات تفوق كل التحديات التي تواجه المترجمين عادة، أنت أيضًا يا سيدة ماري شاركت أحد أصدقائك رسالة حب مسلية قمت بترجمتها، وفي أحيان كثيرة يكون من الصعب جدًّا نقل هذا التدفق في المشاعر إلى لغة إنجليزية سلسة، ربما لأن تركيب العبارات التركية دائري وليس خطي كعباراتنا الإنجليزية، سيدة ماري، لقد اعترفت بعد ترجمة القصيدة بما يلي: "لا يمكنني أن أحدّد إجمالًا مقدار نجاحي في الترجمة، وأظن أن لغتنا الإنجليزية غير كافية للتعبير عن هذه المشاعر القوية التي نادرًا ما نختبرها، ونريد أيضًا مثل ما في اللغة التركيّة من هذه الكلمات المركبة المؤثرة الشائعة"، الترجمة تشبه الجهة الأخرى من السجادة؛ إذ تستطيع رؤية الألوان، وتحديد دقة عدد العقد، وملاحظة أي خطأ ارتكبه النسّاج، وتستطيع أن تحدد فورًا مدى مهارة النسّاج، فينبغي أن تنظر إلى الترجمة من أوجه متعدّدة لتتمكن من الحكم على جودة العمل والمجهود المبذول فيه وتقدّر جماله الكلي.

عقب أشهرٍ من دراسة اللغة التركية وصلتِ إلى حائط سد يا سيدة ماري، مع أنك موهوبة وتتقنين عدة لغات، فقد خشيتِ أن تفقدي لغتك الإنجليزية في سعيك لملأ رأسك بلغات أخرى كثيرة: "يستحيل على إنسان واحد أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقانًا تامًّا كما يستحيل عليه أن يسيطر على عشر ممالك مختلفة، أو يحارب عشرة رجال في آن واحد"، لكن هذا الصراع في تعلم اللغة التركية مجز؛ لأنه ساعد كلتينا أن تعيش في تركيا بوصفها أجنبية وليست سائحة، وساعدنا على كسب صداقات ومشاركة الحياة مع الآخرين، وكما قلتِ عن صديقك أحمد: "لا يمكنك تصور مدى سعادته النابعة من قدرته على الحديث معي"، وكذا سعادتنا بالحديث معهم.

في إحدى رسائلك الأخيرة كتبت إلى صديقة تخبرينها عن مدى أسفك لمغادرة تركيا بعد أن تعلمت اللغة، لكنك حتمًا تعرفين يا سيدة ماري أن المرء قد يرحل عن البلد لكنه لن يفقد اللغة التي تعلّمها مطلقًا، فأول جمهورية هي جمهورية اللغة.

مع تمنياتي بأمسيات سعيدة

قدرية برانج



مقولات للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا) ويُفترض أن يكون محل ميلاده في قرية هورتو



كاتب عثماني بريشة بِيْلِيني

ذكرى في مدينة كرامان؛ هذه اللوحة تشير إلى أنّ إمارة الكرامانيين هي أول إمارة تعترف بأنّ اللغة التركية هي اللغة الرسميّة

مقولات حاجي بكتاش ولي

الرسالة الحادية عشرة

أشعر بالراحة هنا

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة سؤال يوجه إليّ باستمرار، سواءً من الأتراك أو غيرهم، وهو عن سبب ترددي على تركيا عامًا تلو الآخر، وعادة ما يأتي هذا السؤال عقب سؤالي عن سبب حضوري إلى تركيا في المقام الأول، إن السفر في حد ذاته يعد تحديًا ومتعة، وخاصة إلى تركيا، وكما ذكرتِ في إحدى رسائلك المبكرة يا سيدة ماري: السفر إلى تركيا أشبه بعرض أوبرا، "هذا البلد بلا شك أحد أعظم بلدان العالم؛ كل ما رأيته حتى الآن جديد عليّ، كأنني أرى مشهدًا جديدًا في الأوبرا كل يوم"، عقب رحلتي الأولى في عام ١٩٧٨م بدأت أدرك حقًا مزايا السفر، واكتشفت أنني أستمتع بملاحظة ما بين الناس من اختلاف، لكنني أحتاج إلى بذل مجهود كبير للتعرف عليهم وكسر حاجز القوالب والأنماط الشائعة، وبالطبع تطلب هذا الجهد زيارة البلد عدة مرات.

نحن متشابهتان جدًا يا سيدة ماري، وعلى الأرجح كنا سنشكّل رفقة سفر ممتازة؛ فأنا أيضًا بدأت أهتم بالحياة الاجتماعية والإسلام، وعلّمت

نفسي اللغة التركية والشعر بكل حماس، وزرت المساجد والآثار القديمة، وسافرت وحدي بدون زوجي، أنا مثلك مهتمة بحياة النساء وقضاياهن من تعليم وصحة وتكافؤ فرص وزواج، وأشكك مثلك في الديانة التي أعتنقها بمقارنتها بديانة أخرى، تمكنت كلتانا من الانفتاح على قضايا عدة لأننا امرأتان أجنبيتان تتمتعان بمكانة خاصة.

إن سفر المرء -خاصة منفردًا- يتطلب دافعًا قويًّا بالقدر الكافي ليتمكن من الصمود أمام عقبات مثل الحرارة، والتعب، والشهية، والقلق، والخوف، والقصور الذاتي والميل الجبليّ للكسل، عندما يكون المرء في مكان غريب فإن المواقف البسيطة كسوء الفهم المتبادل والحزن واللقاءات القصيرة تمنحه فهمًا عميقًا لنفسه وللبلد الذي جاء منه.

هذه هي الأسباب البسيطة الممتعة التي تجعلني أحب السفر بوجه عام؛ فهو يتيح لي فرصة التعرف على أصدقاء جدد، وتذوق أطباق جديدة، واكتشاف ألعاب ورياضات جديدة، وإعادة التعرف على أصدقاء لا أراهم سوى مرة كل عام، ومناقشة مختلف الموضوعات لساعات بلا توقف، والتقاط صور فوتوغرافية، والرسم والتلوين، والكتابة والقراءة، وتناول ثلاث وجبات يوميًا، والاستمتاع بأوقات الشاي والمرطِّبات، ومراقبة عجائب الطبيعة والإنسان، خلال رحلاتي يمكنني أن أسير على قدميّ طوال اليوم، وأنام بعمق طوال الليل، وأستطيع أن أقضي وقتي في الهواء الطلق وسط الطبيعة، أراقب الأشجار وأنصت إلى الطيور وأتنفس بعمق.

غير أن السفر إلى تركيا يوفر لي أكثر من ذلك؛ فهو يمنحني الوقت لأستغرق في أحلام اليقظة، خاصة أثناء رحلات الحافلة الطويلة، ويمنحني الوقت لأرتب الكتب في مكتبة حياتي ترتيبًا يلائمني، تساعدني هذه الرحلات الطويلة عبر السهول المترامية أن أفعل ذلك، فهي تمنحني

الوقت لأجلس مع نفسي في هدوء وأنصت إلى صوت أفكاري، ويساعدني السفر إلى تركيا أيضًا أن أتعافى من جراحي، فأحيانًا تمر على المرء لحظات يشعر فيها بقواه تخور، أو يشعر بالخوف من الخروج من خلف الستار للوقوف في دائرة الضوء على مسرح حياته المهنية، أو يشعر أن الحياة ستتوقف بعد فقد الحب، أو يشعر أن حقيبة مخاوفه وهمومه قد أثقلت كاهله، أو يشعر بالحنين لذلك الجزء المعنوي المفقود من حياته، أو يشعر بالوحدة والخوف يملآن حياته؛ في تلك اللحظات يساعد الطريق الترابي الخالي في التخفيف عنه؛ لأنه يدرك أنه حتى في هذه السهول الأناضولية الجرداء قد يرى مختلف صور الجمال، في هذا الطريق النائي عن كل ما هو مألوف يمكن للمرء أن يرى كل شيء واضحًا بمعزل عن حياته، من الغريب أن أجد متعتي في هذه الغربة، فهي تمدني بالسعادة والقوة لمواصلة السفر، وعندما أشعر بالخوف والوحدة والعزلة والشك وعدم الثقة في نفسي أثناء السفر أقهر هذا الشعور وأتغلب عليه، وأنا أفتخر بهذه الانتصارات الصغيرة التي أحققها؛ لأنها بمنزلة المطرقة التي تدقّ حائط شخصيتي لترأب صدوعه.

حينما يسافر المرء إلى تركيا، وإن كان منفردًا، يمكنه الشعور بالأمان أثناء تأدية هذه الأمور البسيطة، وبمقدوره أن يسترخي حقًا، وهو ما يستحيل أن أفعله في نيويورك حيث ينبغي أن أظل حذرة ومنتبهة على الدوام، في رحلتي عبر تركيا إبّان ذلك الفاصل السعيد بين الوطن واستكشاف المجهول عثرتُ على بلد مهيأ للمسافرين، مليء بالأيدي الرقيقة ووسائل الراحة وأماكن الفرار من الإجهاد والقلق.

سيدة ماري، تحدثتِ عن سمة أحببتها في صديقتك فاطمة، وهي روحها الآسرة: "إنها تواقة جدًّا للتعرف على عادات البلدان الأخرى،

ولا تنحاز مطلقًا لبلدها كما يفعل أصحاب العقول الضيقة''، أنا أيضًا لا أريد أن يكون عقلي ضيقًا؛ ولهذا أسافر.

حقًّا هناك ذكريات سارّة ترتبط بالسفر إلى تركيا، ورسائلك الأولى من ''أدرنه'' تعكس حماسًا شديدًا ومتعة، ويمكنني استشعار سرورك الشديد لا باكتشاف المجتمع العثماني فحسب بل أيضًا بعالم السفر الواسع، لقد مررتِ بمجموعة واسعة من تجارب السفر والسياحة مثلي؛ إذ أقمتِ في إحدى قصور السلطان، كما أقمتِ في فندق شراغان الذي كان في السابق قصرًا سلطانيًا، ورافقكِ إلى ''أدرنه'' مجموعة حرس من ٥٠٠ جندي إنكشاري، أما أنا فإن أيادي المساعدة التي امتدت إلي وأحاطت بي تكاد تكوّن جيشًا من الحراس الشخصيين، وتحدثتِ كذلك بانبهار عن الزخارف والأثاث المترف في القصور، وكم أتمنى لو أمكنك أن تري ترف قصر دولما بهجة الذي شُيد عقب رحيلك! حكيتِ كيف شاهدت السلطان وهو يمر في موكبه، وأنا أيضًا شاهدت شخصيات قياديَّة سياسية وصافحت رئيسة الوزراء السيدة تانسو تشيلر والسيد سليمان ديميريل أثناء رحلاتي، وتخبرنا إحدى أشهر رسائلك عن المأدبة التي أقامتها لك زوجة السلطان السابق، وأنا أيضًا جلست على مائدة الطعام مع شخصيات مهمة مثل عمدة إسطنبول خلال احتفالات اجتماع عام ١٩٩٥م للاتحاد الدولي لجمعية أمناء المكاتب، وتكشف لنا رسالة أخرى كيف ارتديتِ الملابس التركية لتيسير زياراتك للأماكن الدينية، وأنا أيضًا أمتلك زيًّا خاصًا أرتديه في رحلاتي يغطي ذراعيَّ وساقيَّ ورأسي، ويساعدني على عبور الشوارع ودخول أي مبنى أشاء في سرية، وقد استمتعت بشراء بابوج ''خف شعبي'' وطربوش ومناديل وجوارب صوفية من السوق لأرتديها في غرفتي في الفندق، إن وصفكِ لجامع السليمية في أدرنة لا يضارعه أي وصف لأشهر

المؤرخيـن الفنييـن المعاصريـن، إذ تصوِّرينـه بدقة حتـى أدق التفاصيل، وقـد أسـعدني أنـك أقمت صداقة مـع امرأة تركيـة هي فاطمـة الجميلة؛ لأننـي اختبـرت بنفسـي متعـة أن أكسـب صداقة أتـراك وأزورهـم مرات ومـرات، اعتـدتِ يا سـيدة ماري الخروج فـي نزهات بالعربـة إلى الريف المحيط بمنزلك، وبالمثل قمتُ بتوظيف سـائق لأشـرع في مغامرة العثور علـى أطلال كوباداباد أو الخـان المفقود، عقب وصولكِ إلى إسـطنبول وجدت إيقاعًا لحياتك يشبه إيقاع حياتي حينما أسافر؛ اتبعت نظامًا ممتعًا مـن القـراءة، والكتابة، وتعلـم اللغة التركية، والاسـتماع إلى الموسـيقى، وزيارة الأسواق والشوارع والأحياء القديمة والحمامات والجوامع وتكايا الدراويـش، والتنـزه بالقوارب صعودًا في بحر البوسـفور، كما ترين نحن نستمتـع بنفس مباهج السفر في تركيا؛ وأنا أسير على خطاكِ بكل دقة.

يشـع بريـق سـعادتك -وأنـت سـائحة- فـي رسـائلك التـي كتبتهـا مـن إسـطنبول، وهناك فقرات معينـة تتفوق على محاولات كتّاب السـفر المعاصريـن بلورةَ جوهر هـذه المدينة الفريدة، أبحـر قاربك صاعدًا بحر البوسـفور بحدائقه وغاباته ومسـاجده المتراصّة مثل "خزانة عرض تحف زخرفتها أمهر الأيدي"، ووصفكِ للزيارات التي قمت بها إلى قصر طوب قابي "الباب العالي" وآيا صوفيا وجامـع السليمية وجامـع السلطان أحمد والهيبـودروم "سـاحة الألعاب البيزنطية" ومولـوي خانه "مقر الدراويش المولويين" ما زال ساريًا حتى اليوم.

اسـتمتعت مثلـك بمباهج كثيرة خـلال رحلاتي في تركيا، وسـبحت مثل كليوباترا في سِـيدَة في ظل مسـرح بيزنطي قديم، وشـاهدت عروضًا في نفس المدرجات التي جلس فيها الأباطرة اليونان، وخرجت أستكشف العالم من نفس المدينة التي خرج منها الجغرافي الشهير سترابو.

من بين الأمور التي أستمتع بها في تركيا بوجه خاص استكشاف الأشجار القديمة، فكثيرًا ما استظللت بالأشجار العتيقة التي زرعها السلاطين في السهول، وظلت صامدة في وجه الأعاصير والمجاعات والحروب، ويبلغ عمر أغلبها ٥٠٠-٦٠٠ عام، ما زالت هذه الأشجار تقف شامخة حتى الآن؛ لتضرب لنا المثل في المرونة، أصبحتُ أدرك الآن معنى قول الأتراك "لكل شجرة روح"، وسبب توقفهم أثناء حفلات الزفاف لتعليق شريط زينة على الأشجار، انطبع عدد من هذه الأشجار المهيبة في ذاكرتي، فصرت أتذكرها بوضوح كما أتذكر تفاصيل المساجد التاريخية من الداخل، ومن أهمها: الأشجار الضخمة في مقابر المرادية الصوفية في بورصة، وشجرتا ساحة نزل "تاش خان" في مدينة مرزيفون ومجمع بايزيد الثاني في أماسيا، والشجرة التي تقف كأنّها حرَس خارج "تشيلي خان" في كرامان، والشجرة القديمة في بورصة التي تفترش الطريق المؤدي إلى جبال أولوداغ، والشجرة التي زرعها سنان في ساحة جامع "آتيك واليدة" في أوسكودار، وذات مرة تناولت الطعام في مطعم فندق في منطقة أغيردير مشيد حول شجرة، وكلما رأيت روحًا ضخمة من هذه الأرواح فكرت كيف نبتت وشهدت أحداث تاريخ تركيا منذ أيام السلطان سليمان القانوني وصولًا إلى أتاتورك وحتى عصرنا الحالي، وكيف تحرص الغابات التركية الوطنية ببرامجها الرائعة على حماية هذه الأشجار والحفاظ عليها للأجيال القادمة.

تجولت في بلدان كثيرة، معروفة وغير معروفة، في مدن كبيرة مزدحمة وفي قرى صغيرة مكونة من عشرة بيوت، وزرت قرى وبلدانا كنت فيها المرأة الوحيدة التي لا تغطي رأسها، ومن المستحيل أن أسرد انطباعاتي الشخصية الخاصة بأكثر من ٢٥٠ مدينة وبلدة وقرية زرتها في تركيا، فقائمةُ ما أسَرَّ لبّي طويلةٌ جدًّا، لكنني أقر أنني اكتسبت ثروة من الخبرات

والمتع والمباهج المرئية التي تشبع كل الحواس، مثلك يا سيدة ماري.

بقدر استمتاعي بقراءة وصفك لرحلاتك أحزنني عدم تمكنك من خوض التجارب الممتعة "المخيبة للآمال" المرتبطة بالسفر وحدك، سافرتُ داخل تركيا في سيارات أجرة وحافلات بين المدن، ولكلٍ منها مزاياها وعيوبها، إن شبكة الحافلات الممتازة التي تربط مختلف أجزاء تركيا اليوم ينبغي أن تكون مثالًا للكفاءة تحتذي بها كل أنظمة المواصلات في العالم، غير أن الأمور لم تكن بنفس الكفاءة منذ عدة أعوام؛ تضمنت طقوس السفر في الماضي مواقف حافلات تعمها الفوضى والهرج والمرج، ومواعيد وصول ومغادرة غير محددة، وباعة جائلين، وتغيير أماكن الجلوس باستمرار -كمن يلعب لعبة الكراسي الموسيقية- لضمان عدم جلوس امرأة بجوار رجل غريب، وتوقف الحافلة كل حين لالتقاط ثلاثة ركاب وعشر ذبابات من الطريق، والحر الرهيب، والمسافرين الذين يحملون صناديق كرتونية مربوطة بخيوط أو حقائب خيش أو حقائب رياضية مزودة بالمؤن من كل أنواع الأطعمة الخفيفة الممكنة من أجل الرحلة الطويلة؛ باختصار كانت تجربة السفر تجسد الطبيعة البشرية في ذروة نشاطها، وعلى صعيد آخر فالسفر بالسيارة يمنح المرء حرية كبيرة لمشاهدة المواقع البعيدة عن الطريق الرئيسة التي لا سبيل للوصول إليها، غير أن الطرق في تركيا تشتهر بالسائقين المتهورين؛ فقد ارتعبت ذات مرة حينما أجبرني جندي يحمل بندقية آلية أن أقف على جانب الطريق ليبتسم في وجهي ويقول: "أتمنى أن يكون طريقك ميسّرًا وسالكًا يا ضيفتنا الكريمة".

هناك تجارب أخرى مخيبة للآمال لم تمري بها يا سيدة ماري؛ نظرًا لأنك نعمت دائمًا بصحبة المرشدين والمترجمين و٥٠٠ جندي إنكشاري؛ فعلى سبيل المثال كان "مكتب السياحة" مصدرًا مستمرًا

للحيرة والارتباك؛ إذ كانت مكاتب السياحة منذ ثلاثين عامًا ضعيفة المستوى إلى حدّ بعيد، فكانت أماكن متربة مغبرة ذات مقاعد بلاستيكية بالية ومائدة قهوة منخفضة تتناثر عليها بعض أدلة السفر الغريبة المطبوعة باللغة الأجنبية الوحيدة التي لا يمكن للمرء قراءتها، وحينما يدخل السائح يجد نفسه دائمًا العميل الوحيد في المكان، وبالرغم من رغبة المكاتب الصادقة في خدمة العميل فإن الموظفين لم يتمكنوا من تقديم خدمات ذات قيمة، بل قد يكون طلب المساعدة من الصيدليات المجاورة أكثر نفعًا لأنها كانت مصادر ممتازة للمعلومات والاتجاهات.

مما زاد الوضع سوءًا بالنسبة لسائح مسافر بمفرده باعة السجاد الذين يلاحقونه طوال اليوم، ويتبعون كل خطواته، ويباغتونه من الخلف كلما استدار، ويجبرونه في كثير من الأحيان على الفرار من الشارع والاحتماء بغرفة الفندق للهرب من مضايقاتهم، حتى إنني أشك في قدرة جنودك الإنكشاريين الخمسمائة على تفريق هذا الجمع القاسي من الباعة، في الماضي قبل اختراع ماكينات صرف النقود الآلية كان صرف العملة من المصرف عملية تستغرق نصف النهار، مع الحاجة إلى ملء عدة نماذج والوقوف في صفوف طويلة والإجابة على عدة أسئلة.

وأيضًا فبعض الأمور البسيطة قد تكون خطيرة أثناء التجول في تركيا؛ فأرصفة الشوارع الرخامية الجميلة قد تكون زلقة إلى حد التسبب في موتك، ومن جانب آخر فالأرصفة الإسمنتية مليئة بالحفر والبلاط غير المثبت الذي قد يتسبب في تعثرك، ونادرًا ما توجد حواجز جانبية على المنحدرات، أما أشدّ الأخطار فتكمن في مجموعات الأطفال الصغار الذين يحومون حولك كسرب من الحيتان التي تشتم رائحة دماء، زرت مدينة سيرت في أحد الأعوام فبدأ الأطفال يتبعونني بأعداد هائلة،

وحينما شعرت بالضياع وسألت رجلًا عن الاتجاهات أشفق عليّ وقرر أن يصاحبني لمساعدتي في العثور على المسجد الذي أبحث عنه، كان المسجد يقع في حي فقير من أحياء المدينة، وعندما وصلنا إليه كنا محاطين بأكثر من ٦٠ طفلًا أغلبهم من الصبيان بين سن الرابعة والتاسعة، زادت خطورة الأطفال المحتشدين الذين ظلوا يصرخون ويتقافزون ويتدافعون ويمسكون بالأغراض ويتجاذبونها ويقذفونها، وللمرة الأولى في حياتي خشيت أن تتقطع أطرافي من شدة الجذب، وكان الرجل أكثر خوفًا مني على حياتي ما زاد من رعبي، في تلك اللحظة قررت أن أجعل من نفسي لنفسي حارسًا إنكشاريًا خاصًا، وصرخت بأعلى صوت "هذا يكفي!" ونجحت الخطة، وتمكنا من شق طريقنا عبر هذا الحشد، أخشى أن تكون تلك آخر مرة يقدم فيها هذا الرجل العون لأي سائح يحتاج المساعدة، أليس أمرًا ساخرًا أن تكون المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالخطر وأنا في تركيا سببها الأطفال!

هناك خطر آخر شائع جدًّا للأسف في تركيا؛ لا يمكنني أن أنسى مطلقًا الهزتين الأرضيتين اللتين شعرت بهما في جنوب تركيا، تركت أولاهما ١١٠ قتلى عام ١٩٩٨م وكانت بمنزلة نذير للمأساة التي وقعت في العام التالي.

بالرغم من كل التجارب المخيبة للآمال في السفر، فإن مشاهدة الريف التركي المذهل تعوض كل شيء، إن الطريق الترابي القادم من إنجيسو إلى أورجوب مثير إلى حدّ بعيد؛ فهو طريق ملتف يصعد إلى أعلى التل ليكشف فجأة عن مشهد آسر شامل لوادي جوريم في كابادوكيا، أما رحلة السيارة من نيدي إلى تشيفتيهان مرورًا بسلسلة جبال آلاداغلار وبولكار عبر ممر صقلية الشهير الذي عبره الصليبيون ويعد من أندر ممرات جبال طوروس فقد أتاحت لي فرصة لرؤية بعض من أجمل المشاهد التي رأيتها

في تركيا وفي العالم كله، وفي الطريق إلى أرتفين الذي يمر عبر حقول أرداهان المكسوة بالعشب الأخضر والأزهار البرية شاهدت الأفراس البرية تعدو بِحُريَّة، ومهورها تتراقص خلفها، ومن أحب الرحلات إلى قلبي الرحلة المذهلة للصعود من توقات إلى سيواس عبر طريق تشاملوبيل، الذي يتميز بتقديم مشهد بانورامي للبلد كله من أعلى، وربما أمكنك أن ترى كلاب الكانجال تحرس الغنم في الحقول الطينية بالأسفل إذا أنعمت النظر، أستمتع بالفعل بتلك الساعات التي أقضيها في هذه الطرق، ولا يكسر الصمت سوى صوت الريح تداعب نافذة السيارة، وأعود من تلك الرحلات محملة بكثير من الذكريات عن السكون والتناغم، فأستعيد هذه اللحظات المضيئة في ليالي المدينة القاتمة التي تحبسني جدرانها الإسمنتية، وأتذكر هذه الرحلات المثالية بالسيارة وتلك العزلة الخلابة التي تشكل جزءًا عزيزًا خالدًا من ذكرياتي أثناء السفر.

سيدة ماري، يمكنني استشعار مدى سعادتك بالحياة في تركيا، وكما قلتُ في رسالة سابقة وسأظل أقول: لا يمكنني أن أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن إحساس السعادة الفطرية والرضا اللذين أشعر بهما وأنا في تركيا، تتجلى حقيقة شعورك بوضوح في رسائلك الأخيرة من إسطنبول التي يشوبها حزن دفين لاضطرارك للرحيل، "أستعد حاليًا لمغادرة القسطنطينية، ويؤسفني ذلك؛ فقد اعتدت على الهواء هنا وتعلمت اللغة، أشعر بالراحة هنا"، وعدتِ إلى وطنك محملة بنبع من الذكريات الخالدة مثلما أفعل كل مرة، يمكنك أن تنهلي منه متى شئت، أما أنا فقد بكيت في المطار، وبكى الآخرون لرحيلي مع أنني لم أبق معهم سوى أيام قليلة، وأنا أيضًا شاهدت بعض النساء تسكبن الماء على عتبة بابهنّ تيمنًا بأن تسير رحلتي بسلاسة، وأنا أيضًا طمأنني وكيل سفري لدى رؤية دموعي قائلًا: "ستعودين إلينا مرة أخرى، أعدك بذلك!"

لكنـك اضطـررت للرحيـل، ولـدى عودتـك إلى وطنـك عرفت مرة أخـرى معنى أن تكوني مسـافرة، ومـع هذا سـعدتِ بالعـودة إلى الوطن؛ فبالرغم من حبنا للسفر واعتزازنا بالبلدان الأجنبية لا يوجد مكان يضاهي الوطـن، إن إدراك ذلـك والسـعادة بالعـودة للوطـن من أمتـع مزايا عبور الجسـور، أشعر أن بمقدوري تذوق المشـروبات الباردة التي تناولتها كما تصفينها في إحدى أكثر رسائلك تأثيرًا:

"لا يسـعني أن أنظـر بحياديّـة إلى وطني؛ لا بـد أنّ الانحياز سـمة أضْفَتْها علينا الطبيعة لتفادي الحيرة، وهي التأثير الناتج عن التعطـش الطموح للمعرفة الذي يمنعنا تكويننا من الاسـتمتاع به، كل ما نحصل عليه منها هو رغبة عقيمة في دمج المباهـج ووسائل الراحة المختلفة المتوفرة في أجزاء متباينة من العالـم لا يمكن لها أن تجتمـع في مكان واحد.

بعد أن قرأت كل ما تتيحه اللغات التي أتقنها، وبعد أن أفنيت بصـري في الدراسـة منتصف الليـل، أتمنى راحة البـال التي تنعم بهـا خادمـة تحلب الأبقار، ورديّة الخدين، لا يداخلها شـك وهي تنصت بخشـوع إلى المواعظ؛ فشـعورها تجـاه واجبها في الحياة لـم تربكـه التسـاؤلات التافهـة التـي يطرحهـا العلمـاء، الذيـن قد يكونون أكثر منها علمًا، لكنهم يظلون في النهاية جاهلين.

عقب أن تجولت في أجزاء من آسيا وأفريقيا وأغلب أوروبا، أعتقد أن النبيل الإنجليزي الحقيقي هو من يجد أن مذاق الثمار الإفريقية لا يضاهي مذاق التفاح الذهبي، وأن طعم اللحم الإيطالي لا يـوازي طعـم قطعة مـن اللحم البقـري المحلـي، وباختصار لا توجـد متعـة كاملـة في الحياة خـارج إنجلترا العريقة، عسـى

أن يظـل هذا هـو رأيي فيما بقي من حياتي، ونظـرًا لأنني مضطرة للرضا بالقدْر الضئيل من ضوء الشـمس الذي يصلنا فليتني أنسـى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة".

إنّ العـودة إلـى الوطـن تخفف بالفعـل من حدة الحزن لفـراق تركيا، غيـر أن هـذا البلد قد غـدا بمنزلة وطن لـكِ ولي، ونحـن ممتنون لذلك، لا أهتـم بالانطـلاق فـي رحلات حـول العالم لاكتشـاف ملاييـن البلاد، ولا أظن أن القيام بذلك سيثري شـخصيتي، فأنا لا أسـعى للمباهاة بعدد الدول والقارات التي زرتها، بل أحلم بأن أسـتمتـع بالسـفر على طريقتي، وأريد أن أكون سـعيدة جدًّا في مكان اعتبرته وطني، مكان يجعلني ممتنة للعودة إلى وطني الحقيقي، وقد منحني السفر إلى تركيا هذه المتعة.

في النهاية كيف أجيب على السؤال حول سبب سفري إلى تركيا مرارًا وتكرارًا! ماذا يجذبني إليها كل عام كأنني حاجّ يؤدي شعائر مقدسة؟ لأكون صادقة لا أظن الأمر يتعلق فقط بالأحجار المعبِّرة، والجسـور، والأشـجار البالغة ٥٠٠ عام، والطريق المفتوح؛ بل ببساطة لأن تركيا مليئة بالأتراك.

صديقتكم

كاثرين برانتج



خريطة مرسومة باليد لمدينة أفيون عام ١٩٨٣



شجرة على طريق أولوداغ في بورصة



BİN YILLIK AĞAÇ

خبر صحفي حول شجرة تبلغ ألف عام بالقرب من أرزينجان



في الطريق بالقرب من أرضروم



شجرة الدلب في بورصة



قطار "الترام" في قونيا

İLLER

01 Adana	26 Eskişehir	51 Niğde
02 Adıyaman	27 Gaziantep	52 Ordu
03 Afyon	28 Giresun	53 Rize
04 Ağrı	29 Gümüşhane	54 Sakarya
05 Amasya	30 Hakkari	55 Samsun
06 Ankara	31 Hatay	56 Siirt
07 Antalya	32 Isparta	57 Sinop
08 Artvin	33 İçel	58 Sivas
09 Aydın	34 İstanbul	59 Tekirdağ
10 Balıkesir	35 İzmir	60 Tokat
11 Bilecik	36 Kars	61 Trabzon
12 Bingöl	37 Kastamonu	62 Tunceli
13 Bitlis	38 Kayseri	63 Şanlı Urfa
14 Bolu	39 Kırklareli	64 Uşak
15 Burdur	40 Kırşehir	65 Van
16 Bursa	41 Kocaeli	66 Yozgat
17 Çanakkale	42 Konya	67 Zonguldak
18 Çankırı	43 Kütahya	68 Aksaray
19 Çorum	44 Malatya	69 Bayburt
20 Denizli	45 Manisa	70 KARAMAN
21 Diyarbakır	46 K. Maraş	71 Kırıkkale
22 Edirne	47 Mardin	72 Batman
23 Elazığ	48 Muğla	73 Şırnak
24 Erzincan	49 Muş	74 Bartın
25 Erzurum	50 Nevşehir	75

أرقام اللوحات المعدنية في المقاطعات التركية



منطقة تسجيل الدخول، الخطوط الجوية التركية في مطار "جون إف كينيدي" في نيويورك



مرفأ سينوب



ترسانة سفن هاليتش (الخليج)



مكتب تذاكر محطة الحافلات، مالاطيا



فندق أونيه على البحر الأسود



أغيردير



قرامان



قوس قزح بالقرب من أرزينجان

الجزء الثالث

شعــــب

صفحة فارغة

الرسالة الثانية عشرة

سعيد من قال: أنا تركي

عزيزتي السيدة ماري،

لاحظتُ أنك لا تقضين وقتًا كبيرًا في تحليل الشخصية التركية أو إصدار أحكام على سلوكياتها، بل تصفين الأحداث دون تحليل، ويعجبني أنك تفعلين ذلك لأنني أحاول القيام بالشيء ذاته في حياتي المهنية والشخصية.

إن أعظم ميراث تركته رسائلك هو رفضك التصرف بتعالٍ ونقد للأتراك؛ إذ أدركتِ أن أسوأ صور العجرفة تتمثل في أن يأتي شخص أجنبي ويشرع في تصنيف مواطني أي بلد ويقع فريسة التعميمات والقوالب الشائعة.

من جانب آخر، قضيتِ وقتًا طويلًا في محاولة تحليل شخصيتكِ ومنزلتك الاجتماعية بدلًا من تحليل الأتراك؛ أعتقد أن التعليق الوحيد الذي قرأته لك حول الشخصية التركية هو أنها لا تكذب: "من مراتب الجود أن تقول الصدق، ومن النادر جدًّا أن تسمع كذبًا من أي تركي".

وقلـت كذلـك للقس كونتـي: "يمكننـي أن أخبرك بصدق يا سـيدي أن الأتـراك ليسـوا جهـلاء -كمـا نتصـور- بشـؤون السياسـة والفلسـفة حتى الشهامة".

في الواقع نحن -الغربيين- جهلاء بشؤون السياسة، ولا سيما ما يتعلق بالأتـراك؛ فبعد مرور أعوام من ترسـخ صـورة "الأتراك المرعبين" الذين يدقون أبواب فيينا والتأثير المشين الذي تركه فيلم "ميدنايت إكسبريس"، ما زالت هناك حتى اليوم شكوك وإساءة فهم لطبيعية تركيا وشعبها.

على مدار أعوام من السفر إلى تركيا لاحظت بعض التوجهات التركية التـي تختلف عـن توجهات ثقافتـي، وحاولت قدر استطاعتي أن أتحلى بالموضوعية مثلك أثناء مراقبتي لهذه التوجهات؛ فلا أنظر إليها عبر نظارة وردية أو نظارة سـوداء، غير أنك تدركين أنني أنظر من ركن نافذة ملطخة بمعتقداتي الشـخصية الكثيرة المتأثرة بأيام نشـأتي وثقافتي، وكما تقولين بوضوح تام: "إن الإدراك الإنساني قاصر قصور القدرة الإنسانية أو القوة الإنسانية".

ذكـرتُ منذ قليل أن هنـاك أفكارًا خاطئة كثيرة منتشـرة حول الأتراك، سـواء بحسـن نيـة أو بسـوء نية حتـى يومنـا هذا، ومـن الصعـب تصديق أن الأشـخاص في عالمنا المفتوح الواسـع ما زالوا يتشبثون بتلك الأفكار الرجعية الموروثة التي استمدت قوتها من مشاعر التحيز والخوف.

تركيا ليست في الشرق الأوسط، والأتراك يتحدثون التركية لا العربية، ولغتهم تُكتب بالأحرف اللاتينية.

صحيح أن الإسـلام هو الدين الغالب على أهل البلد، لكن أصحاب كل الديانـات الأخرى يمارسـون أديانهم منذ أيام السـلاجقة؛ ودليل ذلك انتشـار الكنائـس والمعابد اليهودية فـي أنحاء تركيا، فتتمتـع تركيا بحرية العبادة، تمامًا كما كان الوضـع أثناء وجودك يا سيدة ماري.

وفي عالم اليوم الذي ما زالت النساء يواجهن فيه نفس تحديات عصركِ الخاصة بقضايا المساواة والاستقلالية، تتمتع نساء تركيا بالحرية القانونية ذاتها التي يتمتع بها الرجال، كما لا يُجبرهن أحد على تغطية رؤوسهن.

في حين يتبنى البعض معتقدات زائفة حول الأتراك، فإنني أتساءل كثيرًا: كيف يرى الأتراك أنفسهم؛ فربما لا يكون من المستغرب أن تضم تركيا طوائف مختلفة من الناس، وسيكون من العسير حصر تنوع الأعراق والأديان والأصول والطبقات والمنازل الاجتماعية في هذا البلد.

يتمتع الأتراك بالتنوع الثقافي الخاص بهم مثلهم في ذلك مثل الأمريكان الذين يضربون للعالم أجمع مثالًا يبين أن تعدد الثقافات قد يفرز قوة اجتماعية هائلة إذا سُمح له أن يستمر وينمو، وهو ما حدث في تركيا؛ فليست هناك معايير عرقية تركية محددة لأن سكان تركيا متنوعون بين اللاز والأكراد والعرب ونسل القبائل التركية في آسيا الوسطى الذين بدؤوا يتوافدون على تركيا في القرن العاشر الميلادي.

تقدم كل هذه الأعراق تنوعًا مذهلًا في بنية الشعب التركي؛ فتجد أتراكًا بأنوف كبيرة راجعة إلى منطقة البحر الأسود، وأتراكًا طوال القامة بشعر أشقر، وأتراكًا آسيويين قصار القامة أقوياء البنية يتميزون بعظام وجنة مرتفعة وأعين مائلة تعود بكل وضوح إلى الفرس، وتجد أتراكًا بشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر أو أصهب من نسل الشراكسة الذين عاشوا بين حريم السلطان، وهناك أتراك بشرتهم بلون زيت الزيتون وبنيتهم بنية البحر الأبيض المتوسط النحيلة، وأكراد بأنوف كبيرة وأعين أخاذة نابضة بالحياة، إلى جانب الفلاح الأناضولي القوي المكتنز مدبب الرأس القسمات الحادة.

أما في النسـاء، فتجد نسـاء بملامح رقيقة يمكن نسـبتها إلى الشـرق الأقصى، ونساء بوجوه عريضة سلافية، وهناك أطفال حُمر الشعر من نسل الصليبييـن بمنطقـة البحر الأسـود، وأطفال اللاز ذوو الأنـوف المعقوفة، وأطفال العرب ذوو البشرة اللامعة بإقليم هاطاي.

وينطـوي هـذا التنوع على أزيـاء مختلفة، بدءًا من أزيـاء المصممين الرائجة في إسـطنبول، إلـى الأحزمة العريضة والسـترات الطويلة وأغطية الـرأس ذات النقوش المربعة في منطقة الجنوب الشـرقي، إلى السـراويل الواسـعة التـي يرتديهـا الرجـال والنسـاء فـي وسـط الأناضـول، وصولًا إلى الملابس البراقة الزاهية الألوان التي ترتديها النسـاء الكرديات وتتميز بحبات التِرْتِر والأشرطة المثبتة على ظهورهن.

يرتـدي الرجـال الأتراك قبعـات مسـطحة أو قبعات بيضاء، والنسـاء أوشـحة حريرية ملونة أو أوشحة قطنية بسـيطة تزين حوافها أزهار كُرَيْشَة صغيرة حيكت بدقة.

لعل أغلب هذه الأزياء تشـبه ما رأيته يا سـيدة ماري، غير أن العولمة بدأت تمحو آثار هذا التنوع لصالح القمصان وسـراويل الجينز والأحذية الرياضية التي أصبحت شائعة جدًا بين شباب تركيا.

كنـتُ منتبهـة منذ لحظـة وصولي إلى تركيـا ألا أقع فريسـة القوالب الشـائعة التـي كونتها من انطباعـات الآخرين، وقد كنـت محقة في ذلك؛ فعندمـا يوصـف شـخص بأنـه عنيد في اللغـة الفرنسـية يُقـال: "إنه عنيد كالأتـراك!" لكننـي لن أصـف الأتراك بالعناد بقدر مـا أصفهم بالانضباط وصعوبـة المـراس؛ فالأتراك حازمون ويقـررون دائمًا ما فيـه مصلحتك، حتـى إن لم يكـن ذلك ما تتوقعه؛ فلا يمكنك طلب طبق من قائمة الطعا إذا رأى النـادل أنـه ليـس فـي مصلحتك، وسـيقدم لك أطباقا لـم ت

ولا تثير اهتمامك، لأنه يرى أنها الأطباق التي يجدر بك تناولها، ولن يسمح لك صاحب المتجر مثلًا بشراء سترة برتقالية إذا ظن أن اللون لا يناسبك، مهما عرضت من نقود.

يتمتع الأتراك بنظام رادار شخصي داخلي بالغ التعقيد؛ فيدركون كل شيء يحدث حولهم، ولا شيء يفوتهم؛ لذا يحرصون على الانتباه لشؤونك، لأن عيونهم في كل مكان.

إنهم لا يغفلون عن أدنى حركة ولا يفوتهم شيء؛ فإياك أن تحاول ارتكاب شيء أمامهم، غير أنهم ليسوا جواسيس للشرطة، بل إنهم يفعلون ذلك لحرصهم الشديد أن تتلقى الرعاية الكاملة، وألا يقع الأطفال من أعلى السلالم، وأن يتم توفير مقعد لامرأة توشك أن تفقد الوعي، على سبيل المثال.

يميل الأتراك لحماية من حولهم، ولا يريدون أن يتعرض ذووهم أو من يلون أمرهم لأية مشكلة أو مأزق؛ قد يتخذ الأمر صورة رسمية تتمثل في نقاط التفتيش المرورية على طريق ملاطيا، يقوم الأتراك بذلك بحذر وسرية، فيفاجئك الأمر تمامًا عندما تكتشفه؛ فثمة تركي خلف كل شجرة وفي كل زاوية يراقب ما يحدث، مستعد للتصرف في أي لحظة إذا لزم الأمر؛ إنه موظف استقبال الفندق بمدينة وان الذي اتصل بزميله -في الفندق الذي سافرت إليه في المدينة التالية- ليطمئن على سلامة وصولي، لأنه شعر أنني لم أبد على ما يرام؛ إنه صاحب المتجر في مدينة قيصري الذي يبادرني بقوله: "صباح الخير يا آنسة كيتي" كلما دخلت إلى متجره، (كيف عرف اسمي؟)؛ إنه البقال في مدينة سيواس خلال أيام المحن السياسية، كان يترك بندقيته ليقدم لي عصير الكرز، ويقرب لي مقعدًا، ثم يمسك بندقيته مرة أخرى ليقف بجوار الباب؛ إنه النجار

في مدينة وان شرق تركيا الذي حيّاني بحماس قائلًا: "مرحبًا، كنت أنتظر قدومك" وحين سألته كيف عرف أمري، أجاب "أعرف كل شيء عنك! بلغني أنك في المدينة وكنت أنتظرك؛ فالمدينة كلها تتحدث عنك!".

يعشق الأتراك الزهور، وهذه العاطفة منتشرة على الصعيد الوطني؛ فتجد نقوش الزهور على كل الستائر وأغطية رأس السيدات وأباريق الشاي، ويقضي باعة الأزهار ساعات في صنع أكاليل كبيرة مزركشة لحفلات الزفاف، ويصنع الأتراك باقات مركبة من أزهار بلاستيكية تعلوها قطرات ندى صمغية اصطناعية، ويكون الإقبال على شرائها أكبر من الأزهار الطبيعية، ويضعون بتائل الأزهار فوق أطباق السلطة وينثرونها على موائد العشاء، ويستغلون الصفائح الفارغة لزيت الزيتون في زراعة الأزهار ويضعونها في كل مكان ملائم.

الأتراك مولعون بالزهور عمومًا لكن ثمة زهرة ذات أهمية خاصة في قلوبهم: إنها زهرة التُّوليب، سأتحدث بالتفصيل في رسالة أخرى عن حدائق الجنة في إزنك، لكن القصة التالية ستعكس مدى الولع التركي بالتُّوليب، والقصة تدور حول "مسجد لالَهْ" في قيرشهير الذي بُني عام ١٢٧٢هـ، واسم المسجد مقتبس من اسم زهرة تُوليب رائعة الجمال أهداها طالب في "مدرسة جاجابي" الدينية المجاورة إلى بُناة المسجد، ثم بِيعت الزهرة لتمويل عملية ترميم المبنى ليكون مسجدًا، لكن لا داعي لأن أحدثكِ يا سيدة ماري عن ولع الأتراك بالزهور، أليس كذلك؟ فالسلطان أحمد الثالث الذي تولى الحكم أثناء وجودك في تركيا ترك بصمته التاريخية بتشكيل "عهد لاله (التُّوليب)"، وهي فترة من البهجة والتنوير ركزت على الولع بزهرة التُّوليب في الفنون والأدب والحياة الاجتماعية.

غير أن زهرة التُّوليب كانت محبوبة قبل الموجة الجنونية التي اجتاحت تركيا؛ كتب بوسبيك الذي كان سفير الإمبراطور النمساوي في بلاط السلطان سليمان الكبير عام ١٥٥٤م في رسائله: "شاهدنا في كل مكان أزهارًا وفيرة... الأتراك مولعون جدًّا بالزهور حتى إن فرق المشاة تلقت الأوامر بعدم الوطء عليها"؛ وقد أحضر زهرة التُّوليب إلى أوروبا، وبحلول عام ١٦٣٠م اجتاح "شغف التُّوليب" هولندا.

يستمتع الأتراك بكل موسم من مواسم العام لأقصى حد، وترمز زهور التُّوليب للميلاد من جديد وسعادة الحياة، واليوم نرى التُّوليب في كل مكان، في أصص على طاولات الخطوط الجوية التركية ، وفي كل كتيب أدعية منشور، وفي سلاسل المفاتيح، بل قد أصبحت الرمز شبه الرسمي لدولة تركيا، حتى إن الآلاف من أكواب الشاي التي تُقدم في تركيا تتخذ شكل زهرة التُّوليب.

غير أن زهرة التوليب تواجه منافسًا قويًّا، وهو الورد؛ ففي أكثر قرى تركيا المتربة المتواضعة هناك دائمًا محاولات لإنشاء صورة من صور الحدائق العامة المزروعة بشجيرات الورد، قد تكون رقعة من الأعشاب في منتصف ميدان، وغالبًا ما تنتشر حدائق الورد المزهرة حول مساجد الأحياء ويعتني بها بستاني مقيم.

أرى أن أجمل ورد في تركيا هو الورد القرنفلي الذي ينبت على ضفاف النهر الأخضر في توقات؛ ذات مرة كنت في متجر مع صديقة أرادت شراء إبريق للشاي، وظل صاحب المتجر يعرض عليها تصميمًا تلو الآخر ولم يعجبها أيّ منها، وأخيرًا عرض عليها إبريقًا مزينًا بورود حمراء مشرقة، فصاحت مجموعة من النسوة الواقفات حولنا وهن يراقبن ما يحدث: "نعم، إنه أجملها! لا بد أن تشتري هذا الإبريق!"

لكن صديقتي غادرت دون أن تشتري شيئًا؛ وشعرت أنني ملزمة بالبقاء لأوضح لصاحب المتجر أن إحجامها عن الشراء لا ينطوي على أية إهانة له أو انتقاص من جودة بضاعته، وإنما يرجع السبب إلى أنها -في الواقع- لا تحب الأزهار، لن أنسى تعبير الاستنكار الذي علا وجوه الجميع؛ لأن هذا السبب غير معقول في تركيا.

بالإضافة إلى حب الأتراك للزهور يحبون الطبيعة أيضًا أكثر من أي شعب آخر؛ فالطبيعة الخضراء تحمل قدسية خاصة في أعينهم، وتنعكس حيويتها وخضرتها في أطر الأبواب والنوافذ وأعالي القباب والسجاجيد وأصص الريحان.

وثمة شبكة واسعة من الغابات الوطنية التي تغطي أراضي تركيا، ومن أحبها إلى النفس المتنزه الوطني لجبال إلغاز.

لا شيء أحب إلى الأتراك من تسلق الجبال الشاهقة والتنزه فيها، وإذا تعذر ذلك فيمكن إيقاف السيارة على جانب الطريق، والجلوس تحت الأشجار، وتناول الفاكهة الطازجة أو أكواب الشاي أو الشواء على الشواية.

لقد منّ الله على تركيا ببيئة طبيعية مميزة يقدّرها الأتراك الذين يوقرون بحارهم وجبالهم وغاباتهم وبحيراتهم ويستمتعون بها، ويحبون الطيور ويحتفظون بها في أقفاص في الحدائق، كما فعل السلاطين الأتراك من قبل حينما أمروا ببناء بيوت حجرية للطيور في الجدران الخارجية للمساجد.

كذلك يحرص الأتراك على البقاء بالقرب من المزارع والأراضي، ويستمتعون بقدوم الربيع إذ تتفتح أزهار التُّوليب البرية، ويقدّرون خيرات الأرض، سواءٌ كانت محاصيل وفيرة أو عسل النحل.

من أشهر قصائد الشاعر التركي الشعبي العظيم عاشق فيسيل قصيدة بعنوان "تراب الأرض" يقول فيها: "حبيبتي المخلصة هي الأرض، رغم أنني جرحتها بمعولي ومجرفتي، ابتسمت لي وأهدتني وردًا حمراء؛ حبيبتي المخلصة هي الأرض..." وما زالت الخيول الغالية تعدو في الأراضي الجبلية بشرق تركيا، وهي تلقب -احترامًا- باسم "أجنحة الأتراك" المقدسة.

يتجلى حبّ الأتراك للطبيعة في المكانة الخاصة التي يمنحونها للماء؛ فلا يضيعون أي فرصة للشرب من سُبل المياه العامة الكثيرة في المدينة، أو الشرب مباشرة من الينابيع العذبة المتدفقة بجوار الطرق؛ فمن المعروف أن إتاحة سبيل ماء من أفضل وأتقى الأعمال الدينية.

يحب الأتراك الماء كما يحب الفرنسيون النبيذ، ويمكنهم التمييز بين مياه الينابيع المختلفة بنفس الدقة التي يميز بها أحد سكان بوردو بين أنواع الخمر التي يمتلكها.

الأتراك يحترمون ينابيعهم، وعلى رأسها نبعا نكسار وأيفاز؛ ولا تجدهم يقودون سياراتهم في الطريق بجوار نبع دون التوقف لملء الزجاجات وحافظات المياه، بل إنهم يحتفظون في صندوق السيارة بأوعية وزجاجات بلاستيكية لهذا الغرض بالتحديد.

يحب الأتراك الموسيقى وكل ما يتعلق بها، الاستماع إليها حية أو مسجلة، وتأليفها، والغناء معها، ويتمتعون بمواهب موسيقية متعددة، شأنهم في ذلك شأن الأمريكان؛ ففي تركيا تسمع الموسيقى الصاخبة المتواصلة في كل مكان: في الحافلات والمتنزهات والمطاعم ونواصي الشوارع والمتاجر؛ يبدوأنهم يعانون مما يعرف باسم الخوف من الصمت؛ في بعض الأحيان يكون الأمر مرهقًا، لأنك لا تنعم بدقيقة من الصمت

تنصت فيها إلى فِكَرِك أو إلى تغريد الطيور في الصباح، غير أنك لن تشعر مطلقًا بالحزن أو الوحدة وسط هذه الموسيقى المفعمة بالحيوية.

ويتذوق الأتراك كل أنواع الموسيقى، من الأغنيات الشعبية إلى المقطوعات العثمانية الكلاسيكية وموسيقى البوب المعاصرة، وبالرغم مما يقال فإن عددًا كبيرًا من الأشخاص يقرون باستمتاعهم الآثم بموسيقى الأرابيسك وعواطفها المبالغ فيها؛ وبالطبع فإن النجوم في تركيا يلقون معاملة خاصة، وخاصة الموسيقيين والمغنين، يكادون يُعاملون بتقديس.

تحدثت بالفعل في رسالة سابقة عن مكانة الأسرة، لكن فكرة الأسرة في تركيا تتجاوز كيان الأسرة المفردة؛ فالأتراك يربطهم التزام مشترك تجاه غيرهم من البشر، وينظرون إلى المجتمع كله أنه امتداد لأسرتهم الصغيرة، يضعون الأسرة فوق أي اعتبارات أخرى؛ فمن الضروري في رأيهم أن تكون الحياة في المجتمع متناغمة؛ فلا يلقون بالًا للقيود ومبادئ الخصوصية التي نفرضها في الغرب على أنفسنا، بل إنهم يتناولون المقبلات معًا ويشربون الشاي من نفس الإبريق، ولا تجد تركيًّا يأكل وحده، أو يموت وحده، أو يخرج في رحلة وحده، أو يسير في الطريق وحده.

ويتسم الأتراك أيضًا بالعاطفية والانفعالية؛ يميلون بطبيعتهم للمبالغة والتأثر الشديد والإفراط في الانفعالات؛ إنهم أشخاص ميالون للعناق، وعواطفهم رقيقة، ومشاعرهم فياضة، وأحاسيسهم مبالغ فيها مثل أهالي تكساس؛ فكثيرًا ما تكون أغانيهم حزينة وكئيبة.

في أحيان كثيرة يكون الوجه الهزلي المبتهج للشخصية التركية ذا طبيعة كئيبة؛ لذا فإن موضوع الاستياء من الاغتراب يظهر بقوة في الأعمال السينمائية والأدبية والموسيقية؛ تعتبر المآسي جزءًا طبيعيًّا من الحياة، ويمكن رؤيتها في الأفلام القديمة التي تُعرض باستمرار في التلفزيون،

وفـي الأغنيـات، وفي الصفحات الأولـى للصحائف التـي تمتلئ بجرائم الشـرف والمآسـي العائليـة وغيرهـا مـن الحـوادث الشـخصية المفجعة المصحوبة بصور ملونة عالية الجودة.

يتعامـل الأتـراك بعضهم مـع بعض بلطـف محبب؛ فيتبادلـون دائما اللمسـات واللكـزات والابتسـامات والملاحظـات السـاخرة، ويضعـون أيديهـم علـى صدورهـم ويـرددون اسـمك كثيـرًا أثنـاء حديثهـم معك، ولا يمكنهـم رؤيـة طفل دون أن يقومـوا غريزيًا بالتربيـت عليه، أو قرص وجنتيه، أو حمله وقذفه في الهواء، أو تقبيله.

والجميـع يعلـي قدر الشـعر، ومـا زال تقليـد إلقائه موجـودًا بقوة؛ إذ يستطيـع أغلب الأتراك إلقاء قصيدة واحدة على الأقل لشاعرهم يونس أمرهْ أو لمولانـا، ويمكنهم أيضًا التغني بكلمات كل أغانيهم العاطفية المفضلة، حتى إن السلاطين العثمانيين نظَموا الشعر عند الفراغ من الحملات الحربية.

مـن أهم سـمات الأتـراك الفضـول؛ إذ يراقبـون كل شـيء، من باعة أدوات المطبـخ الراكبيـن علـى المراكـب، إلـى المشـاجرات بالأيـدي، إلى حوادث تصادم السيارات، إلى حفلات الزفاف، إلى الأشخاص الذين يقرؤون الكتب؛ فلا يريدون أن يفوتهم شيء.

فـي البدايـة ظننـت أن كل حركاتـي ولفتاتـي تحيرهم لأننـي أجنبية، ثـم اكتشـفت أنهم يفعلـون ذلك مع الجميـع؛ ذات مرة حـاول صديقي الشـاعر أن يحدثني عن مولانا الشـيخ الصوفي برهان الدين معلم ونحن نقـف أمـام قبره في قيصري، وخـلال خمس دقائق كان قد جذب حشـدًا من اثني عشر شخصًا التفوا حوله للاستماع إلى "محاضرته".

وفي مناسبة أخرى كنت أستمتـع بقيادة السيارة من بوبابت إلى سينوب، ثم أوقفت السـيارة بعد ممر تشينجل مباشرة للاستمتاع بالمشهد من أعلى

وتناول ثمرة إجاص، وخلال دقيقتين توقفت سيارتان وخرج عشرة أتراك وأحاطوا بي، وهم يتحدثون ويعرضون عليّ الماء وفاكهة أخرى؛ بما أنني توقفت فلا بد أن يكون هناك سبب، ولم يرغبوا أن يفوتهم ذلك.

ومرة أخرى ذهبت لزيارة سوق في أزينا وهي قرية خالية تمامًا إلا من متجر حلاق وبقال وخباز، ترجلت عن الحافلة لا ألقي بالًا لشيء، وسرت تجاه السوق وبدأت ألتقط الصور، وكما حدث معي في ممر تشينجل ظهر تسعة رجال من حيث لا أدري، كانوا يقودون سياراتهم ثم قرروا التوقف لمراقبة ما أفعل؛ وتحولت زيارتي البسيطة للسوق إلى مهرجان عام بفضل ثرثرتهم وتدافعهم والتحديق إلى الكاميرا وطرح مختلف الأسئلة عليّ، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فعقب الزيارة اقترب مني جندي يحمل مدفعًا رشاشًا، وأخبرني أن العمدة -الذي كان يراقب كل ما يحدث من نافذته في مبنى مجلس المدينة المجاور- يدعوني لتناول الشاي في مكتبه؛ فتحوّلت زيارتي البسيطة لسوق قديم إلى لقاء دبلوماسي كامل استمر أكثر من أربع ساعات.

الأتراك مهتمون بالعالم من حولهم، وهم مستعدون دائمًا للانفتاح على أفكار جديدة، وعلى الأخص يريدون أن يعرفوا الطريقة التي يفكر بها الأجانب؛ فذات شتاء بعد أن تناولت غداءً مذهلًا عبارة عن يخنة لحم الحَمَل "هونكار بيندي" في مطعمي المفضل "هافوزلو" في السوق المغطى كابالي تشارشي بإسطنبول، قررت أن أتجرأ وأطلب معروفًا من رئيس العاملين وأنا خارجة؛ سألته عن إمكانية أن أشتري أحد أطباق المطعم، وبالطبع فاجأه السؤال، ثم نظر إليّ شزْرًا وقال: "سيدتي، ماذا ستفعلين به؟ لماذا ترغبين في شراء أطباقي؟" أدركت أنني أول شخص يطلب منه هذا الطلب، ولأنه تركي فهو فضوليّ بطبعه فأراد أن يعرف السبب.

حينما شعرت بقلقه من العملية برمتها، علمت أنني يجب أن أتوصل إلى سبب مثير ومطمئن، أو سأخرج من المطعم صِفْرَ اليدين؛ فوضحتُ له أنني "أجمع قوائم الطعام والأطباق من مطاعمي المفضلة حول العالم"، وأضفت بابتسامة عريضة على أمل أن أنال مرادي: "ومطعمك من أفضل المطاعم في العالم في نظري"، لكنه لم يبادلني الابتسامة، فأكملت كلامي قائلة: "أقوم ببروزة قوائم الطعام وتعليقها في مطبخي لتلهمني وأنا أطبخ؛ فعندما أنظر إليها أتذكر الوجبة التي استمتعت بها والمكان والصحبة التي كنت فيها، أما الأطباق فعندما أتناول الطعام فيها أتمنى أن يستمد لذته من ذكريات طعام قدمه طهاة ممتازون، وهدفي من ذلك أن أكرّم مهارتهم وقدرتهم؛ أستخدم هذه الأطباق وكلي أمل أن يكون الطعام الذي أعده في مثل لذة الطعام الذي تناولته فيها من قبل، وعندما يأكل ضيوفي في هذه الأطباق أتمنى أن يشعروا بنفس السعادة التي شعرت بها وأنا آكل فيها، كما شعرت اليوم وأنا أتناول طبقك الرائع "هونكار بيغيندي"، سكتُّ لحظة لألتقط نفسًا عميقًا، بينما واصل رئيس العاملين التحديق إليَّ، ثم أجابني في النهاية قائلًا: "حسنًا، يا سيدتي، هذا كلام رائع، لكنني ما زلت لا أفهم ماذا ستفعلين بأطباقي!".

ومن السمات الأخرى للأتراك أنهم لا يتقيدون بأي قيود، ولعلها أهم سمة تحتاج للاعتياد، لأنها غالبًا ما تبدو للأجانب أمرًا مهينًا وعدوانيًا؛ يفعل الأتراك بك ما يحلو لهم ببراءة بصورة تلقائية؛ فقد يجذبون الصحيفة من يديك أو يلكزونك أو يجلسون بجوارك مباشرة -ليس بالقرب منك بل ملاصقا لك- على مقاعد المتنزهات أو يربتون على كتفك أو يطرحون عليك أسئلة مباشرة جدًا "يبدو أنك تبلغين خمسة وأربعين عامًا، هل هذا صحيح؟ لماذا ترتدين نظارات شمسية قديمة الطراز كهذه؟"؛ يفعلون كل ذلك دون أدنى قصد لإزعاجك، بل بدافع فضولهم بما حولهم؛ يستحيل

أن تستطيع الجلوس في هدوء على مقعد متنزه أو في مقهى أو أن تُترك وحدك لتستمتع بزيارة مكان ما أو أن تتمتع بفطور هادئ دون أن يأتي شخص ويقرّب مقعدًا ليجلس معك.

والأتراك يحدقون إليك مباشرة ولا يعدون هذا التصرف إساءة، بينما تنظر ثقافتنا الغربية إلى التصرف باعتباره فظًا لا يحترم خصوصية الآخرين، أما الأتراك فيعدون ذلك وسيلة لإبداء المودة، هل تذكرين -يا سيدة ماري - كيف حدقت إليكِ النسوة ولكزنك عندما زرت مكانًا عامًّا؟ هذا بالضبط ما أتحدث عنه.

كذلك يهتم الأتراك بمعرفة ما يثير اهتمامك؛ فذات مرة وأنا في قيصري ظل حارس المتحف يلاحقني -باهتمام- من غرفة إلى غرفة، ويقف بجواري وأنا أدون ملحوظاتي وأرسم، حتى إنه كان يمد رقبته ليراقب ما أفعل، وعندما لم يتمكن من الرؤية بوضوح اقترب مني بشدة، وفجأة لم أستطع تحمل المزيد، فأغلقت الكتاب بقوة وقلت له: "يكفي هذا!"؛ فارتسمت أمارات الألم على وجهه، حينها أدركت أنه لم يكن يتصرف بدافع الفضول، بل كان يبدي اهتمامه بما أفعل لأنني أقف في نطاق سلطاته.

يتحلى الأتراك بروح وطنية عالية، ويشعرون بالفخر ذاته الذي يشعر به الأمريكان عند رفع علمهم، ويطلقون على طائراتهم أسماء مدنهم وأنهارهم المفضلة، ويفتخرون بشدة أنهم أتراك تجمعهم اللغة والثقافة.

تنبع كثير من عادات الأتراك من مبادئ وتعاليم الإسلام، مع عدد من العادات المثيرة للاهتمام من عصر الجاهلية؛ يتمسك بعض الأتراك بالقيم التقليدية لأسلافهم القبليين؛ فتجد بعضهم يعلقون خرزة زرقاء في متاجرهم أو سياراتهم، وهي عادة يعتبرها البعض وسيلة لتأمين الحياة

بينمـا يراهـا الآخرون أداة للزينة ليس إلا، وبعـض الأتراك لا يمرون على شجرة مقدسة دون ربط شريط النذْر.

يكـره الأتـراك أن يعارضهم أحد، وربما هذا ما أشـار إليه الفرنسـيون عندما وصفوهم بالعناد؛ ذات مرة طلبت من ماسـح أحذية تلميـع حذائي المفضـل المصنـوع مـن الجلد الأزرق الأدكـن، وأكدت أن لـون الحذاء أزرق أدكـن وليـس أسـود، وطلبت منه ألا يسـتخدم ملمعًا أسـود، فأومأ برأسـه وأخرج علبة وفتحها، فأدركت من فوري أنها ملمـع أسود، فطلبت منه التوقف، فغضب بشـدة وقال: "سـيدتي الأجنبية، هل تظنين حقًا أنني غير قادر على التمييز بين اللونين! هذا هو اللون الصحيح!"، بالطبـع كان الملمـع أسود، وتدمر حذائي الأزرق الرائـع للأبد بسبب عِناد هذا التركي الذي رفض الإقرار بأنه لا يحمل معه ملمعًا أزرق أدكن.

يتمتـع الأتراك بحس الدعابة، ولا يأخذون الأمور الخاصة بهم بجدية تامة؛ فيمكنهم السـخرية من أنفسـهم، ويمكنهم انتقاد أنفسـهم بسـهولة، ويتقبلون مصائب الحياة بنظرة قدرية رحبة المدى؛ فلا يتوقعون كل شيء أن يكون على ما يرام لأنهم يؤمنون أن الحياة نفسها ليست كاملة أو خالية مـن النقائـص، لكنهم متفائلـون ويعلمون كيف يضحكون مـن أعماقهم؛ قد يجلسون بصبر ساعتين عند انقطاع التيار الكهربائي، وينتظرون ساعات أن تأتي الحافلة دون أي شكوى.

لن يقر تركي مطلقًا أنه لا يعرف إجابة سؤال وُجه إليه، أو أنه لا يعرف مـا يفعلـه، فإذا لم يعلم الطلب الذي طلبته في المطعم سـيحضر لك طبقًا مـن كل صنف حتى يضمن إرضاءك، وإذا وظّفت سـائقًا خاصًا ليوصلك إلـى مـكان معين، فلـن يعترف -مـن البداية قبل الانطـلاق- أنه لا يعرف المكان الذي تبحث عنه، الأتراك لا يكذبون؛ أنتِ محقة في ذلك يا سيدة

ماري، لكنهم يخفون جهلهم بسرد قصص طويلة أو تقديم ذرائع تكون مسلية غالبًا.

الأتراك رجال أعمال ألمعيون مغامرون، حاضرو البديهة في مشاجراتهم، قادرون على تحقيق الأشياء وإنجازها؛ فهم يذكرونني جدًّا بالأمريكان.

كما يتمتع الأتراك بحس عالٍ بالمبادرة الفردية يصاحبه إحساس بالالتزام لضمان التماسك الاجتماعي، وهذا ما يجعلهم يدًا واحدة في أوقات الصعاب والأزمات، كما أنهم تواقون للتقدم، ماهرون عندما يتعلق الأمر بالنقود، ويتمتعون بقدر هائل من الشجاعة الشخصية؛ الأتراك أشداء الشكيمة ولديهم قدرة على مواجهة الحمقى، باختصار إنهم قادرون على الصمود.

وفي النهاية أختم ببعض ملاحظاتي المتفرقة:

الأتراك كلهم حيوية وحماسة، يطلقون بنادقهم في مباريات كرة القدم ويصفقون عندما تهبط الطائرات بسلام.

لا يحتقرون الشحاذين بل يرونهم أشخاصًا مستحقين للزكاة؛ يساعدونهم على تأدية تلك الفريضة.

الأتراك لا يجيدون السباحة لإنقاذ أنفسهم، ولا يقرؤون الكتب على الملأ، ويفخرون جدًّا بروحهم الرياضية خاصة عندما يتنافسون على ملاعب أوروبا، وفوق ذلك يمكن قراءة وجوههم بسهولة بالغة.

سأتحدث عن سخاء الأتراك ولطفهم المشهود في رسالة أخرى، وكما أَعُدُّ البلد وطني الأمّ "تركيتي" أَعُدّ الأتراك أبناء وطني الأم "أتراكي"؛

هـذه رؤيتـي لهـم، وأتمنى ألا تبخسـهم رؤيتي حقهـم وألا تجور عليهم؛ فهـل لاحظت إحدى هذه السـمات فـي معلمكِ أحمـد أو في صديقاتك أو خدمك أو في أحد الجنود الإنكشاريين خَمْس المئة؟

لعل أشهر مقولة لأتاتورك، مكتوبة على لوحات الإعلانات، ومنقوشة علـى قواعد تماثيله المنتشـرة في ميـدان كلّ قرية، ومطبوعـة على أبواب مجلـس المدينـة، ومكتوبـة فـي أروقـة أغلب المبانـي العامة، ومرسـومة علـى جوانـب الجبال، هـي العبارة الخالدة: "سـعيد من قـال أنا تركي"؛ إذا كانت الشـخصية التركية تتمتـع بكل السـمات الشـخصية التي تمكنت من ملاحظتها، فإن أتاتورك معه كل الحق في التوعية بهذا المورد الوطني الطبيعي الغني؛ لا تعكس هذه العبارة فخرًا زائفًا، بل حان الوقت أن يعلن كل تركي هذه الحقيقة بأعلى صوته ليسمعها العالم كله.

صديقتكم

قدرية برانج



ديار بكر مدينة البطيخ، وأسوار المدينة التي يمكن رؤيتها من الفضاء



تمثال لعاشق التُّوليب السلطان أحمد الثالث من كتاب في لندن نُشر عام ١٧٤١م



تذكرة اليانصيب التي تحمل التفاؤل دائمًا


حديقة أزهار في بورصة



بيت طيور حجري عثماني، مجمع بايزيد الثاني في أماسيا



سوق للأزهار البلاستيكية في قيصري



ورود من أجلك



إبراهيم كوتلوأي، نجم المباريات نصف النهائية لبطولة كرة السلة الأوروبية

عام ٢٠٠١م



"أجنحة الأتراك" المقدسة



حديقة مزهرة لأزهار زيت الزيتون في مانيسا



لوحة غرفة الختان في قصر طوب قابي



وردة مثالية في توقات



فلنكن أصدقاء الطبيعة



ورود على إبريق الشاي



SİNOPSPOR

-YARDIM PULU-

250.000 (İKİYÜZELLİBİN)TL

Seri-A № 063282

Sinop Valilik makamının 12.10.2000 tarih ve B.05
1. EGM.4.5700. 12/5.14411-1360 sayılı onayıyla

إيصال تبرع لأحد الأندية الرياضية



زخرفة ملونة على إحدى الحافلات



مدينة توقات



قونيا: "ممنوع الجلوس"

الرسالة الثالثة عشرة

ضجة في العالم

عزيزتي السيدة ماري،

تصفين النساء في رسائلك وصفًا دقيقًا للغاية، وسواءٌ كنت في راتيسبون أو فيينا أو "أدرنه" أو باريس لم تتواني عن رسم صور حية ومذهلة للنساء الأوروبيات اللاتي قابلتهن بأدق التفاصيل لموضوعاتهن المفضلة.

وبعد أن وصلتِ إلى تركيا واصلت مراقبة النساء التركيات بعينيك الحادتين، وكانت ملاحظاتك عنهن بمنزلة معلومات مهمة للمؤرخين ودُعاة المساواة بين الجنسين في شؤون الحياة اليومية في تلك الفترة، وكانت لقاءاتك بالنساء -أثناء رحلتك عبر أوروبا- بمنزلة محك مهم لقياس لقاءاتك بالنساء في تركيا؛ فقد تركت لنا -يا سيدة ماري- أربع رسائل بارزة خالدة تصفين فيها زياراتك لسيدات تركيات، تقدمين فيها رؤية نافذة لا لشخصية النساء فحسب بل لشخصيتك أنت أيضًا.

بخلاف تلك الرسائل الأربع، ثمة رسالة قد تكون الأشهر بين كل "رسائل السفارة"؛ لأنها ألهمت حركة الاستشراق في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، وفيها تسردين وقائع زيارتك لحمام عام تركي في صوفيا؛ فقد اعتمد محبو الغرائب على هذه الرسالة بشكل خاص لجمع كل التفاصيل المثيرة الخاصة بعادات حمام البخار التركي، وأثار الأمر اهتمام الرسام الفرنسي آنجر؛ فاستعان بألوانه الزيتية وفرشاته وأعمل

مخيلته الواسعة لتمثيل أوصافك الدقيقة لطقوس الاستحمام وعمارة الغرف، مبتكرًا اللوحة الاستشراقية الشهيرة "الحمام التركي".

في الواقع هذه الرسالة من أقرب الرسائل إلى قلبي؛ لأنها تصف النساء التركيات بكل صدق وحب؛ لقد قررتِ -يا سيدة ماري- أن تذهبي إلى الحمام متخفية، واستأجرت عربة تركية لتوصلك إلى الحمام في الصباح الباكر؛ فهل ظننت حقًا أن دخولك إلى حمام به أكثر من مائتي سيدة لن يكون ملاحظًا؟ لو كنت مكانك لعدت أدراجي، لكنك حافظت على رباطة جأشك وخضت التجربة؛ ها هي العبارات الدقيقة التي تصفين بها أربعمائة العين التي وُجّهت إليك:

> "كنت أرتدي ملابس السفر، وهي فستان لركوب الخيل، وبدا لهن بلا شك زيًا غير معتاد، لكن أيًا منهن لم تبد أدنى دهشة أو تنظر بفضول غير لائق، بل استقبلنني بكل لطف وكياسة ممكنة؛ فلا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب، أعتقد أن المكان ضم في المجمل مئتي سيدة، ومع ذلك لم أر ابتسامة ازدراء أو أسمع همسًا ساخرًا كما يحدث دائمًا في تجمعاتنا عندما يدخل شخص لا يرتدي ملابسه وفقًا لأحدث صيحة، وظلت النساء يرددن مرارًا وتكرارًا: «ساحرا هذا ساحر!» وجدت الكثيرات منهن يتمتعن بقوام متناسق متناسب كأجمل آلهة رسمها جويدو أوتيتيان، وبشرتهن تبدو... كأحسن تمثيل لآلهة الجمال والسحر والسعادة... طلبت مني السيدة التي بدت أعلاهن شأنًا أن أجلس بجوارها، وكانت على أتم استعداد لمساعدتي، لكنني اعتذرت بصعوبة؛ لقد افتتنت بلطفهن وجمالهن".

أما الرسائل الأربع الأخرى فتصف بالتفصيل زياراتك الشخصية لمنازل سيدات تركيات، فكانت الزيارة الأولى لمنزل سيدة تجاوزت

الخمسين من عمرها هي "حرم رئيس الوزراء العثماني"، زوجة أرناند خالد باشا؛ إذ تلقيت دعوة لتناول العشاء في منزلها في أدريانوبل "أدرنة اليوم"، واصطحبت معك مترجمك اليوناني، تم استقبالك بلطف كبير واحتفاء، وقدم لك خَدمها كمية هائلة من الأطباق قاموا بتعطيرها بعد العشاء، بالرغم من طيبة السيدة وجدتِ شخصيتها فاترة؛ لأنها تكرس أغلب وقتها للأعمال الخيرية والصلاة.

لكن زيارتك الثانية تجلت في واحدة من أروع رسائلك؛ فبعد مغادرتك للعشاء الفاتر مع حرم رئيس الوزراء العثماني، أقنعك مترجمك اليوناني بزيارة فاطمة زوجة الضابط الثاني، فوجدتها أكثر حيوية من العجوز المتدينة؛ استقبلتك فاطمة بأدب جمّ، وأقامت لك حفلًا موسيقى، وأهدتك مجموعة من المناديل المطرزة وأنت خارجة؛ يا له من وصف أسطوري الذي كتبته عن هذه المرأة الآسرة:

"فاطمة الزهراء، هذا اسمها، تفوّق هذا القدر من الجمال على كل شيء رأيته وعددته جميلًا سواءً في إنجلترا أم في ألمانيا، ولا بد أن أعترف أنني لم أر شيئًا بهذا الجمال الباهر، ولا يمكنني التفكير في وجه يقترب من جمال وجهها.

وقفت تستقبلني، وحيّتني بطريقتهم الخاصة، بأن وضعت يدها على صدرها برقة تمتلئ عظمة لا يمكن أن تفرزها التربية في أي بلاط، ثم أعطت أوامرها بتوفير الوسائد لي، وحرصت على إجلاسي في الركن، وهو مكان شرف مميز...؛ عقد الانبهار لساني حتى أنني لم أتمكن من الحديث معها؛ فقد كنت مأخوذة تمامًا بما رأيت؛ ما هذا التناغم الرائع بين قسماتها! ما أجملها كلها! ما هذا القوام الممشوق المتناسب بدقة! ما أحلى تورد بشرتها المثالية! ما أبدع ابتسامتها التي لا توصف! ناهيك عن عينيها، إنهما عينان واسعتان سوداوان يشوبهما حزن دفين! يكشف وجهها عن سحر

جديد مع كل لفتة! ومع هذا تتصرف بكياسة وعذوبة، وحركاتها رشيقة تغلفها العظمة، لكنها بعيدة كل البعد عن جمود المشاعر الذي أؤمن به، ولو أنها اعتلت فجأة أرفع عرش في أوروبا فسيظن الجميع أنها وُلدت وتربت ملكة، مع أنها تعلمت في بلد نعده بربريًّا؛ باختصار: ستتوارى أجمل جميلات إنجلترا عن الأنظار إذا وقفت إلى جوارها، أما أنا فلا أخشى أن أعترف أن متعة النظر إلى فاطمة الجميلة أكبر بكثير من مشاهدة أجمل تحفة".

قلت لها وأنت تودعينها يا سيدة ماري: "لم أستطع منع نفسي من تخيل أنني كنت في الجنة، وأن ما رأيته فيها أسرني".

أما ثالثة الزيارات التي تحدثتِ عنها، فكانت للسيدة حفصة -حظية السلطان مصطفى الثاني، الذي خلعه السلطان أحمد الثالث، وتوفي عقب أسابيع قليلة بالتسمم- تصفين ملابسها ومصاغها بالتفصيل، مع الإشارة إلى زمردة بحجم بيضة الدجاج الرومي، وإلى القرط المرصع بجواهر في حجم ثمار البندق الكبيرة، وإلى أكبر الخواتم الماسية التي رأيتها في حياتك: "أنا واثقة أن ملكة أوروبية لا تقتني نصف هذه الكمية، ومع روعة مجوهرات الإمبراطورة فإنها ستبدو هزيلة بجوار هذه المجوهرات".

قدمت لكِ العشاء على مناديل في مائدة فاخرة مخيطة بخيوط الذهب، وبعد انتهاء العشاء تجولت في حديقة السيدة حفصة، واصطحبتك إلى غرفة نومها حيث كل قطع فرائها ملقاة دون اهتمام على الفراش، لم تنطل عليك الخدعة؛ وسرعان ما أدركت أنها تحاول التباهي أمامك بمجموعتها.

زيارتك الرابعة -يا سيدة ماري- كانت أيضًا إلى منزل فاطمة الجميلة في القسطنطينية بعد مرور عام، وتضمنت كالمعتاد رؤية مهجعها ومشاهدة عرض موسيقيّ يؤديه خدمها، إلا أنك تمكنت هذه المرة من التحدث

معهـا باللغة التركيـة؛ ولهذا وجدتِ "ذكاءها أخّاذا تمامًا كجمالها"، ومرة أخرى أذهلتك هذه المرأة "الجميلة كالملاك "، وحين قلتِ لها: "سيثير جمـال وجهـك ضجة في باريـس!" أجابتك قائلـة: "لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشـأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين"؛ لا يمكننا مقاومة سحر هذه المرأة، فنحن مثلك تمامًا.

أثناء إقامتك في تركيا يا سيدة ماري، أتيحت لك الفرصة في مناسبات أخرى لإبداء آرائك في النساء التركيات، خاصة جمالهن وزينتهن وأزياءَهن والحريـة التـي يتمتعـن بها؛ لا خـلاف أن جمال النسـاء التركيات سـلب لُبَّك؛ تقولين في رسـالة أرسـلتها إلى أختكِ السـيدة مـاري في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م: "لم أر في حياتي كل هؤلاء النسوة الجميلات، لا بـد مـن الإقـرار أن الجمـال شـائع هنـا أكثـر ممـا هـو شـائع عندنا؛ مـن المسـتبعد أن تجـدي امـرأة غيـر جميلة؛ فهـن يتمتعن بأجمل بشـرة في العالم وبأعين سوداء واسعة عادة".

علاوة على تعليقك يا سيدة ماري على جمال وأناقة النساء التركيات، فمـن التعليقات المهمة التي أبديتهـا موضوع حريتهن؛ فأنت تصرّين على أن النسـاء المحتجبات هن أكثر النسـاء حرية في الحقيقة: "يمنحهن هذا الـرداء التنكري الدائم الحرية التامـة" ثم اختتمتِ تعليقك قائلة: "أنا أعدّ النساء التركيات بوجه عام الأشخاص الأحرار وحدهم في الإمبراطورية".

حظيـت أنا أيضًـا بفرص كثيرة لمراقبة النسـاء التركيـات، وأظن أنني كنت أوفر منك حظًا لأنني شـاهدت نسـاء من مختلف المسـتويات، ليس فقط سـيدات البلاط الأرسـتقراطيات ذوات الأقراط الماسية بحجم ثمار البندق اللاتي يقضين أوقاتهن في اللهو الدائم ويفسـدهن أزواجهن بتلبية كل رغباتهن؛ فثمة الكثير لنعرفه عن النسـاء التركيات خارج طبقة الحريم الأرستقراطية.

قابلتُ مجموعة واسعة من النساء التركيات، وتحدثت في موضوعات متخصصة مع نساء يدرن مكتبات، وتلقيت العلاج على يد طبيبات، وجمعت ثمار البندق مع زوجات المزارعين، وناقشت السياسة مع محاميات، وتعلمت طريقة تحضير الكباب على يد ربات بيوت، واشتريت مصوغات ذهبية مع نساء من إسطنبول وأوعية بلاستيكية من قونيا، وقرأت رسائل نصية على هاتف محمول لامرأة قروية غير متعلمة، وجلست مع نساء ريفيات في مقاعدهن بالقرب من النافذة نراقب الطريق.

كثيرًا ما يقال: "إن تركيا بلد التناقضات والصراعات المحتدمة بين عوامل متعددة"؛ أعتقد أن هذه المقولة صحيحة خاصة عندما يتعلق الأمر بالنساء؛ فمن جانب تقف النساء على أعتاب عصر جديد من المهنية؛ فنسبة الطبيبات والأستاذات الجامعيات في تركيا تزيد عن نسبتهن في أمريكا وأوروبا، ومن جانب آخر ما زالت النساء في القرى يتعرضن للقتل على أيدي أقاربهن إذا لطّخن شرف العائلة، وهي حوادث ترد بتفاصيلها في الصفحات الأولى للصحف موضحة بصور ملونة.

شاهدت نساء متشحات بالسواد من قمة رأسهن لأخمص أقدامهن، ونساء سوى ذلك، ورأيت نساء يمنعهن الحياء من رفع رؤوسهن لأعلى، ونساء جريئات وقحات استحييتُ من جرأتهن مع الرجال.

لطالما وُجد هذا التناقض في الثقافة التركية؛ ففي عصر الدولة العثمانية أدارت البلاد مجموعة من الملكات الأمهات القويات على مدار أكثر من مائة وثلاثين عامًا، وسادت "سلطنة النساء" الشهيرة خلال القرنين السادس والسابع عشر.

من بين النساء اللاتي هيمن على الحكم نقشيديل فرنسية المولد ذات النفوذ والدة السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩م)، شجعت ابنها على

إجـراء مجموعـة إصلاحات غربية شـاملة، كما منح أتاتورك النسـاء حق الاقتـراع عام ١٩٣٤م قبل أن تفعل فرنسـا ذلـك عام ١٩٤٤م، وكان يعلن دائمًـا أن العالـم يمكنه الحكم على أية دولة بالنظر إلى طريقة تعاملها مع النساء؛ أجد هذه المقولة من بين كل آرائه السياسية الأقرب إلى نفسي.

حدثتـكِ يا سـيدتي عن الاختلافات الجسـدية المتفاوتـة بين الرجال الأتـراك، وبالطبـع ينطبق ذلـك على النسـاء أيضًا؛ فتجديـن بينهن ربات البيـوت ذوات أغطيـة الـرأس الحريريـة ومعاطـف المطـر، والقرويـات متغضنـات الوجـه كالأشـجار العتيقـة وأعينهـن مشـرقة باسـمة تطـل من وسـط أغطية رؤوسـهن، وتجدين فتيات يرتدين مثل ملابسـنا يمشين بثقة ممسكات بأيدي أمهاتهن المتشحات بمعاطف طويلة فضفاضة تصل إلى الأرض وأغطية رأس تكسوها الزهور.

أذهلتنـي عـدة سـمات سـائدة بين النسـاء التركيـات، ومن أبـرز هذه السـمات فطنتهن وشـجاعتهن وسـعة حيلتهـن؛ فهذا النوع من النسـاء لا يقبل الترهات ويعمل بجد وينجز المطلوب، إنه النوع الذي يدير المزارع والأعمـال والعائـلات؛ فتركيـا اليوم متماسـكة بفضل النمـوذج العصري لسـلطنة النساء ليست النسـاء المتآمرات اللاتي رأيتهن في جناح الحريم، بـل النسـاء اللاتـي يدرن عجـلات المهن الحـرة ويحرثـن الأرض؛ إنهن سـيدات يتميزن بالحياة العملية ويفخرن جدًا بمنازلهن، ويؤمِنَّ أن المنزل المرتب بعناية حسن التأثيث دليل على الحب؛ يتمتعن بأيدٍ سريعة نشطة، تربط الشـرائط وتحْضِـر فطائر اللحم وترفـع الصحـون وتطرز المفارش؛ إنهن نساء عازمات قويات الإرادة يغلّبن العقل والمنطق.

لا تعد فكرة "المرأة العاملة" فكرة حديثة على النسـاء التركيات، بل ظلت النسـاء مئات السـنين يعملن في أرض الأناضول، ويحملن السلاح

أثناء حرب الاستقلال، ويجمعن المحاصيل من حقول القطن والقمح والتبغ، ويعتنين بالماشية والدواجن، ويحملن الحطب والماء، ويَفرزن الفواكه والبصل، ويعتنين بالمنازل، ويربين أطفالا كثيرين، ويحكن السجاجيد البديعة.

توجد اليوم أكثر من خمسة ملايين امرأة تعمل في الأراضي التركية؛ تجز صوف الأغنام وترص الفاكهة وثمار البندق لتجف وتحيك الجوارب والسترات وتصنع الجبن والزبد، هؤلاء النساء يعملن في الشمس الحارقة في حدائق الخضراوات وبساتين الزيتون الساحلية وفي الحقول الحارة في السهول؛ يمكنك رؤيتهن راكبات العربات التي تجرها الحمير، أو جالسات في السوق بجوار صررهن، أو حاملات حزم ضخمة من العلف على ظهورهن، أو يجمعن القش بالشوكة.

أما على الصعيد الاحترافي، فقد شاهدت إعصارًا من النساء يجتاح سوق العمل؛ فرأيت نساء يدرن صيدليات أو مكتب البريد الكبير في إسطنبول، ويعتنين بكل العملاء، كالممرضات المتمرسات في غرفة الطوارئ، ويصدرن الأوامر للعاملين بسرعة وكفاءة، ويحيين الجميع، ويستقبلن الكل بابتسامة أو لمسة حانية أو كوب شاي.

تتحدث النساء التركيات بأسلوب مباشر جريء مثلهن في ذلك مثل الرجال، لكنكِ على الأقل قد تتقبلين السؤال عن عمرك من امرأة أفضل مما تتقبلينه من رجل.

النساء التركيات بالغات الود؛ تلقيت ذات مرة دعوة لحضور حفل للحناء في أفيون من عروس لم أقابلها قط لكنها رأتني جالسة وحدي، وفي مناسبة أخرى اعتنت بي مديرة مكتب فندق في ألبيستان وقامت بأمور تتجاوز نطاق واجباتها المهنية وفعلت كل ما بوسعها لتصاحبني.

قلتِ يا سيدة ماري في رسالتك عن زيارة الحمام: "لا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب"، أضيف أيضًا أنهن محافظات جدًّا ويبدين الاحترام لمن هن أكبر سنًّا؛ لقد شاهدت الابنة البالغة في أسرة قيصري تحْضِر القهوة بأدب شديد إلى مكتب والدها في الطابق الثالث على صينية ذهبية تعلوها الأواني الخزفية الفاخرة ومناديل المائدة، وتضعها أمامه في هدوء.

صحيح أنني لم أنبهر بجمال النساء التركيات بقدر انبهارك به، لكنني أقر أنهن أنيقات ورقيقات لأقصى حد، سواءٌ كن يرتدين الحجاب أو النُّقْبة القصيرة، ويفضلن الأشياء البرّاقة والذهب والأزهار المطرزة على أغطية رؤوسهن والمعاطف الأرجوانية أو الزهرية مع حافظات صغيرة بنفس اللون، ويفضلن ارتداء الأحذية الأنيقة والحلي العصرية، وقد ظهرت مؤخرًا كتابات كثيرة حول أزياء المحجبات التي تُقام لها عروض أزياء خاصة، والغرض من هذه الأزياء هو أن تحافظ المرأة على حجابها وتظل أنيقة في ذات الوقت، بالإضافة إلى نشر فكرة أن الملابس الساترة قد تكون أجمل وأكثر أناقة من الملابس "الحاسرة"؛ بالفعل بعد أن قضيت الوقت مع فتيات قونيا الأنيقات اللاتي يرتدين أغطية رأس ومعاطف ملونة وحليًّا مميزة، تبدو نساء إسطنبول بإزائهن غير أنيقات.

تعد الرابطة بين النساء التركيات من أقوى الروابط؛ فهن معًا دائمًا سواءٌ في أقسام العائلات في المطاعم أو في غرف معيشتهن أو في الحافلات أو في المساجد، ولا يختلطن بالرجال في المناسبات الاجتماعية، بل يفضلن الجلوس في أحد الجوانب في حين يجلس الرجال في الجانب الآخر؛ لهذا لن تكون إقامة حفل مختلط فكرة قابلة للتطبيق هنا.

تعتاد الأمهات وبناتهن السير في الطرقات مثنى مثنى، وقد يحالفكِ الحظ وتشاهدين مجموعة من ثلاثة أجيال: أمّ وابنتها وحفيدتها.

إذا واجهتني مشكلة في الطريق، كنت واثقة أنني أستطيع الاقتراب من أية امرأة تركية لأطلب مساعدتها، وفي غضون لحظات أجد نفسي في كنف منزلها، بين يديها الرقيقتين القادرتين على علاج أي مرض أو حل أي مشكلة.

وهذه الرابطة الأخوية تسمو فوق فوارق المستويات والطبقات الاجتماعية؛ ذات مرة كنت في محطة حافلات قونيا أنتظر حافلتي إلى بيشهير، فلاحظت تنوعًا هائلًا في الشكل والمستوى بين الراكبات التركيات، مع أن أغلبهن قرويات مغبرات يحملن غرائر الحبوب وعبوات زيت الزيتون والصناديق المربوطة بالحبال، كانت هناك امرأة قروية ترتدي الشلوار (اسم سروال تركي فضفاض) وتحمل طفلًا يصرخ، وفجأة ظهرت امرأة متحضرة من إسطنبول ترتدي قُرْطًا ذهبيًّا حملت عنها طفلها، ومدت ذراعها في حقيبتها بحثًا عن قطعة حلوى لإسكاته.

حينما حضرت إلى تركيا في البداية عام ١٩٧٨م قَدّرت في ذلك الوقت في مذكراتي أن ٩٥٪ من النساء اللاتي رأيتهن محجبات، وينقسمن إلى مجموعتين مميزتين: مرتديات العباءة السوداء أو أزياء المحجبات، لم أر امرأة تقود سيارة وحدها أو امرأة تعمل نادلة أو تعمل في مجال الخدمات، ورأيت القليل من النساء يسافرن بالحافلات.

أما الآن فالنساء يغزون كل المجالات بسرعة؛ ففي عام ٢٠٠١م ضخت لي البنزين في السيارة فتاة في مدينة سيدا على البحر الأسود، وهي سابقة من نوعها، وفي عام ٢٠٠٢م تناولت الطعام في مطعم شواشت تديره النساء تمامًا دون وجود رجل واحد، وهو أمر لم يحدث من قبل،

والآن أرى النسـاء يقدن السـيارات فـي كل مكان ويجلسـن في المطاعم وفي اجتماعات الأعمال؛ إن الحكم على سـلوك المرأة بناءً على ظهورها في الأماكن العامة نظرة قديمة بدأت تتلاشى بالفعل.

تشـترك كل نسـاء العالـم فـي مجموعـة قيم عامـة: دعـم المجتمـع، التمسـك بالأمـل، الإيمـان بأهمية الفرد، الاهتمام بالمشـاعر الشـخصية، التضحية بالذات، العطاء بسـخاء، وفوق كل ذلك سـتظل النسـاء يفضلن القيم المجتمعية على القيم المادية.

تشـترك كل نسـاء العالم في نفس مكونـات الحياة الرئيسـية: العمل، الأسرة، الحياة العاطفية، الروحانيات، الصحة، الأنوثة، الهوايات؛ فالنساء التركيات لا يختلفن عن كل نساء العالم.

ذات مرة أخبرني كاتب جزائري أن النسـاء هن "الرجال" الحقيقيون فـي هـذا العالم، والأمر عائـد إلى النسـاء لتعليم الرجـال كيف يصبحون رجـالًا بحـق؛ مـن هـذا المنظـور سـتظل النسـاء التركيـات عامـلًا قويًـا فـي بنـاء تركيا الحديثـة، لأنهن يعلمن أكثر من غيرهن كيف تسـير الأمور للأفضـل فـي منازلهـن ومـع أبنائهـن؛ إنهـن لَبِنـات الأسـاس الحقيقيـة لأي مجتمـع ناجـح؛ إذا فعلـن ذلك فسـيثرن ضجة تجعل صـوت تركيا مسمعًا في جميع أنحاء العالم.

صديقتكم

قدرية برانتج



عيادة صحية في أيوب



ساندكلي



الراقصات الشعبيات في سوغوت



أيوب



فرز البصل في سوق إسيز، أبوليانت



أرضروم



إعداد الرقاق

الرسالة الرابعة عشرة
امرأة وحيدة

عزيزتي السيدة ماري،

حدثتك في رسالتي السابقة عن النساء، لكنني أشعر برغبة في إضافة عدة نقاط أخرى، تتعلق بكوني امرأةً أجنبية في تركيا، ولا سيما أنني أسافر وحدي.

أشعر بالتآلف معك يا سيدة ماري، وبالرغم من القرون التي تفصلنا، فإن رؤيتنا للنساء متشابهة جدًّا؛ أنا قمت بتعليم نفسي مثلك، وأهتم بالأشياء نفسها التي اهتممتِ بها، مثل المساجد والآثار القديمة، والمناظر الطبيعية، والمباني، والحياة الاجتماعية، والتاريخ، وملابس النساء، والدين، والزواج والطلاق، والمساواة بين الجنسين، والشعر.

أشعر برغبة في فهم منزلة النساء ومكانتهن في العالم الذي يعشن فيه؛ فمثلكِ تعلمتُ اللغة التركية والشعر، وانشغلت بالحياة الاجتماعية والإسلام وشككت في عقيدتي بمقارنتها بغيرها؛ استطعنا -نحن الاثنتين- فهم موضوعات عدة بحكم أننا غريبتان تنتميان لطبقة اجتماعية معينة، وكم يحزنني فراق القسطنطينية، مثلك تمامًا!

غيـر أن أهـم قاسـم مشـترك بيننا أننـا اختبرنا الشـعور بمكث سـيدة فـي مجتمـع تركي مـن دون زوجها؛ مكـث زوجكِ في معسـكر للجيش التركـي بالقرب مـن "أدرنه" منذ سـبتمبر/أيلول ١٧١٧م حتـى مايو/أيار ١٧١٨م، إذ كان مسـؤولًا عن إجراء مفاوضات دبلوماسـية؛ مما اضطرك للبقاء وحدك في القسطنطينية نحو عشرة أشهر، خاصة طوال فترة إقامتك في إسطنبول؛ وها أنا ذا هنا من دون زوجي؛ لأنني اخترت السفر وحدي.

يصعـب علـى الأتـراك اسـتيعاب أو تقبـل فكـرة أن تسـافر امـرأة وحدهـا باختيارهـا؛ لأن النسـاء يتعلمـن منـذ سـن مبكـرة رفقـة الرجال (الأب أو الأخ أو الـزوج)؛ فمـن الصعـب أن تجـدي امـرأة بـلا مرافق؛ إذ تنـص القواعد الإسـلامية على حُرمة السـفر للمرأة أكثـر من ثلاثة أيام إلا مع زوج أو مَحرم؛ ذات مرة بالقرب من مدينة كنجال جلست إلى جواري فـي الحافلـة فتـاة عصريـة، وبدأنـا نتجـاذب أطـراف الحديـث، وبالرغم مـن حذائهـا البرتقالي العصـري، فقد صُدمـتْ عندما علمت أنني أسـافر وحدي، وأكدت على استحالة أن تفعل ذلك؛ لأنه أمر غير وارد.

تحدثـت إليـك مـن قبـل يا سـيدة ماري عـن طبيعـة هـذا المجتمع المترابط الجماعي، وأخبرتك كيف يعيش الأتراك في مجتمـع متماسـك؛ أعتقـد أن هـذا يصعِّـب عليهـم إدراك الفـرق بيـن أن يكون المـرء وحده وأن يكـون وحيـدًا؛ فمـن الممكن جـدًّا أن يكون المرء وحـده ولا يكون وحيـدًا؛ إن مـا نعـده -نحـن الغربييـن- اسـتقلالًا مرغوبًـا يـراه الأتـراك وحـدة؛ أعتقد أنـك -مثلي- أدركت الفرق بين الحالتيـن، وقدّرت العزلة والخصوصية وفضلتهما، مع شعورك بالامتنان للصحبة الجيدة والترفيه.

بالرغـم مـن تعرضي لنظرات اسـتهجان في الطريق، مـا زلت مواظبة على السفر وحدي إلى تركيا؛ حدثتك سابقًا عن متع السفر، غير أن السفر

منفردًا يمنحني شعورًا مختلفًا بالسعادة؛ فهو يتيح لي فرصة القيام بأمور ما كنت لأفعلها لو كنت في صحبة؛ إذ يمكنني زيارة المكتبات وقتما أشاء، ويمكنني الانفراد بنفسي لكتابة قرابة ثلاثمائة وخمسين كلمة يوميًّا، ويمكنني تناول الطعام الذي أشاء وقتما أشاء، ومن الأسباب الأخرى التي تدفعني للسفر وحدي أن أعزز قوتي وأثبت لنفسي أنني امرأة قادرة على الاعتماد على نفسها، وأنني امرأة شجاعة، واسعة الحيلة، ولا تحتاج إلى أحد للاعتناء بها.

تمنحني هذه الرحلات شعورًا بالقوة، يمكنني منحه للآخرين فور عودتي، إذا أمكنني التغلب على التحديات اللغوية والاجتماعية والدينية والثقافية في تركيا، فلا شك أن تحديات عملي وحياتي في مدينة التنوع العرقي الشاسع ستصبح أسهل.

من مزايا السفر وحدي أنني أمر بتجارب لم أكن لأمر بها مطلقًا لو كنت مسافرة بصحبة زوجي أو أية مجموعة؛ فالأتراك يغدقون على المرأة المنفردة في تركيا كل أنواع الاهتمام والعطف لأنهم لا يريدونها أن تشعر بالوحدة؛ لهذا فلن أستمتع باللقاءات والمحادثات وأتلقى الأزهار وأكواب الشاي لو كنت بصحبة رجل.

وأجمل ما في السفر منفردًا إمكانية السفر بأمان لأن تركيا بلد آمن جدًّا؛ فلا أشعر بالخوف فيه مطلقًا، وأجد نفسي أعهد بحياتي لعناية اثنتين وسبعين مليون يد حانية تمتد لخدمتي، وأحتل منزلة سيدة راقية في تركيا -أتذكرين حينما أخبرتك بذلك؟- ويحرص الجميع على معاملتي بأعلى درجات الاحترام والمراعاة.

لا تصدقي كل القصص التي تُروى عن سوء معاملة الأتراك للنساء؛ فكلها كاذبة، بالطبع لا بد أن تأخذ امرأة تسافر وحدها الحيطة أينما

كانت؛ إذ تتعلمين اختيار المطاعم بحذر، ولا بد أن تلتزمي بتناول الطعام فـي مطعم الفنـدق إن وُجد، وأن تذهبـي إليه مبكـرًا، وألا تعاقري الخمر لأن ذلـك يعكـس مسـتوى أخلاقيًا مشـينًا، إياك وفتح محادثـة مـع أحد، أو طـرح أسـئلة بجـراءة، أو النظر للرجال فـي أعينهم مباشـرة، أو ارتداء ملابـس كاشـفة والتجـول بها؛ لـم يعاملنـي أي رجل خلال ثلاثيـن عامًا مـن السـفر إلـى تركيا بقلة احتـرام، ولـم أشـعر بالارتباك مـن أي موقف، وهو ما لا يحدث عندما أسافر إلى دول أخرى، بما فيها بلدي.

تظـل تلـك العيـون التركيـة الشـهيرة مثبتـة عليك لضمان سـلامتك؛ فتصبحين جزءًا من المجتمـع الواجب الحفاظ عليه؛ من أبسـط التجارب التي مررت بها في هذا الصدد تجربة غنية، لخّصت عدة سمات اجتماعية فـي تركيا مثل الترابط والأخوة وحسـن الضيافة واللطـف الرقيق؛ دخلتُ المدرسـة الخاتونيـة في قيصـري لزيارة القبر في الركـن، وعقب خروجي قررت التوقف عند المقهى الصغير المقام في الفناء لشـرب الماء، وقفت خمـس دقائـق قبـل أن تقتـرب منـي امـرأة وتقـول: "مرحبًا، عـذرًا على الإزعاج! أتودين الانضمام إليّ أنا وصديقتي على مائدتنا؛ بما أنك وحيدة تمامًا؟" لم تكن تعرفني، لكنها لم تشأ أن تتركني وحيدة.

ومـرة أخـرى وضعت امرأة رضيعها في حجري طـوال رحلة الحافلة القرويـة، لـم يكـن السـبب أنهـا تريـد التخلـص منـه، بـل لأنهـا تريدني أن أحظى بالصحبة.

وفـي مناسـبة أخـرى كنت أتنـاول الطعام وحـدي فـي أغيردير، فمر بـي زوجـان فـي منتصـف العمـر فـي طريقهمـا إلـى مائدتهمـا، وانحنى الرجـل أمامـي برقة وقـال: "أتمنى أن تسـتمتعي بوجبتـك، وإذا احتجت إلى أي شيء، فسنكون جالسين على المائدة المجاورة".

تترك المرأة المنفردة أثرًا في نفوس الناس ويتذكرونها؛ العام الماضي تناولـت في قيصـري واحدة من أفضل وجبات إسـكندر كبـاب في تركيا فـي مطعـم إسـكندر في وسـط المدينة، كنت قـد تناولت هـذا الطبق منذ أكثر من عشـرين عامًا ولا يمكن نسـيانه؛ في ذلك اليوم ظل رئيس النُّدُل يحوم حولي باهتمام، وأخيرًا اقترب مني وقال: "لقد حضرت إلى المطعم مـن قبـل، أليس كذلك؟ أنـا أذكرك، كيف حالك؟"، إما أنـه يتمتـع بذاكرة خارقـة أو أن مظهـري مميـز بدرجـة لا تُنسـى، لكن السـبب لـم يكن أيًا مـن الأمريـن، بل إن حضور امـرأة وحدها حدث نادر يظـل المرء يتذكره بعد مرور عشرين عامًا.

تكرر نفس الموقف في مطعم آخر في قونيا بعد مرور خمسـة عشـر عامًا هذه المرة، وفي أرضروم إذ ركض بائـع السـجاد خلفي في الشـارع، ولم يكن يذكر زيارتي لمتجره منذ اثني عشـر عامًا فحسـب، بل تذكر نوع السجادة التي اشتريتها وثمنها.

هنـاك أمـر آخـر يتعلـق بكونـي وحـدي، وقـد شـعرتِ أنـتِ أيضًـا بـه يـا سـيدة مـاري؛ فالمـرأة المنفـردة ليـس لديها أطفـال، وقد أشـرتِ في الكثير من رسائلك إلى انزعاجك من تسلط الأطفال على فكر الأتراك، واعتقادهم أن عدم الإنجاب جرم لا يغتفر؛ ما زالت النساء الأتراك يُعرفن بعـدد أطفالهن، والسـؤال الأول الأكثر تكـرارًا ا على أية امرأة: "هل أنت متزوجة؟"، يليه السؤال عن عدد أطفالها.

تحدثـت -يا سـيدة مـاري- فيما لا يقل عن سـت رسـائل عن عادات الإنجـاب الكثيرة لـدى التركيات، وعن أهمية الإنجـاب من حيث المكانة الاجتماعية، وعن مأساة النساء الفقيرات المحرومات من الأزواج والأطفال، وذكرت كيف تعشق الأسر التركية الأطفال، وتعتبرهم ثمرات حياتها.

لقد عايشتِ إحساس الأمومة في تركيا مباشرة يا سيدة ماري؛ إذ كنت حبلى أغلب مدة إقامتك في تركيا، ثم أنجبت ابنتك ماري في ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٧١٨م، وعلقت قائلة: "نظر إليّ الناس بازدراء شديد حتى أذعنت للنظام السائد وأنجبت مثل الآخرين".

ما زال المجتمع يشفق على النساء اللاتي لم ينجبن، حتى اليوم يا سيدة ماري، لكنني على ثقة تامة أن الأتراك سيدركون أن ثمة طرقًا كثيرة لإنشاء منزل وأسرة؛ فالمرأة قد تكون أمًّا بوسائل مختلفة، كأن تكون مسؤولة عن أسرة كبيرة أو عن مجتمع بأكمله.

أن تكون المرأة وحدها أو بلا أطفال لا يعني أنها ترفض مشاركة الحياة مع شخص آخر، ويبدو أن مفهوم الزواج من منظور تركي شغلك أنت أيضًا في رسائلك؛ فأنت تحاولين بوصفك واحدة من دعاة المساواة بين الجنسين أن تفهمي المشكلات المعقدة الخاصة بمكانة المرأة في المجتمع ودورها أمًّا وزوجة، ولو في ثقافة مختلفة.

وأنت تدعمين مبادئ المساواة مثل: الاستقلالية، الحياة بغض النظر عن الزواج والإنجاب، احترام الذات، المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الاختيارات في الحياة، العدل تجاه الرجال، تكافؤ الفرص، إدانة دعاة الظلم، هدم نظام التسلسل الهرمي؛ هذه هي القضايا التي تواجه النساء يوميًّا في الغرب وفي تركيا، فالنسوة ما زلن يبحثن عن المكان الذي يمنحهن المهارات المطلوبة، مكان لا يعيّرهن بالبقاء وحدهن، مكان لا يحكم عليهن بناءً على علاقاتهن بمنازلهن، مكان يمنحهن مسؤولية اختياراتهن ومستقبلهن.

سيدة مونتاجيو، ثمة شخص واحد غاب ذكره في رسائلك: إنه زوجك؛ فأنت لا تشيرين إليه في رسائلك إلى أصدقائك، أو تتحدثين عن صحته

أو تقـدم مفاوضاته، أما رسـائلك إليـه فهي قليلة ومتباعـدة، لهجتها جافة مجـردة مـن الحب، تختلف تمامًا عن اللهجة التي تسـتخدمينها في فيض العبـارات النابضة بالحيـاة المحمّلة بالانطباعات التي تزخر بها رسـائلك إلـى أصدقائـك؛ أيًا كان السـبب، فيبدو أن زواجك لـم يكن على ما يرام، ويبدو أنك أصبحت لا تبالين به؛ لذا كنت امرأة وحيدة بالفعل في تركيا.

فـور عودتـك إلـى إنجلتـرا، بـدأت مرحلـة جديـدة فـي حياتـك، وفيها لعب الرجال دورًا مهمًّا؛ إذ قام أصدقاؤك الكتاب وابنك وشركاؤك في الأعمال وزوجك وأصحابك بتغيير مسـار حياتك بلا ريب، لكن هذه القصة تخصك وحدك، وبالفعل سردتها في رسائلك الكثيرة التي أرسلتها مـن الخـارج حيـث اختـرت قضاء بقيـة حياتك؛ لقـد اخترت أن تعيشـي وحـدك دون زوجـك وأطفالـك، ومـع هذا لم تكوني وحيـدة مطلقًا؛ فقد أصبح قلمك وأوراقك أسخى وأعز أصدقائك.

صديقتكم

كاثرين برانتج

الرسالة الخامسة عشرة

احترام الكتب من احترام البشر

عزيزتي السيدة ماري،

كلتانا امرأتان محظوظتان؛ لأننا اخترنا أعمالًا ترتبط بالكلمة؛ فأنت اخترت الكتابة وفيها تسجلين خواطرك على الورق لتصبح أدبيات، وقد استخدمتِ كتابتك لتقديم الكثير من القيم التي تؤمنين بها، كالتي تتعلق بتعليم النساء والمشكلات الصحية؛ أنا أيضًا كرست حياتي للكلمة ولكن بصورة مختلفة، بوصفي معلمة للغات علّمت الآخرين الكلمات وكيفية استخدامها بمهارة في التواصل، وبوصفي أمينة مكتبة أحرص على جمع الكلمات وحفظها وتقديمها لأيدي الآخرين وقلوبهم وعقولهم.

كلتانا محظوظتان بالفعل؛ لأننا نعيش في عالم الكلمات، هل تجولت يومًا في سوق الصحافين النادر للكتب المستعملة في إسطنبول؟ إنها مكتبة مقامة في الهواء الطلق تزخر بأروع الكنوز التي يحلم محبو الكتب باستكشافها.

في رسالة أرسلتها إلى صديقك أليكساندر بوب في ١٢ فبراير/شباط عام ١٧١٧م تتحدثين عن تقديرك للشعر العربي الذي تعلمته من صديقك أحمد أفندي في بلجراد ومكتبته الغنية:

"شرح لي أبياتًا كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا؛ فهي أبيات متعاقبة بوجه عام، ذات جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدة العاطفة ومفعمة بالحياة؛ أنا معجبة جدًا بها، وأشعر بضرورة أن أتعلم اللغة العربية إذا كنت سأمكث هنا بضعة أشهر، إن لديه مكتبة جيدة جدًا تضم كتبا من كل الأنواع، وقد أخبرني أنه يقضي معظم وقته في المكتبة."

من أجمل اللحظات التي مرت بي في تركيا وقت أن التقيت بأشخاص يشاركونني المهنة؛ فأمناء المكتبات يشكلون مجموعة مترابطة متقاربة بوجه عام، تجمعهم قيم مشتركة، وتتشابه تلك القيم سواءً كنت في باريس أو نيويورك أو أماسيا؛ حيثما ذهبت أحرص على زيارة المكتبات للثناء على طريقة عملها، ودائمًا ما أجد خطوة تتم بطريقة مختلفة أحملها معي إلى وطني لأطبقها في مكتبتي.

تُعرف المكتبة باللغة التركية باسم (*Kütüphane*) وترجمتها الحرفية "بيت الكتب"، وقد أسعدني الحظ بإجراء أفضل المقابلات مع زمرة من أفضل الأمناء في بعض أفضل المكتبات في تركيا، من بينها لقاء مع أمين مكتبة أماسيا الذي أسعده أن يريني نسخة نادرة من القرآن ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي أقدم نسخة في تركيا، نقشها الخطاط العثماني الشهير شيخ حمد الله، وحينما أخبرته أنه أقدم كتاب ألمسه أو أحمله علمني مقولة تركية هي (*Kitaba saygı, insana saygıdır*) (احترام الكتب من احترام البشر)؛ هذا مثال آخر على شمولية مفهوم

الاحترام لدى الأتراك؛ لم أسمع قبلُ عبارة بسيطة تلخص الدافع وراء عملي أمينة مكتبة؛ فأمناء المكتبات يعاملون البشر بأقصى درجات الاحترام.

أذكر أنني قابلت شيرين تكالي مؤسسة "مكتبة المرأة" في إسطنبول عقب الافتتاح مباشرة عام ١٩٩٠م، وقد ألهمني وحفزني فخرها بما كانت تحاول تحقيقه؛ تحدثت إليّ بعبارات فرنسية وإنجليزية لا تشوبهما شائبة، وأرتني المجموعة المكونة من خمسة آلاف مجلد محفوظة في مدرسة تم تجديدها بأسلوب فني، وشرحت لي كيف ابتكر أمناء المكتبة نظام التصنيف الخاص بهم لتيسير الوصول إلى هذه المجموعات بالغة التخصص؛ جعلتني هذه الزيارة والمحادثة أعيد النظر في الأماكن التقليدية لتصنيف مجموعات الكتب وتقديم المعلومات للجمهور؛ وهذا ما دفعني لإتمام مهمة عظيمة على الصعيد المهني، غير أنني لم أسمح في مكتبتي بالتدخين الكثيف الذي سمح به العاملون والقراء!

كذلك حفزتني زيارة لمكتبة أخرى في إسطنبول بطرق شتى، حيث قابلت أمناء مكتبات ألهمتني حماستهم وإيمانهم برسالتهم، توجد هذه المكتبة العامة الصغيرة خلف مجمع ميهرماه سلطانة في أسكودار في أحد المباني الملحقة بالمجمع الذي بناه سِنان عام ١٥٤٣م، ورغم أن المكتبة كانت مغلقة دعتني أمينة المكتبة للدخول لأنني كنت "أختًا لها في حب الكتب"، وقضت فترة ما بعد الظهيرة تخبرني كيف أن المكتبات المماثلة لمكتبتها مهمة لأطفال الأحياء الفقيرة، وأوضحت لي أن هؤلاء الأطفال هم السبب وراء حماستها في فعل كل شيء، بدءًا من تجديد المبنى، وتنظيف الرفوف، وشراء أثاث جديد، وغسل الأرضيات، وانتهاءً باختيار وفهرسة كل الكتب شخصيًّا.

كانـت المكتبـة متواضعـة ورثـة قليـلًا، لكـن الأمينة تصرفـت كأنها تصحبني إلى جولة في قصر دولما بهجة، تعلمت منها أيضًا أن أهم شيء في هذا العمل هو خدمة القراء، وليس كمية الكتب وحالتها على الأرفف.

لطالما كان أمناء المكتبات في تركيا على استعداد لفتح أبواب مكتباتهم وقلوبهم لي فور أن أخبرهم أنني أمينة مكتبة أيضًا؛ فهذه هي كلمة المرور السـحرية لدخـول الكثير مـن المكتبـات والمحفوظـات والمجموعات؛ أحمل ذكريات رائعة عن زيارات مع أمناء المكتبات، فعلى سـبيل المثال أهدانـي رئيس أمناء مكتبة شمسـي باشـا العامة في أسـكودار -التي تضم خمسًـا وعشـرين ألف مجلد- نسـخة من جداول تصنيف ديوي مترجمة إلى اللغة التركية.

وزرت أيضًـا مكتبـة عامة صغيرة في أورجوب تفخر بامتلاكها ثلاثين ألف مجلد، وأحد عشـر فرعًا تتبادل أكثر من عشـرة آلاف كتاب كل عام لخدمة القرى المجاورة، تضم هذه المكتبة ركنًا خاصًا في قسـم الأطفال بـه خزانـة مليئة بكتب الشـباب صغار السـن التـي تتحدث عـن أتاتورك، وقد عثرت على مجموعة اسـتثنائية من الكتب النادرة في مكتبة البغدادي نجيب باشا التي أنشئت عام ١٣٩٧م في تيرَهْ.

أعـاد وزيـر الحربيـة في عهد السـلطان محمـود الثاني بعـض الكتب مـن بغـداد في خزانات من الجلد الأحمر المصنـوع لها خاصّة، ووجدت كتبًا نادرة أخرى في مكتبة رشيد أفندي في قيصري بجوار المسجد الكبير، إلا أن أكثر ما بهرني هو العناية الخاصة التي يوليها أمناء المكتبات الأتراك لجمهورهم.

أما في المكتبة العامة في أكساراي فقد تلقيت دعوة للتجول في مكتبة بها ثلاثون ألف مجلد، وطُلب مني حضور اجتماع للعاملين اختُتم بتناول

الشاي والكعك، وشاركت في مناقشة حيوية، حتى إنني خرجت في جولة في المكتبة المتجولة.

وقد دُعيت للتوقيع في كتاب الزوار في مكتبة إيناجول، التي أقيمت في مدرسة مجمع إسحاق باشا عام ١٤٨٢م، ومكتبة جسر إسطنبول كما لو أنني شخصية خاصة ذات مقام رفيع.

ذات مرة وأنا أزور مكتبة جامعة بايزيد في إسطنبول، التقط رادار الأتراك الشهير وجودي، فحياني الموظف وأمسكني واصطحبني إلى مكتب المدير قائلًا: "بلى، علمنا أنك أمينة مكتبة من الطريقة التي دققت بها في فهرس البطاقات!" كانت النتيجة استمرار الزيارة ساعتين، مع استدعاء مجموعة من أمناء المكتبات للترحيب بي، وعرض عليّ أحدهم مجموعة كتب نادرة ومخطوطة لجلال الدين الرومي ترجع إلى عام ١٦٩٠م.

من عمل أمين مكتبة فسيظل أمين مكتبة! بعد زيارة سوق كاراتاي، ظهر فجأة حقي بك -أمين مكتبة متقاعد مصاب بالصمم لكنه شخص محبوب- وأخذ على عاتقه مهمة أن يكون مرشدي الرسمي، لأنه كما أخبرني "لديه المعرفة"، فعليه طبعًا أن ينقلها لغيره.

لكن أعظم حدث شهدته في كل المكتبات التي زرتها في تركيا هو المؤتمر السنوي للاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات (*IFLA*) في إسطنبول الذي أقيم في أغسطس/آب عام ١٩٩٥م، قامت أمينة مكتبة تشتعل حماسًا تُدعى ألتن أي سرنيكلي (أحد الأسماء التركية العظيمة ويعني "القمر الذهبي") بتنظيم مؤتمر للاتحاد لم يشهد العالم له مثيلًا حتى الآن، تضمنت فعاليات الافتتاح التي أقيمت في مركز أتاتورك الثقافي في منطقة تقسيم خطبًا ألقاها كل من محافظ إسطنبول وممثل منظمة

اليونسكو ورئيس الاتحاد الدولي، وتضمنت الباقة الختامية عرضًا لأول وزير ثقافة تركي ومعلمي المحبوب طلعت سعيد هلمان، وقد أسَر لب الحضور بحديثه الممتع الذي ضم ما لا يقل عن ستة عشر تلاعبًا لفظيًا مما اشتهر به، وأقيمت مأدبة سلطانية تلك الليلة في قصر عثماني سابق هو فندق تشيراغان، تضمنت احتفالات الليلة حفلًا للرقص الشعبي على مسرح في الهواء الطلق أسفل هيلتون، تلاه عشاء خفيف مجهز في صناديق الرحلات يتكون من شطائر الجبن وألذ ثمار كمثرى تذوقتها في حياتي.

خرجنا في اليوم التالي في جولة حول عدة مكتبات في إسطنبول (مجموعة مخطوطات قصر طوب قابي ومحفوظات المتحف الأثري ومكتبة السلطان أحمد الثالث في طوب قابي)، واختُتمت أحداث اليوم بحفل موسيقي للموسيقى الكلاسيكية في مركز أتاتورك في تقسيم.

ربما لا يبدو الأمر مثيرًا في رأيك، لكنني وجدته رائعًا؛ حينما اعتلت ألتن أي هانم المسرح لافتتاح مراسم الحفل الأول، فتحت ذراعيها وصاحت بصوت رنان: "مرحبًا بكم في بلدي!" وكلها فخر وطني وإحساس بحسن الضيافة الذي لا يصدر إلا عن تركي، وبالطبع دب الحماس في الحضور.

التقيت ذات مرة برفيق في حب المكتبات رحل منذ وقت طويل هو إبراهيم باشا، وقد التقيت به في مخيلتي أثناء سيري في مجمع نَفشهير الذي بناه عام ١٧٢٦م ويضم مسجدًا ومكتبة ومدرسة، في الواقع أظن أنك ربما قابلته بالفعل يا سيدة ماري.

إبراهيم باشا هو صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه، وقد خطط مدينة نَفشهير في وسط الأناضول على ضواحي كابادوكيا بوصفها "مدينة جديدة"؛ إذ كان رجلًا مستنيرًا تبنى رؤية فرنجة الإمبراطورية

العثمانيـة بمسـاعدة معارفه في فرنسـا، ويعود له الفضل فـي إثارة اهتمام السـلطان أحمد الثالـث بالعَمارة؛ الأمر الذي أدى إلى تشـييد مكتبة قصر طوب قابي وشقق "غرفة الفاكهة" المترفة للحريم.

لقي إبراهيم باشا نهاية محزنة على يد الإنكشاريين الذين قتلوه، لكنه ما زال خالدًا في هذا المجمع الذي تم تشـييده في موقـع مرتفـع بالحجر الأصفر المميز لمنطقة كابادوكيا.

الغريب في الأمر أن المدرسـة في المجمـع هي التي تسـتخدم حاليًا مكتبـة عامـة، بوجود تمثال أتاتـورك في منتصفها كما يجـب، أما المكتبة الأصليـة فتسـتخدم الآن مطعمًـا للفقـراء؛ ومـا زالت فكرة خدمـة العامة مهيمنة على المكان بكل وضوح.

غيـر أن زيـارة مكتبـة عامـة صغيـرة فـي أكشـهير تفوقـت علـى كل ما سـواها؛ في فترة ما بعد الظهيرة الدافئة، حملت أمينة مكتبة شـابة لطيفة على ذراعها سـلة مليئة بالحلويـات المغلفة، وانتقلت من قارئ إلى قارئ تهديه ابتسـامة وقطعة حلوى لتصاحبه وهو يقرأ، إنها لمسـة صغيرة عذبة كعذوبة الحلوى، لمسـة بسـيطة تنم عن الاحترام؛ فكما تذكرين كل شيء هنا في تركيا يتم بسخاء واحترام وحب، حتى في "بيت الكتب".

المخلصة لك وللكلمات

قدرية برانبج



المكتبة المتجولة في أكساراي



وصل مؤتمر الاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات لركوب الحافلات مجانًا في إسطنبول عام ١٩٩٥م



مكتبة أطفال ميهرماه في أسكودار



مكتبة شمسي باشا في إسطنبول: ''إنهم بانتظارك في المكتبة''



سوق الصحافين للكتب المستعملة في إسطنبول عام ١٩٨٠م



مكتبة إبراهيم باشا في نَفشهير



مكتبة السلطان أحمد الثالث في قصر طوب قابي



فصل بمدرسة المسجد الكبير في مانيسا



مكتبة إيناجول العامة في مدرسة إسحاق باشا عام ١٤٨٢م



دليل البطاقات لمخطوطات كلية بايزيد الثاني في أماسيا

297.211=9?7 Yozgat 48

Bostān, Muṣṭafā b. Meḥmed ʿAlī Tīrevī, 904-977 H

Ḥāşiya ʿalā tafsīr al-Ḳāżī Bayżāvī. [illegible]x155, 185x91 mm. 211 yk. 25 st. taʿlīk, [illegible] b. Ali, 993 H. başlık tezhibli, meşin cilt.

Not: Yalnız Sure-i Anʿam üzerine haşiyedir.

دليل بطاقات المخطوطات المحفوظة في المكتبة السليمانية بإسطنبول، أكبر مجموعة مخطوطات في العالم

صفحة فارغة

الجزء الرابع

أسلوب حياة

صفحة فارغة

الرسالة السادسة عشرة

صينيّة بقلاوة من غازي عنتاب

إلى السيدة المبجلة جول أكا

عزيزتي السيدة ماري،

في رسائلك تصفين زياراتك لبعض النساء في حريم الدار، ولا تكتفين بتقديم التفاصيل الغنيّة عن الحياة اليوميّة وفهم شخصيّة النساء فحسب، بل تلقين لنا الضوء على ما اشتهر به الأتراك من حسن الضيافة في العالم.

اطمئني يا سيدة ماري؛ فلا شيء تغير منذ أن استقبلوك بالتَّرحاب في منازلهم، صحيح أن تركيا لم تعد إمبراطوريّة يحكمها السلاطين، وقد بسقت على أرضها ناطحات السحاب هنا وهناك وسط السحب المترائية من نافذة قصرك بمنطقة بيرا، لكن حسن الضيافة التركيّة لم يتغير أو يتبدّل.

يحظى الكرم التركيّ بشهرة عالميّة، ويستحق هذه الشهرة عن جدارة؛ ظلِلتُ مدة طويلة أحاول أن أفهم سبب تحلِّي هذا البلد بالكرم وحسن الضيافة أكثر من أيّ بلد آخر في العالم، وتوصلت إلى عدة أسباب:

- قد يكون أولها راجعًا إلى الأصول البدويّة للأتراك؛ إذ منحتهم شعورًا عميقًا بالتعاطف مع المسافرين؛ فقد أنشأ السلاطين السلاجقة فنادق وأنزالًا للمسافرين توفّر المأوى والمطعم المجّانيّ ثلاثة أيام على نفقة الدولة للتجار المسافرين؛ وسار العثمانيون على نهج السلاجقة؛ فأقاموا أعدادًا كبيرة من المطاعم توزع الطعام على المحتاجين والمسافرين؛ فلن تجد مسافرًا لا يلقى الرعاية أو الحماية من الخطر.

- والسبب الثاني لكرم الأتراك نابع من ثقافتهم الإسلاميّة؛ فحسن الضيافة سمة شائعة بين المسلمين في أنحاء العالم كافّة؛ وبوجه عام ينبغي على كل مسلم أن يكون في عون الآخرين دليلًا على طاعته لله، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم الأساسيّة في الحياة، ويعبِّر الأتراك عن طاعتهم لله في صورة حسن الضيافة والكرم الجاري منهم مجرى الدم من العروق؛ فيشكل هذا المفهوم الواضح أساسًا لأسلوب الحياة الاجتماعيّة التركيّة المشتركة؛ فيعكس احتياجهم الدائم لإرشادهم للآخر وقيادته وحمايته؛ يقول النبيّ -صل الله عليه وسلم-: "كلوا جميعًا ولا تفرَّقوا؛ فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة، كلوا جميعًا ولا تفرقوا؛ فإن البركة في الجماعة"[١]؛ ولعل أوضح عبارة تبيّن فلسفة الأتراك تجاه الضيف المفاجئ وصفه بأنه زائر من عند الله؛ لهذا يتعامل الأتراك مع المسافرين بسخاء وكرم لا ينتظرون مقابلًا، بل إن العائلات تقيّم نفسها بمدى كرمها تُجاه ضيوفها؛ وقد تحدث الرحّالة الشهير ابن بطوطة عام ١٣٣٠م عن تَرحاب طائفة سلجوقية دينيّة به هناك قائلًا: "لا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج".

(١) مسند البزار رقم ١٢٧، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٨٦٣٠.

ربما يوضح هذا السبب الأخير رؤية الأتراك الخاصّة للقاعدة الإسلاميّة الأساسيّة: فَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة:٩٩/٧-٨) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى:٨٧/١٧)، عمومًا أيًا كان السبب، فإن كرم الأتراك يتسم بالدفء والبشاشة والهدايا والمشاعر الطيّبة الرقيقة وبالأصالة والسريّة والصدق؛ حينما قرأت رسائلك يا سيدة ماري، أدركت أنك استشعرت الرقّة نفسها، ولعلها السبب وراء السماحة في تعليقاتك؛ فلم تشعري بالغربة هناك، بل شعرت بالراحة، وتقبلت الاختلافات الثقافيّة وسمحت لها أن تغمرك كالماء الفيّاض؛ عندما أكون في تركيا أُعامل بلطف ولو مرة يوميًّا، ما بين إيماءة خفيّة إلى عمل عظيم يذهلك ما فيه من مشاعر.

إن كلمة الأناضول باليونانيّة تعني «مشرِق الشمس»، ويبدو أن كلّ تركيّ يستمد جزءًا من ضياء هذه الشمس، ثمّ يشعّ منه نور للعالم مرة أخرى؛ يلقَى كلّ زوّار تركيا الحفاوة نفسها، إلا أنني كنت محظوظة جدًّا -مثلك يا سيدة ماري- لأحظى بكرم أكثر من جُلّ السائحين.

لا يتحلى الأتراك بحسن الضيافة والكرم مع الأغراب والأجانب فقط، بل أصبحت هذه السمة أسلوبًا سائدًا في الحياة؛ فأثناء الحديث، كثيرًا ما يردّدون كلمة (بويورون)، وهي كلمة جامعة رائعة في سهولتها، تحمل عدة معانٍ، مثل: «من فضلك! تفضل! على راحتك! من هنا لطفًا! على الرحب والسعة!» إنها لفظة مناسبة لكلّ موقف، ناهيك عن صدورها بأسلوب أخّاذ؛ فدائمًا ما تصاحبها ابتسامة ويد ممتدة؛ فهي في نفسها هديّة!

حدثتكِ بالفعل عن حسن ضيافة الأسرة التي تبنَّتني وعن سخائها، غير أن أهون الأمور يوميًّا في الطرقات تنمّ عن الكرم التركيّ، كأن تتلقي قدحًا من القهوة على صينيّة ذهبيّة، أو أن ينفتح الباب أمامك تلقائيًّا -أكثر

الأمور شيوعًا في تركيا تقديم أكواب الشاي-، علاوة على ذلك لا يسمح الأتراك لي أن أدفع ثمن أيّ شيء أو أن أتكفل بنفقاتي، بل يعدونها إساءة بالغة أن أحاول دفع النقود، وإياكِ أن تَعْرِضي دفع نفقاتك وبصحبتك رجل؛ فهذه إهانة بالغة لشرف رجلٍ تركيّ مضيّف سخيّ.

غالبًا ما ينصبّ حسن الضيافة التركيّ على تقديم الطعام والشاي، ولا بد أن تقبلي كلّ ما يُعرض عليك، فالأتراك لن يتوقفوا عن المحاولة حتى تستسلمي؛ فبينما نسأل شخصًا في بلادنا إن كان يريد شيئًا مكتفين بإجابة الضيف نعم أو لا من أول مرة، فالحال مختلف هنا؛ إذ السؤال يُطرح على الأقلّ ثلاث مرات؛ لأن الأتراك مقتنعون أننا نخجل أو نستحي من الموافقة من أول مرة.

في رسائلك يا سيدة ماري، وصفتِ «الخمسين طبقًا» المقدمة لك، ويمكنني أن أؤكد كلامك؛ فدائمًا ما تُعدّ مائدة عامرة للضيوف؛ تضم ثمار الإجاص الصابحة والكباب يدويّ الصنع وفطائر اللحم والكبّة؛ ذات مرة وصلتني على العشاء صينيّة قطرها قدمان ملأى ببقلاوة الفستق الشهيرة، أُرسلت خِصِّيصًى لخدمة التوصيل مسافة نحو مئة وخمسين ميلًا في حافلة من غازي عنتاب إلى قيصري.

ليس ثمة وسيلة في التعبير عن الكرم ألطف من تقديم أكواب صغيرة مزيّنة بأزهار توليب بها شاي ياقوتيّ ساخن؛ فمع كل رشفة يمكنك أن تستشعر دفء هذا الشعب وعذوبته؛ إنها لفتة صغيرة تترك أثرًا كبيرًا؛ إذ تضفي على كل شيء لمسة إنسانيّة، بدءًا من تسجيل الوصول إلى الفندق حتى الاستمتاع بخضرة متنزّه عامّ.

أينما تذهب تفزْ بكوب الشاي: في المتاجر عقب الشراء، في الزيارات السريعة إلى منزل صديق -ويفرض العرف تناول ثلاثة أكواب-، في الصيدليّة عندما تذهب لشراء أقراص الأسبرين لتخفيف الصداع،

عند المصوِّر، وبالطبع عدة مرات أثناء المساومات لشراء سجّادة! فأصبح تناول الشاي من طقوس إبرام الأعمال، وعندما تصطك الملعقة بجانبي الكوب الزجاجي تصدر جرْسًا عذبًا، تستجدّ معها عرى صداقة وثيقة.

تتجلى أبرز المظاهر لحسن الضيافة في معاملة الضيف في منزل تركيّ؛ فهي تجربة أشبه بسباق يركض فيه كلّ أفراد الأسرة والجيران المضيِّفون؛ إذ يسارعون لمنحه أفضل فراش في المنزل، ويعملون على تغيير نظامهم اليوميّ كلّه ليتوافق معه، وكأنهم لا همّ لهم في الحياة سوى الاهتمام به؛ يتوقون دائمًا للتعرف إليه حتى يعرفوا طريقة ربط حذائه وتمليح طعامه، ولا بد أن يكون الضيف مستعدًا لتقبل التدقيق الشديد في كلّ ما يفعله.

ذات مرة نزلت ضيفةً في إزمير على منزل لوالدَي صديقتي الأمريكية، ولا بدّ أن أُقِرّ أنهما اعتنيا بكلّ شيء، وظلّت المضيفة تقطع المنزل جيئة وذهابًا لضمان راحتي؛ فذات ليلة، أثناء تناول العشاء في الشرفة، اتكأت على السياج، وحينما حاولت الابتعاد عنه، أدركت أنني ملتصقة به بطريقة ما، حاولت إخفاء ورطتي قدر استطاعتي، وأخيرًا انتهزت فرصة تغيير الأطباق على المائدة وتمكنت أن أنتزع نفسي بعيدًا عن السياج، فوجدت أن ذاك الجانب من فستاني قد تلطّخ بطلاء أبيض، وفي وقت متأخّر من الليلة نفسها حاولت فتح النافذة في غرفة نومي قبل أن أخلد إلى الفراش لكن دون جدوى؛ إذ كانت عالقة بشدة، حاولت عدة مرّات قبل أن ألاحظ أن يديّ ملطختان بالطلاء نفسه، وما أدركت الأمر إلا حينئذ؛ فهذا الطلاء الطريّ دليل على استعداد الأسرة لزيارتي، بدءًا من لحظة اتصالي قبل يومين لأعلمهم بقدومي حتى صباح اليوم.

أثناء زيارتي لأسرة في قيصري، تم ترتيبُ حفلٍ للتعارف بعد تناول العشاء، ودُعيت ثلّة من الجيران للسَّمر، واحتساء الشاي، وتناول الفاكهة، والجوز، والاستمتاع بنسيم الليل، حضر كل هؤلاء للترحيب بي، فشعرت بشعور السلطان الذي يستقبل السفراء -أمثال زوجك يا سيدة ماري-؛ وعندما أوشك الحفل أن ينتهي، أعلن أحد الضيوف -ويُدعى مُظفّرًا- رغبته في إلقاء كلمة؛ فسكتنا جميعًا؛ بدأ يتحدث ببطء شديد وبكلمات سهلة لأفهم كلامه: «سيدة قدريّة! نشكر لك زيارتك، نحن سعداء بالتعرف إليك، وننتظرك مرة أخرى العام القادم، ونتمنى أن يحضر معك زوجك حينئذ، نتمنى أن تكون رحلتك موفقة وآمنة، بارك الله فيك»، ولما انتهى نهضنا جميعًا، وتبادلنا التَّحايا، ثم غادروا؛ لن تجدي أيّ سفير مبعوث إلى بلاط السلطان أحمد أكثر كياسة أو لطفًا.

يعاملك الأتراك في كل مكان كما لو كنتِ ضيفتهم؛ ذات مرة كنت في مطعم في أفيون، ووصلت مجموعة عشرون شخصًا تقريبًا ليقيموا احتفالًا عائليًا، وعندما رأوني دَعَوني؛ ويلقى المرء معاملة الضيوف الكريمة نفسها في المكاتب أو في أماكن العمل؛ فمكان العمل ليس إلا امتدادًا للمنزل، وعندما تدخله تسري عليك قواعد الحياة الرائعة نفسها؛ أخبرتكِ سابقًا كيف تحولت زيارتي إلى أحد الأسواق إلى زيارة لمكتب العمدة بقرية إزينابازار؛ حينما وصلت إلى ذلك المبنى الحكوميّ الخرسانيّ المطلّ على الميدان، صعد معي مساعد العمدة إلى المكتب في الطابق الثاني، فمررنا على لوحات ملونة بارزة للسلاطين العثمانيّين والسلجوقيّين المشهورين جميعًا، ثمّ توقفنا لحظة أمام خزانة عرض زجاجيّة تضم نصبًا تَذْكاريًا يدعى «ركن الشهداء»، به صور باللونين الأسود والأبيض لجنود محليّين استشهدوا في الاشتباكات الأخيرة مع إرهابيّي حزب العمال الكردستانيّ، وتمثال نصفيّ ذهبيّ كبير لأتاتورك، وزهريّة

كبيرة تحتوي على أزهار حمراء بلاستيكيّة، وهي لفتة بسيطة تثير المشاعر، ذكّرتني بالنصب التّذكاريّ لمحاربي فيتنام في واشنطن العاصمة.

لدى وصولي إلى مكتب العمدة لم أجده مثل مكاتب رجال الأعمال في الغرب؛ إذ كان يضم طاولة عظيمة أكبر من طاولة أيّ وزير فرنسيّ، عليها قلم حبر ونشّافة، وهاتف، ولافتة ذهبيّة كبيرة كُتب عليها اسم المحافظ ومنصبه، ومجموعة الصحف اليوميّة، وثلاثة أعلام تركيّة مثبتة على حامل صغير، ليس هذا فحسب، بل ضم المكتب أريكتين وستة مقاعد بمسندين، ومطافئ بلوريّة للفائف، وشاشة تلفاز ملون مسطّحة هائلة، ورفوف للكتب، وحاسوب، ومائدة حولها ثمانية مقاعد، وصورة ثلاثية الأبعاد لأتاتورك، علاوة على صور مأطورة لمشاهد جبليّة معلقة كلّها على الحائط، وزهريّات، وثلاثة أقفاص بها طيور الكناري الصفراء المغرِّدة، وأؤكد لكِ أنني استُقبلت بحفاوة وأبّهة أكبر مما تلقيتهما أثناء زياراتك لحريم الدار يا سيدة ماري.

حاورني العمدة حوارًا مفعمًا بالحيويّة ثلاث ساعات، وراح يعرض عليّ أوراقًا على مكتبه أو على رفوف كتبه، وأغراضًا في أدراجه وملفاته، ونادى مساعده وأعطاه كومة من هذه الوثائق -وهي تقارير عن المحاصيل، وإحصاءات محليّة، ومقالات عن السوق- وأمره أن ينسخها لي، ثم شغّل العمدة المكيّف بالحاكوم على مكتبه، وسرعان ما قُدّم لي الشاي والصودا والماء والمياه الغازيّة دَفعة واحدة بينما قُدّمت للعمدة قهوة تركيّة، ثم شاهدنا عرض فيديو لاحتفالات الختان المحليّة العامّة التي أقيمت قبل أسابيع قليلة في الميدان المقابل للسوق، ثم طلب العمدة من مساعده أن يصنع لي نسخة من تسجيل الفيديو، فلاحظت على رفوف الكتب صحنًا خزفيًّا حديثًا من إزنك صُنع خصّيصًى لحمل صورة العمدة وخلفه

سـوق، فتشجعت وسـألته من أين يمكنني شراء مثل هذه التحفة؟ وبسرعة البرق اسـتدعى المسـاعد ليلفّ الصحن لآخذه معـي! وبينما لا أكاد أجد الوقت في عملي لاسـتقبال ضيف مفاجئ ولو عشر دقائق، اقتطع العمدة من وقته أكثر من ثلاث ساعات، وقدم لي المشروبات والوثائق والهدايا!

أعتقـد أن السـفر يمنـح الأتـراك فرصًـا لا نهائيّـة لإظهـار حسـن ضيافتهـم بوسـائل مبتكـرة؛ ولأنني امـرأة أجنبيّة، فدائمًا مـا تُبذل الجهود لإعـادة ترتيـب الركّاب في الحافلة بحيث أحصـل على المقعد المرغوب ذي رقم واحد خلف السائق مباشرة، وحينما أصل إلى أحد الفنادق أُستقبل دائمًـا بالاحتـرام، ويحتشـد الخدم لحمـل أمتعتي؛ ذات مـرة تحمّل رُبّان مركب بنفسـه مسـؤولية إرشـادي في جولة إلى جزيرة أكدامار في بحيرة فـان، أمـا في أماسـيا، فقد نبّهني أحد المـارّة أنني أنتظـر الحافلة المتجهة إلى إزينابازار في المكان الخطأ -كيف علم وجهتي!- وسـار معي نصف ميـل إلى مـكان الانتظـار الصحيح، وفـي أنطاليا قدّم لـي صاحب مطعم ذي إطلالـة -للأسـف لم يعد موجـودًا الآن- المثلجات وشـراب النعناع المسـكّر اعتـذارًا عن بعـض المزعجين في المائدة المجـاورة، وعادة تمرّ عارضـات الترفيـه فـي المطاعـم علـى جميـع الطـاولات لإلقـاء التحيّة، واعتـدن أن يتوقفـن عند طاولتي لتحيتي والسـؤال عن اسـمي والترحيب بـي أنـا الضيفـة المميـزة عندهـم، أما فـي ركـن الأرز التركيّ فـي القرى الصغيـرة، فغالبًـا ما أحصل على طعام إضافيّ لم أطلبه؛ لسـعادة العاملين الشـديدة باستقبال ضيف أجنبيّ في ركنهم المتواضـع، وحينما استأجرت سائقًا ليوصلني إلى أطلال قصر كوباد آباد القريب من بيشهير، كان يتوقّف كلّ خمـس دقائق ليقطف لي ثمرة مختلفة من الشـجيرات الغنيّة المحيطة بالبحيـرة، مثـل: التفـاح، الكمثـرى، الخـوخ، البرقـوق، الكـرز، التـوت، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دعاني إلى متنزه بجوار الحديقة لأشاهد غروب الشمس على البحيرة وأحتسي الشاي مع أسرته.

وللأتراك -الفخورين جدًّا ببلدهم ذي التاريخ العريق- فِعالٌ في كرم الضيافة تتضمن لفتات ظريفة يظهرونها أمام الأجانب، وكأنَّها أسلوب للتعبير عن سعادتهم بالانتماء لهذا البلد، فهذا رجل من أدرنة كان قد نقل مصنعه خلف الخان الذي شيّده إميكتشي أوغلو أحمد باشا عام ١٦٠٩م، اصطحبني وحدي لجولة في السوق؛ وآخر شيخ احدودب ظهره يتوكّأ على عكّازه في مقبُرة السلاجقة بقرية جيفاس، سار معي ليطمئن على مشاهدتي مقبُرة الشريفة حليمة «قارا قيونلو هانم أفندي» السيدة صاحبة الخرفان السوداء؛ وفي نكسار عند زيارتي المسجد الكبير اصطحبني إمام المسجد لأعلى القلعة، وظلَّ معي طَوال اليوم من بعد الظهيرة، وأخبرني أنه فعل ذلك؛ لأنني أول أجنبيّ يحضر لزيارة مسجده؛ فظنّ أنّ الله أرسلني إليه لحكمة، واعتنى بي جيدًا! ويظهر حسن ضيافة الأتراك أيضًا في جولة خاصة اصطحبني فيها مدير مدرسة جوهر في قيصري ساعتين، وجعلني أوقّع في سجل الزوار، ويظهر كذلك لدى الشيوخ الجالسين في ميدان قرية هورتو أمام النصب التذكاريّ الصغير للبطل الشعبيّ نصر الدين خوجا (جحا)؛ وجدتهم يفسحون الطريق لأتمكن من التقاط صورة ما زالت معروضة على مكتبي حتى اليوم بوصفها رمزًا للفتة طيبة قادتني لأكتشف واحدًا من أجمل الجسور السلجوقيّة في تركيا؛ ويظهر كذلك فيما فعله الرجال في متجر البِقالة المقابل للمسجد السلجوقيّ في بيرجي؛ إذ أخرجوا أكبر مفتاح حديديّ رأيته في حياتي؛ ليفتحوا باب المسجد لأشاهد مصراعيه الأصليّين المنحوتين من الخشب ومئذنته.

ذات مرة ركبت سيارةَ أجرة بعد الظهيرة في سيواس؛ لأزور قبر الشيخ حسن، ثم استأذنني السائق بحياء في أن يصطحبني إلى مكان ما قائلًا: «أعرف مكانًا أشعر أنه سيعجبك كثيرًا»؛ عادة ينبغي أن يحذر المرء من مثل هذه الاقتراحات، لكن لمَ الحذر! أنا في تركيا لم أخش

شـيئًا؛ فاصطحبني لمشـاهدة جسـر «أير» المميز بتقوسه كأنه حرف اللام، ومـا زال صامـدًا فـوق النهر الأحمر رغـم الهزات الأرضيّـة العنيفة عامي ١٩٣٩م و١٩٤٢م التي دمرت كلّ شيء تقريبًا في المنطقة.

كلّ ما أخشاه يا سيدة ماري أن يتلاشى حسن ضيافة الأتراك؛ فأخاف أن تسـتنفد أفواج الأجانب المتدفقة على تركيا الصبر السـرمديّ للأتراك وتمحـو شـعورهم بـأن هـؤلاء الوافدين -غيـر المحترمين عـادة- زوار مـن عنـد الله، لكنّنـي عندما أفكر أن هذه السـمة -حسـن معاملة الأتراك لضيوفهـم- منذ أيام ابن بطوطـة عام ١٣٣٠م حتى ذهابكِ عام ١٧١٨م، أطمئن أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة، كل ما ينبغي عليّ فعله هو تذكـر الغرف حديثة الطلاء وصواني البقـلاوة من غازي عنتاب؛ ليطمئن قلبي، نعم، ثمّ نعم، ثمّ نعم، أريد كوبًا آخر من الشـاي!

صديقتكم

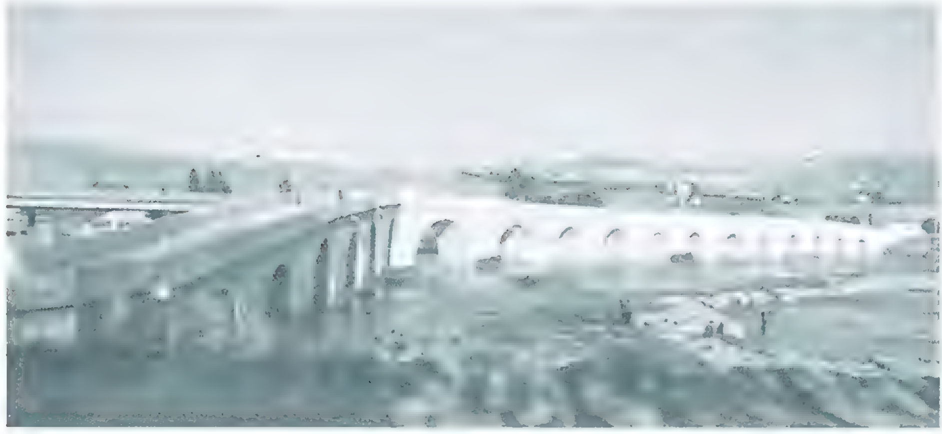
قدرية برانئج



صينيّة بقلاوة أُرسلت من غازي عنتاب تكريمًا لي



اجتماع الجيران لشرب الشاي في قيصري



جسر أير في سيواس



قبر الشريفة حليمة في جَفاس

الرسالة السابعة عشرة

وسائد وكعك

عزيزتي السيدة ماري،

أفرد في كلّ دفتر ليوميات سفري قسمًا خاصًّا بعنوان: "أمور لامست شغاف قلبي"، وفيه أسجّل كلّ الأمور الاستثنائيّة المفاجئة خلال الرحلة، وهـي لا تقتصر على العجائب المعماريّة والفنيّة والطبيعيّة، بل تضمّ أيضًا اللمسـات الإنسـانيّة واللقاءات المؤثرة التي تترك بصمتها في نفسـي كما تفعـل المواقـع التاريخيّـة والجغرافيّة؛ فالأتراك لا يكتفـون بكونهم أكرم شـعب في العالم، بل يتجاوزون هذه السـمة الجديـرة بالتقدير، ويبادرون بأعمـال مذهلـة لا تُصدق تنُمّ عـن طيب العنصر، أعمـال تتفق مـع أدبهم الجمّ وسـمو أخلاقهم الفطريّ، قد تكون هيّنة جدًّا، كتقديم كوب شـاي، أو المصافحة، أو كلمة "تفضل" بابتسامة دافئة، أو رشّة عطر، وقد تكون قيّمـة جـدًّا ومفعمـة بالطيبـة والعفويّة كإهدائـك قصيـدة أو صينيّة بقلاوة مـن غازي عنتـاب، لكن المذهل أنك تُفاجأ دائمًـا لما في ذلك من لطف ويسـر وعفويّـة دون تحفّظ حتى إنها تبدو أسـلوب حياة، وأنـا أعتقد أنها من أهمّ الدلائل المشيرة إلى إنسـانيّة الشعب التركيّ الأصيلة؛ يتصرفون كأنهـم ملائكـة تسـير علـى الأرض؛ فهـم يراعونـك ويسـاعدونك دائمًا كي يكون يومك أجمل وأقيم.

كيف يمكنني أن أشرح لك هذه اللفتات يا سيدة ماري؟ كان أغلبها أثناء مغامراتي في الطرقات؛ ولأنك نادرًا ما بقيت وحدك لم تقابلي منفردة أيّ تركيّ، وفاتك -في رأيي- أن تستكشفي بعض أغنى الكنوز في هذا البلد.

ربّما لا يبدو متميزًا ما سأقصّه عليك من أحداث، لكن في البيئة المدنيّة الصعبة حيث عشتُ لا يتاح لك الوقت لتتكشّف الأمور كما يحدث في تركيا؛ إذ تُبنى جدران الخصوصيّة الحذرة سامقة حول الناس جميعًا، أمّا الأشياء المميّزة خلال سنوات سفري الطويلة فهي إمّا تقدير بالغ أو إطراء رقيق وإمّا لفتة متواضعة أو هدية قيّمة.

أخبرتك من قبل أن الأتراك يتمتعون بأدب جمّ، ويكثرون من كلمة "تفضل"، ومن تقديم الشاي، واستقبال كلّ من يقابلونه في حياتهم اليوميّة بكلمة رقيقة، حتى إنّ نهاية رسائلهم توجز اهتمامهم الشديد بالكِياسة؛ فلا يكتبون عبارة "صديقك المخلص" المملّة، بل يكتبون "مع احترامي وتقديري"، وقبل أن يطلبوا شيئًا يقولون دائمًا "بعد إذنك"، وتعلمت منهم أنّ أسرع طريقة للتخلص من أيّ مشكلة تؤثر على أمانيّ أو سلامتي أن أهمِس أو أصرُخ بكلمة "عيب!" المزلزلة لصورة التركيّ سبب المشكلة؛ فيهرب سريعًا، ورغم ذلك لم يحدث خلال ثلاثين عامًا من السفر أن تحدّث إليّ شخص بغلظة أو بسوء أدب سوى مرتين، كانتا ردّ فعل تُجاه المواقف المؤسفة لقادتي السياسيّين، وليس غضبًا من شخصي.

قيل لي عدة مرات: إن من أسباب تعامل الأتراك معي بطيبة ولطف أنني أسعى جاهدة لاحترامهم، من خلال ارتداء الملابس الملائمة والتصرف بأسلوب يتماشى مع عاداتهم وآدابهم، والأهمّ من كل ذلك أنّني أتحدّث لغتهم؛ قد يكون ذلك صحيحًا، لكنّ الأتراك يحترمون كلّ الزوّار الأجانب دون تكلّف، بل بأريحيّة وتلقائيّة كما هو الحال فيما بينهم.

يولي الأتراك عناية خاصّة بضعفاء القرية سواءً أكانوا مُعَاقين أم فقراء، ويعاملونهم باحترام؛ خلال زيارتي الأولى إلى تركيا كنت أسير في حيّ هادئ، فاقترب مني رجل كفيف يحمل في يده بطاقة بريديّة شاحبة مطويّة الطرف؛ لم أفهم الأمر في البداية، ثمّ أدركت أنه يعرض عليّ أن أشاهد صورة الهرة الصغيرة المطبوعة على البطاقة مقابل عملة نقديّة؛ لم يكن متسوّلًا بالمعنى المفهوم، بل كان يعرض عليّ خِدمة؛ حينها جاء رجل كان واقفًا على مقرُبة منّا وقال: "يا عمّ -نداء احترام لكبار السن- دعْها وشأنها، فإنها أجنبيّة ولن تفهمك"، ثمّ اقترب الرجل وأمسك السائل من ذراعه ليبعده عنّي، وفي الوقت نفسه دسَّ سِرًّا في يده عملة نقدية؛ فلم تُجرح كرامة السائل، ولم يتسبب أحد في إزعاجي، وعلّمني الرجل درسًا مهمًّا عن طريقة السؤال والعطاء في تركيا!

يتجلّى الشعور بالشفقة نفسه تُجاه السائلين في موقف آخر حدث في قونيا، حيث خرجت من صيدليّة بعد شراء الدواء، وجلست في حديقة شاي مجاورة لأستريح وأتناول الدواء؛ فأدرك رئيس الخدم التركيّ الحاذق -وقد لاحظ خروجي من الصيدلية وإمساكي ببعض الأقراص- أنني لست على ما يرام، وقبل أن أطلب الشاي ظهرت سائلة وجلست إلى مائدتي تطلب نقودًا؛ فأسرع النادل بالتدخل قائلًا: "من فضلك اتركيها يا عمّة؛ فهي ليست على ما يرام"، وأخذها من يدها، وأجلسها إلى مائدة أخرى وقدّم لها كوبًا من الماء محافظًا بذلك على ماء وجوهنا نحن الثلاثة، وحينما أردت أن أدفع ثمن الشاي، أخبرني أنه تشرف بتقديمه لي اعتذارًا عمّا تعرضت له من إزعاج في مكان عمله.

وها هي ذي قصتي مع أبله القرية! فصبيحة يوم أحد، وبينما كنت أستمتع بالتجول في هدوء حول بلدة أغيردير، وأشاهد الآثار السلجوقيّة

الرائعـة، أدركـت فجـأة أن ثمّـة رجـلًا يراقبنـي دون أن يفعل شـيئًا آخر؛ فلـم أكترث للأمـر ومضيت لما انتويتـه؛ إذ قررت الانتفـاع بمزايا العصر الحديـث، وقمـت المـرة الأولـى بنقل الصور مـن مصوّرتـي الرقميّة إلى قـرص بيانـات؛ لأن المصـوِّرة حديثة ولسـت معتادة علـى التعامل معها، وخشـيت أن ألقـي هـذه التبعـة الكبيرة علـى عاتق متجر تصويـر في هذه البلـدة الصغيرة، وقد ضمّت المصوّرة ما التقطتُه من صور طَوال الصيف، وسـتكون كارثة لو فقدتها في عملية النقل؛ استشعر صاحب المتجر قلقي حيال العمليّة، وحاول طمأنتي بكل الوسائل الممكنة؛ فأحضر من الخلف التقنيّـة الشـابّة المحجّبـة لترينـي أن فتاة مثلـي يمكنها فعل ذلـك، وبينما أخـذت الفتـاة الرُّقاقة الثمينـة إلى الغرفـة الخلفيّة وربّتت علـى يديّ هدّأ صاحب المتجر من رَوْعي بأن أجلسـني، وقدّم لي الشـاي، وعرض عليّ مجموعـة صور للمنطقة، وأهداني مجموعة صـور أخرى لمنطقة البُحيرة الجميلـة تَـذكارًا، وما إن هدأت نفسـي حتـى دخل المتجر فجـأة متعقِّبي طوال الصباح، وجلس في المقعد المجاور محدّقًا بي، ثمّ بدأ يهمهم، فما أدركـت أنـه ضعيف العقل إلا حينئذ، وسـرعان ما دخل فـي أعقابه رجل آخـر، وأخبر صاحب المتجر أنّه ظـلّ يراقب متعقبي طوال الصباح عندما لاحظ أنه يلاحقني؛ لم أشـعر مطلقًا أنّ هناك شـخصًا آخر يلاحقني طوال تلك الفترة، شخصًا طيّبًا يحاول الحفاظ على سلامتي سرًّا.

قيّـم صاحـب المتجـر الموقـف، واقتـاد المعتـوه إلـى الخـارج، ثمّ أجلسـه تحـت شـجرة على الجانـب الآخر مـن المتجر وقدم له الشـاي؛ فأسـرع الحراس بالخروج خلفهما ونصحوا الأبْلَهَ بهدوء أن يترك السـيدة الأجنبيّة وشأنها، ثمّ بقي معي حتى استلمت الرقاقة والأسطوانة المنسوخة من الشابّة المبتسمة، خرجت من المتجر وأنا أعلم أنّني لست معرَّضة لأيّ خطر، وأن متعقبي -الأبله- لم تكن لديه أدنى فكرة أنه أخطأ في شيء.

كانت لقاءاتي مع السلطات تتسم بالوقار والاحترام ولو كنت مخطئة؛ ففي إحدى المناسبات كنت أركب السيارة شرق الأناضول مع صديقة انتقلَت إليها -وأسفاه- عدوى القيادة السريعة أعلى التلال، ولطالما شعرت بعدم الراحة إزاء ذلك -خاصة وأنا أجلس في المقعد الأمامي بجوارها- لكن لا أحد يفضل سماع التعليقات وهو يقود.

وذات ظهيرة قامت صديقتي بهذا السلوك المتهوّر، ولسوء حظها كانت هناك سيارة شرطة تتربّص بأيّ مخالف في الجانب الآخر من التلّ؛ فأمرها الشرطيّ بالتوقف وجاء يتهادى حاملًا مسدسه ومرتديًا نظّارة الشمس القاسية! فلما اقترب منّا تفحّص محتويات السيارة بدقّة، ثمّ طلب منها رخصتها وأوراق تسجيل السيارة بصوت أجشّ، ليدقق فيهما بجديّة حازمة؛ لا شكّ أنّ صديقتي المرتعدة تملّكها الخوف، لكنني شعرت سرًّا بالسعادة؛ لأنها ستتلقّى أخيرًا العقاب على هذا التصرف الخطير... رغم أنني لم أعلم كيف سأخبر والدتها المسكينة في سان فرانسيسكو أنّ ابنتها محتجزة في سجن تركيّ! أعاد الشرطيّ الأوراق إليها ومال نحوها ثمّ قال ببطء وجديّة وحزم: إيّاك أن تفعلي ذلك مرة أخرى؛ هل تفهمين ما أقول؟ إيّاك وتكرارَ ذلك! ثمّ استدار وسمح لنا بالذهاب.

إن هذا الاعتراض الحازم -الوقور في الوقت نفسه- عكس الاحترام للأشخاص المعنيين جميعًا؛ وبالفعل لم تكرّر صديقتي فعلتها مرة أخرى؛ وأيضًا لما قُبض عليّ وأنا أصوّر منطقة عسكريّة بحُسن نيّة، لم أُعامَل إلّا باحترام من المسؤولين جميعًا، بدءًا من الجنود حاملي المدافع الرشّاشة في المقعد الخلفي للسيارة إلى الضبّاط في قسم الشرطة، بل بادروا جميعًا بتوفير سبل الراحة لي.

الغريب في الأمر أن الأتراك لا يقبلون أن يُعاملوا بالطريقة نفسها، ويجدون صعوبة بالغة في تقبّل التصرفات الطيّبة من الآخرين؛ ففي أحد الأعوام قررت أنا وصديقتي أن نقدّم هديّة لمدير فندق في أنطاليا؛ لنشكره على كل ما قدّمه لنا على مدار السنين، وقبل أن نغادر نيويورك اخترنا الهديّة بعناية، وهي مجموعة أقلام قيّمة، ولدى وصولنا إلى الفندق تركنا الهديّة سرًّا على مكتب الاستقبال ومعها بطاقة، وبعد مرور خمس دقائق سمعنا طرقًا على باب الغرفة، ووجدنا الحاجب يعيد إلينا الهديّة؛ فشعرنا بالانزعاج ولم نفهم سبب إعادتها إلينا، وخرجنا لتناول العشاء، ولدى عودتنا وجدنا غرفتنا قد تغيّرت تمامًا؛ فثمّة مناشف جديدة ومُلاءات مطويّة وزجاجات عطر في الحمام وبرانس قطنيّة جديدة ملقاة على الفراش وأزهار في زهريّات وسلّة فواكه ضخمة وبطاقة شكر... كلّ هذا في مقابل الهديّة التي لم تُقبَل! ربّما شعر المدير بالحرج من طريقتنا -التركيّة- في التعبير عن امتناننا، لكنه قدّر جهودنا فرد الصنيع بالطريقة التركيّة المعتادة.

من الوسائل الأخرى لتألّق الأتراك في التعبير عن طيبتهم المجاملات المتنوعة العذبة الصريحة المبتكرة؛ ولأنهم لا يخجلون مطلقًا من التعبير عن أنفسهم؛ فقد تجدهم في أغلب الأحيان صرحاء جدًّا في عواطفهم، رغم أنّ هذه الرقة الصريحة نادرًا ما تظهر بحرية في ثقافتنا الغربية، وقد ذكرتِ -يا سيدة ماري- مجاملة مؤثرة جدًّا قدمتها لكِ صديقتك فاطمة: "بدأت أخبرها (فاطمة) عن الضجّة التي قد يثيرها جمال وجهها في لندن أو باريس! فأجابت بلطف: لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين".

بعض هذه الإطراءات تمسّ شغاف القلب بالفعل، إنّ المجاملات

المصحوبة بالورود أو الآتية من خاطب طموح تكون رائعة بالطبع، إلا أنّ إطراء النساء لي أحبّ إلى قلبي، كإطراء فاطمة لك يا سيّدتي!

ذات مرة كنت أتجوّل في متجر بِقالة في قيصري لاختيار بعض الأصناف ومشاهدة صفوف السلع المعروضة للبيع، وهي تسلية تمتعني دائمًا في أسفاري، شعرت أنّ هناك من يتعقّبني، وبلمح البصر التفت فوجدت شابّة تعمل في المتجر؛ فمن الشائع جدًّا أن يُتعقّب المرء في متاجر البِقالة الصغيرة والصيدليّات في نيويورك، لكنّ هذا يعني دائمًا شكّ حارس الأمن في قيامك بالسرقة، لكنّ تلك الشابّة بدت مختلفة، وبدأت تقترب منّي مع كل ممرّ أقطعه، أخيرًا دنت منّي وابتسمت لي ابتسامة عريضة، ثمّ أخذتني من يدي إلى قسم الفاكهة، وشجّعتني أن أتفحّص ثمار الخوخ لديها قائلة: "إنها صابحة جدًّا!" وظلّت تأخذني من رفّ إلى آخر، وتعرض عليّ بضاعتها بحماس كطفل يعرض لعبه المفضلة لأحد الضيوف، وأخيرًا نظرت إليَّ وقالت: "أنا معجبة بك، فلديك عينان جميلتان؛ أنت جميلة! من فضلك عودي مرة أخرى عسى أن نصبح صديقتين!" بالفعل كنّا سنصبح صديقتين مقربتين كصداقتك أنت وفاطمة؛ فهذه المرأة المحبَّبة لا تُقاوم، مثلها مثل الفتاة ذات الاثني عشر ربيعًا التي كانت تساعد والدها في أحد مطاعم أكتشابات لنقص العاملين تلك الليلة؛ فقدّمت لنا الطعام باحترافيّة كاملة تتوقعها من كبير نُدُل مخضرم في مطعم ذي نجوم أربعة؛ تصرفت الفتاة بطريقة فتاة المتجر نفسها؛ فلم تتركني لحظة، بل ظلّت إلى جواري عندما ذهبت إلى الحمام، وفتحت لي صنبور الماء، وقدّمت لي منشفة، وفتحت لي الباب لأخرج، وعلى المائدة ظلّت تحوم حولي؛ لتضع الملّاحة أمامي، وتصبّ لي الماء، وتطوي منديلي استجابة لأيّ حركة من حركاتي؛ وحينما استفسرت من صديقي التركيّ عن سبب اهتمامها بي ضحك قائلًا: إنها معجبة بك!

فقد أخبرتني أنها تجدك جميلة جدًّا؛ بالطبع عندما حان وقت الرحيل، اقتربت الفتاة ولوّحت لي مودّعة، ولما وصلت باب المطعم نادت بأعلى صوتها حتى سمعها من في المطعم جميعًا: أنا معجبة بك جدًّا!

أخبرتك سابقًا يا سيدة ماري، أن تركيا بلد اللفتات الصغيرة المؤثر بعضها بدرجة هائلة، واللفتة التركيّة المفضّلة لديّ هي ما أطلق عليه "اليد السحريّة": فإذا كان بمقدور الشخص التركيّ أن يمدّ يد العون في أيّ موقف، فسيمدها؛ فتلك الأيدي لن تكفّ عن المساعدة؛ يدرك الأتراك سلَفًا ما يجب عمله، ويسارعون بتنفيذه كأنّما يحملون في أيديهم العصيّ السحريّة.

وصلت متأخرة ذات ليلة إلى محطة حافلات توقات لأجد المكان يعمّه الهرج، واكتشفت أن السبب عطلة الجنود، كانوا عائدين إلى منازلهم وأسرُهم الكبيرة في استقبالهم، نزلت من الحافلة وتركت حقيبتي على الأرض لحظات كي أضع شيئًا في محفظتي، وعندما نظرت ثانية كانت قد اختفت! نظرت حولي بعد أن تملّكني الرعب، فرأيت رجلًا تركيًّا قصيرًا قويّ البنية يركض ممسكًا بحقيبتي تحت إبطه؛ فانطلقت أجري خلفه ورأيته من بعيد يضعها عند بداية موقف سيارات الأجرة، لم يكن يعرفني، لكنّه عرف أنّني نزلت من تلك الحافلة وحدي، وليس لي عائلة تنتظرني، وأنّني سأحتاج إلى سيارة أجرة، وعلى الفور امتدت يد المساعدة السحريّة الخفيّة فطريًّا لتحمل الحقيبة، وبعد أن وضعها، عاد مسرعًا ليساعد الأسرة التي حضر معها دون أن يوجه إليّ كلمة واحدة أو يدعني أشكره.

وفي مناسبة أخرى في قيصري، كنت أنتظر الحافلة ومعي حقيبة ثقيلة وإلى جواري فلّاحة ترتدي سروالًا فضفاضًا وتحمل طفلًا بين ذراعيها، حينما انفتح باب الحافلة بمثل لمح البصر، احتضنت المرأة فورًا رضيعها

بذراعيها ثمّ وضعته على فخذها، وأمسكت مقبض حقيبتي بيدها الأخرى، ثمّ بدأت ترفعها على السلالم؛ لقد امتدت يدها تلقائيًا، ومنحتني في لحظة خاطفة الدفعة الأولى؛ لتجعل تحدي صعودي السلم سهلًا.

أخبرتـك قَبْـلًا أنّ هناك تركيًا خلف كل شجرة يراقب ما يحدث، لا يمكنني أن أحصي عدد العيون والأيادي الخفيّة التي تعتني بي كأنها ملاك يحرسني، مثل ذلك الرجل في أيْردر؛ فهم جميعًا دائمًا يحرسوني، ليتأكدوا أنّني ركبت الحافلة الصحيحة، أو دخلت من الباب الصحيح، أو اخترت أفضل ثمرة خوخ، لا تكلف هذه اللفتات شيئًا ويمكن لأيّ شخص أن يقدّمها، لكنّها أثمن في عفويّتها من الخمسين صنفًا التي قُدمت لك يا سيدة ماري!

سبق أن حدثتك عن بساتين الورد التي عُرضت عليّ على مدار السنين، لكنّ الأمر أكبر من ذلك؛ فعندما تتعثرين، يرفعونك ويقدمون لك مقعدًا بمنتهى الحنان، وعندما تشعرين بدوار نتيجة الحرّ الشديد يقدمون لك كوبًا من الماء لينعشك؛ وهم مستعدون لمنحك تذاكر للحافلات، وعندما تكونين واقفة على جانب الطريق في انتظار الحافلة يعرضون توصيلك إلى المدينة في عربة المزرعة، وعندما تدخلين إلى صيدليّة لشراء الأسبرين، يقدمون لك مقعدًا لتستريحي وكوب ماء، وهم مستعدون لغلق متاجرهم وأماكن عملهم لاصطحابك إلى أماكن مختلفة، والأغراض التي تنسينها في سيارة الأجرة يعيدها السائق إلى فندقك، ويقدمون لك ثمار الفاكهة وأكواب الشاي كلّما سنحت لهم الفرصة، تتجلى هذه الطيبة في أحمد موظف استقبال الفندق في توقات يختتم برقيته لي بوجه مبتسم وعبارة "حفظك الله".

ذات مرة كنت في زيارة لمدينة كرامان ذات الواحة، وأردت زيارة خان الولي الشيخ علاء الدين كراباش، لكنّني لم أتمكن من الوصول إليه؛ كنت أشعر بالحرارة الشديدة والإحباط لكنّني عقدت العزم على العثور عليه؛ لهذا دخلت متجر حلّاق وطلبت مساعدته في معرفة الاتجاه الصحيح؛ بدأ الحلّاق يُشاوِر زَبونًا أمامه، ثمّ أجابني: "لا توجد مشكلة!" وترك الرجل جالسًا في المقعد ووجهه مغطّى بالرغوة، واصطحبني إلى المجمع وكان بعيدًا!

أما في مدينة قيصري، فقد ذهبت صباح أحد أيام الآحاد مبكّرًا لأزور أطلال قصر كيقوبادية على أرض مصنع السكر والمياه، ولمكانة دليلي المؤرخ محسن إلياس صوباشي -فضلًا عن قدرته الهائلة على الإقناع-؛ استطعنا إقناع الحارس المناوب أن يسمح لنا بالدخول، لكنّه وافق بشرط أن يظلّ ملازمًا لنا لأسباب أمنية؛ وفور انطلاقنا في الطريق صاح فجأة: توقفا! كاد قلبي يتوقف خشية أن يكون قد غيّر رأيه بشأن السماح لنا بالدخول، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد دخل أحد المباني وعاد مسرعًا إلى السيارة حاملًا بين ذراعيه الكثير من زجاجات المياه والصودا الباردة لنأخذها معنا، واتضح لنا أنه لم يكن يعرف أنه لا يحرس مصنعًا فحسب، بل قصر أعظم السلاطين السلجوقيّين علاء الدين كيقوباد؛ سيظلّ للأبد يتذكر درس التاريخ المذهل الذي تلقاه ذلك اليوم من هذا المؤرخ الشهير، وسأظل أتذكر زجاجات المياه التي أهداها لنا!

ومن أمثلة اللفتات الصغيرة الأخرى ما قام به عامل بناء يعمل في مستشفى مدينة أماسيا، عندما اصطحبني إلى موقع الترميمات المغلق وأخذني في جولة حول المكان؛ لأنه شعر بفضولي واهتمامي بما يفعل.

تلقيت لفتة أخرى صغيرة في حيّ سافرانبولو في متجر مَلْبَن رائع يرجع إلى عام ١٩٤٢م، ويتميّز بسلامة زجاجه الأصليّ المصقول وزينته الخشبيّة المنحوتة، رآني صاحب المتجر من المدخَل، وشعر أنني سيغشى عليّ في الشارع؛ فخرج، وأمسكني من ذراعي، وأدخلني إلى متجره، وقرّب لي مقعدًا لأستريح عليه.

تعرضت لموقف آخر في توقات في متجر لبيع الفاكهة، فقد شعرت أيضًا أنني سأفقد الوعي بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وسرعان ما قُدِّمَ لي قفص خوخ لأجلس عليه، وفي اللحظة عينها دخل صبيّ صغير إلى المتجر لتسليم الغداء لصاحب المتجر -خبز تركيّ بالجبن مخبوز في الفرن-، فوضع المالك اللفافة الدافئة على حجري وكلّه جديّة، وقال: تفضلي، لا بدّ أن تأكلي هذا كي تتحسني! ولم تفلح كلّ اعتذاراتي في تغيير رأيه أو إقناعه بأن يأكل معي على الأقلّ.

لا يقتصر الأمر على الخبز التركيّ والشاي والزهور التي يغرقني بها الأتراك، بل كلّ أنواع الفاكهة أيضًا؛ كنت في أماسيا ذات مرة، وكنت قد قضيت أربعين دقيقة في حمام السباحة، وحينما خرجت وجدت على الطاولة الصغيرة بالقرب من مقعدي صحنًا لم أطلبه، فيه ثمرة خوخ مقشرة ومقطعة وبجوارها كوب من العصير الصابح، وكذلك عندما كنت أزور مسجد الإمام عمر بك في بورصة، كنت مأخوذة بمشاهدة حجر الأساس العائد إلى عام ١٤٥٤م المعلق بجوار الباب على لوحين منفصلين من الرخام، حتى إنّني لم أنتبه للصبيّ الذي اقترب منّي، ثمّ قام ببطء مادًّا كفيه المضمومتين إليّ، بدت بداخلهما حبّات من اللؤلؤ الثمين؛ كانت في الواقع حبّات التوت الأبيض الصابحة، جمعها لي من الشجرة في ساحة المسجد؛ إنها المرة الأولى في حياتي أتذوق هذه الثمار الغضّة عسليّة المذاق.

أمّـا فـي قونيا، فقد قطف لي حارس مدرسـة قاراتاي ثمار المشـمش الصابحـة مـن الحديقة، وكان ذلـك موقفًا آخر أتاح لي فرصة الاسـتمتاع باللفتـات الصغيـرة المذهلـة، كذلـك تلقيـت دعـوة لزيـارة ديـر الشـيخ تورَسَـان على قمة أحد الجبال النائية في الطريق بين قيصري وأورجوب، وقبل الذهاب إلى هناك بالسـيارة "الجيب" توقف مضيفي شـعيب توركَر عند متجر بِقالة لشـراء الفاكهة الصابحة ليهديها للبواب وأسـرته، وحينما عرضـت الإسـهام فـي ثمنها، قُوبل عرضـي بالرفض طبعًا، بل وأشـعرني مضيفي أنّني ارتكبت ذنبًا فادحًا في حقّه.

مـا إن وصلنـا إلى الديـر وأنزلنا حقائب البطيخ والخوخ والمشـمش والعنب الكثيرة من السيّارة حتى وضعها شعيب كلّها بين يديّ، وفور خروج البـواب وأولاده للترحيـب بنـا، دفعني شـعيب برقة وقال لـي: "تفضلي! لا تخجلـي، قدمـي لهم الفاكهـة!" كانت هذه طريقته في مسـاعدتي على التعـرف إلى الأسـرة وإقامة صداقة معهم، كأنّمـا كان إحضار الفاكهة لهم ودفـع ثمنها مني أنا!

غيـر أنّ أكثـر اللفتات الصغيرة تأثيرًا في النفـس تلك التي يقدّمها لك الفقـراء الذيـن لا يملكون شـيئًا لتقديمه سـوى طيبة قلوبهم، فتسـمو بهم لفتاتهـم إلى مكانة من النبل أعلى من مكانة السـلاطين؛ ذات مرة وأنا في توقات جلسـت علـى الجدار المنخفـض المحيط بمسـجد هاتونية أنتظر انتهاء شـعائر الصلاة كي أتمكن من دخول المسـجد والتجول فيه، فدبّ نحـوي رجل محدودب الظهـر ينتعل حذاء لامعًا وأعطاني غِرارة لأجلس عليها، كانت متسخة أكثر من المكان، لكنّ المهمّ أنه قدّم لي شيئًا، ورغم فقره استطاع أن يقدّم لي شيئًا مفيدًا.

اتضـح لي فيما بعد أن أهالي توقات يسـعدون بتقديم الوسـائد؛ ففي مناسـبة أخـرى كنت خارج مسـجد جاريبلر أنتظر انتهـاء الصلاة لأدخل، رأتني عجوز من نافذة منزلها المجاور، فخرجت حاملة سجادة كِلِيم ملونة لأجلس عليها.

سـيدة مـاري، هل سـبق وقمت بعمل هيّـن يراعـي الآخرين بصدق؟ لا أعتقد أنّني فعلت، وقد مررت مرتين مختلفين بتجارِب لا تُنسى تعكس كرمًـا لأشـخاص فقراء؛ حينما كنـت أزور أحد أحب المسـاجد في تركيا إلـى قلبـي: مسـجد مـراد الأول خودافاندجـار علـى قمة تلّ تشـيكيرجيه فـي بورصـة، يرقد في هـذا المجمـع الروحانـيّ الهادئ جثمان السـلطان مراد الأول -أحد أشهر السلاطين العثمانيين- في ضريح بالجهة المقابلة لمسـجده الهائل، وثمّة حديقة شاي تحيط بالضريـح، وقد اعتدت التوقف للاسـتمتاع بالأشـجار والأزهـار هناك، والاسـتماع إلى حفيف الأشـجار في هذه البقعة المرتفعة فوق المدينة، ومراقبة المسجد المهيب من الجهة المقابلة للشـارع، والتفكر في حياة هذا السلطان المأساويّة المنتهية بمقتله في معركة كوسـوفا على يد صربيّ غاضب... وأنا جالسـة هناك ذات مرّة، اقترب منّي شيخ مُعْدِم ومدّ إليّ يده -المتسخة جدًّا- بإحدى ثمار الخوخ البورصيّ الشهير، وعندما نهضت لدفـع ثمن الشاي أخبرني النادل أن ثمنه قد دُفـع؛ كان الشيخ فقيرًا ويداه متسختان، ورغم ذلك منحني ثمرة خوخ صابحة وكوبًا من الشاي كما لو أنّه دعاني إلى وليمة.

وفي مناسـبة أخرى بعد زيارة طويلة للمسـجد كنـت متعبة في نهاية اليـوم حتـى إنّني لم أتمكن من هبوط التلّ؛ لذا قررت أن أسـتقلّ سـيّارة أجـرة إلـى الفنـدق، وقبـل أن أركـب، اصطحبنـي السـائق إلـى مؤخرة السـيارة، وفتـح حقيبتها، وتناول رغيفًا من أكثر من عشـرة أرغفة سـاخنة

اشتراها لأسرته على مائدة العشاء، كانت رائحة الخبز شهيّة كما لو كانت حقيبة السيارة مخبزًا صغيرًا! ثمّ وضعه بين يديّ قائلًا: "تفضلي! هذا لعشائك!" لقد فعل مثل ذلك الشيخ في حديقة الشاي، أهداني ما توفّر لديه، الأمر الذي أضفى على الهدية سخاء وجودًا.

غالبًا ما يقدّم سائق سيّارة الأجرة أكثر من مجرّد توصيلة، كما أوضحت سابقًا؛ وأنا في طريقي إلى مطار توقات لأستقلّ الطائرة العائدة إلى إسطنبول حاورت السائق، فأخبرته عن مدى إعجابي بالمدينة أكثر من كلّ مدن تركيا؛ فسألني عن الأسباب، وكلّما أخبرته بسبب أومأ برأسه وابتسم، وفجأة توقفنا على جانب الطريق وخرج من السيارة واختفى! وعندما بدأت أسأل نفسي عمّا يفعل وخشيت أن تفوتني الطائرة، عاد مسرعًا وفتح باب السيّارة ووضع في حجري كيسًا بلاستيكيًّا به ثلاثة أكيال من ثمار الخوخ الناضجة، وقال: هذه لك، إنها هديّة صغيرة لتتذكّري بها توقات؛ كي لا تنسينا في المدينة الكبيرة إسطنبول، فرغم حاله المتواضع، منحني هديّة ثمينة، ولا داعي لأن أؤكّد أنّها كانت ألذّ ثمار خوخ تناولتها في حياتي.

أرقّ لفتة تلقيتها كانت من مجموعة مراهقات في سيواس؛ ذات ظهيرة عرّجت على حديقة شاي رائعة في ميدان كوناك الرئيس بوسط المدينة لأستريح قليلًا، لاحظت وأنا أحتسي الشاي ستّ مراهقات جالسات على الطاولة المجاورة يحتسين الشاي ويتحدثن ويضحكن ومعهنّ لفّة بها قالب كعك منزليّ الصنع، ربّما كنّ يحتفلن بيوم ميلاد إحداهنّ أو بانتهاء العام المدرسيّ أو ربّما يستمتعن بصداقتهنّ، كنت مستغرقة جدًّا في أفكاري وفي كتاب أقرؤه حتى إنّني لم أنتبه للفتاة القريبة من طاولتي، كانت تحمل في يدها قالب الكعك المنزليّ مقطّعًا شرائح، قرّبت الصحن

منّي وقالت: تفضلي! يسعدنا أن نقدّم لك شريحة من كعكتنا، أتمنى أن تعجبك؛ فقد صنعتها بنفسي! تأثرت كثيرًا بمنحي الشريحة الأولى، والأهمّ من ذلك والغريب في الوقت ذاته أنّ ذلك اليوم صادف يوم ميلادي، وكأنّ الفتاة علمت ذلك! ومن بين كلّ الكعك بالقشدة اللذيذ المزيّن في احتفالات يوم ميلادي، لم أذق كعكة ألذّ من هذا القالب المجرّد؛ إذ قدّمته فتاة لا أعرفها تعلو وجهها ابتسامة عريضة.

يتمتع الأتراك بشخصيّات قويّة تتوافق مع جوهرهم الحنون الرقيق، ويمكنهم تقديم لفتات كبيرة بخلاف تلك اللفتات المتواضعة، فعلى سبيل المثال: أزلت عدساتي اللاصقة في بداية رحلة من نيويورك إلى إسطنبول، فطارت العدسة -وا أسفاه- في الهواء، ولم يحدث هذا من قبل، ولم أعلم أين وقعت؛ ظللت أبحث حول مقعدي لكنّ العثور عليها في منطقة مغلقة ومزدحمة كالطائرة كان ميئوسًا منه، وبعد أن حطّت الطائرة وعبر الجميع الممر المجاور لي، قرّرت أن أبحث مرّة أخيرة في المنطقة المحيطة بمقعدي، وسرعان ما انضمت إليّ أربع مضيفات وهنّ عازمات على العثور على العدسة، ورغم إرهاقهنّ عقب رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة ولهفتهنّ أكثر منّي على مغادرة الطائرة الحارّة، لم تبدُ عليهنّ أدنى أمارة للاستسلام، وظللن يزحفن على أيديهنّ وأرجلهنّ كأطفال صغار يبحثون عن كنز، وفجأة صاحت إحداهنّ: وجدتها! ما زلت لا أعلم كيف عثرت تلك الشابّة على شيء بهذا الحجم! وكيف ظلت العدسة سليمة طوال الوقت! لكنّ الفتاة آمنت أنّها تستطيع أن تعثر عليها، ولأنّها تركيّة تتميز بالمثابرة والعناد فقد تمكنت من تحقيق معجزة.

تكون اللفتة الطيّبة الكبيرة سريّة أيضًا؛ حينما كنت في متجر لبيع الكتب في قيصري أراد صاحبه أن يمنحني هديّة، ووضع كتابًا بين يديّ،

لـم يكـن كتابًا عاديًـا، بل كان مجلّـدًا بجلد أحمر زُيّنـت حروفه وحوائفه بالذهـب، تفحصـت الغِلاف، فوجدت الكتاب نسـخة فاخرة من الترجمة الإنجليزيّـة الجديـدة لمعانـي القرآن الكريم؛ كلّ سـورة مترجمة تسـبقها صفحـة مـن التنبيهـات التوضيحيّـة مـع صـورة للنـصّ العربـيّ الأصليّ فـي هامش جانبيّ صغيـر؛ بوصفي أمينة مكتبة انبهرت بالمسـتوى الرفيـع للطباعـة، وبوصفـي ضيفـة تأثـرت لمحاولة هـذا الرجل فتح بـاب هائل في حياتي عبر هذه الهديّة.

كثيرًا ما يمكن محو الحوادث المؤسـفة بتلك اللفتات الكريمة؛ ذات مـرة ركبـت الحافلـة مـن أغيردير إلـى قونيا، وأول مـرّة منذ ثلاثيـن عامًا مـن السـفر أجلس فـي آخر الحافلة فـي الصفّ الأخير وبجـواري رجل، كان الموقـف مفاجئًـا، ولا بد أن أعتـرف أنّني انزعجـت، لكنّني راجعت نفسـي وتذكـرت جلوسـي كلّ صبـاح فـي قطـار الأنفـاق بجـوار رجل، إذًا مـا سـبب انزعاجـي؟ لـم أنتبـه للرجـل بجـواري، ولـم ألحظ سـوى أنه كهل ضخم اليدين، وفجأة بدأ يهمهم؛ فوقـع في نفسي حينها أنّه يتصرف بوقاحة، ورغم أنّني تعرضت لهذا الموقف عدّة مرات في قطار الأنفاق في نيويـورك وباريس، فلـم أتصوّر أن أتعرّض له في تركيـا، أول مرة أجالس رجـلًا فـي المواصلات العامّة؛ وهـذا ما ضايقني بشـدة، فأخذت حقيبتي ووقفت فجأة واندفعت نحو السائق ومساعده، وطلبت تغيير مقعدي فورًا، ورغم أنّني لم أوضح السبب، فعلى الأرجح أدركا ما حدث، وفي الصباح التالي اسـتيقظت فجأة السـاعة الخامسـة صباحًا من نوم عميق واندفعت مـن الفـراش أصـرُخ: المصـوِّرة! أين ذهبت؟ كيـف علمت أنهـا لم تكن في حقيبتي! وكيف جاءني هذا الخاطر في تلك اللحظة بالذات أثناء نومي! لن أعرف إجابة هذين السؤالين أبدًا! قلبت الغرفة رأسًا على عقب، لكنّني لم أجد شيئًا كما أخبرني الحلم الذي راودني، وتذكّرت الفوضى وموقف

الحافلـة أمس قبل وقـوع المصوّرة من حقيبتي، فأحضـرتُ عُقْب التذكرة وانطلقـت إلى محطـة الحافلات، وتوجّهت إلى مكتب شـركة الحافلات وسـردت قصّتـي؛ قـام الموظف بإجراء بعـض الاتصالات وقـال لي بعد خمس دقائق: تفضلي بالجلوس يا سـيدتي، سيحضرها أحدهم الآن، فقد عثروا على شـيء ما؛ وفورًا ظهر كوب من الشـاي أمامي، تمنيت بشدة أن مـا عُثر عليه هـو المصوِّرة؛ ففيها صور الصيف كلّه، وضياعها يعني ضياع رحلة كاملة وذهاب الوقت والنقود سُـدًى، بعد مرور خمس عشـرة دقيقة ظهر سـتة شـبّان فيهم مسـاعد السـائق في حافلةِ أمس، وكانت مصوّرتي معهم، بدأت أبكي من الإحباط وألوم نفسي على إهمالي الشديد وإضاعة تلـك المصـوّرة القيّمـة، وشـعرت بالحـزن كلّمـا تذكرت الموقـف، كما أدركت أنها الذكرى الخامسـة لأحداث الحادي عشـر من سبتمبر المؤلمة لأهالي نيويورك جميعًا؛ لم أتمكن من التوقف عن البكاء، رغم أنّني بدأت أشعر بالراحة والقليل من الخجل، وأخيرًا همهمت للرجال ببعض كلمات الشـكر وخرجـت، ثـمّ أدركت مـدى فظاظتي؛ فمسـحت دموعي وعدت للموظـف وأخبرتـه أنّني أريـد أن أقدّم لهم جميعًا شـيئًا صغيرًا تعبيرًا عن امتناني، فأجابني: كلّا يا سـيدتي، نحن الذين نود أن نشـكرك على منحنا هذه الفرصة لنخدمك؛ وأعادت ابتسامته كلّ الأمور إلى نصابها.

كمـا أشـرت من قبل، فإن الأتـراك يتمتعون بنظـام رادار داخليّ يتيح لهم التقاط كلّ ما يحدث حولهم، فلا شيء يفوتهم ألبتة؛ في أحد الأعوام قررت في عطلة عيد الميلاد أن أصطحب زوجي إلى إسطنبول، وراسلت فندق "أرينا" أطلب منه حجز غرفة مميّزة لنا؛ لأنّ هذه الرحلة هدية منّي لزوجي في عيد ميلاده، وبالفعل عندما وصلنا وجدنا الفندق قد خصّص لنا أفضل غرفة تطلّ على جامع سوكولّو محمد باشا؛ أهمّ جوامع المعماريّ سِنان، وفي ليلة رأس السنة الموافقة ذكرى ميلاد زوجي عدنا إلى الفندق

متأخرين بعد الظهيرة نشعر ببرد تغلِّفه السعادة بعد رحلة طويلة بمركب شراعيّ في البوسفور، وعقب وصولنا بدقائق سمعنا طرقًا على الباب، وعندما فتحت وجدت نادلًا يحمل صينيّة عليها أطباق ومناديل وكعكة فاخرة غالية تزيّنها الشموع بجوارها بطاقة من العاملين في الفندق يتمنون لزوجي عيد ميلاد سعيد! لا بدّ أنّهم لاحظوا تاريخ ميلاده في جواز سفره، وتذكروا طلبي في البداية، فأخذوا على عاتقهم مهمّة إضفاء لمستهم الخاصّة على عيد ميلاده، ورغم أنّ الكعكة كانت مزيّنة ومزخرفة أكثر من الكعكة الرخيصة التي تلقيتها في سيواس، فقد شعر زوجي بشعوري نفسه؛ شعر أنّه لم يتذوق في حياته كعكة عيد ميلاد ألذّ منها.

لا تقتصر هذه اللفتات الكريمة على تركيا فقط؛ فالأتراك يحملون هذه السمة في تكوينهم أينما ذهبوا، ويتصرفون وَفْقًا لها أينما حلّوا، عندما كنت أعيش في باريس اعتدت تناول الطعام في مطعم تركيّ صغير، ونشأت بيني وبين العاملين هناك صداقة، وذات مساء أبلغتهم أنّني سأنتقل إلى شقة جديدة غدًا، وأخبرتهم كم أنا سعيدة بالانتقال إلى حيّ أرقى! وسألني ميتن رئيس النُدُل: "أين تقطنين الآن؟ وإلى أين ستنتقلين؟" فأجبته دون انتباه، وكان عليّ أن أنتبه! في تمام الساعة الثامنة صباح اليوم التالي بينما بدأت أنقل أمتعتي من الشقة إلى سيارتي الصغيرة، وقفت شاحنة صغيرة بيضاء أمام منزلي، وترجل عنها ستّة أتراك مفتولو العضلات لا يتحدث أيّ منهم الفرنسيّة، قال لي أحدهم: "أرسلنا ميتن لنساعدك في الانتقال اليوم كي نضمن أنّ كلّ شيء على ما يرام، فأصابني الذهول، واندفعوا أعلى السلالم كما تصعد السناجب الشجرة بسرعة، وفي وقت قصير كانت أيديهم السريعة وعضلاتهم القويّة قد وضعت كلّ شيء في الشاحنة، وقادت الشاحنة إلى عنواني الجديد، وحملت كلّ شيء إلى الأعلى مرّة أخرى عبر ستّة ممرات طويلة ضيقة وصولًا إلى شقتي

الجديدة تحت ظُلّة سقف باريسيّ، أتموا المهمّة كلّها في أقلّ من ساعتين ثمّ اختفوا في لمح البصر دون أن تُتاح لي الفرصة أن أقدّم لهم كوب ماء أو وجبة غداء أو هدية أو أن أشكرهم، قاموا بذلك؛ لأنّ ميتن علم أنّ امرأة بمفردها تحتاج إلى المساعدة، فطلب مساعدتهم، قاموا بذلك؛ لأنّهم رجال يجودون بوقتهم وقوّتهم؛ لم أشعر بالسعادة في أيّ منزل آخر طَوال حياتي كما شعرت بها في ذلك المنزل المرتفع في الطبقة السادسة في باريس، وأنا مقتنعة أنّ السبب يرجع إلى البداية المبشّرة لحياتي فيه بفضل طيبة هؤلاء الأتراك وكرمهم.

سيدة ماري، هذا ما عَنَيْتُه عندما أشرت في بداية رسالتي إلى الأمور التي لامست شِغاف قلبي، فهذه اللفتات الكريمة -المتواضعة العظيمة- من أقيم الهدايا في حياتي، ولن أقبل التنازل عن أيّ منها مقابل أيّ شيء في الدنيا، لن أتنازل عن شريحة قالب الكعك، ولن أتنازل عن دقيقة قضيتها على الوسادة المترَّبة، ولن أنسى يدًا امتدّت لمساعدتي، لقد زادت هذه اللفتات الرائعة من ثراء تجربتي في حياتي.

صديقتكم

قدرية برانج



كعكة عيد الميلاد التي أهداها فندق "أرينا" إلى ستيفن إي جوتليب، إسطنبول في الثالث من ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥م

الرسالة الثامنة عشرة

مكنونات نفيسة

عزيزتي السيدة ماري،

وُلدتِ في أحد أرقى المنازل في إنجلترا: قصر ثورسبي هول المَهيب في ريف نوتنجهامشير المخضّر على الدوام، المشيّد بهندسة المعماريّ الإيطاليّ بالاديو، ويضمّ مئتين وخمسًا وسبعين غرفة، على ضيعة من مئات الأفدنة تنتهي بأرض لصيد الغِزلان، وبحيرة مِساحتها خمسة وستون فدّانًا، وقناة تمتد رُبع ميل لتعبر الحدائق الرسميّة وتغذّي عدّة فوّارات؛ كلّ هذا أهّلك للموازنة بين منزل أسلافك للمصمّم الإيطاليّ بالاديو ومنزل الشريف التركيّ حيث أقمت في أدرنة، وكالعادة لم تَغْفُل عينك الثاقبة عن أيّ شيء؛ فقدّمت لنا وصفًا مفصّلًا لأدقّ التفاصيل المعماريّة والأثاث:

> "ينقسم المنزل -كبيرًا كان أم صغيرًا- إلى قسمين منفصلين يربطهما ممرّ ضيّق؛ أمام الأول ساحة كبيرة، وحوله شُرَف مفتوحة، وهو أمر أجده ملائمًا جدًّا؛ تؤدي هذه الشُّرَف إلى الغُرَف كلّها الواسعة في الأغلب ذات الصفّين من النوافذ، أحدهما من الزجاج الملوّن... يخصّ الشريف، بينما يُطلق على المنزل المجاور اسم حريم الدار، أي: شقّة السيّدات... وهي أكثر بهجة وروعة سواءً في ألوان الطلاء أم نوع الأثاث؛ أمّا ثاني الصفّين، فمنخفض

جدًّا تغطّيه قضبان متوازية تشبه قضبان الأديرة... لا توجد ستائر ألبتة؛ لأنّ الجدران الداخليّة للغُرَف مغطّاة بخشب الأرز المزيّن بمسامير فضيّة أو المزخرف بنقوش الأزهار، وفيه عدّة أبواب مصاريعها قابلة للطيّ يمكن استخدامها خزانات، أجدها في رأيي أكثر نفعًا ممّا لدينا، تتصل النوافذ بقناطر صغيرة لوضع جِرار العِطر أو سلال الزهور، لكنّ أكثر ما يسعدني الفوّارات الرخاميّة أسفل الغرفة؛ إذ تنبثق منها عدّة فوّهات معًا، فتضفي برودة رائعة وتصدر خريرًا ممتعًا... ويحتوي كلّ منزل على حمّام من غرفتين صغيرتين أو ثلاث..."

إنّ وصفك يشبه كثيرًا المنازل العثمانيّة المرمّمة التي زرتُها في تركيا، وقد حُوّل أكثرها إلى متاحف في مدن مثل: كوتاهيا، وبيرجي، وسيواس، وتوقات، وديار بكر؛ ساعدتني هذه المتاحف على تخيّل حياة أصحابها، كما شغلتك حياة الناس في منزل "الشريف التركيّ" في أدرنة؛ علمت منها أنّ الجدران كانت تُبيّض بالجِصّ، وأن الأرضيّات كانت تُغطّى بكِليم أخضر شاحب، ولاحظت الاعتناء الشديد بتفاصيل المشاهد البهيجة على الجدران والأسقف الخشبيّة، وكيف أنّ الخزانات المحفورة في الجدران امتلأت بأنواع المنسوجات كلّها اللازمة للحياة، مثل: مناديل المائدة، والمناشف بالإضافة إلى القدور النحاسيّة، والزهريّات التي رأيتِ مثلها في أدرنة.

أثناء النهار تظلّ المُلاءات والدُّثُر الخاصّة بأفراد الأسرة في هذه الخزانات أيضًا، فيوّفر ذلك مساحة واسعة جيّدة التهوية تشبه الأريكة على الأرضيّات؛ لتمارس الأسرة كلّ أنشطة حياتها الاجتماعيّة، مثل: استقبال الضيوف، وتناول الطعام، وملاعبة الأطفال، وتأدية الصلاة، والقيام بالأشغال اليدويّة، تمامًا كما يحدث في المنازل القرويّة حتى يومنا هذا.

كان الأثـاث أهـمّ ما اسـترعى انتباهكِ، وحـاز إعجابكِ فـي المنازل التركيّـة؛ وهـي آرائـك تقليديّـة منخفضـة منضودة بطـول جـدار النافذة، بالإضافة إلى تجويفات الجدران الناتئة من الأدوار العليا:

> ’’كلّ الغرف مفروشـة بسـجاجيد فارسيّة ترتفـع مقدار قدمين فـي أحـد أطـراف الغرفة فيما يُعـرف بالأريكة، وهـي مغطّاة بنوع أثمن من السـجاجيد، ويحيطها مِصطَبَّـة مرتفعة مقدار نصف قدم مغطّـاة بالحريـر الثميـن... ويتـراصّ حـول ذلـك كلّـه صفّان من الوسـائد المسـتندة إلى الجـدار، الصـفّ الأول للوسـائد الكبيرة والثاني للصغيرة، وهنا تتجلّى عظمة الأتراك وأبّهتهم... توفّر هذه المجالـس الراحـة والرغد حتـى ظننت أنني لـن أتحمّل الجلوس على مقاعد ما حييت‘‘.

من بين متـع الحياة السهلة الرائعة في تركيا أن تجلس القرفصاء على المِصطبَّة المنخفضة متكئًا على أريكة بين وسائد ملوّنة، وحولك أصدقاؤك يثرثرون، ويحتسون الشاي، أو تجلس في تجويف النافذة لتشاهد المارّة.

رغـم أنّ تلك القصور العثمانيّـة المرمّمة تثير الإعجاب حقًّا، إلا أنني أفضّـل في تركيـا المنازل العاديّـة المتواضعة التي حظيتُ بشـرف النزول ضيفة عليها؛ تعدّ المنازل التركيّة موئلًا للسـكينة، ومركزًا للسعادة الأسريّة وعمـادًا للمجتمـع كلّه، وتتّسـم بأنّها دائمًا مليئة بالضـوء والهواء والراحة والـودّ، قـد تكون مكتظة بأثاث عصر البـاروك المترف المفضّل لدى أبناء المدينـة المعاصرين، وقد تكون مؤثّثة بمصاطـب وأرائك عاديّة منخفضة مغطّـاة بالكِليـم، أيًا كان ذوق الأثـاث، فإنّ العامل المشـترك بين المنازل التركيّـة الحديثـة والتقليديّـة هو السـجاجيد المذهلة؛ إذ يبـدو أنّ الأتراك يتمسّـكون بشـدة بأصولهم البدويّة، وسـتظل تلك السـجاجيد -سواءٌ آليّة الصنـع أم يدويّـة- أروع دليـل على ذلـك، فضلًا عن الأزهـار في أرجاء

المنزل كلّه، ستجد طاقة ورد صناعيّة على مائدة جانبيّة أو زهورًا في أوعية على النافذة أو في المدخل بصفائح زيت الزيتون أو زهورًا مرسومة على الستائر والسجاجيد والصور وأباريق الشاي أو زهورًا منحوتة في أقواس القباب التي أشرتِ إليها يا سيدة ماري؛ في المنازل التركيّة ترمز الأزهار إلى الحياة والخير، وهِبَاتُ الله المتمثّلة في زهرة مبهجة الألوان عطرة الرائحة نبتت بفضل الأمطار الهاطلة من السماء، وتفتحت كأنها الأسرة التركيّة الضاربة بجذورها في تربة المنازل التركيّة المباركة.

الملحوظة الأخرى أنّ المنازل كلّها بدءًا من القصور المترفة إلى الأكواخ القرويّة تَشِعّ نظافة، تجدين المنازل التركيّة نظيفة طاهرة على عكس الطرقات الموحلة والفوضى العامّة بالخارج؛ معك كلّ الحقّ -يا سيدة ماري- في قولك: "إنّها الحقيقة؛ لا يهتمون ألبتة بتجميل خارج منازلهم..." أندهش دائمًا؛ فبالرغم من سذاجة المباني من الخارج، وقذارة الشارع المواجه لها وصخبه وعنفه، فإنّ مجرد الدخول إلى أيّ منزل تركيّ يغمرك إحساس بالسكينة في مكان يَشِعّ نظافة ونظامًا؛ لا يدخل أحد منزلًا تركيًا دون أن يخلع نعليه أولًا، كي لا تدنّس قذارة الشارع حرمة المنزل ونظافته؛ لاحظت ذلك أنتِ أيضًا يا سيدة ماري: "يُحافظ على نظافة منازل السيّدات النبيلات في تركيا بالقدر نفسه في المنازل الهولنديّة".

ثمّة منزلان زرتُهما في تركيا ولم يفارقا مخيّلتي، وصفت لكِ من قبل شعور أن يستقبلك أهل منزل تركيّ ويتبنوك؛ في كلّ مرة أدخل فيها منزلًا تركيًا -مهما قصرت الزيارة- تشعرني الأسرة أنها تبنّتني بطريقة أو بأخرى، وهذا ما حدث لي في قرية يورروك قرب سافرانبولو؛ قرية ساحرة ومعرض حيّ للمنازل العثمانيّة الخشبيّة الرائعة الراجعة

إلى القرن الثامن عشر الميلاديّ، قضيت فترة بعد الظهر أكسر قشر البندق في الساحة الخارجيّة لأحد المنازل الضخمة بصحبة ربّ البيت، بعدها دُعينا للدخول وتناول الشاي، كان هذا المنزل العثمانيّ التقليديّ الضخم مصمّمًا ليسع أربع عوائل كبيرة، قد تغير طابعه ومال للحداثة؛ إذ ظهرت فيه دورات مياه إفرنجيّة، وانتصبت الثلّاجة شامخة في منتصف ساحة الجلوس، كانت العجوز والدة ربّ البيت تراقب كلّ ما يحدث من موقعها في جلسة تجويف النافذة؛ إذ جلست هناك لتستمتع بالنسيم البارد وتتأمّل جمال الريف المحيط وتتابع الحوار الدائر بيننا؛ قبيل الغروب خرجت مع حفيدتها إلى المرعى القريب لتعيد الأبقار إلى المنزل حيث مبيتها في ساحة الدار فيما يُعرف باسم "الحياة"، والحياة: عبارة عن ساحة ممهّدة في الطبقة الأرضيّة يدخلها الهواء بفضل التعريشات الخشبيّة، بدا لي بوصفي قادمة من الغرب الأوسط أنّ الاحتفاظ بالماشية وسِلال البندق المقشور بالقرب من قلب المنزل والنوم بالأعلى أمر طبَعيّ مألوف.

أمّا المنزل الثاني، فكان يتألّف من غرفة واحدة، لحارس دير الشيخ تورَسَان خارج قيصري، شُيّد المنزل لجماعة هذا الشيخ العظيم التي عاشت في تلك المنطقة خلال القرن الثالث عشر، ودير الدرويش: منزل صوفيّ على قمة جبل رائع تأتيه الرياح من كل مكان، ويطلّ على سهل ترابيّ شاسع اجتاحه ذات يوم جنود تانكريد للوصول إلى الأرض المقدسة -فلسطين- خلال الحملة الصليبيّة الأولى عام ١٠٩٧م، ربّما امتزج جمال الريف، وهدوء العزلة، وعبق التاريخ، وذكرى الدرويش، لتضفي كلها على تلك البقعة جوًّا فريدًا من الروحانيّة.

عقب زيارة دير الدراويش دعاني الحارس لشرب الشاي في منزله، وبينما انهمكت زوجته في تحضير الشاي، تفحّصت المنزل ذا الغرفة

الواحـدة؛ كانـت غرفـة كبيرة جـدًّا مزيّنـة بسـجادة فيروزيّة بلـون البلاط السـلجوقيّ، جدرانهـا مطليّة بالجبص الأبيض تسـتند إليها وسـائد كِلِيم، لـم تكـن هناك أيّة صور علـى الجدران، أو مذياع أو تلفـاز مدوٍّ، أو قطـع أثاث متناثرة، لا شيء سوى موقد التدفئة المستدير القابـع في وسط الغرفة.

سـاد صمت مذهـل حتى إنني كدت أسـمع أصداء ذكـرى صيحات الجنـود الصليّبييـن القادمـة مـن السـهل بالأسـفل فـي صـوت الريـاح التي تعصف بالأشجار، وصوت قعقعة دروعهم في زقزقة الطيور، وصدى قـرع الطبـول فـي طنين النحـل الخافت في الخلايـا القريبة، لـم أجد ثقبًا واحـدًا فـي السـجادة أو بقعة جافـة تلطّخها أو تلطّخ الجـدران، كان أهمّ ما في الغرفة الأشخاص الجالسين فيها وأحاديثهم.

لا شـكّ أنّنـي أول أجنبـيّ يطـأ تلـك الغرفـة؛ فقـد عُوملـت بجـلال ومهابة كالسـلطان السـلجوقيّ المنتصر كِلتش أرسلان؛ دخلت ربّة المنزل وفـي يدها صينيّة عليها الشـاي والفاكهة الصابحة، ثـمّ انحنت برقّة ووقار لتضعها على الأرض أمامنا، وابتسمت لي في خجل قبل أن تصبّ الشاي بالرقيّ الفطريّ نفسـه لأيّ سـيدة حسـنة التربية، نشـأت في قصر ثورسبي هـول؛ وهكـذا يمكنـك أن تدركـي يا سـيدة مـاري، كيف يصبـح المنزل التركيّ من غرفة واحدة في مستوى جمال قصر من مئتين وخمس وسبعين غرفة أو في مستوى قصر "الشريف التركيّ"، وكيف تتجلّى عظمة الأتراك الحقيقيّة في منازلهم.

صديقتكم

قدرية برانتج



وجبة عشاء على أريكة، في مطعم "بانديلي" بإسطنبول



منزل حارس زاوية الشيخ تورَسَان



منزل عثمانيّ من الداخل في سافرانبولو



وسيلة الاتصال قبل ظهور
هواتف الجيب



منزل خشبيّ قديم، في أوسكودار



منزل عثمانيّ من الداخل
في سافرانبولو



منزل فريد من نوعه في بشيكتاش



حيّ السليمانيّة في إسطنبول



منزل فوق قبر سلجوقيّ في توقات



منازل خشبيّة قديمة في أوسكودار

الرسالة التاسعة عشرة

رؤية ثاقبة

عزيزتي السيدة ماري،

يبدو أن الأحداث المثيرة المهمّة تحدث دائمًا في تركيا بغض النظر عن العصر، ولعلّك لم تشعري كم أنت محظوظة لأنك عشتِ في تركيا في واحد من أشهر عصورها؛ فهذه الحقبة سُميت باسم تلك الزهرة الزاهية ذات الأوراق الخنجريّة النامية طبيعيًا في غابات تركيا، والرمز غير الرسميّ للبلاد: إنّها زهرة التيوليب!

يعدّ عهد لاله (التيوليب) إبّان حكم السلطان أحمد الثالث أحد أهمّ عصور الإبداع الفنيّ على مدار تاريخ الإمبراطوريّة العثمانية؛ لعلّ هذا العصر لم يبلغ المستوى الرفيع لعصور أخرى انتشرت فيها المصانع الفنيّة العظيمة، رعاها بلاط سلاطين، مثل: سليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، لكن لا داعي لأن ننسى أنّ قلّة من العصور ذات التراث الفنيّ العالميّ يمكن موازنتها بتلك السنوات الذهبيّة؛ إذ تمثّلت أهمّيّة عصر السلطان أحمد في إشراقه أكثر من اكتشافاته الثقافيّة الجديدة؛ إذ كان "عهد لاله" عهد المرح.

عقب ما يربو عن أربعة قرون من الحرب والنصر والهزيمة، قرَّر العثمانيّون فجأة أن يستريحوا ويستمتعوا قليلًا بوقتهم، وهكذا كان عهد لاله في عصر السلطان أحمد الثالث وقت السلام والمتعة المفرطة والإبداع الأدبيّ؛ بدأ هذا العهد في شهر رحيلكِ عن تركيا يا سيدة ماري، عقب توقيع معاهدة بساروفجة في يوليو عام ١٧١٨م، التي وضعت حدًّا للحرب مع النمسا، وقد أمضى زوجك قبلُ عمرًا يتفاوض لإنهائها لكن دون جدوى!

انتشرت زهرة التيوليب انتشارًا واسعًا أثناء فترة حكم السلطان البالغة اثني عشر عامًا، فصارت هذه الزهرة المقبّعة رمزًا لمتعة الفنون الإبداعيّة، وتحوّلت فكرة الحياة الرغيدة السعيدة إلى نوع من أنواع الفنون؛ فانتشرت احتفالات موسيقيّة، واستعراضات ضخمة في حلبات السباق، وحفلات راقصة، ونُزَه خَلَويّة، وحدائق ممتعة، ورِحْلات في البوسفور السعيد؛ لم تُزرع زهور التيوليب في حدائق المدينة كلّها فحسب، بل نبضت بالحياة في أعمال التطريز والخزف والمنمنمات.

علاوة على انتشار زهور التيوليب في الحدائق والأعمال الفنيّة، فقد خلق "عهد لاله" وجهةً وأبعادًا جديدة للمجتمع العثمانيّ؛ فتوثّقت علاقات تركيا بأوربّا خلال تلك الفترة، وازدهر العلم والاستكشافات الفكريّة بعد إنشاء المكتبات، والبدء في الترجمة، ووصول أول آلة طابعة لطباعة الكتب باللغة التركية.

تمتع إبراهيم باشا -صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه- بنفوذ واسع في الإمبراطوريّة، إذ أرسل بعثة سِفاريّة ثقافيّة إلى فرنسا لمراقبة أنظمة الحضارة والفنّ والتعليم والهندسة والتقنية؛ كان من نتائجها انتشار حركة تبادل تجاريّ واسعة بين أوربّا والإمبراطوريّة العثمانيّة، شملت

الأزياء والخزف والساعات، بالإضافة إلى استيراد الأفكار الجديدة، كما يحدث الآن في تركيا.

اهتمّ السلطان أحمد الثالث أيضًا بالبناء والتشييد؛ فأهدى المدينة فوّارة رائعة أمام مدخل قصر طوب قابي عام ١٧٢٨م؛ ومن المؤسف رحيلك قبل بنائها يا سيدة ماري، أتذكركِ كلّما مررت من أمامها، وشيّد السلطان أيضًا فوّارة مذهلة على رصيف ميناء أوسكودار، واستغل إبراهيم باشا -المُعيّن رئيسًا للوزراء في الشهر التالي لرحيلك- نفوذه لبناء فوّارتين في مسجدي شهزادا باشي وأورتاكوي؛ ولكن وا أسفاه شُيّدت كلّها عقب رحيلك، غير أنك شهدت طفرة بناء القصور الخشبيّة على ضفاف البوسفور، بدأت في تلك الفترة وعُرفت باسم "يالي"؛ كتبتِ في رسالة إلى القس كونتي: "لا شيء أجمل من القناة، والأتراك على دراية تامّة بمواطن جمالها؛ إذ يشيّدون استراحاتهم على ضفافها... فتتراصّ واحدة تلو الأخرى في مئات القصور الرائعة"، وفور رحيلك عن تركيا عام ١٧٢١م شيّد السلطان أحمد الثالث قصره الشهير "سعد أباد" -أي موطن السعادة- وسط مروج كاغيتهانه قريبًا من أيوب، وحُوّل مجرى النهر ليصبّ في المجاري الرخاميّة التي استعارتها البعثة الثقافيّة في فرنسا من رسوم قصر فرساي.

انعكست روح العصر في اللوحات الشهيرة لفنان البلاط "لوني"، المصوّرة لاحتفالات ختان أبناء السلطان أحمد، وفي أشعار الشاعر نديم: "دعونا نحتفل، دعونا نرقص ونلعب جميعًا، فقد بدأ عصر لاله!" لكن وا أسفاه جاءت ثورة شعبيّة لتُنهي عصر عدم المبالاة والانغماس في اللذات والإفراط في الحفلات رغم ندرة الخبز والقوت، وأُطيح بالسلطان أحمد الثالث، وانتهى "عهد لاله" على حين غرة عام ١٧٣٠م.

رغـم أنّـك لم تشـهدي ذروة أيّام "عهـد لاله"، فلا بـدّ أنّك أدركت بالملاحظـة المباشـرة مقـدار المتعة والمـرح الذي تتضمّنه حيـاة الأتراك فطريًـا؛ فأنـا أؤكّـد لـك أنّ الأتـراك لـم "يسـتمتعوا ويرقصـوا ويلعبـوا" فـي أيّامـك فقط، بل إنّهم يفعلون ذلـك كلّ يوم وبالطُّـرق الممكنة كلّها؛ أعتقـد أنّ الأتـراك يعيشـون لأربعـة أشـياء: الأسـرة، الأصدقـاء، الطعام، الطبيعـة الجميلة، علـى اختلاف ترتيبها أو طريقـة اجتماعها؛ أتقنوا مهارة الاستمتاع بوقتهم لأقصى درجة، بل كانت لديهم كلمات تعبر عن السعادة في المهرجانات الرسـميّة الشـعبية؛ بالرغم من كل المشكلات والصعاب فـي حياتهـم اليوميّـة وافتتانهـم بالمآسـي، فإنهـم يتمكنـون مـن الحفاظ علـى وجهة نظر تتسـم بالسـعادة الدائمة وارتفـاع المعنويّـات؛ إنّها ثقافة تنتصر فيها النظرة الإيجابيّة على المعاناة والسلبيّة.

من الصعب ألّا تسـتمتعي بوقتك وسـط الأتراك، سواءٌ كنتم تحتسون الشاي أم تستمتعون بشواء شرائح اللحم أم تتضاحكون أم تشمّون الأزهار أم تنصتـون إلـى عـازف سـاز أم ترقصـون في ملهـى على شـاطئ البحر أم تحضرون حفل زفاف قرويّ، كما أنّك لا تكفين عن الابتسام والضحك مـع شـخص تركيّ، وتحظيـن بمتعة خالصـة، وكما تقولين في رسـالتك إلى القس كونتي:

> "كمـا ترى يا سـيّدي، فإنّ هؤلاء الأشـخاص ليسـوا جهلاء كمـا نصوّرهـم؛ فطبيعتهم مختلفـة عن طبيعتنا، قـد تكون أفضل؛ أكاد أعتقـد أنّ رؤيتهـم للحيـاة صحيحـة؛ فبينما يقضـون حياتهم بين الموسيقى، والحدائق، والطعام الفاخر، نعذّب أنفسنا، ونشغل عقولنـا بمخطّطـات السياسـة أو بدراسـة عِلـم لا يمكننـا إتقانـه، ولو أتقناه فلن نتمكّن من إقناع الآخرين... يمكنك أن تسخر منّي عندما أعلن أنّ الشخص لأن يكون سيّدًا تركيًّا ثريًّا بجهله كلّه خير له من أن يكون السيد إسحق نيوتن بعلمه كلّه".

هـذه الرؤية الصحيحـة للحياة تبدأ من مهامّ الحيـاة اليوميّة الاعتياديّة التي ترقى بطريقة ما لترقى درجةً أعلى من الرتابة، سواءً كانت لفتة كريمة أم كلمـة أم إيمـاءة عذبة؛ فليس ثمّة جانب من جوانب الحياة رتيب مملّ، بل كلّ شيء قابل للتحسين.

تزخـر الحياة في الشـارع والأسـواق بألوان من السـعادة والمفاجآت في كلّ لحظة، ومن شـأنها جميعًا أن تثير حواسّـك، مثل: العرض اللافت للمـوادّ الغذائيّـة فـي الأسـواق؛ إذ يتحـول تاجـر الخضـراوات العـاديّ إلى متخصّص في الفنّ المرئيّ يراعي أشكال بضاعته وألوانها أثناء ترتيبها، ويختتم العرض بحركة مذهلة؛ يقطـع ثمرة ناضجة كثيرة العصارة ويضعها علـى قمّة هـرم الفاكهة المشـيّد بعنايـة؛ ويولي تجار الجواهـر لبضاعتهم اهتمامًـا لا يقـلّ عن هـذا، فيعلقـون صفوفًا متتاليـة من الأسـاور الذهبيّة مختلفـة الدرجـات، لتتألّـق فـي الأضـواء اللامعـة كأزهار دوّار الشـمس الراقصة تحت أشـعة شـمس الأناضـول، يظهر الاهتمام نفسـه في عرض السلـع في المتاجر المؤقّتة والصغيرة المقامة في الأسواق أو في الشوارع، بغض النظر عن مدى أهميّة السلعة؛ فيصبح ترتيب المفكّات أشبه بلوحة متفجّرة بالأشـكال والألوان للرسّـام جاكسـون بولاك، وتتحوّل البضائع الغريبـة المتنوّعـة إلى عـروض جانبيّـة كالمقدّمة في مسـرح الحيوانات، وتشـمل هـذه البضائـع القبّعـات، والكُفـوف (القُفّـازات)، والمـراوح، ومقاشـر الخضراوات، وملابس الشِّـعار، والقَدّاحات، والبطاقات البريديّة القديمـة بصور الزهور، والأقفـال، وطلاء الأظافر، والعطور غير الأصلية، والمقالي زهريّة اللون، وأباريق الشاي، وقطـع الصابون الصفراء والزهراء، والأحذية المقلّدة لمشـاهير المصممين، والمَحافظ، والمِقشّات ومنافض الأتربة، وكلّها مرتّبة بدقّة وعناية في اسـتعراض صاخب للألوان، ووسـط هـذا كلّـه لا يسـعنا أن ننسـى الصبيان الصغـار والمُعْدِمين بائعـي عبوّات

المناديل والجوارب واللفائف المفردة بمهارة وإتقان، فهم أفضل من بائع في متجر باريسيّ متعدد الأقسام.

تتجسّد الأفعال الخارقة في تلك اللفتات الرقيقة الصادرة عن ماسح الأحذية؛ إذ يُخرج بخِفّة كساحر متمرّس قطعةَ نسيج بيضاء، ويضعها على جوربك حتى لا يلطّخه الملمِّع؛ وتتجلّى أيضًا في مجموعة المناشف الملوّنة المنشورة خارج متاجر الحلّاقين، ترفرف في الهواء كالأعلام المرفرفة على السفن، وتتجلى في عناية الأتراك بتغليف السلع بالورق أو الخيط مهما كانت زهيدة السعر، بدءًا من المنتجات النسائيّة وصولًا إلى حفّاضات الأطفال، لضمان قدر من الخصوصيّة في مواجهة أعين المتطفلين في الشارع، وتتجسّد في عطر الليمون العذب يُرشّ على يديك عندما تدخلين مكتبًا أو تغادرين مطعمًا.

في عالم الأعمال يتصرف الأتراك بدماثة؛ فتصبح متعة الشراء العاديّة مغامرة مثيرة، ووسيلة للتعرف إلى أصدقاء جدد وفرصة للتفاعل مع الآخرين والتعلم منهم، عندما تبدأ مفاوضات الشراء تظهر أكواب الشاي، معلِنةً بدء علاقة جديدة إلى جانب التجارة.

الأتراك لا يوصدون المتاجر، وإذا أراد صاحب المتجر أن يخرج لشراء الطعام، يضع كرسيًّا في المدخل إشارة إلى خروجه، ولا يجرؤ أحد على عبور العتبة حتى يُزَاح الكرسيّ، ورغم أنّ الموسيقى صاخبة في كلِّ مكان من المتاجر، وقد تكون مزعجة أحيانًا، فإنّها وسيلة للحيوية والتفاؤل في الشارع.

لا تختلف الحياة في الفندق كثيرًا، فلا يضيع أحد فرصة لتقديم المساعدة أو لإبداء الاهتمام الشديد، ومن أمثلة اللمسات الرقيقة المنتشرة في كلّ مكان: الانحناء لك كما لو كنت سفيرًا في الأمم المتّحدة،

وفتــح الأبــواب لك بابتســامة عريضة وغمزة عين، وشــرائح الجزر أعلى شرائح جبن الفيتا كأوجه صغيرة باسمة تقدم لك تحية الصباح، والأزهار البلاســتيكيّة المثبّتــة فــي طيّــة الصــدر لبرنس الحمام تشــعرك أنّهــا مهداة من معجب مجهول.

مــن مظاهــر الــذوق العالــي فــي شــوارع تركيــا فنّ إبــراز المشــاهد؛ إذ يحرص الأتراك على اختيار مواقع منازلهم ومســاجدهم وآثارهم بدقّة شــديدة، ويتمتعون بمهارة فطريّة في اختيار أفضل الأماكن لوضــع آثارهم من منظور اســتراتيجيّ دراميّ؛ ففي مقصورة مســجدي مراد الأول وبايزيد "الصاعقــة" أعلى جبال بورصة تعزف الريح المداعبة للأشــجار أنشــودة خالدة تحكي النهاية المأساويّة لهذين السلطانين، ولا يمكننا نسيان المنازل العثمانيّــة المتراصّة أعلى التلّ في ســافرانبولو التي تشــبه قطع الشــطرنج المصفوفة بتناسب لتحافظ على منظر جيرانها.

أعتقــد أنّ تنــاول الطعــام فــي الخــارج من أمتــع مباهــج الحياة لدى الأتــراك؛ فقــد يأكلون في ســاحة مطعم فاخر على الســطح، أو في حديقة شــاي فــي المتنــزّه وســط المدينة، أو فــي نزهة عارضــة إلى جــوار فوّارة أو جــدول منســاب، أو يتناولون وجبة عشــاء في الهــواء الطَّلْق في مدخَل منزل، أو يأكلون ثمرة خو

خ فـي ظلّ دوحة على جانب الطريـق؛ إذ يعرفون أنَّ الهواء النقيّ من أفضل المقبّلات.

ترعرعـت على حبّ تناول الطعام في الخارج أيضًا؛ إذ اعتاد والدي أن ينظّـم نُزَهًـا أثنـاء تسـاقط الثلـوج، ووجبات إفطـار فـي المتنزّهات، ورحـلات قصيـرة إلـى حقـول الطماطـم المثمـرة مـع أخـذ الملاّحة، واحتفـالات عائليّـة فـي غابـات الوديـان؛ لهـذا يرتبـط تنـاول الطعـام فـي الخارج في مخيّلتي بالتلقائيّة والسـعادة والأخوّة، وعندما اكتشـفت هـذا الشـعب المسـتمتع بتنـاول الطعـام فـي الهـواء الطلـق، شـعرت على الفور أنّني في وطني.

يعشق الأتراك النُّزَه الصيفيّة في البساتين، والحدائق، والمتنزّهات الوطنيّة، والمروج المرتفعة، وفي ظلال الأشجار، وفي أيّة بقعة تجسّد جمال الطبيعة، وقـد تكون وجباتهـم خفيفة وسـريعة كالفواكه الصابحة أو العسـل والخبز أو وجبـات متقنة من اللحم المشـويّ، ومن عاداتهـم الممتعة تناول الطعام صابحًا، وهي عادة منتشرة في الكثير من المطاعم والاستراحات على جانب الطريق، إذ يتم إحضار شـوّاية قابلة للحمل إلى مائدتك لتكون مسـؤولًا عن شيّ اللحم أو السمك وتناوله، وبقدر حبّ الأتراك لتناول الطعام في الخارج، فإنهم يكرهون المقاهي على الطُرُق؛ لأنّها تترك شوارع المدينة متّسخة جدًّا.

تحدّثـتِ يا سـيدة ماري، في رسـالة مـن أدرنة إلى أليكسـاندر بوب، عن حبّ الأتراك للحدائق المليئة بأشـجار السـرو الباسقة تعلوها أعشاش طيور القَماريّ:

> ''الأرض كلّهـا مغطّـاة بالحدائـق، وبمحاذاة ضفـاف الأنهار تصطفّ أشجار الفاكهة يجلس تحتها الأتراك كلّ مساء للاستمتاع بوقتهـم، ولا يتمشـون تحتهـا؛ فهـذا ليـس مـن وسـائل الأتـراك

للاستمتاع، بل يختارون بقعة خضراء وارفة الظلال، وتبسط فيها سجادة ليجلس الجميع عليها يحتسون القهوة...".

وليس ثمّة مكان أفضل للاستمتاع بما أشرت إليه من "موسيقى، وحدائق، وطعام فاخر من المروج العالية، أي: مرتفعات الجبال الصيفيّة، يعدّها الأتراك مزارات وطنيّة حقيقيّة؛ فالمراعي المرتفعة جنّة على الأرض في العقل التركيّ الفطريّ؛ فهو يميل لتصميم السجاجيد لتماثل ألوانها الكثيرة أزهار المروج المزركشة.

عادة نقل المواشي من مرعى إلى آخر تجري في دماء السلالة التركمانيّة التي سكنت آسيا الوسطى وجاءت إلى الأناضول بداية من القرن الحادي عشر، واعتمد بقاؤها على السعي الدائم للعثور على مراعٍ جديدة للماعز والغنم حسب الموسم، صحيح أنّ الغالبيّة العظمى من الأتراك لم تعد تعيش وفقًا لهذا الأسلوب البدائيّ، لكنّه ما زال يسري في دمائها وأرواحها؛ فمع بداية فصل الربيع ترنو قلوب الأتراك إلى جمال تلك المراعي الجبليّة البهيجة، ويتوجهون إلى التلال للاسترخاء والاستمتاع بالاندماج في الطبيعة؛ لهذا تصبح الجداول المتدفقة، والضّباب الأبيض في فترة ما بعد الظهيرة، والغنم، أهمّ أبطال القصص الشعبيّة الغنائيّة؛ يركض الأطفال بحريّة على العشب ويتسلقون الأشجار والصخور، وتجتمع العوائل مساء في الأكواخ الصغيرة ملاجئ الصيف، ولا تضاهي نضارة أطعمتهم سوى نقاء الهواء في تلك الأيّام الدافئة والليالي الباردة؛ فيأكلون الزبد، والجبن، والحليب، والخبز، واللبن الخثير؛ سواءً كانت المروج العالية في منطقة البحر الأسود أم في جبال طوروس أم كاتشكار أم أسفل جبل أرجيز، المهمّ أن يشعر المرء بالحريّة، وأن يشارك أسرته الطعام، وأن يحيا في تناغم مع الطبيعة والفصول المختلفة، وأن يستمتع

بحسّ المغامرة، وفوق كلّ شيء أن يتحرّر من قيود الزمن؛ ورغم أنّكِ لم تنعمي بزيارة المروج العالية فقد ثملتِ من حلاوة المناخ التركيّ والطبيعة:

"الجو رائع جدًّا؛ أجلس الآن -في الرابع من يناير/كانون الثاني- والنوافذ مفتوحة، أستمتع بأشعّة الشمس الدافئة، وغرفتي مزيّنة بأزهار القرنفل، والورد، والنرجس المقتطف من حديقتي".

سيدة ماري، كم سيكون من الرائع الجلوس معك على سجادة في حديقةٍ قُبَالة الماء في أحد مئات القصور الرائعة أو في المروج العالية، للانخراط في محادثة لبِقة مع شخص نحترمه، ولإلقاء أبيات علّمك إياها معلّمك أحمد، ولتناول بعض ثمار الخوخ الصابحة، وشرب الشاي معًا؛ يمكننا أن نضحك ونحظى بسعادة مفعمة بالحيويّة كما يفعل الأتراك في كلّ لحظة من حياتهم، يمكننا أن نترك سير إسحاق نيوتن ونتجنّب قوانين الحركة قليلًا كي نحتفل، ونرقص، ونلعب كالندماء، يمكننا أن نصبح صديقتين بمفهوم الصداقة العذب الرقيق الرّائق الذي عشناه في تلك اللحظات في تركيا؛ هذا هو الرقيّ الحقيقيّ، والرؤية الثاقبة للحياة.

صديقتكم

قدرية برانج



مجموعة مقاعد لتناول العشاء تحت الأشجار في بيشهير



مطافئ الحريق مستعدّة في أدرنة



(اخدم نفسك بنفسك) في فتحية



ورق التغليف في إحدى الصيدليات في بورصة



بطاطس في سوق بشيكتاش



باذنجان معروض للبيع، سوق الخاتونية في قونيا



لوحة حيّة لثمار الطماطم، والفلفل، وزجاجات المياه المعدنيّة في تاتفان



متعة القطّة "غفوة في السوق"



أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



بضائع ملوّنة في كاديرجا



قرع صيفيّ للبيع، سوق الخاتونية
في قونيا



في أفشين



مشهد من الشارع في قونيا



متعة القطّة، سوق الصحفيين في إسطنبول



فوّارة السلطان أحمد الثالث عام ١٧٢٨م

الرسالة العشرون

كنت جائعة

عزيزتي السّيدة ماري،

لا أختلف معك إلا في مسألة واحدة، وهي تقديرك للثقافة التركيّة؛ ففي الرسالة التي تتحدّثين فيها عن عشائك مع زوجة رئيس الوزراء، تقولين منزعجة:

"لقد ضيّفتني بكلّ لطف وكِياسة، ثمّ حان موعد تناول العشاء، فقُدّمت أطباق كثيرة واحدًا تلو الآخر... وأنا خبيرة جيّدة في أطعمتهم؛ إذ أقمت ثلاثة أسابيع في منزل سيّد تركيّ في بلغراد، اعتاد أن يقدّم لنا وجبات عشاء رائعة من إعداد طهاته؛ أمتعتني هذه الوجبات جدًّا خلال الأسبوع الأوّل، لكنّني بدأت أملّ منها وتمنّيت أن يُعِدّ طاهينا طبقًا أو طبقين من أطعمتنا...".

هلّا تمنحيني هذه الأطباق الكثيرة يا سيّدة ماري، إذا لم ترغبي في تناولها! أختلف عنك في هذا؛ فأنا لا أملّ أبدًا أصناف الأطعمة المتنوّعة المتوفّرة في تركيا؛ أُقرّ أنّي سمعت آخرين يبدون ملاحظتك نفسها

عن الرتابة في الأطعمة؛ في زيارة لي إلى أنطاليا التقيت سيّدة راقية من أتلانتا، كانت حسناء من الجنوب تَشِعّ جمالاً؛ تحدّثت بلهجة الجنوب الثقيلة ثقل الشاي المحليّ، وقالت بحسرة: "طماطم، طماطم، طماطم! لقد سئمت منها! يتناولونها على الإفطار، والغداء، والعشاء، والطعام المعدّ هنا كلّه فيه طماطم! أتوق للعودة إلى الوطن؛ لأتناول وجبة رائعة من اللحم بالمرق، وجريش القمح!" لم أحاول إقناعها برأيي؛ إذ أظنّ بصدق أنّ النعيم هو المكان الذي يستطيع فيه المرء تناول الطماطم من الصباح إلى المساء؛ لذا لم أعلّق على قولها.

ورغم أنّ الأطعمة التركيّة لا تخلو من الطماطم، إلا أنّني أجد المطبخ التركيّ متنوّعًا، وهذه من أمتع المزايا في تركيا؛ لا أحاول في رسالتي هذه تغيير رأيك في الطعام التركيّ، ولا أريد أن أسهب في الحديث بلا توقف عن ملذّات المائدة التركيّة، أو أن أصف مذاق كلّ طبق على حدة؛ فسأترك هذه المهمّة للكُتّاب هُواة الحديث عن الطعام؛ إنّما أريد أن أطلعك على بعض اللحظات السعيدة التي مررت بها وأنا أستمتع بأطباق أعجبتني خلال رِحْلاتي.

يحمل الطعام التركيّ كثيرًا من صفات الأتراك أنفسهم؛ فهو صريح، سهل، مباشر، شهيّ، غنيّ، مثلما تسهل قراءة الوجوه التركيّة، ينطبق الشيء نفسه على طعامهم؛ فليس فيه شيء خفيّ أو سريّ، ولا يحتاج إلى خبرة فائقة أو صلصات كثيفة معقّدة، بل هو طعام واضح، مباشر، تعرفين تمامًا طريقة تحضيره ومكوّناته، غير أنّ وضوحه لا يعني بالضرورة أنّه مملّ؛ فبعض هذه الأطباق من ألذّ ما تذوّقت في حياتي، وأنا أَعُدّ نفسي ذوّاقة في أشهر المطابخ العالميّة، ألّا وهو المطبخ الفرنسيّ؛ فيمكنني عقد هذه الموازنات.

لا بدّ أن تكوني من محبّي لحم الضأن، بل من المكثرين منه، لتستمتعي بالمطبخ التركيّ؛ فهو شائع هنا، لأنّ لحم الخنزير محرَّم، ولحم البقر غير منتشر، أمّا إن كنت غير ذلك، فستنتظرك في كلّ مكان وجبات من دجاج المزارع الغضّ، والسمك الصابح من أحد البحار الثلاثة المحيطة بتركيا: البحر الأسود، وبحر إيجة، والبحر الأبيض المتوسط.

رغم أنّ تركيا بلد يكثر فيه تناول اللحم، إلّا أنّه جنّة للنباتيّين، وهنا تكمن أهمّ مزايا المائدة التركيّة؛ فلا أعرف بلدًا آخر يراعي تلك الفئة؛ لن تجدي مثيلًا لأنواع الفاكهة والخضر المتوفّرة في تركيا في أيّ مكان آخر، ولو فرنسا؛ إنّ طريقة تحمير الخضراوات في زيت الزيتون، وتقديمها طبقًا مُشَهّيًا يشعر النباتيّ أنّه في الجنّة؛ يُقال على سبيل الدعابة: إنّ الرجل التركيّ قد يطلّق زوجته إذا أعدّت له الباذنجان بالطريقة نفسها مرّتين خلال شهر واحد؛ إشارةً إلى غزارة الطرق والأفكار الخاصّة بتحضير الخضراوات في المطبخ التركيّ!

أجد كثيرًا ممّا أشتهيه هنا؛ فأنا شخصيًّا أستمتع بالأطعمة السهلة غير المعقّدة، فطبق متواضع من أرز بالحِمّص، مع شيء من اللبن الخثير الدَّسِم بنكهة محبّبة في أكثر الأماكن تواضعًا مثل مواقف الشاحنات، من أفضل الأطباق لديّ في العالم، أمّا الرَّائب -شراب اللبن الخثير المفضّل لديهم جميعًا- فتناوله مع أغلب الوجبات يذكّرني بإبريق لبن خثير مُخَوَّض، شربته وأنا طفلة على مائدة عشائنا في الغرب الأوسط، ما هو طعام الثاني المفضّل في تركيا؟ إنّها ثمرة خوخ مثاليّة مزغّبَة كرويّة، مثل: كرة البيسبول؛ لن تعرفي مذاق الخوخ الطبيعيّ الحقيقيّ حتى تتذوّقي ثمرة خوخ في تركيا؛ فهي ناضجة كلّ النضج، مكتنزة، تداعب حلاوتها لسانك، وتتدفّق عصارتها؛ لتغمر مسامّ التذوق كلّها في فيك.

علاوة على الطعام بالغ السهولة، يستطيع المرء أن يجد لمحات من الأطباق المعقّدة، كانت تُعدّ في مطابخ قصر طوب قابي الراقية رقيّ السلطان المعدّة له؛ يوثّق مؤرّخو الأطعمة المرموقون هذه الأطباق، وطرق إعدادها كي لا يغمرها النسيان، ولا شكّ أنّ الطرق الأقلّ تعقيدًا لإعداد هذه الأطباق المتسرّبة إلى المطبخ التركيّ الحاليّ تمنح مستوى المتعة نفسه لعشرة ملايين أسرة في جمهوريّة تركيا، مثلما منحتها لكلّ بلاط سلطانيّ خلال إقامتكِ في تركيا العثمانيّة.

كلّ شيء صابح في هذا البلد، ثمرةً كان أم طَبيخًا؛ إذ يمكنك أن تشعري بدفء الشجر في ثمار المشمش، وبقوالب طوب المخبز في قشرة رغيف الخبز؛ وطعام الأتراك متنوّع تنوّع الريف وسكّانه، يضمّ مجموعة واسعة من الأطباق المحَليّة المنتشرة المعدّة بزهوّ، وهو طعام ذو نكهة قويّة، بدءًا من العسل حادّ الطعم، والجبن بالثوم نفّاذ الرائحة، والبَسْطِرْمَة قويّة النكهة، وصولًا إلى الرّائب الحامض اللاذع.

أخبرتك من قبل عن الطيّبات على مائدة الإفطار التركيّ، لكنّ الأتراك يتألّقون غالبًا في موائد العشاء، وأقوى شاهد على ذلك مقبّلاتهم التقليديّة، وكثير من الأطباق الصغيرة في بداية الوجبات؛ فهذه الأطباق بمنزلة صورة فوتوغرافيّة صغيرة للبلاد بأسرها، أطعمة شهيّة متنوّعة تغريك دومًا لتناول المزيد.

يعجبني اشتراك الأتراك في تناول مقبلاتهم؛ إذ يأكلون من الطبق نفسه، يُوضع كثير من أطباق المقبّلات على المائدة، قد تصل أحيانًا إلى اثني عشر صنفًا، يتشاركون فيها جميعها؛ الأمر الذي يغرِس حسًّا فطريًّا تربويًّا بأهميّة روح الجماعة.

الأتـراك يحبّـون الطعـام، ويأكلـون بشـهيّة كبيـرة، ويضعـون كثيـرًا من الملح في طعامهم؛ بعضهم قد يضع تلقائيًا عشر رشّات من الملّاحة لأيّ طبـق أمامـه دون تـذوّق أو تـردّد، ويتمتـع الأتراك بحماسـة وطنيّة، لا تتبـدّى لـدى رؤية عَلَمهـم الخفّاق ذي الهلال فحسـب، بل تظهر أيضًا علـى المائـدة؛ كان لي صديـق تركيّ لم يسـافر خارج البلاد قـطّ، وكنت مقيمـة فـي فرنسـا وقتئـذٍ، فأمضيـت وقتًـا طويلًا أصِـف له جمال فرنسـا ومباهجهـا، وأغلـب هـذه المباهـج يتجلّـى طبعًا فـي المائدة الفرنسـيّة، وكنـت أحلَـم بالوجبـة التي سـأعدّها لـه إذا حضـر لزيارتي فـي باريس، وفي أحد الأيّام بدأت أصف له مدى سعادتي عندما سأطهو له أوّل وجباته الفرنسـيّة، ثـمّ مضيت أتحـدّث عن الأصناف فـي قائمة الطعام: "سـأعدّ لـك صنفًـا خاصًـا... سـنبدأ بسـوفليهْ بالجبن، تليه شـرائح السـلمون مع السبانخ، والطبق الرئيس شرائح الدجاج مع الصلصة، تليها سلطة الخسّ الصابح، وطبق الجبن المشـكّل، والحلو شـوكولاتة، هـذه هي القائمة!" حقًّا كاد لعابي يسـيل لمجرّد التفكير في القائمة وسـعادتي وأنا أعدّها له، وهي من أهمّ علامات الحبّ التي أعرفها؛ بدت على وجهه نظرة انزعاج، وصـاح: "دعيـك من هذا! لا أريد هذه الأطعمـة! أريد أطعمة تركيّة فقط! فهـي الأفضل، والأطبـاق الأخرى كلّها لا ترقى إلى مسـتواها!"؛ تعلمت مـن هذا الـدرس المؤلم أنّ بعـض الأتراك لا يحدوهـم الفضول للتعرف إلى أطعمة الثقافات الأخرى، ويعدّون مائدتهم مقدّسـة؛ فرجل لا يرغب في أن أطهو له وجبة فرنسيّة، لم يكن بالطبـع جديرًا بأن أحرص على حبّه؛ فيـبدو أنّ الدجـاج بالكريمـة لا يمكنه التفوّق على الكبـاب؛ فانتهت قصّة حبّ بسبب الطعام التركيّ.

يُقـال: إنّ أعظـم مـوارد تركيا الطبيعيّـة هي قدرتها على كفاية شـعبها، وعدم حاجتها للاعتماد على أيّة أغذية مستوردة، وهذا الاحتياطيّ قد يتضح

فـي نهايـة المطاف أنّه أهمّ من البتروكيماويّـات أو الفحم، فضلًا عن ذلك، فالطعام يمنح الأتراك فرصة جيّدة للزهو بما يشتهرون به من حسن الضيافة.

وصفـتِ -يا سيّدة مـاري- طقوس العشـاء خـلال زيارتك للسيّدة حفصة: ''قدَّمت لي وجبة عشـاء من خمسـين طبقًا مـن اللحوم، وُضعت علـى الطاولـة واحدًا تلو الآخر تبعًا لتقاليدهم...''؛ ولا تزال هذه الأطباق تقدّم حتى اليوم واحدًا تلو الآخر، لا في شـكل حصص مثلما يحدث في أوربّا، بل من خلال طقوس طويلة تمهيدًا للصنف التالي.

حينمـا نزلـتُ ضيفة على عائلة حدّثتك عنها في رسـالة سـابقة، أعتقد أنّنـي عُوملـت معاملة لا تقلّ فخامة عمّا تلقّيته من معاملة في منزل السيّدة حفصة؛ ففي جوّ الحديقة المنعش تحت التعريشـة قُدّم لي ''فطائر اللحم'' المعـدّة منزليًّـا، مـع الخبز الصابح، تلته سـلطة شـرائح الطماطم الصابحة والقثّـاء، بالإضافـة إلـى فاصوليا بيضـاء بالصلصة، ثم ظهـر الطبق الرئيس مـن شـرائح لحم الضـأن الدقيقة، في سَمَاكة الورق، مشـويّة مـع الفلفل الأخضر إلى جانب الأرز، مع مشروب صودا البرتقال، تلا ذلك طبق الحلو من كعك الشـوكولاتة المرشـوش بالبندق والفسـتق الجريش، لكنّ الوجبة لم تنتهِ بعد؛ فقد رُفِعَت المائدة وأُعدّ الشاي؛ وإذا بإناء ضخم لإعداد الشاي بالإضافة إلى عشرة أطباق فيها مختلف أنواع المكسّرات، والفواكه المجفّفة، والمشـمش، ثـم زارنا بعض الجيران، وسـرعان ما ظهـرت صوانٍ ضخمة مـن الفواكـه الصابحـة، وقُدّم لـكلّ ضيف طبق فيـه قطع شـمّام، وبِطيخ، وعنـب، وكمثـرى، وتفاحـة! ربّما هذا ليس كالخمسـين طبقًـا التي قدمتها لك السيّدة حفصة، لكنّني أؤكّد لك أن حسن الضيافة لم ينقص عمّا وصفته.

كثيـرًا ما تكون الخدمة فـي المطاعم بالغة الرقيّ، تتضمّن اسـتعراضًا مبهـرًا لخفّـة يد النـادل خلال تبديل الأطبـاق وأدوات المائـدة مع تتابع

تقديم الأصناف، وإذا نهضتِ لحاجة أثناء الوجبة، فستعودين دائمًا لتجدي منديلك مطويًّا، والكراسيّ منسّقة، والمائدة خالية من فتات الطعام، وكأسك مترعة.

لدى الأتراك عادة تتطلّب الاعتياد عليها، لكنّها نابعة من الاهتمام الأصيل؛ إذ لا يليق في الثقافة التركيّة ترك الطبق فارغًا أمام الضيف؛ لذا سوف تلاحظين كثيرًا رفع طبقك من أمامك وأنت على وشك تناول اللقمة الأخيرة، وشوكتك أو ملعقتك في الهواء، وكثيرًا ما تقدّم لك الأطباق مرتّبة على غير ما طلبت، مع استبدال بعض الأطباق، وتقديم أطباق لم تطلبيها، كما حدث معي من قبل؛ فالنادل يعرف دومًا الأفضل لك بغض النظر عما طلبت! عندما يفتح النادل زجاجة مشروبات غازيّة، يعيد السدادة على الفور إلى مكانها، أو يسد عنق الزجاجة بمنديل مائدة ملفوف على شكل مروحة رائعة، ومهما حاولتِ إقناعهم، سيؤكدون لك أن ترك الزجاجة مفتوحة لا يليق.

تزعم فرنسا أنّ لديها ستّ مئة نوع من الجبن، وهذا صحيح إلى حدّ ما، لكنّ الأتراك أيضًا يمكنهم أن يفتخروا بما لديهم من تشكيلة واسعة من أنواع الكفتة والكباب؛ فهم مهرة بالفطرة في الشيّ بالسفافيد، والسَّلق، والشيّ على الفحم؛ فثمّة ما يزيد على مئتين وواحد وتسعين نوعًا مختلفًا مذهلًا من أطباق اللحوم، مثل: اللحوم المشويّة، أو المسلوقة، أو المقليّة، أو المطهيّة على مهل أو المحمّرة أو النيّئة، ويحمل كثير من أنواع الكباب والكفتة اسم المنطقة التي يعدّ فيها، وهذا دليل آخر على تفاخر الأتراك بالأماكن: (إزمير، أكتشابات، إيناجول، تكيرداغ، هاربوت، توقات، أضنة، بَيْتي)، بينما تشير أسماء لأنواع أخرى إلى طريقة طهوها، أو مخترعيها (الصلصة، كُبَيبة مشويّة على الفحم، مدوّرة "لحم الشاورمة"، ساطور

من تراقيا، كباب إسكندر، بيتي، تشاغ من إرضروم، فرن التندور، كباب علي نازك من وان)، وتحمل أسماء أخرى بعض المكوّنات الخاصّة (سردين، أنشوفة)، أو تحمل أسماء تتضمّن تشبيهات، مثل: ''الصغيرة''، و''الأفخاذ المكتنزة''، و''رؤوس الطيور''، وفي الختام لا بدّ أن أستوضح مسألة لغويّة تتعلّق بالطعام؛ إذا أراد أحدهم أن يقول: ''أنا جائع''، فلماذا تُصاغ الجملة دائمًا بالزمن الماضي؟

كلّما شعرت بالقليل من التعب، أو الحزن، أو الكآبة، أو اعتلال المزاج في موطني بمدينة نيويورك، أدركت تمامًا ما يجب عليّ فعله؛ فأحضر لحم الحمَل، وباذنجانة، وبصلة، وبعض حبّات الطماطم، ثمّ أشرع في العمل؛ فآثار الكباب العلاجيّة مذهلة؛ حينما أقشّر ثمرة الباذنجان الأرجوانيّة، أفكّر في الشمس الحارّة فوق سهول الأناضول تلفح قشرتها، وحينما أقلي قطع اللحم وشرائح البصل في الزُّبْد حتى تنبعث منها رائحة شهيّة، ترتفع معنوياتي مع تصاعد البخار، وهكذا يا سيدة ماري، حينما أطهو وجبة تركيّة، أفكّر في وفرة الأطعمة المميّزة للمائدة التركيّة، لا سيّما وفرة الحبّ المنتشر حولها؛ لم أشعر، ولا أشعر، ولن أشعر أبدًا بالجوع في تركيا.

صديقتكم

قدرية برانج



فواكه مجفّفة، سوق ساماتيا في أنقرة



مخبز في كارس



بِطيخ ديار بكر



قالب نقش الخبز في إسطنبول



وجبة الخبز باللحم المشهورة بها قونيا



الخضراوات الشتويّة في سوق أورتاكوي

KEBAPÇI
İSKENDER
Kuruluş Tarihi: 1867
Kurucumuz



Ünlü Cad. No: 7 Bursa-Türkiye
Tel: (24) 21 46 15 - 22 37 79

أهمّ مطعم يعدّ كباب إسكندر المشهورة به بورصة



استراحة لتناول الإفطار في ينيكوي



الخضراوات الشتويّة في سوق أورتاكوي



فواكه محفوظة في مطعم الحاجّ عبد الله في إسطنبول



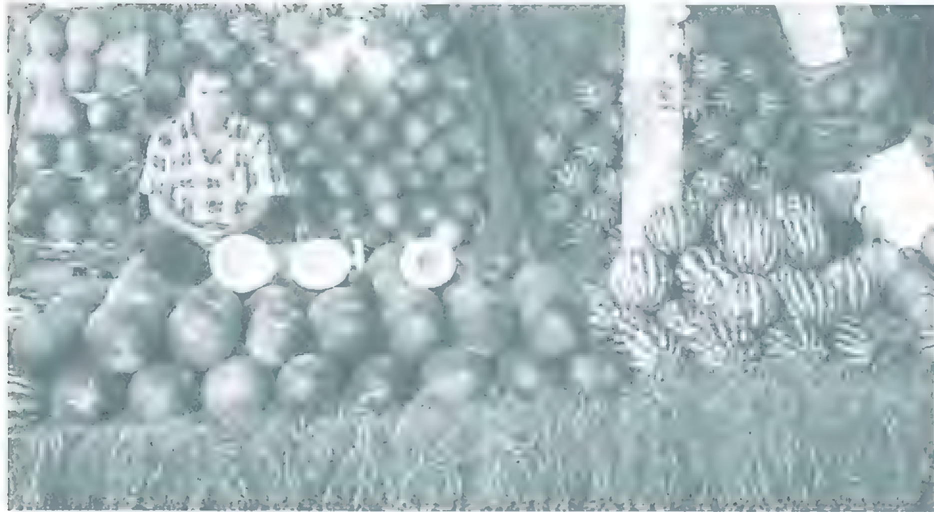
أضلاع لحم الحمَل في قرية كافاك



سوق السمك في أنقرة



تاجر المنتجات الجافة في تشوروم



تجّار البِطّيخ والشمَّام في سوق بشيكتاش



سوق منتجات الملكة خاتون في قونيا



صالون حلاقة باتشا في أفشين



بائـع معجنات متجوّل في أمين أنو



1928

GÜZELYURT RESTAURANT

ERZURUM - TURKEY

TEL : 9(011)11514

FAX : 9(011)19222

Meşrubat / Soft drinks		
Çorba / Soup		
Izgara ve et yemeği / Foods with meat and grill		
Sebze yemekleri / Foods with vegetables		
Zeytinyağlılar / Foods with olive oil		
Meyvalar / Fruits		
Mezeler / appetizers		
Special Mezeler / Special appetizers		
[illegible]		
Yemek Yekunu / Eat TOTAL		
IÇKILER — DRINKS		
IÇKI YEKÜNÜ / DRINK TOTAL		
KDV Dahil YEKÜN — TOTAL		
ISKONTO—DISCOUNT (% ...)		
[illegible] PAY ONLY THIS TOTAL		
GARSON MAKBUZU — WAITERS RECEIPT		

k Mal. GB. 38076
Il : 1990 Il Kodu : 06 Anlaşma Ta. : 25.12.1989

فاتورة من نادي مدينة أماسيا

الرسالة الحادية والعشرون

البصمة التركيّة

عزيزتي السّيدة ماري،

تؤكّدين دائمًا في رسائلك على ذوق الأتراك بالغ الرقيّ، على الرغم من اختلافه عن ذوقنا؛ إنّه ذوق يتغلغل في جوانب حياتهم كلّها، ويتمحور حول تلك العناصر الأربعة الشهيرة: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، البيئة الجميلة، ويؤثّر فينا جميعًا بلا استثناء، وأنت قطعًا محقّة في قولك: ''هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصوّرهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا...'' لكنّ ثمّة أمرًا واحدًا صغيرًا في الثقافة التركيّة يبدو أنّه تسلّل من هذا الرقيّ الفائق، أطلق عليه اسم ''البصمة التركيّة''.

ثمّة ''بصمة'' أخرى شهيرة أعرفها جيدًا، تسمّى ''البصمة الفرنسيّة''؛ تشير إلى طابع الأناقة والتميز اللذين يضفيهما الشعب الفرنسيّ على منتجاته وإبداعاته كلّها من طراز الملابس إلى المطبخ، وأصبحت تعني أيضًا الأسلوب المتميّز الرفيع في لعب الرجبي، لكنّ مفهوم ''البصمة'' في تركيا شيء مختلف تمامًا؛ فالبصمة التركيّة في رأيي: طريقة تركيّة خاصّة لإضفاء نوع من القصور الطفيف -عن قصد أو غير

قصد- على ما يفعله الأتراك كلّه؛ فدائمًا ما تجدين شيئًا ناقصًا، أو يعوزه التناسب، أو خاطئًا تمامًا أحيانًا، وليس هذا بالأمر الجلل، فكلّ شيء يسير على ما يرام، لكنّ هناك دائمًا خللًا طفيفًا، أو نقصًا، أو نقطة ضعف، أو غرابة، أو التباسًا؛ الأمر أشبه ببيت شعر مكسور أو كلمة غريبة مفاجئة تلفت نظرك، وتجعلك تفكرين على نحو مختلف فيما يحاول الشاعر أن يقوله؛ يخبرني أغلب الأتراك أنّ هذا الأمر ليس متعمّدًا، لكنّه قد يكون كذلك بدرجة ما؛ فالأتراك يصابون بالانزعاج حينما يبدو كلّ شيء شديد المثاليّة، والحياة ليست مثاليّة، وكذلك ينبغي أن يكون ما حولنا كلّه؛ الكمال لله وحده؛ فيجب ألّا نغفُل عن ذلك، ومن ثَمّ علينا أن نظلّ متواضعين، وألّا ينتابنا الكبر؛ هكذا أفهم طريقة عمل البصمة التركيّة؛ فكأنها صلاة سهلة لتمجيد عظمة الخالق.

نشأت في ثقافة تسعى جاهدة لتحرّي المثاليّة فيما تفعله كلّه، سواءً في الرعاية الطبيّة، أو طراز الملابس، أو خدمة العملاء، أو إرسال أشخاص إلى القمر، أو إجراء عمليّات لأطفال الأنابيب؛ لهذا يسهل عليّ اكتشاف هذه البصمات التركيّة؛ فهي بارزة بروز مصابيح متوهّجة حينما تراها عين غربيّة دقيقة، لكنّني سرعان ما تعلّمت ألّا أطلق عليهم الأحكام، أو أزدريهم؛ لأنّ السبب لا يرجع إلى نقص في المهارة، أو الاهتمام، أو الدقّة في المنتج النهائيّ؛ فأيّة حضارة تستطيع أن تنجب مهندسًا معماريًّا مثل سِنان وغيره من أبرع الحرفيّين، يمكنها بلا شكّ أن تميّز بين الخطأ والصواب، غير أنّ المرء لا بدّ أن يظلّ متواضعًا، مخلصًا إنسانًا؛ فنحن جميعًا نرتكب الأخطاء، أليس كذلك؟ إذًا ها هي ذي الأخطاء تُرتكب كلّ يوم في كلّ شيء، ظاهرة للعيان كي تذكّرهم بذلك؛ هذه هي الحياة على كوكبنا، وحولنا، في منازلنا، في قلوبنا.

تتجلّى أكثر الأمثلة تقليديّة وقدمًا على البصمة التركيّة في السجاجيد؛ إذ يتعمّد النسّاجون ارتكاب أخطاء بالغة الصغر في عملهم؛ كحياكة

غـرزة من لـون مغاير، أو تعمّد تعرّج الحافـة، أو الإبقاء على كتلة صغيرة مـن العقـد الغريبـة، وهـذه تذكرة خفيفـة بأنّنا نعيـش في العالم الحسـيّ، لا العالم الروحانيّ المثاليّ للخيالات والأحلام.

تظهـر أوضـح البصمـات التركيّـة فـي الترجمـة الخاطئـة المضحكة كثيرًا، المنتشـرة في الإشـارات وقوائم الطعام، والكتب المدرسـيّة؛ فربّما يَفْـزَع المرء ويرفض تناول بعض ما تحويه قوائم الطعام بسـبب المكتوب فيهـا، علـى سـبيل المثال: سـأذكر لـكِ ترجمة السـطر الأول مـن أفضل كتـب تاريخ الفنّ التي قرأتها في حياتـي -لن أخبرك بعنوان الكتاب حتى لا أجـرح مشـاعر الكاتـب، أو المحـرّر-: "إنّ حضـارة أسـلاف الأتراك جعلـت فـنّ العمارة متواصـلًا، مؤلمًا"؛ عبارة كهـذه تصرفك بالطبـع عن قـراءة ثـلاثَ المئة والخمسـين صفحة الباقية، وبعد مرور عشـر سـنوات طويلة، مكلّفة من ترميم مسجد بايزيد باشا في مدينة أماسيا، ما زالت لوحة بيانات المسـجد المكتوبة باللغة الإنجليزيّة تعجّ بأخطاء فادحة؛ ما قولك فـي هذه العبارة في كتيّب السـيّاح التركيّ، الرسـميّ، الصادر عن حكومة مدينـة قهرمانمـاراش، تصف طيـب مـذاق مثلّجاتهم الشـهيرة بالكلمات التاليـة: "السـحلب يجعـل الحليـب متماسـكًا، وعمليّة خفـق المثلّجات تجعلها صلبة"؛ هل يبدو هذا الوصف شهيًّا!

مـن المثير للسـخرية أن تظهر بعض أغرب الأخطاء في بعض أشـهر الأماكـن وأهمّهـا، من قصر طـوب قابي إلى فندق الهيلتـون، وعلى ضوء خبرتـي السـابقة فـي الترجمـة، اسـتأذنت ذات مرة أحد موظفي الشـؤون الثقافيّـة التركيّـة أن أقـدّم خدماتي بوصفي محـرّرة أو مراجعـة للكتيّبات والمطبوعـات الرسـميّة، وأخبرتـه أنّ الدولـة تنفق أمـوالًا طائلة لإصدار هـذه الدعايـة، المصمّمـة لجذب الأجانـب لزيارة تركيا؛ لذا سـيكون من الأفضـل أن تصـدر بلغـة إنجليزيّة صحيحـة راقية، فحملق إليّ مندهشًـا، وأجـاب قائـلًا: "أنـت لا تفهميـن! نحـن الأتـراك لا نريـد للأشـياء

أن تكون مثاليّة! هذا ليس من شِيَمِنا!"؛ حاولت أن أوضّح له أنّ الجمهور الـذي يستهدفه ربّما لا يتّفـق معه بالضـرورة في الـرأي، لكنّني لاحظت أنّ حديثـي أزْعَجَـه، فلـم أسـهب فـي الـكلام؛ بالفعـل يبـدو أنّ الأتراك لا يريـدون أن تكـون الأشـياء مثاليّـة؛ لأنّ هـذا يتعبهـم، ويزعجهـم، تمامًا مثلما تسبّبت حماقتي في إزعاج ذلك الموظف.

يحمـل عالَـم العمـارة أمثلة جليّـة تعكس البصمـة التركيّة في أوضح صورهـا؛ فطريقـة التركيب للوحـات مفاتيح الإضاءة فـي تركيا خير مثال علـى ذلـك؛ إذ نادرًا ما تكون اللوحات رأسـيّة تمامًا، بـل دائمًا ما تجدها تتحـرّك فـي مكانهـا بمقدار عشـر درجـات إلى اثنتيـن وعشـرين درجة، ويمكـن أيضًـا رؤية البصمـات التركيّة في طريقة تركيـب البلاط المعوجّ، أو المقلوب أحيانًا -رأيت بلاطًا مزخرفًا بعناقيد عنب تتدلّى بالمقلوب-، وتظهـر البصمـات التركيّـة فـي الشـقوق الظاهـرة بيـن عشـيّة وضحاهـا فـي أرضيّـة رخاميّة حديثة، أو فـي جدار مجصّص، وتظهر في شـدة ميل الممرات المنحدرة المخصّصة للمعاقين، حتى إنّها قد تتسبب في موتهم، وفي أنظمة الأسـاقيل المرعبة المسـتخدمة في مشـاريـع البناء أو الترميم، وفـي صنـدوق طرد المرحاض المتعطّل حينما تريـده أن يعمل، ثمّ يُصدر فـي منتصـف الليل هديرًا صاخبًا من تلقاء نفسـه، فيوقظك، ويغمر أرضيّة المنزل بالماء، ويفسد حذاءك.

يمكنك رؤية البصمة التركيّة في أرجل الطاولة مختلفة الأطوال دائمًا، وفـي الرخـام المقلّد للمحراب المطليّ بالأرجوانيّ، والأزرق السـماويّ، والـورديّ، فـي مسـجد حاجـي أوزبـك فـي مدينة إزنـك، أو فـي أنابيب الفلورسـنت المبهرة المحيطة بمسجد إيليكجي في مدينة قونيا، فهي تشبه أضـواء ممر مهبط الطائـرات، وفي الحافلات الواجـب تحرّكها في وقت محدّد، ولا يهتم أحد بمرور سـاعتين دون أي إشـارة تدلّ على أنّ الحافلة ستتحرك، وكلّ ما يفعلونه جميعًا هو طلب عدد لا نهائيّ من أدوار الشاي.

تظهـر كذلك في رحلات الخطوط الجويّة التركيّة؛ كانت في الماضي تُلغـى دون سـابق إنـذار، ودون أن ينزعـج أحـد؛ لأنّه لن يلحـق بالطائرة من محطة تالية إلى باريس.

تظهر تلك البصمة في القمصان القطنيّة تنكمش بعد غسلها أوّل مرة، فضـلًا عـن أنّ أصباغهـا تنطبـع على جسـمك، وتفوح مـن الجلد رائحة الحيوانـات؛ وفـي الأحذية البلاسـتيكيّة الرخيصة اليابسـة جـدًّا حتى إنها تتشـقّق بعـد ارتدائها مـرّة واحدة، وفـي الكلاب الهجينـة الجرباء تجوب المنطقـة الرائعـة المحيطة بقلعة سـيتا فـي قونيا، وفي القطّـة تدخل أرقى المطاعم، وتتمسّـح بأرجُل روّادها، وفي الدِّلاء البلاسـتيكيّة على السـلّم الضخـم تحـت أكبر ثريّا في العالم في قصـر دولما بهجة كي تتجمّـع فيها قطرات المطر المتسـاقطة من السـقف، وفي البقرة المتجوّلة حول مسبح لأحد الفنادق ذات النجوم الخمسة كي تلوك النباتات المزروعة في أُصُص الزهور، دون أن يهتمّ أحد بإبعادها عن مقاعد روّاد المسبح.

عالـم السـياحة والفنـادق غنـيّ بالبصمـات التركيّـة، قد يكـون عاديًّا أن تـرى إحـدى البصمـات التركيّـة فـي الفنـادق الصغيـرة المتواضعـة فـي المناطـق الريفيّة، لكـنّ المفاجآت كثيرًا ما تكون مخبّأة في المنشـآت الفاخرة ذات النجوم الخمسة؛ ففي تلك الفنادق في الأناضول لا يتحدّث موظف الاستقبال أيّ لغة أجنبيّة، ولا يعرض التلفاز سوى قناة واحدة فقط، وتـرى البصمات التركيـة أيضًا في فندق مصاعده كلّهـا معطّلة في الوقت نفسـه، ولا يبـدو أنّ أحـدًا منزعج أو يشـتكي، وفي أجنحـة فندقيّة مزوّدة بمناشـف ومُـلاءات تركيّة فخمة مثقّبة، وحذارِ ثـمّ حذارِ من تلك الطيّات الخطرة في سـجّادة حجرة الطعام، فهي تعرقل شـخصًا واحدًا على الأقلّ يوميًّـا، وتظهر البصمـات التركيّة كذلك في رقم الحجـرة المكتوب يدويًّا الملصق بشـريطة لاصقة شـفّافة على مفتاح الباب، وفي المسمار الضخم المثبّت في الجدار لتعليق مجفّف الشـعر في غرفة الملابس بمنتجع أحد

الفنادق الراقية، وفي شاشة المصعد تعرض الرقم ثلاثة عند الوصول إلى الطبقة الثانية، وفي مكالمات التنبيه في حجرتك عند الخامسة صباحًا، رغم أنّك لم تطلب إيقاظك، وفي أنصال السكاكين المثلمة وبرّادات الحجرات الحارّة، وفي شجرة عيد الميلاد البالية، الملتوية، المزيّنة بكرات ثلج اصطناعيّة في بهو الفندق شهر يوليو/تموز!

تنتشر البصمات التركيّة بوفرة في الشوارع؛ تجدها في الأسلاك الكهربيّة المتدلّية من بناية إلى أخرى، وتكاد تلامس رأسك -سجلّت محافظة كارس رقمًا قياسيًّا في هذا المشهد خاصّة-، وفي مَكِنات الصرّاف الآليّ المعلّقة عاليًا على الجدار، حتى إنّها تجعل شخصًا مثلي طوله ستّ أقدام مضطرًّا للوقوف على كرسيّ -يُوضع إلى جوار المكنات تفضّلًا-، وفي نخلة صناعيّة تتلألأ بأضواء النيون في مواقف سيّارات المدينة أثناء العواصف الثلجيّة، وفي بساتين الزهور أمام المتاحف الوطنيّة في صفائح زيت الزيتون المعاد استخدامها.

تظهر البصمات التركيّة المفضّلة لديّ في الخرائط المبتكرة توزّعها المكاتب السياحيّة الرسميّة، مرسومة يدويًّا بطريقة محبّبة، لكنّها غير واضحة إلى درجة مزعجة، وغالبًا تكون معكوسة تمامًا؛ فتجعل تجربة اكتشافك للشوارع في المدينة أقرب إلى رحلة "أَلِيس في بلاد العجائب"؛ ذات مرة تلقّيت إحدى هذه الخرائط الشاحبة في مكتب للسياحة في بورصة؛ فتشجّعت، وسألت الموظّف إذا كانت لديه خريطة أخرى أفضل حالًا كي أضعها في حقيبتي؛ لتساعدني في معرفة طريقي، فأشرق وجهه، واختفى بسرعة في سعادة، ثمّ عاد بعد دقائق يترنّح بخريطة مساحة أبعاد إطارها سبع أقدام طولًا وخمس أقدام عرضًا، رفعها من على جدار مكتب المدير، ووضعها بمشقّة أمامي، وقال: "هل تفيدك هذه؟"

قـد تظهر البصمـة التركيّـة أيضًا في اللمسـات الرقيقة اللطيفـة يبديها الأتـراك، وفي الزهور الصناعيّة المرصّعة بقطـرات ندى راتنجيّة (صمغيّة) فـي زهريّـات علـى طـاولات المطاعـم كـي تبـدو كمائـدة السـلطان، وفي الملاعق والشوك الملفوفة بعناية في مناديل ورقيّة مربوطة بشريطة، وفي صور جبال الألب السويسـريّة المعلّقة في المطاعم وسط السهول المتربة، وفي ثمار البِطّيخ المنحوتة بَجَعًا رائعًا، وفي بلاط الحمّام المزخرف بورود زرقاء يزيّن الجزء الداخليّ من الجامع الكبير بمدينة سيرت.

قـد تكـون البصمـة التركيـة متفاوتـة ومذهلـة، مثـل: سـماع الأذان فـي الرابعة وتسـع دقائـق صباحًا بمدينة كارس؛ لتتسـلّل إلى نفسـي لذّة موسـيقيّة لا تـزال تعتريني حتـى الآن، أو مثل الأرصفـة الرخاميّة الفخمة علـى جانبي شـوارع مدينة أفيـون الريفيّة المتربة؛ وأخيـرًا تعلّمت أنّ هذه النقائص تمنح الأشياء والعالم من حولنا حياة نابضة، وصرت مثل الأتراك أشاركهم ولعهم بها؛ علّموني أن أكون أقلّ تدقيقًا، وتذمّرًا، ونقدًا، وحينما أرى بصمـة تركيّة غالبًا ما أبتسـم؛ لأنّها مضحكة جـدًّا أحيانًا، لكنّها دائمًا ما تثلج صدري؛ إذ أستشـعر يد الإنسـان وراءها، إنّه شخص تركيّ يعرف مكانه في النظام الكونيّ للأشياء؛ وهي تعلّمني ألّا أبالـغ في تقدير نفسي، أتعرفين لماذا؟ لأنّه لا أحد كامل؛ لا أحد سوى ربّنا العظيم.

صديقتكم

قدرية برانتج



مطعم في سيلفان



لافتة بجوار المسبح في فندق فخم



أعمال ترميم في قونيا



قصر دولما بهجة



قاسطمونى



قاسطمونى



افسحوا الطريق



احتفالات عيد الميلاد في يوليو/تموز



ممرّ للمعاقين



كارس

köprunun kuzeydogusundadır Çelebi Mehmet Devrinde Amasya Valisi Beyazıt
ın 1414 yılında yaptırılmıştır.
plan şemasına sahip Zaviyeli camilerdendir. Son cemaat mahallindeki kemer
ve geometrik süslemeler ilgi çekmektedir.

BEYAZIT PAŞA MOSQE

aced northeast of the Kunç briage. At the reign of the Çelebi Mehmet it had
by the Amasya governer.
nity, draw attension because of the geometric adonns and handworks.

إضافات، وأعمال يدويّة

الرسالة الثانية والعشرون

سجادة من سبعين مليون عقدة

عزيزتي السّيدة ماري،

كم أود أن نخرج معًا في نزهة بعد الظهر، ونركب زورقًا في البوسفور! نستطيع أن نرسو في أيّ مكان على ضِفافه، ونبسط سجّادة تركيّة نجلس عليها، ونستمتع باحتساء الشاي وتناول المعجّنات والبِطّيخ، ونمتّع أعيننا بالمنظر الخلّاب، وعقولنا بحديث شائق؛ في الواقع لسنا بحاجة إلى زورق، أو إلى البوسفور كي نحظى بجلسة ممتعة؛ فأيّ مكان تبسطين فيه سجّادة تركية، يتحوّل إلى روضة صغيرة تفيض بهجة.

تخبرينني في رسائلك بتفاصيل كثيرة عن الحياة اليوميّة في مختلف الفترات، منها طراز الملابس، والأثاث، والجواهر، والأطعمة، والعادات، والرقص، والموسيقى؛ هذا الاهتمام بالتفاصيل جعلك أحد الروّاد لتأريخ الثقافة الحسيّة لحياة البلاط التركيّ في القرن الثامن عشر ولتدوينها؛ فإحساسك بالطراز رفيع جدًّا؛ تصفين سترات السلطان عند ذهابه إلى المسجد، والزيّ المزخرف لرئيسة حريم القصر، وزخارف الحواشي

في ملابس الحرس، والفساتين كلّها لسيّدات البلاط اللائي زرتِهنّ؛ بالطبع لا يمكننا أن نصفك بأنّك كنت عالمة أجناس بشريّة بالمعنى الحاليّ للكلمة، لكنّك ولا شكّ مهّدت الطريق لعلماء الأجناس بإدراكك أهميّة أن تدوّني تفاصيل الحياة كلّها مهما كانت صغيرة فلا تمرّ دون ملاحظة؛ فراقبت بعناية، وأصغيت، ودوّنت، وبفضل رؤيتك للتفاصيل الدقيقة ألقيت لنا الضوء على صورة أوسع.

ذكرتِ -يا سيّدة ماري- ملاحظات عن فنّ العمارة والفنون أقلّ ممّا ذكرت عن الأنماط والأساليب السائدة؛ وربّما لأنّني فنّانة، فهذه أوّل الأمور التي تلفت انتباهي، كلّما مشيتُ في شارع، أو دخلت حجرة، أو سافرت، لكنّك حينما تتحدّثين بالتفصيل عن الجوانب الفنيّة، يكون نظرك ثاقبًا كشأنك دومًا، أمّا عشاؤك مع السيدة حفصة، فقد وصفت مناديل المائدة الشاشيّة، الرقيقة، المطرزة بزهور ذهبيّة: "... شعرت بالأسف الشديد عندما استخدمت هذه المناديل النفيسة، المشغولة كأروع ما أنتج هذا البلد من مناديل على الإطلاق"؛ ومضيت تصفين الأوعية الخزفيّة ذات الأغطية الذهبيّة الصلبة، والسكاكين الذهبيّة ذات المقابض المرصّعة بالألماس، وحوض الاستحمام الذهبيّ والمناشف المطرَّزة، تصفين في إحدى رسائلك الأخيرة القصور الخشبيّة المبنيّة على ضفاف البوسفور وزخارفها:

"أرصفة بيضاء، وأسقف مذهّبة، وجدران مكسوّة بالخزف اليابانيّ، وألواح الخشب المصدّف المرصّعة بالزمرد على شكل مسامير، وكلّ شيء مزخرف بقدر كبير من المرمر، وأطباق الخزف من الأنواع كلّها، والجصّ الملوّن، وقدور الزهور، وإطارات النوافذ من أرقى أنواع البلّور مزيّنة بأروع رسوم الفواكه والزهور".

هناك رسالة من أكثر رسائلك حيويّة تركّز على فنّ العمارة أيضًا، تلك الرسالة تصفين فيها زيارتك لجامع السليميّة في أدرنة، بناه المعماريّ

الشـهير سِنان للسلطان سـليم الثاني عام ١٥٦٩م؛ كنت محقّة في قولك: "إنّ هـذا المبنـى جديـر بالفعل بـكلّ ذرة اهتمـام يوليها له السـائحون"؛ إذ يُعدّ بحقّ تحفة سِنان الفنيّة، وقد اضطررتِ لارتداء زيّ تركيّ كي تتمكّني مـن الدخـول، ثمّ وصفـتِ الجامع بتفاصيـل دقيقة تتفـوّق على أوصاف لاحقـة كتبهـا مؤرخو عمارة مُحدَثون؛ لم تغفُلـي عن مَعْلَم واحد في هذه الرسـالة الطويلـة، بدءًا من سـاحة الجامع إلى القبـاب، والرواق بأعمدته الرخاميّة الزبرجديّة العتيقة، والارتفاع الشـديد بفضل نظام القبّة الواحدة، والأسـوار الرُّخاميّـة، والسـجاجيد الفارسـيّة، والمنبـر العظيـم المصنوع من الخشب المذهّب المنحوت، وبهو العبادة الخاص بالسلطان، والشموع البيضـاء، والمآذن الأربـع الشـاهقة، ودفعك الفضـول لصعودها! قد يتّفق معـك كثيـرون في العصر الحاضـر؛ فهذا أعرق بناء رأيتـه على الإطلاق، وقد أسـعدني إعجابك بزخرفته خاصّة، بدت لي الحوائط مطعّمة بأحجارٍ ألوانُهـا فـي منتهـى الحيويّة على هيئة زهـور صغيرة، لم أسـتطع تخمين الأحجار المسـتخدمة، لكنّني لما اقتربت وجدتها مكسـوّة بخزف يابانيّ، يُضفِـي تأثيرًا رائعًا، اندهشـت لظنّـك الطلاء الثخيـن المزجّج على بلاط إزنك أحجارًا، وبهرني أنك استطعت تمييز الأثر الآسيويّ فيها.

تصويرك لجامـع السليميّة والقصور الخشبيّة دقيق جدًّا، ومفعم بالحياة حتى جعلني أشـعر كأنّني أشـاهدها، وهو وصف أكثر إثارة من أي صورة فوتوغرافيّة، غير أنّ ما يدهشـني قلّة حديثك عن السـجاجيد؛ فهل السـبب أنّ السجاجيد التركيّة كانت مألوفة حتى إنّك لم تشعري بالحاجة لوصفها؟ فالسجاجيد الراجعة إلى القرن السادس عشر المبسوطة في القاعة الكبرى -تلك السـجاجيد العملاقة بحجم الغرفة كلّها المنسـوجة في مشغل بلاط السـلاطين سـليمان الأوّل، والثانـي، ومـراد الثالـث- كانت قد انتشـرت فـي إنجلتـرا منـذ وقت طويل لتزيّـن أرقى القصـور الريفيّة، ولا شـكّ أنّ بيـت عائلتـك "ثورسـبي هـول" ضـمّ واحـدة منها، رغـم أنّهـا مصنوعة

في المشاغل، إلّا أنّها رائعة، غير أنّني أفضّل السجاجيد الأصغر حجمًا، كالتي قد نأخذها معنا؛ لنجلس عليها في حفل شاي سنقيمه على ضفاف البوسفور؛ إنّها سجاجيد تغزلها امرأة نسّاجة تجلس وحدها أمام نَوْلها.

ينتج الأتراك بعضًا من أروع السجاجيد في العالم، ونادرًا ما يعود أحد زوّار تركيا من رحلته دون سجّادة معه في حقيبته، لكنّ السجادة للشخص التركيّ أكثر من بساط جميل يوضع على الأرضيّة؛ إنّها قطعة فنيّة.

حينما نتحدّث عن الفنّ في الغرب، تتبادر إلى أذهاننا سلال الفاكهة، والسيّدات العرايا، والمناظر الطبيعيّة المعلّقة على جدران المتاحف أو اللوحات المتهافت بعض الناس على اقتنائها بملايين الدولارات في سوق فنيّة محمومة، ويتبادر إلى أذهاننا جامِعو القطع الفنيّة رفيعو الشأن المتعجرفون، أو المثقّفون المتذوّقون للجمال، أو نجوم الفنّ، مثل: بيكاسو وماتيس، ويرتبط الفنّ في ذهن الغربيّ العاديّ بأنّه مدنيّ، دينيّ، تجريديّ، ثقافيّ، ذكوريّ، ينتمي للطبقة الراقية، يرتبط بوجه عام باللوحات الزيتيّة، لكنّ الفكرة مختلفة في تركيا، ومفهوم الفنّ لدى الأتراك يعني أيّ شيء يُصنع بمهارة عالية مع الاهتمام الشديد بالتفاصيل؛ لهذا فالمهارة التقنيّة والنظام لا يقلّان أهميّة عن الإلهام والحدْس.

الفنّ في تركيا مشاع؛ للشخص العاديّ، والقرويّ، والمدنيّ على حدّ سواء، والأتراك عمليّون، وفنونهم عمليّة أيضًا؛ فيستخدمون العناصر المتوفّرة حولهم، مثل: الجوز من الغابات الشماليّة، والرخام من المحاجر القريبة في أفيون، والصوف المنسوج يدويًّا من الغنم الحيّة، وأصباغ الخضروات والأعشاب، والصلصال الجافّ، ولا مجال للترف في الأعمال الفنيّة التركيّة؛ فمقدار الانتفاع هو الفيصل؛ إذ لا بدّ أن يكون الغرض عمليًّا مفيدًا لا زينة فقط؛ فيصنعون قطعًا فنيّة أبدعها مجتهدون، يستخدمون الأدوات والإبر، ويجلسون أمام النيران والأنوال.

تشكل الحرف اليدويّة أساسَ الفنّ التركيّ، وتتضمّن فنّ الخطّ، وأشغال الصدف، وفنّ ترخيم الأوراق، والنسيج، وصناعة الجلد لعمل المعاطف والسُّروج، وتطريز الحوائف، وصنع اللِّباد، والحياكة، والتقطيب، والفخار، ومشغولات النحاس، وصناعة السلال، والنِّجارة.

يبني الأتراك بيوتًا من الخشب والصخر وألواح البلاط، وينسجون الملابس والمنسوجات المنزليّة، ويستخدمون حبيبات الخرز الزجاجيّ لزينتهم أو تزيين سروج دوابّهم، وينقشون الملاعق الخشبيّة؛ ليأكلوا بها أصناف اليخنة والحَساء الشهيّة؛ والعناصر الزخرفيّة عندهم مستمدّة إمّا من عالم الطبيعة -وأحبُّها إليهم الزهور والطيور- أو من الرموز الحسابيّة والفكريّة لعلم الهندسة.

يُكِنّ الأتراك مشاعر قويّة لبلادهم، وعوائلهم، ودينهم، وحِرَفهم، ويعتقدون أن البَراعة والمهارة عنصران رئيسان للفنّ، ويقدّرون الأهميّة الدينيّة والتاريخيّة للزخارف التي يستخدمونها، ويحاولون أيضًا إضفاء نوع من القداسة على فنّهم من خلال جعله أروع ما صنع بشر وأكمله؛ لأنّ المهارة تمجيد لله، ومن الملاحظ أنّهم يتّسمون بالجرأة والصراحة في عملهم؛ لذا تجد فنّهم أشبه بطعامهم: مباشر، يخلو من التفاهات، مستمدّ من تراثهم ودينهم وثقافاتهم الإقليميّة، وهو تراث بالغ الأهميّة حتى إنّهم يفخرون بإعادة تقديمه مرارًا وتَكرارًا؛ وهدف الفنان التركيّ في الواقع واضح جدًّا؛ إذ يريد صنع قطعة جميلة باستخدام أفضل مهاراته، قطعة تعكس حبّه لله ولعائلته، وتنفع الآخرين؛ الأمر بهذه السهولة.

لماذا اختار الأتراك السجاجيد، واختار الفرنسيّون الطعام والطِّراز، واختار الأمريكيّون الموسيقى، واختار الإيطاليّون السينما، واختار البريطانيّون الحدائق؛ ليعبروا من خلالها عن هويتهم الثقافيّة؟ لا أدري! لكنّ الفنّ تعبير عن الإنسان، ويظهر على نحو مختلف في كلّ ثقافة؛

إنّه تعبير عن الثقافة الحسيّة لعصره، وانعكاس لزمان بعينه، ومكان بعينه، وثقافة بعينها، ورؤية الفنّان المبتكر؛ يمكنك أن تكتشفي كثيرًا عن تركيا بالنظر إلى مصنوعات الأتراك، وفي اللحظات الحزينة التي أظنّ فيها أنّني لن أفهم أبدًا لغتهم المنطوقة، تكون لغة أعمالهم، لا سيّما السجاجيد، مفهومة تمامًا، وتجعلني أكثر قربًا منهم.

كم يعجبني فنّهم الجامع بين احترام التقاليد والسعي إلى التغيير والنموّ في الوقت نفسه؛ لطالما جعلتني الطريقة التركيّة السلسة في مزج القديم بالحديث في أمور الحياة اليوميّة أشعر بالراحة هناك؛ فالأطلال الرومانيّة جوار المدارس السلجوقيّة والأسوار البيزنطيّة والفوّارات العثمانيّة، والحدائق والأزهار تزدهر جانب الجدران الخرسانيّة، والطرق السريعة تزاحم الجسور والقنوات القديمة؛ مزيج يتناقض فيه ضجيج الشوارع مع سكون المنازل، وتقع فيه الأماكن التجاريّة والأضرحة جنبًا إلى جنب، والمجال واسع هنا لسماع الأصوات الفنيّة المختلفة كلّها واحترامها، تمامًا كما يحدث وقت الصلاة، فالجزء من الثانية الفارق بين بداية أذان وآخر، واختلاف طبقات أصوات المؤذنين تمتزج لتمنح العبارة الواحدة أصواتًا مختلفة؛ فيكون كصدى صيحات طيور النّورس المحلّقة في سماء ميناء أمين أنو؛ ينطبق هذا الاحترام للقديم والحديث على حِرَفهم؛ فهي تمثّل فنّ الأتراك؛ فكليّات الفنون الجميلة التي تعلّم النحت والرسم في الغرب لم تترك في الأغلب أثرًا يُذكر في تعبيرها الفنيّ.

الأتراك يقدّرون جدًّا من يعملون بالخشب، ويَجدلون السّلال، وينسجون الصوف؛ فلا فرق بين الفنّ والحِرَف هنا؛ فالحِرَف كلّها فنون؛ ثقة الأتراك في رسالتهم الفنيّة -بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى- من أقوى عوامل جذب تركيا لي شخصيًّا بوصفي فنانّة حرفيّة.

احتـدم الصـراع فـي الغرب بين الفنـون والحِرَف على مـدار الثلاثين عامًـا الماضية، ولـم يبدأ فـي الخمود إلّا في الوقت الحاضر؛ كان "الفنّ" يُعـرّف عادة بأنّه أيّ شـيء يُبتكـر للتأمل الجماليّ خصّيصًـى، بينما اعتمد تعريـف "الحرفـة" علـى وظيفتها النفعيّة فـي المقـام الأوّل، وظلّ علماء الفـنّ ومؤرخوه يناقشـون طويلًا هـذا الفرق، حتى تمكنوا فـي النهاية من التوصل إلى قاعدة مشـتركة مريحة، والمتاحف الفنيّة الكثيرة المنشـأة في الغرب خلال العشرين عامًا الأخيرة والمخصّصة للفنون القديمة خير دليل على ذلك، لكن ما زالت هناك آثار للتمييز بين الاثنين، وبوصفي من فنّاني صناعـة الزجاج، يجب أن أسـتخدم يديّ في التعبيـر بقوة وبراعة، وحينما أحـدّق فـي قطعة مصنوعـة بيدَي فنّان تركـيّ، أسـتطيـع أن أرى آثار يديه القويّتين أيضًا؛ ولعلّ هذا سـبب انجذابي لتركيا؛ فهي أرض غنيّة بالفنّانين الحرفيّين البارعين المدركين أنّ التفوّق الفنيّ يكمن في المزج بين الجمال والمنفعـة، وحينمـا تُصنـع قطعـة بموهبـة، ومهـارة، وإخـلاص، وحبّ، فإنّها تصبح قطعة "فنيّة".

عندمـا أصنـع زهريّـة أو كوبًـا مـن الزجاج، تتـاح لي فرصـة للتعبير عن الإبداع والمهارة والعمل الجادّ، والأتراك أيضًا يفكرون بهذه الطريقة؛ فأعمالهـم مصنوعـة بعناية وحـبّ، وهذا ما يميّزها عـن المنتجات جملة؛ فهنـاك عيـن تـزن القطعة، ويد تلمسـها، فتعكس الإرادة والـروح الفرديّة، وأحيانًـا تحمـل البصمة التركيّة بالغة التميّز، ويعتقد الأتراك أنّ الفنّ ينبغي أن يظهر في الأنشطة اليوميّة جميعها، من صبّ الماء إلى نقل الخضراوات وتقليـب محتويـات القدور؛ فيضفون جلالًا على أنشـطة الحيـاة اليوميّة، ويملؤونها سموًّا، وجمالًا، وروعة.

نجد في نهاية المطاف أنّ مسعى فنّاني "المشغولات" وفنّاني الفنون الجميلـة واحـد؛ نسـعى جميعًـا إلى الإبـداع، ونبذل من أنفسـنا فـي فنّنا مـن خلال تنمية مهاراتنا، ونحن فضوليّون نتحدّى الحالة الراهنة؛ لنتجرأ،

ونحلَم، ونحاول أن نتعلّم من أعمالنا، ونعتقد أنّ عمليّة الإبداع أهمّ من المنتج النهائيّ، ونحاول أن نفهم الفنّ العميق الكامن فينا، ونعطي أهميّة خاصّة للعين الثالثة بداخلنا؛ يمكنني أن أرى انعكاسات هذه المساعي كلّها، حينما أنظر إلى سجّادة أو ملعقة خشبيّة تركيّة، وأشعر في كلّ زهرة ساحرة مرسومة على طبق من إزنك بمشاعر حبّ الطبيعة وعناصرها الغنيّة الممتزجة بالألوان التي يشعر بها الأتراك كلّهم، وأشعر مع كلّ انحناءة للخطّ العربيّ بقلب يتّجه إلى الله، وأرى في كلّ عقدة منسوجة وجه امرأة تركيّة، وأشعر بدفء مشاعرها وابتهاجها بالحياة.

يا لها من عقد! من بين الفنون التركية كلّها أجدني منجذبة انجذابًا خاصًا إلى هذه السجاجيد الغنيّة بالألوان؛ فالعقد في السجاجيد تتحدّث إليّ بقوّة الكلمات، تمامًا، مثل تلك الأحجار الذهبيّة التي حدّثتك عنها من قبل، وأخبرتك في بداية هذه الرسالة يا سيدة ماري أنّي أميل بوجه خاصّ إلى القرى الصغيرة والسجاجيد البدويّة، يمكن أن نأخذها معنا لنجلس عليها على ضفاف البوسفور في نزهتنا؛ لا أتحدث عن السجاجيد الضخمة في القاعات الكبرى العائدة إلى القرن السادس عشر؛ إذ تختلف اختلافًا تامًا عن سجاجيد القرى؛ فتلك من صنع الذكور تحت إشراف البلاط، وتأثرت إلى حد بعيد بالعناصر الجماليّة الفارسيّة؛ إذ كان النسّاجون ينفّذون رسومات متقنة رسمها فنانو البلاط، لكنّني أتحدّث عمّا أسميه "السجاجيد السحريّة"؛ سجاجيد تُصنع في القرى الصغيرة أو القبائل البدويّة، وأغلب النماذج الرائعة الباقية حتى الآن كانت قد نُسجت في الفترة بين عامي (١٨٥٠م - ١٩٢٥م) باستخدام أصباغ طبيعيّة مستخرجة من الخضراوات، ولا تزال ألوان هذه السجاجيد تشِعّ حياة كيوم نُسجت، ولا تزال ألوانها وأشكالها تُلهم النسّاجين اليوم، ومنذ القدم حتى اليوم تشارك مختلف الأيدي السحريّة في صنع السجاجيد، كأيدي الرجال والنساء الذين رعوا الغنم، واعتنوا بها، وجزّوا أصوافها،

ومشّطوها، وغزلوها خيوطًا، وجمعوا الأعشاب لصنع الأصباغ، وصبغوا الصوف، وصنعوا الأنوال، وعقدوا عُقد السجاجيد بتصميم في ذاكرتهم البصريّة اليدويّة، وقد صنعت هذه السجاجيد النافعة لأغراض دينيّة، أو منزليّة، أو زراعيّة، أو لتوضع في صندوق العروس، أو لتباع في السوق، حملها القرويّون على كواهلهم، وأكلوا عليها، وناموا، أو التحفوا بها، وكانت تُستخدم أيضًا أبوابًا للخيام، وحاويات للملح والطعام، ومهودًا للأطفال، وأحلاسًا للدوابّ، وزينة للخيام، أو كانت هي نفسها جوانبَ خيام تُطْوَى وتُثنَى؛ قد تكون السجاجيد السحريّة بساطًا من العقد أو كِلِيمًا رخيصًا أو قطعة مطرّزة، وقد تتّخذ مجموعة واسعة من الأشكال وفقًا للغرض منها؛ فالسجّادة جزء مهمّ من حياة المنزل التركيّ، شأنها شأن من يقيمون فيه.

أجد السجاجيد بالغة الروعة؛ لست خبيرة في صناعة السجّاد، ولا أنظر إليها بعين مؤرّخ فنيّ، بل أنظر إليها بعين الفنّان، وأتفاعل معها على المستوى البصريّ والحسيّ الخالص، فعندما أرى سجّادة لا أجثو على الأرض؛ لأعدّ عقدها، ولا أحلّل ألوانها؛ فالقطع الفنيّة والتصميمات المألوفة الموصوفة بسهولة، غالبًا ما تكون عملًا رائعًا مدهشًا في مغزاه ورمزيّته، إذ يبتكر النسّاجون قطعًا جميلة تثري الروح وتشبع الفكر، شأنها في ذلك شأن أيّ عمل يوصف بأنّه عمل فنيّ عظيم.

علمتني السجاجيد التركيّة كيف أستخدم مبادئ التصميم نفسها التي تجذبني إليها في ممارستي فنّ صناعة الزجاج؛ فهذه السجاجيد غنيّة بالألوان، تعتمد على درجات ظلال تستخدم الألوان الشاحبة، والألوان الأساسيّة، وخليطًا من كل ما في قوس قزح من ألوان مع اختلاف درجات تلك الألوان، وغالبًا ما يُنتقى لون دافئ خاطف للبصر؛ ليبرز بوضوح؛ فهي سجاجيد صريحة عفويّة مفعمة بالحيويّة، جريئة من حيث التصميم واللون، لا تخشى نشوز الأشكال أو فوضى الألوان غير

المقبولة؛ بعض السجاجيد قد تذهلك قوتها وألوانها ووضوحها، وبعض القطع الأخرى ينبعث منها سكون تامّ مستمدّ من البصمة الناعمة الرقيقة ذات الارتباط بعنصري التصميم واللون؛ والصوف المستخدم كثيف لكنّه مرِن؛ فيضفي على السجاجيد عمقًا؛ أشعر كأنّها سجاجيد حيّة؛ ربّما لأنّ صوفها يظلّ حيًّا بطريقة ما، وربّما لأنّني أستطيع أن أشَمّ رائحة الطبيعة في أصباغها الطبيعيّة الليّنة المستخلصة من النباتات، والمعادن، والعناصر الحيوانيّة المتوفّرة في الطبيعيّة حولنا؛ والسجاجيد القرويّة تتلألأ، وتنبض بالحياة، وتغنّي كالأزهار، وأشعّة الشمس، والطيور، والحيوانات، والنجوم، وأقواس قزح، والحقول الخضراء المرسومة عليها، ولا تستحيي من عيوبها، بل إنّها تسعى غالبًا لتضمين البصمة التركيّة؛ لتبدو ساذجة متواضعة؛ تلك العيوب الصغيرة الظاهرة في الحرفة تشير إلى اليد البشريّة في المنتج النهائيّ، وكلّ ما تتمنّاه هذه السجاجيد المتواضعة أن تُقابَل بالتقدير وهي كما هي؛ لهذه الأسباب وغيرها من أسباب عاطفيّة كثيرة، تبثّ فيّ هذه السجاجيد سعادة وبهجة صادقة.

لا ينبع افتناني بالسجاجيد من رؤية فنيّة فحسب، بل أيضًا لأنّها تتحدث إليّ بوصفي امرأة؛ فلا شكّ أنّني منجذبة لهذه السجاجيد الريفيّة والبدويّة لأنّها تمثّل فنًّا أنثويًّا؛ لطالما كانت السجاجيد والمنسوجات في الأغلب فنونًا أنثويّة، تنمو وتزدهر بعيدًا عن هيمنة المنظور الذكوريّ؛ فهي بمنزلة صور شخصيّة للنساء التركيّات؛ تمثل تعبيرهنّ الشخصيّ المفعم بمعانٍ خاصّة، لكنّها في الوقت نفسه تمثّل تصريحًا علنيًّا للعالم كلّه؛ إذ تمنح السجاجيدُ النسّاجة شعورًا بارتباطها بما حولها، تمامًا كرسائلك لأصدقائك يا سيدة ماري؛ تلعب المرأة التركيّة بالعُقَد، كما نلعب أنا وأنت بالفِكَر والكلمات.

السجّادة مستقلة استقلالا من نسجها؛ فعندما أنظر إلى سجّادة، أفكّر دائمًا فيها؛ فلكلّ نسّاجة بصمة خاصّة خصوصيّة شعر صغيرها

أو بشرة زوجها؛ مثلًا قصيرة هي أم طويلة؟ كم عدد أطفالها؟ أتطيع زوجها أم تجادله؟ أجميلة هي؟ كيف ضحكتها؟ هل تحلَم بما أحلَم به؟ ما هي مشاعرها ورغباتها؟ وأحاول أن أخمّن عمرها بناءً على مستوى حِرَفيّتها؛ صحيح أنّ هذه السجاجيد لا تحمل توقيع صانعتها، لكنّها تفتح نافذة خاصّة جدًّا على روحها؛ فأشعر بالارتباط بالنّساجة؛ إذ أرى بعض نفسي في السجّادة كما تترك بعض نفسها فيها؛ فآثار لمستها وحبّها واضحة فيها، كما تتّضح في احتوائها زوجها وأطفالها، أتخيّل أحيانًا أنّني أرى نساء حمراوات الشعر في السجاجيد المربّعة الزاهية المنسوجة غرب تركيا، ونساء بنّيات الشعر في سجاجيد الصلاة الصفراء الدكناء المنسوجة أواسط الأناضول، ونساء سوداوات الشعر في جيوب السُّرُّج الدكناء المنسوجة شرقًا.

أعمل في صَهْر الزجاج، وهو عنصر صعب يتطلّب جهدًا كبيرًا لإتقان صناعته؛ فأدرك ما تواجهه النّساجة من صعوبات؛ فعمل عُقَد السجاجيد لون من ألوان الفنون الصعبّة أيضًا، وأحيانًا أشعر كأنّني أجلس إلى جوار النّساجة أمام النَوْل، وأستشعر تفاوت قوّة يديها وقوّة شدّ الخيط من يوم لآخر مع كلّ تغير في العُقَد، وأشعر بخيبة أملها عندما تجد صعوبة في تنفيذ الشكل؛ فيخرج المنتج مخالفًا، أو عندما تغيب عن ناظرها نقطة المركز الحمراء التخيليّة بثلثي السجادة؛ فتراودني المخاوف نفسها، وأتمنّى أن تصبح قطعتي صحيحة في النهاية؛ لأنّ صنع الأشياء الجميلة يتطلّب شجاعة يا سيّدة ماري.

أرى في هذه السجاجيد تعبيرًا عن وجهة نظر امرأة ما في العالم، وأجد فيها مكوّنات حياتي نفسها بوصفي امرأة عصريّة غربيّة، وهي تشمل العمل، والأسرة، والحياة العاطفيّة، والمجتمع، والجانب الروحيّ؛ إذ تتمتّع هذه السجاجيد بحياة خاصّة وقصّة فيها، تبدوان في ترتيب الألوان، وتنسيق الزخارف، وغيرها من رموز "السرد" الأخرى ذات

الأهميّة السحريّة؛ لذا أعدّ هذا البحث عن وسيلة للتعبير عن عالم المرأة المختبئة أمرًا في غاية الشجاعة؛ ليتني ألتقي النساء خلف هذه السجاجيد؛ إذ تمتّعن بخصائص، أكافح للتحلي بها في حياتي؛ فكلّ منهنّ تبدو حادّة الذهن، ذكيّة، ماهرة كريمة، مبدعة، صبورة، منظّمة، قادرة على القيام بعدّة أعمال جادّة في الوقت نفسه؛ أنا معجبة بهنّ، وأتمنّاهنّ صديقات.

يؤمن الأتراك أنّ قدَرَ المرء مكتوب على جبينه، وأنّ الله حدّد مصائرنا قبل بدء الزمان، وأنّ إرادتنا الخاصّة لا تتحكّم في العالم، لكنّ هذا لا يتعارض والإرادة الإنسانيّة الحرّة؛ أعتقد أنّ النسّاجة يمكنها من خلال هذه السجاجيد أن تمارس تلك الحريّة؛ فتقرّر كيف سيتعاون يداها وعيناها وعقلها للتعبير عن روحها، ويمكنها أن تختار ألوانها لسبب شخصيّ؛ فاللون الأحمر لون التفّاح أو لون دمها أو حرارتها أو لون الغروب، والأزرق لون السماء التي تنظر إليها سعيدة، وتختار النسّاجة إطار السجادة؛ ليرسل رسالة من خلال رموزه؛ فيخبرنا إذا كانت قد أنهتها على عجل؛ لتعكس ألمها، وتختار الوحدات التي ستكرّرها، سواءً كانت تصميمًا عتيقًا أم تصميمًا تبتكره أثناء عملها؛ لا يسعنا إلّا أن نخمّن دوافعها؛ فقصّة كلّ امرأة، وعمل يديها، وجُلّ شخصيتها مسكوبة في هذه القطع؛ كأنّها تقول: اليوم بمساعدة هذا النول، أنا المتحكّمة، وقراراتي بيدي وحدي؛ فلا شأن لأطفالي وزوجي بما سأفعله، هذه عُقَدي أنا، وهذه السجّادة فرصتي للاتصال بالنساء الأخريات كلّهنّ، من خلال تراثي، ومستقبلي والتقاليد؛ إذ تسمح لي بالتعبير عن نفسي، وعن آمالي وتطلعاتي ومهارتي، وعن أهمّ شيء: حبّي.

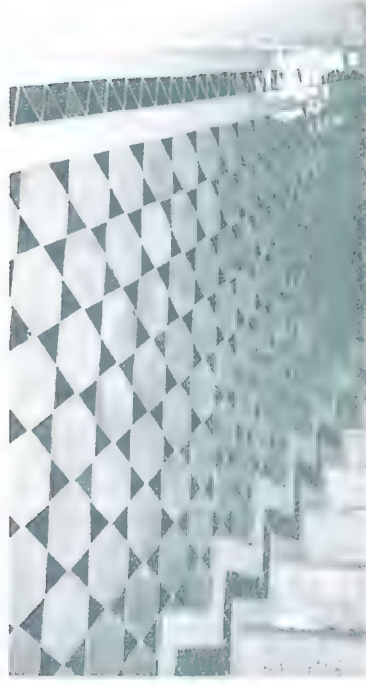
تلك العقد ليست مجرّد خيوط متشابكة في نظر النسّاجة، بل خيوط تضمّ أحلامها، وردود أفعالها تُجاه مباهج الحياة وأحزانها واضطراباتها؛ فتستحيل السجّادة إلى تعبير شخصيّ قويّ متاحةٍ رؤيته للناس جميعًا؛ ليت نساء العالم كلّهنّ يستطعن إيجاد متنفّس مبدع كهذا للتعبير عن أنفسهنّ.

أكثر ما يعجبني في هذه السجاجيد -بعيدًا عن جمالها الفنيّ والرابط الأنثويّ الذي يربطني بنسّاجتها- يتمثّل في كيفيّة تعبيرها عن الحيويّة والتميّز اللذين يميّزان المناطق الجغرافيّة المختلفة في تركيا؛ فهو بلد ذو تنوّع طبيعيّ هائل، يظهر بوضوح في هذه السجاجيد؛ فالسجاجيد المربّعة الثخينة المنسوجة في منطقة غرب بحر إيجة تعكس بساتين الزيتون وحقول القطن، بينما تبرز سجاجيد الصلاة المنسوجة في أواسط الأناضول زهور دوّار الشمس الصفراء، أمّا السجاجيد الكرديّة المنسوجة في المنطقة الشرقيّة، فتعكس القوّة الطبيعيّة للمناظر الجبليّة، ويعجبني بشكل خاصّ الرابط الاجتماعيّ بين هذه السجاجيد المتنوّعة، وبين البلاد والشعب التركيّ الذي عرفته وأحببته على مدار ثلاثين عامًا مضَتْ.

نسج السجّاد حِرْفة قديمة قدم البشر، وتركيا بلد حضاريّ يضمّ ثقافات تعود إلى عشرة آلاف عام؛ فأُعُدّ هذه السجاجيد مرآة صادقة تعكس التراث الثقافيّ التاريخيّ المذهل الذي تشكّل من هذه الأرض وشعبها، وأرى في مرآة السجاجيد القرويّة خاصّة انعكاسًا لكثير من صفات الأتراك التي تعجبني، مثل: السهولة، والاستقامة، والدفء، والحنان، والجدّ، والاجتهاد، والكرم، والإخلاص، والاهتمام بما يصبّ في مصلحة الآخرين، والقناعة بأنّنا جميعًا في هذه الحياة أسرة واحدة على المستويين الضيق والواسع؛ حقًّا إنّ تركيا سجّادة غنيّة بالألوان صَنَع عُقَدها سبعون مليون شخص.

صديقتكم

كاثرين برانّنج



دَرَج يؤدي إلى مطعم "بانديلي" في إسطنبول



الجزء الداخليّ من ضريح السلطان جَمْ في بورصة



سجاجيد جامع إبليكجي في قونيا



مدخل في متحف علم الأجناس بقيصري



حِلس الحصان، وعربة مزرعة مزيّنة في أرضروم



سجاجيد تليق بمصلّى سلطان، مسجد علاء الدين في نيدة

الرسالة الثالثة والعشرون

عثرْتُ عليه في قلبي

عزيزتي السيدة ماري،

عندما أسافر إلى تركيا، أمكث عادة بضعة أيّام في إسطنبول قبل أن أتوجّه إلى "تركيّتي" وسط الأناضول وشرقها؛ تساعدني هذه الأيّام القليلة أن أضبط إيقاعي، وأنتقل من الإيقاع الجنونيّ لمدينة نيويورك إلى الإيقاع الهادئ لتركيا، وأن أتأقلم مع مباهجها؛ فأضبط أذنيّ على وقع اللغة التركيّة العذب، وأتذوّق أوّل ملعقة من اللبن الخثير، وأسمع أوّل كلمة "يُوك: لا يوجد" وكلمة "وار: يوجد"، وأرى أوّل الوجوه المشرقة بالبسمة، وأتلقّى أوّل لمسة حنونة، وألاحظ بصمة تركيّة جديدة، وأعيش التجربة الأولى لسماع الأذان؛ تُعِدّني هذه الأيام القليلة لمزيد من الاستيعاب والتجاوب مع الاختلافات بين مجتمعِي الغربيّ المُتَمَدْيِنِ والأناضول.

بالمثل يا سيّدة ماري، فرحلتك عبر أوربّا كانت تمهيدًا مهمًّا قبل وصولك إلى تركيا؛ فكانت أوّل مواجهة حقيقيّة مع الاختلافات الثقافيّة؛ لا شكّ أنّ العادات الأوربيّة لم تشبه عادات إنجلترا، خاصّة فيما يتعلق بالدين، ورسائلك من أوربّا حافلة بوصف التقاليد الدقيقة المنمّقة لدى تقليد المناصب في الكنائس الكاثوليكيّة، وعلى النقيض من

عقيدتك البروتستانتيّة السهلة، بدت لك الطقوس كلّها تأليهًا مبالغًا فيه، وقد تفهّمت رأيك تمامًا؛ لأنّني شعرت بأحاسيس مماثلة عندما ذهبت للعيش في المناطق الكاثوليكيّة من فرنسا؛ إذ تختلف الكاتدرائيّات القوطيّة الفخمة كلّ الاختلاف عن المقصورات الساذجة والمذابح غير المزخرفة في كنيستي الميثوديّة بوطني.

عقب مشاهدة مظاهر "البابويّة" كلّها في طريقك، تغيّر كلّ شيء لدى وصولك إلى بلجراد وإقامتك في منزل معلّمك أحمد أفندي؛ إذ منحك أوّل فرصة للتعرف إلى الإسلام، الذي وصفته بأنه أكثر تناسبًا مع تعاليم البروتستانتيّة السهلة؛ لأنّنا نحن الاثنتين نتّبع المذهب البروتستانتيّ، فقد حضرنا إلى تركيا بعقليّة منفتحة على هذا الدين الخالي من المناصب، والتماثيل، وملابس الطقوس الدينيّة المزخرفة، وفي سعيك لفهم العلاقات بين الثقافتين، تحدّثتِ مرارًا مع أحمد خلال الأسابيع الثلاثة التي أقمتِها في منزله:

> "منحني الحديث اليوميّ الوديّ مع أحمد أفندي الفرصة للتعرف إلى دينهم وأخلاقهم بتفاصيل أدقّ ممّا فعل أيّ مسيحيّ من قبل؛ شرحت له الفرق بين مذهبي إنجلترا وروما، وسُرّ لدى سماعه أنّ هناك مسيحيّين لا يتعبّدون للتماثيل ولا يؤلّهون السيّدة مريم العذراء؛ شعر أنّ تحوّل الشكلين -تحوّل الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح ودمه في الطقوس الكنسية- فكرة حمقاء، وأكّد أنّني إذا أتقنت اللغة العربيّة، فسأسعد كثيرًا بقراءة القرآن؛ فهو أفضل منهج أخلاق نزل بأفضل اللغات، وسبق أن سمعت بعض المسيحيّين الموضوعيّين يتحدّثون عن القرآن بالأسلوب نفسه...".

أكّدت زيارتك لجامع السليميّة بأدرنة شعورك بالارتياح تجاه سهولة تعاليم الإسلام، وفي ذلك تقولين:

"في رأيي من أوجه الجمال الإضافيّة أنّ المسجد غير مقسّم إلى مقصورات، ولا يعجّ بالتماثيل والمقاعد الخشبيّة كما في كنائسنا، وأنّه يخلو من الأعمدة المشوّهة بتماثيل صغيرة مزخرفة، وصور تضفي على الكنائس الكاثوليكيّة طابع متاجر اللُّعب".

ذكرتِ الدين كثيرًا في رسائلك، وتحدّثت عن اليهود في أدرنة، وكيف تمكّنوا من جعل أنفسهم جالية لا يمكن الاستغناء عنها لأعمال السلطان، وحاولتِ أن تصحّحي كثيرًا من المعتقدات الغربيّة السلبيّة عن تركيا ودينها، ودحضتِ الرؤية الغربيّة المنادية بعدم منطقيّة الدين الإسلاميّ، حتى إنّك شككت في كون أوربّا مهد المنطق والفكر، ورغم أنّك انتقدت العقيدة الكاثوليكيّة الأوربيّة في رسائلك، فإنّك تحدّثت عن الإسلام برقّة ولطف، وتمكّنتِ من التغاضي عن المذاهب والاختلافات، وما نتج عنهما من آثار مجتمعيّة، حاولت أن أفعل الشيء نفسه في تعاملي مع الإسلام.

كم كان أحمد دليلًا رائعًا ومدهشًا ومقنعًا! إذ كتبت لصديقك القس كونتي رسالة بتاريخ الأوّل من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م عقب وصولك إلى أدرنة، تطلعينه فيها على انطباعاتك عن الإسلام:

"لا شكّ أنّ معرفتنا بأخلاق هؤلاء الناس وعاداتهم قاصرة جدًّا؛ فهذا الجزء من العالم لا يرتاده إلا التجّار غير المبالين إلّا بشؤونهم الخاصّة، أو الرحّالة المقيمون فترات أقصر من أن تتيح لهم تسجيل أيّ شيء بدقّة؛ إذ إنهم يعتمدون على معلوماتهم الشخصيّة".

ليس من المستغرب محاولتك استكشاف العادات التركيّة، فأنت امرأة على قدر كبير من الذكاء، والحساسية، والفضول، والأهمّ من ذلك أنّك محظوظة؛ فلست مجرّد مسافرة عابرة؛ ففي كلّ عام يزور تركيا ملايين السائحين، يأتي جلّهم من بلدان غير إسلاميّة، يستمتعون بجمال الطبيعة

في الريف، ويزورون المواقع التاريخيّة لمختلف الحضارات، ويستجمّون على الشواطئ، ويروّحون عن أنفسهم في الملاهي، يزور أغلبهم أحد المساجد ضمن برنامج المجموعة السياحيّ، ودائمًا تكون الزيارة إلى مسجد السلطان أحمد الشهير "المسجد الأزرق" في الهيبودروم -ميدان سباق الخيل- في إسطنبول، غير أنّ هؤلاء السائحين قبل هذه الزيارة لاحظوا الأفق الحافل بمآذن على شكل القلم الرصاص، والنساء المحتجبات، وبالطبع تناهى إلى أسماعهم صوت الأذان المتردّد في كلّ مكان خمس مرّات يوميًا في أنحاء المدينة كلّها عبر مكبّرات الصوت، وعادة يوقظ السائحين المنهكين من الرقص في الملاهي وقت الفجر، وهذه النداءات المتكرّرة هي الإشارة الوحيدة غالبًا أنّ تركيا بلد يجهر بشعائره الدينيّة، أمّا أنت يا سيّدة ماري، فقد استغرقت وقتًا لتفهم الإسلام كما يعيشه الأتراك ويشعرون به في الواقع.

تركيا بلد تقيّ يتجلّى إيمانه اليوميّ في تصرفات لافتة للانتباه، غير أنّ أغلب السائحين لا يحضرون إلى تركيا لاكتشاف أو فهم طبيعة الشعائر الدينيّة، أو العادات والتقاليد المتعلّقة بهذا الدين الحيّ، بل دائمًا يأتون برؤية مشوّهة؛ والأمر يتطلّب أكثر من مجرد الإعجاب بذلك البلاط الأزرق للوقوف على حقيقة هذا الدين؛ فيتطلّب فهم ما يحدث في تلك المساجد، والسبب في ركوع المسلمين وسجودهم أثناء صلاتهم على تلك السجاجيد الملوّنة، وكيف يطبّقون دروس المسجد على الحياة خارجه؛ أنا أيضًا معجبة بقباب مسجد سِنان وبلاط مسجد إزنك، ويعجبني خاصّة منظر التلال السبعة في إسطنبول تيجانًا على المساجد السلطانيّة، لكنّ زيارة تركيا دون محاولة فهم ما يمثّله ذلك كلّه أشبه بتجاهل قيمة النوافذ ذات الزجاج الملّون في كاتدرائية "شارتر"، أو إغفال مظاهر الصوم الكبير في روما؛ فمن الضروريّ فهم سبب استخدامهم جميعًا لحبات السُّبَح، وسبب وضع النعش في ساحة المسجد سافرًا، وسبب

ثـراء اللغـة التركيّـة بكثير من التَّحَايا الإسـلاميّة؛ لا بدّ أن نسـتوعب كيف يعيـش المسـلمون الجوّ الروحيّ فـي دور العبادة وفـي منازلهم الخاصّة، وأن نفهم الرسـالة التي أراد سِـنان أن يرسـلها ببناء قباب عريضة، وبلاط فخم، ومِساحات مفتوحة للعبادة خالية من المقصورات والمقاعد.

جعلتني رحلاتي إلى تركيا أشـكّ في معتقداتي المسـيحيّة كما حدث معـك يا سـيّدة مـاري، وأوصلتني إلى البحث عن أرضيّة روحيّة مشـتركة بين المسـيحيّة والإسلام، وهي موجودة بلا شكّ؛ كلّنا نبحث عن المغزى وراء وجودنـا، وقـد نسـير فـي مختلـف الطرق لاكتشـاف هـذه الحقيقة، أحدهـا طريـق الدين؛ فكلّ شـخص على وجـه الأرض –الملحد، والتقيّ والجاهل- لديه نوع من الدوافـع الروحيّة؛ ويبحثون عن إجابات للأسـئلة نفسـها المتعلّقة بسـبب وجود البشـر، وعن أهمّ الأشـياء في الحياة الدنيا وفـي الآخـرة، وعن أهميّة الـدور الذي يلعبـه كلّ من الحبّ، والشـعائر، والأخـلاق في حياتنـا؛ يتعلّم أغلبنا البحث عن هـذه المعاني في التقاليد، والشـخصيات البارزة، والنصوص المقدّسـة، والقدّيسـين، ورجال الدين، وأنبيـاء السـماء؛ ومـن ثـمّ كلّمـا تعلّـم الإنسـان عـادات تخالـف عاداته وثقافـة نشـأ عليها، كان أقدر على الوصول إلـى المغزى والحقيقة، يمكن فـي الحقيقـة العثور على هـذه المعاني في الديـن، لكنّها أيضًـا في الفنّ، والفلسفة، والطبيعة، والعمل، وحديث النفس الخاصّ الوديّ، وفي العلم، وفي خدمة الآخرين؛ ليس هناك طريق واحد، ولا صوت واحد، ولا نصّ واحد؛ فالعالم أكبر من ذلك.

علّمتنـي تجاربـي فـي تركيـا كيـف أنّ هـذا العالـم شاسـع جدًّا، وشـجّعتني على مواجهة أفكاري المدهشـة، المؤثرة فيّ، المثيرة لغضبي، لكنّهـا فـي نهايـة المطاف تعيـد تجديد رؤيتـي للأمور، وفي تركيـا اليوم، كمـا هـو الحال في بـلادي، نحـاول إدراك دور الدين والأخـلاق في كلّ شـيء، ليـس فقط في أماكـن العبادة، أو فـي التعامل مـع القضايا المهمّة

فـي الدنيـا والآخرة، بـل في التعامـل أيضًا مـع القضايا اليوميّـة الخاصّة بالزواج، والأسـرة، والمجتمـع، والأخـلاق، والصعوبات العلميّة، وضبط الغرائز، والمبادئ السياسـيّة، والقواعـد الحاكمة؛ وبدلًا من طرح إجابات جامـدة للمشـكلات التـي تثيرها هـذه القضايـا، يمكننا تأمّلهـا من منظور حكمة أديان كثيرة؛ لتزداد فرص مشـاركتنا لها، ومواجهتها، وإيجاد حلول عمليّة تحترم الأفكار كلّها.

مـن أصعـب القضايـا الروحيّـة اليوميّـة قضايـا الشـرّ، وألـم الموت والأحداث المأساويّة، وضعـف الحريّة، والمعاناة، وأهميّة الأديان النظاميّة؛ لا أسـتحي أن أقول: إنّني أشـكّ، وأناضل، وأغضب؛ لأنّ هذا كلّه يعينني على جعل هذه القضايا من أولويّات وجودي، ويساعدني على استكشافها قدر اسـتطاعتي، وتسـاعد أوقات الأزمات في بناء معنويّاتي، وتسـاعدني أن أقـرّر إذا مـا كنـت سـأتّخذ إلهًا أم لا، لكنّهـا أيضًا تمنحني الشـجاعة؛ لأحـاول إصـلاح مـا أراه خطأ حولي، ورغـم هذه الصراعـات ولحظات الشـكّ، لا أخجـل أيضًـا أن أقـول: إنّ هناك معجزات لا أجد لها تفسـيرًا منطقيًّا، ولحظات سعادة وحبّ بالغة لا يمكن تفسيرها حتى إنّني لا أصدق أنّها من قبيل الصدفة، وثمّة لحظات غامضة أشعر فيها وكأنّ العناية الإلهية تصحبني، ولا أسـتطيع تفسيرها بمساعدة الظواهر العلميّة الحسيّة، كلقاء روح شـقيقة، أو الوقوع في الحبّ، أو الانغماس في لحظة جمال طبيعيّ، أو الشفاء المعجز من مرض، أو النجاة من حادث أو مأساة، وهذه الأمور كلّها تشـجّعني على استكشـاف مشـكلتين أصعب؛ هما الخوف والشـرّ؛ فيدفعني هذا إلى الإيمان بأنّ ثمّة كيانًا يسمى: الربّ أو الإيمان الروحيّ.

بالرغـم من إيماني، فكثيـرًا ما يصعب عليّ أن أتقبل أو أحتمل فظاعة عالمنا المعاصر ووحشـيّته، غير أنّ معايشـتي للإسـلام منحتني الشجاعة؛ إذ جعلتنـي أراجـع مـا أراه مهمًّا فـي تعاليم دينـي، وفي الثـراء الحقيقيّ لمنهجي المسـيحيّ؛ فأراجع أنماط الشـعائر الدينيّة بعينٍ أُخرى غير التي

كنتُ أراها بها، وأسعى إلى أشكال أخرى من التفكر في هذه القضايا المعقّدة، ولفهم هذه القضايا الشخصيّة، ولفهم صورة الإسلام الممارس في تركيا والتحدّيات الاجتماعيّة المعاصرة التي يفرضها الإسلام عليها؛ التقيت بأحد الصوفيّة المثقّفين، وهو أستاذ في علم مقارنة الأديان في قيصري، وقابلت نساء فقيرات في القرى، وضباطًا مخلصين في الجيش، وطلبة يتعلمون الرقص المولويّ في قونيا، وشخصًا يساريًّا ملحدًا متعصّبًا في إسطنبول، وعجوزًا يونانية في بيرا، وموسيقيّين علويّين في ألبستان، وأشخاصًا من مختلف طرائق الحياة؛ لم يكن سهلًا عليّ ألبتة فهم صور الإيمان الكثيرة في تركيا؛ لأنّها تتّسم بتعدّد الألوان والأشكال والموضوعات، وبقدر سهولة الإعجاب بالخزف اليابانيّ في بلاط إزنك رأيته في جامع السليميّة بأدرنة يا سيّدة ماري، يصعب فهم المعاني الحقيقيّة لصور الإيمان كلّها في تركيا، لكن بقدر ما تبدو الحياة الإسلاميّة في تركيا الحديثة معقّدة، فثمّة أمر واحد مؤكّد لي؛ فلطالما شعرت بالراحة في تركيا؛ لأنّه بلد يتجلّى في أركان شوارعه كلّها تاريخ المسيحيّة.

شهدَت الأناضول، أرض تركيا الحديثة، طبقاتٍ كثيرة من الحضارات طَوال عشرة آلاف سنة مضَت، ومرَّت عليها إمبراطوريّات عدّة تركَت آثارها هنا: الأراراتيّون، والحيثيّون، واللوقيّون، والليديّون، والأرمن، واليونانيّون، والرومان، والبيزنطيّون، والسلاجقة، والعثمانيّون، وجمهورية تركيا الحديثة، ورغم الاختلاف بين هذه الحضارات في سياساتها ولغاتها وعاداتها ودياناتها، تشابهت قيمها العامّة، المتسرّبة بقاياها لتمتزج بالثقافة المعاصرة، وهي قيم إنسانيّة عامّة تشمل العواطف والمشاعر المتأصّلة في التجربة الإنسانيّة وتوحّد البشر كلّهم على الأرض، رغم اختلافهم مكانًا وزمانًا، ولعلّ قيمة الإحسان من بين هذه القيم الإنسانيّة كلّها هي الأكثر قربًا لنفوس الأتراك، بدءًا من يونس أمرهْ، مرورًا بمولانا جلال الدين الروميّ، إلى يومنا هذا، فالعبارة نفسها تتردّد: هذا مكان متسامح، يحقّ

للأشخاص فيه اختيار تعاليمهم الروحيّة وسلوك الطريق الذي يشاؤون.

وأنا كمسيحيّة، وجدت ثراءً هائلًا في هذا البلد الجامع بين آثار التاريخ والدين في سلاسة طبيعيّة، ليشكّل ما يشبه الأرض المقدّسة الخاصّة بكلّ شخص، و(تركيّتي) أرض إيمان؛ فقد كانت إسطنبول روما الجديدة؛ إذ وضع قنسطنطين الأوّل حدًّا لاضطهاد المسيحيّين، أمّا عقيدة نيقية التي ردّدتُها مرارًا وتَكرارًا أثناء طفولتي في الكنيسة، فقد كُتبت هنا في إزنك، المدينة صانعة هذا البلاط كلّه في مساجد سِنان، والخزف اليابانيّ الذي أعجبك في جامع السليميّة يا سيّدة ماري، ويُعتقد أنّ سفينة نوح استوت على قمّة جبل أرارات شرق تركيا، حينما غيض ماء الطوفان العظيم، حيث أسّس الأراراتيّون مملكتهم قديمًا، ويخبرنا العهد القديم أنّ النبيّ إبراهيم وُلد في مدينة أور قرب نهر الفرات، عُرفت لاحقًا باسم إديسا، وأصبحت مقرّ أوّل دولة صليبيّة عظمى خلال أولى الحملات الصليبيّة للملك بالدوين الثاني عام ١٠٩٦م، واليوم يطلق الأتراك على هذه المدينة اسم ''شانلي أورفا'' أي أورفا المجيدة، وهي مجيدة حقًّا؛ إذ يصعب العثور على مكان مقدّس يضمّ آثارًا للأديان الثلاثة سوى القدس؛ وفي مدينة حرّان المجاورة وُلد إسحاق وإسماعيل ولدا النبيّ إبراهيم، والتقى يعقوب زوجته راحيل وهي تحضر الماء من أحد الآبار في حرّان، ومذ ذاك رُسِمَت خريطة العالَم الأخيرة؛ فانحدر من نسل يعقوب بن إسحاق أنبياء الله: موسى وداوود والمسيح، وانحدر من نسل إسماعيل النبيّ محمد، نبيّ الإسلام؛ فالتجوّل في شوارع هذه المدينة رحلة حجّ حقيقيّة إلى جوهر أديان العالم التوحيديّة الثلاثة وكلّ ما تمثّله للإنسانيّة، وغبارها الدافئ مفعم بذكرى أنبياء تلك الشرائع كلّها؛ فيدفعك هذا للمشي بخشوع عبر شوارعها الخلفيّة الضيّقة وأسواقها على أحجار صقلتها قرون من وقع الخطوات المقدّسة!

ما يعنيني -وأنا المسيحيّة البروتستانتيّة- هو آثار خطوات بولس في تركيا، وُلد بولس في تركيا، في مدينة طرسوس، قرب مدينة مرسين في سهل شوكروفا؛ ولأعثر عليه خرجت في حجّ خاصّ إلى أنطاكيا العتيقة، كي أزور هذه المدينة مقرّ أوّل أنشطته، في هذا المكان نشأت حركة أتباع المسيح، وسمّوا أنفسهم: المسيحيّين، كان برنابا -أحد أتباع المسيح- قد دعا بولس إلى هذا المكان للعمل إلى جانب بطرس، ومرقس، ويوحنا، لدمج تعاليمه في تعاليم المسيح؛ أردت أن أكتشف بنفسي أنطاكيا الشهيرة، فالجامعة المتميّزة قرب منزل الطفولة بأوهايو سُمِّيَت باسمها، وكان صدى اسمها يرنّ على المنبر في تلاوات رسائل بولس، كنت أسمعها في الكنائس خلال نشأتي، وهي مدينة تاريخيّة، أشيد بها في حصص التاريخ الفرنسيّ، حينما استولى عليها بوهيموند الصليبيّ؛ ليجعلها مملكة له، إنّها مكان أسطوريّ خطَت منه المسيحيّة أولى خطاها.

بينما كنت أجوب شوارع هذه المدينة النائية، تعذّر عليّ تصوّر أنها كانت في يوم ما من أكبر مدن الإمبراطوريّة الرومانيّة، نِدًّا للإسكندريّة، وأنّها كانت عامرة بالصروح العامّة الرائعة، وحلائب الرياضة، وقِنَا المياه، والدُّور الخاصّة المزينة بالفسيفساء الفخمة، حاولت أن أتخيّل شكل المدينة في ذلك الزمن، حينما كانت مفترقًا لطرق التجارة، وموضعًا لا يحوي الفخامة فقط، بل الزلازل والفساد أيضًا، كانت مدينة قويّة حتى إنها أغرت بولس أن يبعث منها أولى إرساليّاته على مدى سبع سنوات بداية من عام ٤٧م، وبينما كنت أمشي على شاطئ تشيفليك، -وهي القرية المجاورة لميناء أنطاكيا، وساحلها الآن مهمل، وملوّث، وقذر، على عكس تلك الأيّام المجيدة- حاولت أن أتخيّل قوّة الإيمان الملهمة لبولس ليدفع زورقه الصغير؛ فيبحر عبر البحر المتوسّط إلى أنطاليا لإلقاء أولى عظاته، وبينما كنت أحدّق غربًا عبر المياه، حاولت أن أتصوّر معدن هذا الرجل المشغوف بنقل الأخبار عن حبّ الربّ،

حينئذٍ أدركت أنّني أنظر إلى الموضع الذي غيّر للأبد مصير العالم المعروف؛ إذ نشأت الكنيسة المسيحيّة هنا تمامًا فوق الرمال التي أقف عليها، وسمعت صوت بولس يتردّد في الأمواج المتلاطمة: ''لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلاَ يُونَانِيًّا. لَيْسَ عَبْدًا وَلاَ حُرًّا. لَيْسَ ذَكَرًا وَلا أُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِد.''، ثمّ تبعت خطاه إلى أنطاليا، حيث ترجّل عن الزورق؛ لينشر كلمة الحبّ، مسافرًا من هناك سيرًا على الأقدام، راكبًا عربة في طرق الأناضول المتربة الحارّة؛ وزرت مدينة قاسطمونى، ويعدّها كثيرون مقرًّا لجماعةٍ أوحَت لبولس بكتابة إحدى أهمّ رسائله، رسالته إلى أهل غلاطية، كان غضبه من أعضاء الكنيسة هناك من دوافع كتابته هذه الرسالة، أنشأها، ثمّ حادت عن تعاليم المسيح الأصليّة؛ حاولت أن أتخيّله يضرب بقبضته الطاولة بغضب يجعله يكتب: ''أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ!''، عبارة احتجاج اعتدت سماعها في عظات الأحد أثناء نشأتي، وأصبحت رمزًا لتداعيات العدول عن الطريق القويم للحبّ، أتذكّر أيضًا أنّني قرأت في سفر أعمال الرسل بالعهد الجديد جزءًا ألقى فيه بولس موعظته في معبد يهوديّ في قونيا؛ الآن حينما أتجوّل في الشوارع الخلفيّة الملتوية لهذه العاصمة السلجوقيّة المقدّسة، أحاول أن أتخيّل مكان هذا المعبد، ويتناهى إلى سمعي صدى صوت بولس مختلطًا بأصوات علاء الدين كيقوباد والروميّ.

زرت مواقع الكنائس السبع المذكورة في رؤيا نهاية العالم -منها متهدّم ومنها مرمّم- وصفها يوحنا في سفر الرؤيا؛ يبدو أنّ المسيح أخبر يوحنا: ''ما تَرَاهُ اكْتُبْه إِلَى سبْعِ الْكَنَائِسِ فِي أَسِيَّا: أَفَسُسَ، وَسِمِيرْنَا، وَبَرْغَامُسَ، وثَيَاتِيرَا، وسَارْدِسَ، وَفِيلاَدَلْفِيَا، وَلاَوُدِكِيَّةَ'' (سفر الرؤيا ١:١١)؛ كان المقصود بذلك جماعات مسيحيّة أكثر منها كنائس مسيحيّة، لكنّها كانت تمثّل مهدًا خرجت منه العقيدة المسيحيّة وانتشرت في بقيّة العالم، وتقع هذه الكنائس في مدن تركيّة فقدت أهميّتها الآن بوصفها مواقع مسيحيّة، وهي إزمير (سميرنا)، وبرجاما (برغامس)، وأسكي حصار

(ثياتيرا)، وساردیس، وألاشهير (فيلاديلفيا)، وإسكيهيسار (لاودكية)، وأكثر هذه الكنائس إثارة للمشاعر هي الواقعة في مدينة أفسس، كانت في الماضي مستعمرة يونانيّة؛ فهنا على مقربة من أهمّ المكتبات المشيّدة في العصور الرومانيّة، أتى يوحنا بمريم والدة المسيح كي تقضي خريف عمرها؛ ويتشابه التأثير العاطفيّ لهذه المواقع كلّها؛ إذ أشعر كأنّني أُطوِّف في آيات الإنجيل!

زرت كنائس بيزنطيّة مهجورة متوارية خلف الضباب الأبيض الكثيف لجبال البحر الأسود الشاهقة، مثل: كنيسة بارهال وإشهان بالقرب من مدينة أرتفين، فضلًا عن السور الرائع لدير سوملا على الجرف الصخريّ، وتأثّرت خاصّة برؤية آيا صوفيا في طرابزون، يعود تاريخها للقرن الثالث عشر، ولا شكّ أنّ حرفيّين سلاجقة نقشوا أبوابها الحجريّة الفخمة، وتجوّلت في أضرحة كنائس أرمينيّة مهجورة في حقول آني، لم يعد هناك من يتلو داخلها آيات الكتاب المقدّس سوى أسراب الطيور، وأشرفت على سهول تقاطرت منها الحملات الصليبيّة على تركيا.

تقف بالطبع إلى جانب هذه المواقع المسيحيّة كلّها آثار عصور وأديان أخرى؛ ككنائس حيثيّة، ومعابد رومانيّة، ومعابد يهوديّة، ومساجد سلجوقيّة وعثمانيّة؛ فالثراء الدينيّ في تركيا يختلف عن أيّ بلد في العالم، وزرت أطلال معبد يهوديّ من العصر الرومانيّ في مدينة ساردیس، وقرأت الكتابات العبريّة على أرضيّاته الفسيفسائيّة، أمّا المساجد العثمانيّة الكبرى، تلك الآثار العظيمة التي أبدعها سِنان، فتقف شاهدًا على عظمة إسطنبول، وتعلِن جميعها أن الله فرد صمد، أمّا المدينة التي تعكس شهوات الإنسان فلا أشعر فيها بعقيدتي أو بأي عقائد أخرى، بل إنّ ذاك الشعور الجليل لا أشعر به إلا في قلب (تركيّتي)، في تركيا السهل الأوسط؛ إذ ما زلت أسمع أتباع أديان كثيرة يجأرون بالتسبيح عبر مفترقات تلك السهول الذهبيّة؛ وجدت وسط هذا المزيج من الآثار الحقيقة العالميّة الكاملة

للأديان كلّها الممثّلة في أرض تركيا المقدّسة، وهكذا ترين يا سيّدة ماري، لم تساعدني تركيا على تعميق إرثي المسيحيّ فقط، بل فتحت أيضًا الباب لي لفهم أديان الآخرين؛ أنا واثقة أن معظم الأتراك لا يدركون الأثر النفسيّ لبلادهم على المسيحيين.

ما رأيته في تركيا تحت ذلك الخزف اليابانيّ، وما قرأت من القرآن، وما ناقشت من موضوعات مع عدد كبير من الأتراك، ذلك كلّه أكّد لي ما كنت أتوقّعه من البداية: أنّ المسيحيّة والإسلام قائمان على المبادئ نفسها، المكرّرة في نصوصهما المقدّسة، والأرضيّة المشتركة للأديان الثلاثة الكبرى -المسيحيّة واليهوديّة والإسلام- واحدة تنصّ على حبّ الله والجار؛ الأمر سهل جدًّا؛ فيتلو كلّ مسلم سورة الفاتحة، تمجيدًا لله، عشرين مرّة على الأقل في صلواته اليوميّة، وهي تذكّر المسلمين دائمًا بقوّة الله، وأسمائه الحسنى، ورحمته في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبقدرته على غفران ذنوبنا:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ (سورة الفاتحة:١/١-٧).

هذا التكرار الشعائريّ يذكّر المسلم بضرورة التوجّه إلى الله بقلبه، وروحه، وعقله، وعواطفه، وإرادته، حينما أقرأ سورة الفاتحة أو أسمعها تُتلى في المساجد أثناء الصلاة، أسمع أصداء من الكتاب المقدّس، مثل كلمات في العهد القديم الرسميّ لسفر التثنية: «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»، وكلمات المسيح في إنجيل (متى ٢٢ وإنجيل مرقس ١٢)، وهو يتلو الوصايا العظمى: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ؛ هَذِهِ

هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى الْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِـك. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ.»؛ هذا ما تعلّمته بصفتي مسيحيّة: أن أحبّ الله من كلّ قلبي وروحي وأن أكون مخلصة له؛ فبماذا يختلف هذا عمّا يشعر به المسلم حين يتلو الفاتحة؟

في هذا الجزء من إنجيل متّى، يعلن المسيح بوضوح أنّ ثاني أعظم الوصايا هي أن: «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِـكَ»، وفي الإسلام أيضًا هناك تعاليم لا تحصى تؤكّد على أهميّة حبّ الجار وتحضّ على الرحمة به، وهذه القيمة في دين الإسلام، كما هي في الدين المسيحيّ، فالمسلم يشكّل إبداء محبّته لمن حوله جزءًا مهمًا من الإيمان بالله، ودون إبداء ذلك الحبّ لمن حوله لن يكون هناك حبّ حقيقيّ لله؛ يقول نبيّ الاسلام (ﷺ) في أحد أحاديثه: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"[1]، وفي تركيا يأخذون مسألة حبّ الجار بكلّ جديّة، ولا يقتصر الأمر على المسجد فقط، بل يشكّل أساس الحياة كلّها، إذ يؤمن الأتراك أنّ حبّنا لله لا يكون صادقًا دون بذل العطاء للآخرين بكرم وتضحية بما نحبّ، وقد تأخذ هذه النزعة الخيريّة شكل إحدى تلك اللفتات الطيّبة السهلة الغزيرة، تحدّثت عنها في رسالة سابقة؛ فتلك اللفتات الخفيّة غالبًا، المؤكّدة على قوّة الكرم التركيّ، هي بحقّ صلوات صغيرة، وهناك أيضًا صدقات شعائريّة أعظم من ذلك، مثل: الأضحية في عيد الأضحى، أو إعطاء الصدقات للجيران المحتاجين أو للمؤسّسات الخيريّة؛ فالأعمال الخيريّة أقوى روابط اللحمة الاجتماعيّة في تركيا، وهي إدراك تامّ لكيفيّة تطبيق الإسلام في الحياة، بل هي من أوضح تجلّيات القاعدة الإسلاميّة الذهبيّة الحاضّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورغم اشتراك المسيحيّة والإسلام في القاعدة الذهبيّة نفسها، فإنّها تبرز أكثر في الحياة

(١) البخاري: الإيمان، ٦. مسلم: الإيمان، ١٧.

اليوميّة في تركيا، فلا يشكّ أحد أنّ خدمة الناس عبادة، وأنّ ضرب المثل والقدوة هي أقصر الطرق إلى الله.

أنا معجبة بهذا الجانب الاجتماعيّ للإسلام وبالأهميّة التي يوليها الأتراك لعمل الخير والتصدّق لصالح المجتمع؛ فالإسلام يعدّ الفرد نحلة عسّالة في خليّة النحل البشريّة، حاملًا فِكرًا يرمي إلى فعل الأصلح للمجتمع كلِّه، ورغم أنّ الإسلام والمسيحيّة دينان مختلفتان اختلافًا كبيرًا ممارسة وتطبيقًا، فإنّ الأساس المشترك لتعاليمهما الرئيسة يتشابه تشابهًا لا مثيل له؛ فلماذا إذًا يشقّ علينا السير في طريق الإنسانيّة يدًا بيد لاستكشاف هذا التشابه بدلًا من محاولة التركيز على الاختلافات والاقتتال بسببها؟ هناك ربّ واحد فقط، ويجب علينا أن نحبّه وأن نحبّ من حولنا، سواءً كان ميثوديًّا من أوهايو أو سنيًّا من قونيا؛ فهذا الحبّ هو جوهر دينينا، مهما اختلفت طرائق ممارستهما، في صفوف الكنائس أو على سجاجيد الصلاة، بدقّات الأجراس أو بنداءات المؤذّنين.

في تركيا هناك مأخذان بالغا الخصوصيّة على تديّن المسلمين، أحدها يتماشى مع عالم التقنية المعاصرة والديمقراطيّة وحقوق المرأة، فضلًا عن آخر يحمل آثار أسلافهم الأتراك قبل دخول الأسلام؛ فالمرء يصادف كثيرًا من الممارسات المتعارضة مع الإسلام، مثل: ارتداء عين أو خرزة زرقاء لدرء الحسد، وقراءة الطالع، والتنجيم، وتصديق المشعوذين، وتفسير الأحلام، والتضحية بالديوك والدجاج في أماكن مقدّسة لضمان الحصول على زوج أو أطفال، وزيارة أشجار عملاقة لتأدية طقوس تجلب الحظّ، والعادة التي تحمل تناقضًا غريبًا؛ ألا وهي عدّ إبداء الإعجاب بجمال الأطفال شرًّا! لطالما ثار فضولي لدى رؤيتي قطع النسيج المربوطة في الأشجار والآجام للوفاء بالنذور، وإذا تأمّلت هذه الممارسات الشائعة الغريبة الشاذّة، فستجدينها لا تقلّ غرابة عن بعض الشعائر الأرثوذوكسيّة في طقوس مسيحيّة قائمة، مثل: احتساء النبيذ وتلوين البيض في عيد الفصح.

ثمة أشياء كثيرة حازت إعجابي واحترامي في الدين الإسلاميّ كما عرفته في تركيا، كما حدث معك يا سيّدة ماري حينما كتبت تلك الرسالة إلى القس كونتي؛ بادئ ذي بدء، أفترض أنّني مثلك، أحبّ سهولة الإسلام، وخلوّه من الطقوس والأيقونات السمجة والأبّهة والاحتفالات الشعائريّة، وأتفق معك تحديدًا بشأن الإلهام، تبعثه الصروح المعماريّة الرائعة، زُوّدت بالقباب الفسيحة المفردة الخالية من المقصورات، وحينما زرت الكنائس الصخريّة البيزنطيّة في وادي جوريم في كابادوكيا، وتأمّلت الأيقونات الغريبة الفخمة للقدّيسين، والثعابين، والقصص المرعبة المصوّرة على جدرانها بأسلوب يشبه أسلوب الكتب الفكاهيّة، بدا لي ذلك كلّه تصرّفًا صبيانيًّا جدًّا بعد أن سمعت ذلك النداء المهيب أمسِ يرفعه المؤذّن في المساجد السلجوقيّة الجرانيتيّة الرماديّة الصلبة في مدينة قيصري القريبة، وكم تأثّرت أيضًا بالوقوف أمام شجرة دلب عمرها خمس مئة عام في مدينة الموتى ببورصة، وبتأمّل ضريح السلطان مراد الثاني الصوفيّ المؤثّر ذي القبّة المفتوحة، ومن قبيل السهولة أيضًا أنّ النطق بالشهادة هو أوّل ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي حوار شخصيّ يعكس الإيمان، وليس طقسًا مقدّسًا معقّدًا؛ فالنطق بالشهادة أهمّ صلاة لله، وبسهولة هذا الحوار وخصوصيّته أحد أكثر جوانب هذا الدين إثارة للإعجاب.

الأمر الآخر الذي يعجبني في الإسلام هو تسامحه مع الأديان الأخرى، وأنّ كثيرًا من الأنبياء، مثل: موسى، وعيسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، وآدم، ويونس، وإسحق، ونوح، ويعقوب وغيرهم مذكورون في القرآن؛ قرأت في القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (سورة النساء: ٤/١٧١)، ويعجبني كذلك الحسّ الأخلاقي الرفيع الذي يتحلّى به الأتراك، ويؤكّده التمييز بين الخطأ والصواب كما يعلّمهم القرآن الذي يرفض أشكال العنصريّة والإرهاب كلّها ويلعنها؛

يقول القرآن: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٦/٣٢)، وتعجبني أيضًا الصفات المشتركة بين المسيحيّة والإسلام؛ فالمسجد كالكنيسة مكان لإقامة الشعائر، ومكان للأمن والسلام والالتجاء، والفكرة المسيحيّة الخاصّة بخدمة الآخرين، والقيام على توزيع نِعم الربّ، والتسليم برسالة الربّ ومشيئته، وغفران ذنوب الفرد والمجتمع، كلّها أمور مهمّة في الإسلام أيضًا.

رغم أنّني أرى التوجّه إلى المسجد خمس مرّات يوميًّا للصلاة من الصعوبة بمكان في حياتي اليوميّة الحافلة، فإنّني أستمتع بلحظة التأمّل أن أنغمس فيها حينما أسمع الأذان في شوارع المدن الكبيرة والقرى الصغيرة؛ في هذه اللحظة أتوقّف تمامًا لأستجمع أفكاري الخاصّة بيومي، وأبتهج؛ لأنّني على قيد الحياة في هذه اللحظة، وعندما أتوقّف فإنّني أشارك أيضًا في تطبيق النظام السلوكيّ الإلهاميّ الذي يعلنه الأذان؛ يقلّ النشاط في الشارع دقيقتين، ويتوقّف الناس عن فعل أيّ شيء، وتصمت الأحاديث، وتكفّ أبواق السيّارات عن النفير، ويتوقّف الباعة الجائلون عن الصياح، ويخفت صوت أجهزة المذياع، وتهدأ الأرصفة، وتتنزّل بركة خفيّة على الجوار وأهله، وأنا أيضًا أتوقّف وأصغي إلى جمال الأذان، وأستغرق وقتًا لأتلو صلاتي الخاصّة؛ إذ يذكّرني الأذان بواجبي نحو الآخرين، كما يفعل المسلمون؛ حينما أسمعه أفكّر في أخطاء ربّما ارتكبتها في ذلك اليوم في حقّ الآخرين؛ فيدفعني الأذان أن أسأل نفسي: «هل تفوّهت بأيّ كلمة قاسية، أو خطرت لي خواطر شريرة؟ ألم يكن بوسعي أن أكون أكثر لطفًا مع فلان؟» لديّ ثلاثة أصدقاء مصوّرين ناجحين في قونيا منحوني من وقتهم يومًا كاملًا لاصطحابي لرؤية المزارات، وفي نهاية اليوم زرنا قرية سيلا القريبة، فتوقّفوا خلال الزيارة؛ ليدخلوا مسجدًا لأداء صلاة العصر، وفي وقت لاحق، حينما كنّا نحتسي الشاي، سألتهم عمّا تعنيه الصلاة لهم، وعن سبب اهتمامهم

بأدائها وسط يومهم المزدحم، وعن كيفيّة نجاحهم في توفير الوقت اللازم لأدائها خلال يومهم، فشرحوا لي بمنتهى الصبر أنّ القضية لا تكمن في إيجاد الوقت اللازم لأدائها، وأنّ تلك الدقائق المعدودة تمنحهم شعورًا بالنشاط الجسمانيّ والنفسيّ دائمًا؛ فيعينهم على مواجهة تحدّيات يومهم الحافل، والتفت أحدهم، وهو فوزي شيمشك، وقال: «لو استطاع الناس كلّهم في العالم، لا المسلمون فقط أن يحظوا بلحظات السلام هذه كلّ يوم، فقد تقلّ نسبة المشكلات في العالم»، كان رأيه بسيطًا واضحًا جدًّا، وفي لحظة من أجواء الصفاء تحت شمس الأصيل، شاطرته تفاؤله.

الإسلام أحد الجسور التي يجب أن أجتازها بين تركيا وبلادي، وأعتقد أنّ دوري مهمّ بوصفي مترجمة داعمة للحوار بين الأديان، فإذا كنت أستطيع -وأنا المسيحيّة- أن أحدّث عائلتي وأصدقائي عن الإسلام؛ لأساعدهم على فهم جماله وتميّزه، فسأكون قد أسديت خدمة لهم جميعًا؛ أتمنّى أن أعزّز روحانيّة أبناء بلادي، ولو بقدر يسير، مثلما تعزّزت روحانيّتي، وتعمّقت من خلال استكشافي القيم المشتركة بيننا وبين الإسلام؛ ربّما يؤدي ذلك إلى نشر السلام؛ وهو الهدف الأسمى للأديان كلّها.

علّمتني تركيا وشعبها وأسلوب حياته وشكل إسلامه كثيرًا من الأمور؛ أدركت أنّ مواجهة التعدّد الدينيّ ومختلف الممارسات الدينيّة يمكنها أن تزيد المرء قوة، واكتشفت أنّ حبّ الطبيعة جزء مهمّ من أرواحنا، وأنّه يغرس البهجة في نفوسنا، ورأيت كيف تستطيع الأسرة أن تصبح مركزًا للمجتمع بأسره وللحبّ، وكيف تخلق الأسرة مساحة مقدّسة آمنة بعيدًا عن صخب الحياة اليوميّة، وأدركت قوّة يستطيع الفرد أن يمنحها لمن حوله، وكيف تستطيع لمسة حبّ واحدة أن تضيء ساعات من الصفاء، واكتشفت كيف يستطيع الأشخاص أن يكونوا سفراء للخير، وكيف يمكن أن تتحوّل لفتاتهم الكريمة إلى وسيلة لجعل العالم مكانًا

أكثر هناءً، وتعلّمت من دروس الحبّ المستقاة من الروميّ والصوفيّة أنّ عوالم الإيمان الغامضة حقيقة واقعة يجدر تبجيلها؛ فتناولهم الصوفيّ للإيمان جعلني أرى أنّ بلوغ الروحانيّة يتأتّى بحبّ الناس كلّهم والأشياء كلّها، بهدف إضفاء الرقّة على الحياة، وتعلّمت منهم أنّ ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب؛ هذه الدروس كلّها المتسلّلة إلى ديني وتقاليدي وآرائي، أقنعتني أنّ الحبّ بسهولة هو سلوك موجّه نحو خير الآخرين، وأنّ الربّ يتجلّى في الحياة والحبّ لكلّ واحد منّا، وفي أشكال جمال الطبيعة كلّها، وفي خوارق حياتنا اليوميّة، وأهمّ شيء عندي أنّني أصبحت أؤمن أنّ الربّ يمثّل قناعة أنّه لا بد أن يسود النور والجمال والخير؛ فالإيمان بالربّ هو التحلّي بالأمل.

لعلّ أعظم درس تعلّمته أنّ المستقبل لا يمكن مجابهته إلا بالأمل لا باليأس، وأنا أؤمن أنّ المسلمين قوم مسالمون، وأنّ الإسلام لا يسعى إلى تدمير من يخالفه؛ إذ كيف لدين يذكر المسيح في كتابه المقدّس بهذا التسامح كلّه أن يضمر السوء للمسيحيّة! سيَصِفُني المخالفون لي في الرأي بالسذاجة، لكنّني أومن بذلك، لأنّه يشكّل أمل حياتي؛ فيمكن أن تظلّ هذه القناعة موضوعًا لحوارات وديّة بين الأديان، ولتصريحات زعماء دينيّين، أو هيئات عالميّة متّحدة؛ فالعلاقة اليوم بين المجتمعات الدينيّة الإسلاميّة، والمسيحيّة، واليهوديّة، هي أهمّ عامل يسهم في إشاعة السلام في العالم؛ لأنّه بسهولة في حال انعدام السلام بين هذه المجتمعات، لن يعيش العالم في سلام؛ في هذا العالم الواسع المليء بالأسلحة الشريّرة الفتّاكة، لا يمكن استغلال الدين في لعبة القوّة بين الحكومات المتغطرسة أو بين المتعصبين الحمقى.

نحن نعيش في أمريكا على أرض لا مثيل لها في العالم؛ إذ يشترك اليهود، والمسيحيّون، والبوذيّون، والسيخ، والهندوس، والمسلمون، والملحدون، في الاحتفال بعيد الشكر، ويتمتّعون بحريّة العبادة،

ويجب على أمريكا أن تظهر للعالم أنّ التآلف والتعايش السلمي ممكن في الداخل ثمّ في الخارج، ويجب على تركيا أن تظهر للعالم إلى أيّ مدى يمكن أن يكون الإسلام دينًا مسالمًا جديرًا بالإعجاب والاتباع لا دينًا مشوَّهًا بالنوايا السيّئة؛ فمستقبل سكان الأرض كلّهم مسؤوليّتنا جميعًا ورهن أيدينا جميعًا، وكما قال المسيح: «طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ».

كانت كلّ رسالة من رسائلك يا سيّدة ماري صانعة سلام صغيرة، وأتمنّى أن يستمرّ قلمك وأقلام أخرى في إلهام روح الإخاء، وفي ختام رسالتي سأتركك مع كلمات لأبلغ صُنَّاع السلام، جلال الدين الروميّ؛ فالحكمة البالغة لهذا المتصوّف التَركيّ تحوي جوهر الروحانيّة الذي ينبغي أن يرشِد جهودنا جميعًا في هذا الاتجاه:

«حاولت أن أعثر عليه فوق الصليب، لكنّه لم يكن هناك، فذهبت إلى معبد الهندوس وإلى الباغودا القديمة، لكنّني لم أعثر له على أثر، بحثت فوق الجبال وفي الأودية، لكنّني لم أتمكّن من العثور عليه لا في الأعالي ولا في الأعماق، ذهبت إلى الكعبة في مكّة، لكنّه لم يكن هناك أيضًا، سألت العلماء والفلاسفة، لكنّه كان أرفع وأسمى، وأعلى من فهمهم، ثمّ بحثت في قلبي، وهناك رأيته حيث كان مستقرًّا؛ ما كنت لأجده في أيّ مكان آخر».

صديقتكم

قدرية برانتج



جامع السليمانيّة يملأ أفق إسطنبول



مسجد الخاتونيّة في قيصري



صفحة من نسخة مصحف يرجع إلى العصر السلجوقيّ ١٢٧٨م



عشّ لقالق، المسجد الأخضر، في إزنك





تجهيز لموائد حلويات عيد الفطر (عيد السكّر) في إسطنبول



زاوية أخي إفرين درويش في قيصري



أرارات: جبل نوح



باب يؤدّي إلى زاوية الشيخ تورَسَان



شرائط نذريّة مربوطة في موقع مجمع أصحاب الكهف، المبنيّ محل كنيسة بيزنطيّة



شرائط نذريّة على شجرة توت عمرها خمس مئة عام، زاوية حاجي بكتاش

TAKVİM HİCRİ: 9 REBİÜLAHIR 1416
RUMİ: 22 AĞUSTOS 1411

Vakit:	İmsak	Güneş	Öğle	İkindi	Akşam	Yatsı
Vasati:	4.56	6.26	13.08	16.47	19.39	21.04

أوقات الصلاة المعلن عنها في الصحف اليوميّة



تذكرة الدخول لمتحف مولانا جلال الدين الروميّ في قونيا



لوحة من البلاط على مئذنة الجامع الكبير في سيرت



جامع السليميّة في أدرنة عام ١٩٨٥م

الجزء الخامس

آفــــاق

صفحة فارغة

الرسالة الرابعة والعشرون

سَلِم بيتك من الجُذَرِيّ!

عزيزتي السّيدة ماري،

اعتدت أن ألعب لعبة مع نفسي وأنا واقفة في قطار طويل في مكتب البريد، أو في رحلات كثيرة بالسيّارة، أو أثناء انتظاري رِحْلات الطيران المتأخّرة في المطارات، وأحيانًا قُبيل نومي؛ أحبّ أن أفكّر في نِعم الله كلّها التي حباني بها، وفي الأشياء الثمينة الرائعة كلّها في حياتي، وأضع قوائم بما أقدّره كلّه في مختلف جوانب حياتي، كأشخاص أحبّهم، والحيوانات، والطبيعة، وهواية نفخ الزجاج، وعملي، ووطني، أمّا فيما يخصّ وطني، فأحبّ أن أضع قوائم تضمّ الأشياء كلّها الغريبة، الساحرة، العجيبة، حتى السخيفة التي قدّمتها بلادي للعالم، مثل: المغنّي بوب ديلان، وموسيقى الجاز، والطبّ الحديث، والديمقراطيّة، والحرّيّة الدينيّة، والمؤلّف ويليام فوكنر، ألعب هذه اللعبة أيضًا مع فرنسا وتركيا.

ربّما لم تقدّم تركيا للعالم الإصلاح، أو التنوير، أو الثورة الصناعيّة، لكنّها كانت على مرّ التاريخ مشاركًا مهمًّا على الساحة العالميّة بدرجات متفاوتة؛ فعلى الصعيد الشخصيّ منحتني تركيا كثيرًا، وأتمنّى توضيح

ذلـك فـي رسـائلي هـذه لك -يـا سـيّدة مـاري-؛ لا تقتصر تلـك العطايا علـى تقديري للفنّ، والعمـارة، والأحجار المتحدّثـة، والتفاعل مـع ثقافة أخـرى، وفرصـة عبـوري جسـورًا حسـيّة ومعنويّة، بـل تضـمّ أيضًا دفء العلاقـات، والثقة في الإنسـانيّة، وتعلّم درس الإصـرار، والإيمان بصالح إخوتي في الإنسانيّة وبالإنسانيّة كلّها.

تتأثّـر الثقافـات القويّة كلّها بعضها ببعـض؛ فمنحت تركيا باقي الدول عالمًـا مـن الراحة والرفاهيّة، مـن خلال الأثاث، مثـل: الأرائك بأنواعها، ومن خلال مفهوم النظافة المشـاهد في المناشـف التركيّة الثخينة وحمّام البخار وفنّ التدليك، ومن خلال نمط الدُّرّاعة والعِمامة والنسـيج المطرّز والقطيفة والعباءات، ومن خلال السمة الشرقيّة، ومفهوم الصدقة الجارية، وشـاركت تركيـا العالـم ملـذّات مطبخها؛ فـلا يمكننا تصـوّر الحياة الآن مـن دون القهـوة أو اللبـن الخثيـر أو البسـطرمة أو الحلـوى الطحينيّـة أو الكباب أو الملبن أو الكافيار؛ فهل يفكّر الفرنسيّون صباحًا عندما يرشفون القهوة بالحليب مـع مخبوزات الكرواسون أنّ إفطارهم من ابتكار الأتراك؟ بـل إنّ مفردات لغتنـا قد زادت ثراءً بفضل بعـض المصطلحات الإداريّة، مثـل: الباشـا، والتابـع، والسـنجق وغيرها؛ وجلبت القوافـل التركيّة كنوز الشـرق الأقصـى إلـى مجالس البيـوت الأوربيّـة الراقية، ومنحـت الثقافةُ التركيّة قاعدةَ الأدب العالميّ أشـعارًا شـجيّة بالغة التأثير للروميّ ويونس إمره، وقدّمت للعالم الدروس المسـتقاة من مبدعيها الأقوياء، مثل: سِنان وأتاتـورك، وقدّمـت لنا تركيـا لعبة البريدج "السـد"، والسـجّادة التركيّة، والتوليب أروع الزهور!

ربّمـا كان أهـمّ إرث منحتـه تركيـا للعالـم هو ما سـاعدتِ في تحقيقه -يـا سـيّدة مـاري-؛ فبفضلـك اسـتطاع العثمانيّـون أن يتركـوا أثـرًا خالدًا

في العالم، وممّا يدعو للدهشة أنّ ذلك الأثر يتمثّل في انعدام الأثر؛ منحت تركيا للعالم وجنات أطفال ناعمة ليقبّلوها؛ لا بدّ أنّك تعرفين ما أتحدّث عنه؛ حينما كنتِ في السادسة والعشرين من عمرك، تفتنين مجالس لندن ومحافلها بجمالك وذكائك، تلقّيت ضربة مدمّرة قادرة على تدمير أيّة امرأة أخرى ممّن حولك، لكن ليس أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقُبيل الاحتفالات بعيد الميلاد عام ١٧١٥م أصابك مرض الجُدَرِيّ؛ دام المرض قُرابة عشرين يومًا فقط، لكنّ ندوبه وآثار بثوره المروّعة صاحبتك طيلة حياتك؛ صارت بَشَرتك مليئة بندوب عميقة، وفقدتِ حاجبيك وأهدابك؛ لم تذكري ذلك في أيّ من رسائلك، لكنّني أتصوّر أثر ذلك بلا شكّ على رؤيتك لذاتك، وما أضافه على علاقتك بزوجك من توتّر، بل وكيف جعلك دون شكّ محلًّا لشفقة الأوساط الاجتماعيّة في لندن؛ كنت قد رأيت أخاك يموت بأثر إصابته بهذا المرض، ورغم محاولتك إخفاء وجهك بمساحيق خاصّة، فلا شكّ أنّك تحلّيت بقدر هائل من الشجاعة لتواجهي حياتك، كما لو كان جمالك الشهير -الغابر- لا علاقة له بما صرت إليه، وبما كان الناس يرونه فيك، وبعد أربعة أشهر تلقّى زوجك أنباء تعيينه سفيرًا لدى البلاط العثمانيّ، وبحلول شهر يوليو/تموز، بعد مرور سبعة أشهر فقط على ذلك الحدث المصيريّ، كنت في طريقك إلى تركيا.

كانت رسائلك المبهجة الواصفة جمال النساء التركيّات الساحر تخلو تمامًا من أيّ شعور بالرثاء للذات أو بالغيرة من الأخريات، لكنّني أشعر أنّك كنت حسّاسة تُجاه الموضوع؛ لأنّك فقدت جمالك، ولأنّ هؤلاء النساء يبدون فاتنات موازنة بما أصابك من تشوّه؛ فأيّة شجاعة تحلّيت بها كي تدخلي ذلك الحمّام التركيّ على مرأى من مئتي امرأة، وتظهري ندوبك أمام هؤلاء الجميلات كلّهنّ ذوات البَشَرة ناصعة البياض؟ وأيّ ثبات تمتّعت به كي تسيري أمام سيّدات من عِلْيَة القوم ومن بلاط

السلطان، وأنت تشعرين أنهنّ جميعًا يتهامسن خلف ظهرك، مشفقات على هذه السيّدة الإنجليزيّة المسكينة ذات البشرة البشعة؟ لا عجب أنك كثيرًا ما أشرت في رسائلك إلى البشرة ناصعة البياض للنساء التركيّات؛ كانت بشرتك الإنجليزيّة الورديّة ذات يوم في بياض بشرتهنّ، لكنّ ضررًا رهيبًا خلّفه الجُدَريّ نزع الخيلاء من داخلك!

أعرف أنك من ضحايا الجدريّ، وفي بداية إقامتك بتركيا، كنت في أدرنة، فتعرّضت لموقف أدهشك؛ كان ذلك في عصر قلّ فيه التفاهم بين أوروبا والشرق، واتّسمت أنت بموضوعيتك في تشجيع ثقافة جديدة بدت وقتئذٍ أنّها عادة غريبة؛ كتبتِ في رسالة طويلة إلى صديقتك سارة تشيويل في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م تقولين:

"على ذكر مرض الدَّرَن، سأخبرك شيئًا أثق أنّه سيجعلك تتمنّين لو كنت هنا؛ تعرفين مرض الجُدَريّ الفتّاك المنتشر بيننا، لا ضرر منه مطلقًا هنا بفضل اختراع يطلقون عليه: (التطعيم)؛ تأخذ مجموعة من النسوة العجائز هذه المهمّة على عاتقهن؛ ففي كلّ خريف في شهر سبتمبر/أيلول، حينما تقلّ ذروة المرض، تتراسل العوائل فيما بينها لمعرفة الراغب في التطعيم، وتُشكّل مجموعات لهذا الغرض، وحينما تلتقي المجموعة -عادة ما تضمّ خمسة عشر شخصًا أو ستّة عشر-، تأتي العجوز حاملة صدفة جوز مليئة بأفضل أنواع الجُدريّ الميّت، وتسأل عن الوريد المُراد حقنه، وتثقب فورًا الأوردة المختارة بإبرة كبيرة -لا يسبّب ذلك إلّا ألمًا خفيفًا، كألم الخدش العاديّ-، ثمّ تحقن الوريد بالسمّ بقدر ما يحمل سنّ الإبرة، ثمّ تربط الجُرح الصغير بجزء مجوّف من الصدفة، وبالطريقة نفسها تثقب أربعة أوردة أو خمسة، ويقضي الأطفال أو المرضى الصغار بقيّة اليوم في اللعب معًا، ويظلّون في أتمّ صحة حتى اليوم الثامن من الإصابة، ثمّ تصيبهم حمّى تُلزمهم الفراش يومين، وفي أحوال نادرة جدًّا ثلاثة أيّام، ونادرًا

مـا تزيـد البثور في وجوههم عن عشـرين بثرة أو ثلاثين لا تُخلّف أيّ أثر، وفي غضون ثمانية أيّام يستعيدون كامل عافيتهم".

ما شـاهدت لم تكن سـوى التلقيح ضدّ الجدريّ بحقن جرثومة ميّتة للمرض، كانت رؤية هذا الحدث في الأهميّة نفسـها لإصابتك بالمرض، وقـد منحتـك فرصـة للتعبير عن صبرك علـى الحقيقة؛ فبـدلًا من نبذ هذا الإجـراء الذي قد يبدو همجيًّا، دفعـك فضولك الفطريّ لتجربته، وقرّرت تلقيح ابنك في تركيا:

"كلّ عـامٍ يخضـع الآلاف لهـذه العمليّـة، يقـول السـفير الفرنسيّ ضاحكًا: (إنّهم يتلقّون تطعيم الجدريّ هنا، مثلما يحصل الأشـخاص علـى الماء في بلدان أخـرى)، لم يحدث قطّ أن مات شـخص جرّاء هذا الإجراء، ويمكن أن تتأكّد لديكِ ثقتي كلّ الثقة من سلامة هذه العمليّة، لأنّني قرّرت إخضاع ولدي العزيز لها".

شـجّعك طبيـب فـي السّـفارة البريطانيّة علـى إخضاع طفلـك البالـغ خمـس سـنوات لهـذه العمليّـة، وقد ذكـرت في رسـالة إلـى زوجك في مـارس/آذار ١٧١٨م: "طُعّم الطفل يوم الثلاثاء الماضي، وهو الآن يغنّي، ويلعـب، ولا يطيـق صبرًا على تناول عشـائه؛ أدعو الله أن تحوي رسـالتي القادمة أخبارًا سارّة عنه".

نسـينا اليوم رعبًا أشـاعه هذا المرض في العالـم قديمًا؛ فخلال القرن الثامن عشر وحده حصد المرض أرواح ما يزيد عن ستّين مليون شخص، ولقيـت الملكة ماري الثانية -التي وُلدتِ في عهدها- حتفها بهذا المرض المتسبّب في مقتل خمسة ملوك أوربّيين آخرين خلال ذلك القرن، وقضى الجُـدَريّ على إمبراطوريّة الإنكا في بيرو وشـعب الأزتك في المكسـيك خـلال القـرن السـادس عشـر، وحصـد أرواح ٩٠٪ مـن الهنـود الحمـر فـي القـرن الثامن عشـر، وكانـت أفدح الخسـائر فـي الأرواح من نصيب الأطفال دون الخامسـة؛ إذ كان ثمانية من كلّ عشـرة أطفال يموتون نتيجة

الإصابـة به، وكان ثُلـث الناجين من الموت يفقـدون أبصارهم، وقد ترك المرض ندوبه على أوجه ستالين، وهنري الثامن، والملكة إليزابيث الأولى، وإبراهـام لينكولن، وفي القرن العشـرين لقي ما يزيد عن ثلاث مئة مليون شـخص حتفَهم نتيجة إصابتهم بالجُدَريّ، ولا تزال هناك مخازن لجراثيم الجدريّ في معامل سريّة في روسيا، وإنجلترا، والولايات المتّحدة جاهزة للاسـتخدام فـي أيّ حرب عضويّة سـلاحًا أشـدّ فتكًا من أيـة قنبلة نوويّة أو صاروخ.

رغـم الاجتياح الهائل لهذا المرض، كان له علاج وقائيّ معروف منذ قرون، يُعرف باسم التلقيح، ويعتقد بعض الناس أنّه مُورس في الهند منذ عام ١٠٠٠ق.م، ثمّ اسـتخدمه الصينيّون، وكان الهنود يمسـحون الجروح بصديـد الجـدريّ، وكان الصينيّـون يجعلون المريض يستنشـق مسـحوق القشـور لبثور الجدريّ، وفي الحالتين كان المريض يصاب بطور ضعيف مـن أطوار المرض ثمّ يُشـفى شـفاء تامًـا، يُعتقد أيضًـا أنّ الأطباء العرب عرفوا التلقيح في القرن السادس، وانتشرت هذه الأنواع من الطُّعوم حتى وصلت إلى تركيا العثمانيّة حيث شـاع اسـتخدامها، وكان هذا ما شـاهدتِه في أدرنة، اسـتخدم الأتراك الجوز لتهيئة مزرعة الجراثيم، من خلال حقن صديـد الجـدريّ في لبّ الجـوز وتركه ليتخمّـر، وينمو في البيئـة الدافئة لقشرة الجوز؛ وقد ختمت رسالتك إلى سارة تشيويل قائلة:

"تدفعنـي وطنيّتي أن أحاول نشـر هذا الاكتشـاف المفيد في إنجلتـرا، ولا بدّ ألّا أتردّد فـي الكتابة لبعض أطبائنا عن هذا الأمر تحديدًا، إذا شعرت أنّ أيًا منهم يتمتّـع بالفضيلة والتضحية من أجل صالح البشريّة، لكنّ هذا الوباء يعود بنفـع هائل على الأطباء؛ فلن يتمكّـن جَسـور يبحث عن القضاء على هـذا المرض من مواجهة سـخطهم؛ إذا بقيـتُ حيّـة حتـى أعود، ربّما سـأتحلّى بالشجاعة كي أحاربهم بالرغم من ذلك كلّه".

قد حاربتِهم بالفعل؛ فبعد عودتك من تركيا إلى إنجلترا أطلقتِ حملة نشيطة لتشجيع هذه الممارسة، وتبيّن أنّ الطريق كان وعرًا جدًّا، ربّما لستِ أوّل ناقل معلومات إلى إنجلترا عن التطعيم، فأحد الأطباء الإيطاليّين في القسطنطينيّة أعطى تقريرًا عن ذلك قبل عودتك بأربع سنوات، لكنّ كلامك هو اللافت الانتباه؛ فقد طعّمت ابنتك علنًا على يد طبيب السفارة نفسه الذي طعّم ابنك في القسطنطينيّة، ويُعتقد أنّ ابنتك ماري هي أوّل من طُعّم في إنجلترا؛ فأثرتِ الاهتمام بهذه العمليّة في كلية طبّ لندن، فتحلّى بعض الجرّاحين بالشجاعة الكافية لإجراء تجارب ناجحة، ودخولك هذه التجربة، وتشجيعك الآخرين على خوضها دفع العائلة المالكة، والمترفين، والساسة المرموقين إلى تطعيم أطفالهم، الأمر الذي أذِن بانتشار هذه الممارسة بين الطبقات الراقية في إنجلترا، غير أنّ ذلك الحماس لم يدم طويلًا للأسف! فرغم النجاح المبدئيّ المتحقّق من عام ١٧٢١م إلى عام ١٧٢٣م، سرعان ما زادت حدّة المعارضة الدينيّة للتطعيم؛ إذ كان الجدل الدائر حول هذه المسألة عنيفًا ومتطرّفًا؛ فقد اعتقد بعض الموصوفين بأنّهم "رجال الدين" أنّ هذه العمليّة ضدّ إرادة الربّ، لأنّه يرسل الجدريّ للبشر عقابًا على عمل شيطانيّ وللسيطرة على تزايد عدد الفقراء بوسيلة طبيعيّة!

طالت هذه الحماقة الأطبّاء أيضًا؛ إذ غضبوا، لأنّ هذه العمليّة الناجحة لم يكتشفها أطبّاء مثلهم، بل اكتشفها "الشامانيّون" (الأتراك قبل الإسلام) في بلاد غير غربيّة، وفوق هذا كلّه؛ لأنّ من يروّج لهذه العمليّة امرأة؛ كانت تلك المرأة أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقام الأطباء بتزوير نتائج الحالات الخاضعة للتجربة، ونشروا الأبحاث المندّدة بهذه العمليّة، وسعوا لإثبات أنّها تسفر عن متوسط وفاة أعلى ممّا كان يُعتقد من قبل، وأنّها تُسبّب انتشار أمراض أخرى، مثل: الزهريّ؛ فتمّ وأد عمليّة التطعيم في مهدها، وبدأتِ تندمين على نشر هذه الممارسة التركيّة

في بلادك؛ لأنّها جلبت عليكِ وعلى عائلتك كثيرًا من الخزي والاضطهاد، لكنكِ ثابرت، ولم تستسلمي لهذا الجدل الدائر، ونشرت دون إمضاء كتيّبًا لاذعًا تستنكرين فيه احتيال الأطباء وجهلهم، وتُلقين باللوم عليهم، لا على الجرثومة المضادّة، ولو أنّهم استمعوا إليك، لمنعوا عنكِ كثيرًا من الأسى؛ فقد تجاهلت أختك السيّدة جاور عرضك تطعيم ابنها مع ابنتك ماري؛ فمات بعد عامين إثر إصابته بالجدريّ، ووقعت أكثر المآسي إثارة للسخرية، حينما توفّيت صديقتك سارة تشيويل -التي كتبتِ إليها تلك الرسالة الحماسيّة القويّة تصفين فيها عمليّة التطعيم في أدرنة- متأثرة بهذا المرض عام ١٧٢٦م.

عقب خمود عاصفة حقد وجدل أثرتِها في إنجلترا، دار الفصل الثاني من قصّتك في بلادي؛ فقد نجحت جهودك في "نيو إنجلاند" (انجلترا الجديدة) عندما أعلن مجموعة من الأطبّاء المرموقين دعمهم للحركة، على الرغم من عاصفة الجدل المثارة هناك أيضًا، وفي عام ١٧٢١م وصل بوسطن عَبْدٌ من باربادوس، وأوضح كيف تلقّى التطعيم في وطنه الأمّ السودان بأسلوب الخدش نفسه المستخدم في أدرنة؛ فأكّدَ النتائج النهائيّة المبدوءة بجهودك في إنجلترا، وشرع الأطبّاء الأمريكيّون يستخدمون هذا الأسلوب؛ فلاقت عمليّة التطعيم قبولًا واسعًا بعد ما حقّقت نتائج ناجحة، عندما اجتاح الوباء بوسطن عام ١٧٢٢م؛ إذ نجا كلّ من خضع للتطعيم، ولم يصب بأيّ أذى، وأمر جورج واشنطن بتطعيم جنود الحرب الثوريّة كلّهم ممّن لم تسبق إصابتهم بالمرض، وهكذا شاركت جهودك مشاركة غير مباشرة في الانتصار في حربنا لنيل الاستقلال من حكم ملكك جورج الثالث.

انتقلت أحداث قصّتك إلى إنجلترا مجدّدًا عبر المحيط الأطلسيّ؛ فقد بدأ شابّ ذكيّ يدعى إدوارد جينر في جمع الخيوط كلّها معًا؛ لاحظ جينر حينما كان صبيًّا أنّ العاملين في صناعة الحليب المحتكّين

بجدريّ المواشي، أي: جدريّ الأبقار، لا يصابون بالمرض ألبتّة، وبعد أن صار طبيبًا، لم تغب هذه الملاحظة عن باله، وبعد الاستقصاء أعطى ملاحظاته في بحث للجمعيّة الطبّيّة في وطنه؛ انتشرت نظريّته في العالم الغربيّ بحلول عام ١٨٠٠م، وكان من الشجاعة بحيث طعّم ابنه، كما فعلتِ يا سيّدة ماري، لكنّه لم يطعّمه بجرثومة الجدريّ، بل بجرثومة جدريّ الأبقار؛ إذ تمخّضت تجاربه وأبحاثه عن استخدام لقاح لجدريّ الأبقار يحصّن البشر ضدّه؛ وهكذا اُكتشف لقاح الجدريّ؛ لم يطل عمرك لتري هذا النجاح، لكنّ شجاعتك على نشر هذه الممارسة، ومثابرتك، واستمرارك كنّ السبب في إنقاذ حياة الملايين منذ ذلك الحين في أنحاء العالم جميعًا!

هل كان جينر سيتمكّن من إنجاز ما أنجزه بعد مرور تسعة وسبعين عامًا لو لم تمهدي له الطريق؟ لو لم تكن لديك شجاعة -ازدادت قوّةً نتيجةَ خوفك الشخصيّ من هذا المرض- لمواجهة المعارضين كلّهم ولريادة الطريق، أنا واثقة أنّ جينر وغيره من العلماء الحقيقيّين لم يكونوا ليعثروا على الطريق، ويكتشفوا وسيلة للقضاء نهائيًّا على المرض؛ إذ كان دورك مهمًّا كدور أيّ عالم، وقويًّا كقوّة أيّ لقاح؛ لأنّك تحلّيت بالشجاعة المستنيرة لتحدّي الوسط الطبيّ والرأي العامّ القاسيين قسوة الجدريّ غريمك.

بعد حملات تلقيح ناجحة استمرّت طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، أعلنت منظّمة الصحّة العالميّة رسميًّا القضاء على مرض الجدريّ عام ١٩٧٧م، وإلى يومنا هذا لا يزال الجدريّ هو المرض البشريّ المعدي الوحيد المقضيّ عليه نهائيًّا من العالم؛ هذا هو إرثك للعالم -يا سيّدة ماري-، ناتج كلّه عن ملاحظة دقيقة لممارسة تجري في غرفة صغيرة في مدينة أدرنة العثمانيّة، وعن اقتناعك بفائدتها، وجرأتك على عبور الجسر بها ومنحك إيّاها بلادك؛ لن تُسمع أبدًا كلمات اللعنة الشهيرة: "عسى أن يدهم الجدري بيتك!" إلّا في مسرحيّات شكسبير، ولن تُضطرّ الأمّهات ثانية إلى مشاهدة أطفالهنّ يقعون فريسة للموت

أو للتشويه بسبب هذا الوباء؛ من الآن فصاعدًا ستنعم أمّهات العالم بمتعة تقبيلهنّ وجنات أطفالهنّ الورديّة الناعمة الخالية من الندوب، هذا كلّه بفضل هديّة من بلد مميّز، جلبتها أنت؛ فأنت أكثر النساء شجاعة وتميّزًا!

وتفضلي بقبول عظيم احترامي
كاثرين برانج

على أريكتها استلقت فلافيا البائسة،
وزفرت العذاب من عقلها الجريح،
وأمام مرآة على يمينها تبرمت؛
لأنها تشيح الآن عن الوجه المنشود؛
كيف تغيرتُ! واحسرتاه! إلامَ صرت!
هذا مشهد مروّع لصورتي لا أعرفه!
أين بشرتي؟ أين نضارتي المتألقة
التي بشرتني بالسعادة لسنوات قادمة؟
كيف لي أن أنعم بالسعادة بهذا الوجه!
ومن يسعى للقائي بعد أن يطالعه!
كم أتمنّى أن تشرق طلعتي بتورّد زاهٍ!
وتتألق عيناي برحيق حياة جديدة!
أيتها المرآة الغادرة، ردّي عليّ نضارتي المعهودة،
للأسف! أنا أهذي، فلم يعد لتلك النضارة وجود!

السّيدة مونتاجيو "فلافيا"



نصب الشمس التذكاريّ، أقامه ويليام وينتوورث عام ١٧٤٧م تخليدًا لذكرى السيّدة ماري على أراضي قلعة وينتوورث (يوركشاير في إنجلترا):
"إحياء لذكرى السيّدة المحترمة ماري وورتلي مونتاجيو التى أَحضرت عام ١٧٢٠م لقاح الجُدريّ من تركيا إلى إنجلترا"

الرسالة الخامسة والعشرون

اقتحام الماضي

إلى محسن إلياس صوباشي

عزيزتي السّيدة ماري،

أستمتع -مثلك- بزيارة المواقع واكتشاف الثروات الثقافيّة التركيّة؛ إذ خرجتُ في كثير من النُّزَه التي خرجتِ فيها؛ لقد تجولتِ البوسفور في قارب طويل، وشاهدتِ على ضفافه المنازل الخشبيّة والحدائق والغابات والمساجد المرصوصة، مثل: "خزانة عرض للتحف زخرفتها أمهر الأيدي"، وزرتِ جامع السليميّة في أدرنة، واستكشفتِ شوارع بيرا مرتديةً لباسا مدنيًا متواضعًا، وساومتِ تجار السوق الكبيرة "جراند بازار" بلغتك التركيّة المهذّبة؛ فكان وصفك لتلك المزارات البوسفوريّة، وقصر طوب قابي، وكنيسة آيا صوفيا، وجامع السليمانيّة، والهيبودروم -ساحة الألعاب البيزنطيّة-، والمسجد الأزرق بناه السلطان أحمد، وصفًا دقيقًا، كوصف أيّ مرشد سياحيّ معاصر حتى إنّك زرت تكيّة الدراويش، وشرحت طقوسهم.

أثارت رسـالتك من أدرنة في بداية إقامتك بتركيا اهتمامي؛ إذ تحدّثتِ عن زيارتك لخان عثمانيّ -مخزن تجاريّ-، ووصفت دهشتك لرؤية الجمل هنـاك، هـذا "الحيوان من فصيلـة الأيائل، وهو أطول بكثيـر من الحصان، وسـريـع جدًّا؛ إذ يستطيـع أن يسبق أكثر الجياد سرعة، وهو مخلوق قبيح، يفتقر إلى رشـاقة الثـور"، وأعطيتِ وصفًا مفصّلًا للمبنى: "أرى أنّ إنشـاء هـذه المؤسّسـات لفتـة خيريّـة أكثـر منطقيّـة مـن إنشـاء أديـرة الرهبان"؛ الآن تجذب هذه الأَخْوان[1] -لا الجِمال- اهتمامي أنا أيضًا حتى إنّها أصبحت جـزءًا مهمًّا من حياتي طـوال الثلاثين عامًا الماضية؛ فمنذ أن وقعت عيناي على مدرسـة جوق في سـيواس خلال زيارتي الأولى إلى تركيا، استـحوذ عليّ ولـع البحث عن الذهب، وكنت أسافر سنويًّا للبحث عنه، وبذلت كثيرًا مـن الوقت، والجهد، والنقود، والطاقة في سـبيل ذلـك، وارتديت أنا أيضًا فـي رِحلاتـي لباسـا نسـائيًّا متواضعا مثلـكِ، لكـي يميّزني عن السـائحين المعتادين، ربّما لم يكن فخمًا كالذي ارتديته، لكنّه كان متناسقًا على أيّة حال؛ فهو لباس عمليّ أكثر منه أنيقًا، مـع حذاء متين، ونُقْبة تصل إلى الكاحلين، وقميص بكمّين طويلين، ونظّارة شمسيّة، وغطاء رأس يقي من أشعة الشمس ومـن النظرات المستهجنة، اكتمل اللباس بزينة، مثل: حقيبة نسـائيّة متينة، معلّقة على الكتف، مليئة بأدوات الاستكشـاف الضروريّة: كشّـاف، شريطة قيـاس، دفتر ملاحظـات، أقلام حبر، أقـلام رصاص، بطّاريّات وعدسـات للمصوّرة، زجاجة ماء تلازمني، كتيّبات إرشاديّة، أوراق، قليل من بسكويت «أولكـر»، دفاتر رسـم، صـور قديمة مقصوصـة من كتب مصفـرّة... إلخ، كما ترين -يا سيّدة مـاري-؛ فعمليّة البحث عن أحجـار ذهبيّة أكثر تعقيدًا مـن نزهة لطيفـة بقارب طويل عبر البوسـفور؛ لأنّها تتطلّـب التحمّل لقيظ سـهول الأناضول، وغبارها، وطرقها الخطـرة، وفنادقها، وأحوالها الصعبة، غيـر أنّ نـداء تلك الأحجـار كان دائمًا أقوى من أيّ عنـاء تحمّلته، وتألّقها

(١) جمع خان، وتُجمَع على خانات أيضًا.

أضـاء حياتـي بوسـائل عجيبـة، لكنّني لم أبحـث عن أيّـة أحجـار ذهبيّة، بـل عـن تلك المسـتُخدمة فـي بنـاء الآثـار الباقية مـن عهـد الإمبراطوريّة السلجوقيّة، ولم أبحث عن أيّة آثار، بل عن أسلاف صرح شاهدته في أدرنة؛ هي نُزُل للمسـافرين في سـهول الأناضول الشاسـعة المشيّدة على الطرق المتشعّبة من العاصمة السلجوقيّة قونيا.

تحدّثت إليكِ في السـابق عن السـؤال المتكرّر: «لماذا تركيا؟ ولماذا العـودة إلـى تركيـا كلّ عـام طـوال الثلاثيـن عامًـا الماضيـة؟»؛ أخبرتـك فـي تلـك الرسـالة أنّنـي ذهبت إلـى هناك في بـادئ الأمر لأشـبع رغبتي فـي رؤيـة مبنـى اسـتحوذ علـى تفكيري منـذ أن وقعـت عينـاي أوّل مرّة على صورة له أثناء محاضرة دراسيّة، حاولت أيضًا أن أشرح لك في رسائل كثيـرة أخرى أسـباب عودتي إلى تركيا كلّ عام؛ إنّـه الكرم التركيّ، وتلك البصمة التركيّة، وثمار الخوخ، وأوجه الشبه بين الأتراك والأشخاص الذين نشـأت بينهـم، لكن إذا أردت معرفـة الحقيقة، فإنّ ولعي بهـذا المبنى في سيواس وأمثاله من المباني التركيّة كان القوّة الدافعة لأن أعود عامًا بعد عام؛ فقد تكون تركيا عامرة بأشخاص وُدّ وبطبيعة جميلة، لكنّ سحر تلك الأحجار هو المغناطيس الذي يجذبني للعودة كلّ عام.

يتعذّر عليّ تفسـير هذه القوّة المغناطيسـية الجاذبة، وأحيانًا أكتفي بهزّ كتفيّ قائلة للآخرين -كما أقول لنفسـي-: لا تفسـير للأمر؛ إذ ثمّة ثوابت فـي حياة المرء لا يحاول تفسـيرها، مثل: طريقـة تناوله القهوة، أو خفقان قلبه كلّما اقترب من مدخل منزله، أو نظرة مميزة منها يعرف أنّه وجد حبّ حياتـه؛ فهـذه الأمور لا يمكن تفسـيرها من الناحيـة العلميّة؛ فهي تحدث فقـط، والحال نفسـها لإعجابي الشـديد بالعهد السـلجوقيّ مـن جانبين: جانب المجتمـع والثقافة في هذا العهد، وجانب فنّ أنتجه.

من هم السلاجقة؟ وما إمبراطوريّتهم؟ قد تبدو حضارة السلاجقة -كحال الإتروسكان أو السلتيين- بعيدة، منعزلة، غير مهمّة في مسيرة التاريخ المديدة، لكنّها تمثّل لي لحظة مجيدة في تاريخ الحضارة؛ انطلق السلاطين السلاجقة من عاصمتهم المتألّقة قونيا؛ فكان عهدًا استثنائيًا من النواحي السياسيّة، والتجاريّة والفنيّة؛ دام عهدهم فترة قصيرة جدًّا، لكنّه كان عهدًا ذهبيًّا؛ ازدهر حكمهم من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، ووقع بين حدثين مصيريّين غيّرا وجه العالم: هما الحروب الصليبيّة، والغزو المغوليّ، لكن في غضون مئتي عام فقط، عام ١٠٧٧م - ١٣٠٧م، تمكّن السلاجقة من ترك بصمة اقتصاديّة وثقافيّة قويّة، والأهم من ذلك أنّ العهد السلجوقيّ أنتج بعض أعظم الفنون المعماريّة والزخرفيّة وأجملها.

هؤلاء السلاجقة هم مؤسّسو تركيا المعروفة اليوم، وهم آخر القبائل التركمانيّة النازحة ببطء تجاه الغرب منذ القرن التاسع تقريبًا من المنطقة المحيطة ببحيرة بايكال في سيبيريا، بحثًا عن مراع خضراء، ومواطن جديدة، وفرص واعدة، وهم مجموعة من الأتراك السلاجقة المستقرّين بالفعل في إيران اتّجهت غربًا، وعُرِفَت باسم: السلاجقة العظام أو الشرقيين؛ ترك هذا الفرع من السلاجقة الشرقيّين بلاد ما وراء النهر -المنطقة الواقعة بين بحر آرال وبحر قزوين- وخراسان -المنطقة الواقعة في شمال غرب إيران- حتى وصل الأناضول مع بدايات القرن الحادي عشر، كان السلاجقة في الأصل شامانيّين، ثمّ بدؤوا يعتنقون الإسلام خلال مسيرتهم نحو الغرب، ورغم أنّهم احتفظوا بعناصر معيّنة من ثقافتهم الأصليّة، فقد اعتنقوا الإسلام عن يقين، وصاروا مدافعين مخلصين عن العقيدة، وسرعان ما سيطروا تدريجيًّا على أغلب مدن شرق الأناضول ووسطه، وحينما انتصروا على البيزنطيّين في معركة «ملاذكرد» الفاصلة في شرق تركيا عام ١٠٧١م، انفتحت لهم أبواب الأناضول.

كان هـؤلاء السـلاجقة بُنـاة، سـواءً للمبانـي أو الحضارات؛ وأشـعر بشـيء مـن الألفـة مـع تلـك المسـاعي النشيطة لهـؤلاء السـلاجقة؛ لأنّ بـلادي -الولايـات المتّحـدة- حقّقـت كثيـرًا خـلال مئتـي عـام، كان السـلاجقة محاربين أشدّاء؛ حاربوا البيزنطيّين ليشيّدوا إمبراطوريّتهم، واضطـرّوا لصـدّ الهجمـات الصليبيّـة المتواليـة، تدك أراضيهـم وتخرّب مدنهـم طـوال عهدهم، وفـي النهايـة اُضطـرّوا لمواجهة المغـول للدفاع عن أرواحهم، إلى أن خسـروا إمبراطوريّتهم بأسـرها للمغول في النهاية، بالرغم من هذه القلاقل كلّها على مدار مئتي عام، تمكّنوا من بناء حضارة بزغ نورها أقوى من حضارة الدولة البيزنطيّة والصليبيّين والمغول جميعًا.

تألّقـت هـذه الحضـارة المزدهـرة مـن عدّة أوجـه؛ انظـري إلى تلك الأحجـار الذهبيّة، فسـترينها أنـت أيضًا، وتأملـي آثارهم الثقافيّـة؛ يُعزى الفضل للسـلاجقة في إحياء الخلافة الإسـلاميّة، وإضفاء الهيبة والاحترام مجدّدًا على حكمها، وقد شجّعوا الحياة الدينيّة، ونشطوا أيضًا في المجالين العلمـيّ والأدبيّ باعثيـن روح إلهام جديدة في الحياة الثقافيّة الإسـلاميّة، ولمّـا كان السـلاجقة الأناضوليّـون عازميـن علـى تبـوّء مكانـة مرموقـة في النظام العالميّ وقتئذٍ، فقد بثّوا الحياة في العالم الإسـلاميّ بفضل نظم حكمهـم، وحرصهـم البالـغ علـى العدالة الاجتماعيّة، وأسـلوب قيادتهم القويّ، وتقاليدهم الدينيّة، وموقفهم المشـجّـع لممارسـة التجارة والعمل الحرّ، وعنايتهم بالتعليم، وعِلاوة على هذا كلّه كان تقبّلهم للتعدّد الثقافيّ مكوّنًـا حيويًّـا من مكونات نجـاح مجتمعهم؛ فقد تقبّلـوا الأديان الأخرى كلّهـا فـي أراضٍ فتحوهـا؛ إذ كان هنـاك الـروم، واليونانيّـون، والأرمـن، والبروفنساليّون، واليهود، وقد ثبت أنّ هذا التقبّل للآخر نموذج اجتماعيّ فعّـال، جدير بالتقليد، بدءًا من العثمانيّين وصـولًا إلى الأمريكيّين، لكنّني أرى أنّ أعظم إرث ثقافيّ تركه السلاجقة هو خِطّة بنائهم؛ إذ شيّدوا صروحًا مذهلة حجمًا، وتنوّعًا، وحرفة، وعلى صعيد المعمار كان السلاجقة سِراع

التعلّم، استقوا دروسًا من أساليب التصميم كلّها في أراضٍ مرّوا بها؛ وبهذا اخترعوا أسلوب بناء ثريًا ثراء خَساء يعدّونه في حملات التخييم أثناء سيرهم نحو الغرب.

بدأ السلاجقة إعداد خَساء حضارتهم بوضع لمسات من أصولهم الغنيّة العائدة لآسيا الوسطى، ثمّ أضافوا دروسًا دسمة تعلّموها من احتكاكهم بالفنّ المعماريّ الفارسيّ، وحسّنوا النّكْهة بالاستفادة من الصروح العباسيّة والعربيّة الرائعة كلّها، واخترع السلاجقة منظومة تشييد معقّدة تعتمد على قناطر تحمل الأوزان الكبيرة، وكان لشكل الأواوين الأربعة -أربع قاعات مفتوحة مقبّبة تحيط بساحة مركزيّة- في مساجد إيران تأثير قويّ على ما شيّدوه كلّه؛ فأصبح هذا الشكل هو التصميم العامّ للسلاجقة الأناضوليّين في بناء أَخوانهم، ومدارسهم -كليّات التعليم العالي-، وقصورهم، ومستشفياتهم، ثمّ أضافوا إلى الطبخة لمستهم الخاصّة من خلطة التوابل المشتملة على ميزات زخرفيّة وتقنيات وأساليب بناء مبتكرة.

لم تكن هذه الصروح مجرّد آثار بارعة جديرة بالمشاهدة؛ إذ أدرك السلاجقة أنّ المباني العمليّة النافعة من شأنها أن تدعم مباشرةً أهدافَ إمبراطوريّة أرادوا تشييدها؛ يا لَذكاء سلاطين قونيا السلاجقة! أدركوا أنّ الرخاء الاقتصاديّ ركن أساسيّ من أركان مجتمع أرادوا بناءه، وأنّ ذلك يتوقّف على سلاسة تدفّق البضائع إلى أنحاء الإمبراطورية، وفهموا أنّ تشجيع البيع والتجارة سيمكّنهم من تحقيق رخاء يقوم بتحفيز النموّ الفكريّ والفنيّ؛ ولتطبيق هذه الرؤية، كان من الضروريّ دعم التجارة والواردات من خلال تشجيع نقل البضائع عبر أراضيهم؛ فكيف نجحوا في إغراء التجّار لجلب بضائعهم إلى الأناضول، ثمّ المغادرة بحقائب مليئة بمنتجات سهول الأناضول؟ كان السلاطين بحاجة إلى منطقة تجاريّة واعدة، آمنة، جاذبة لممارسة التجارة؛ فشمّروا عن سواعدهم، ووضعوا

خِطّة تجاريّة مفعمة بإصرار لا يضارعه سوى إصرارهم في ساحة القتال.

حرَص السلاطين السلاجقة كلّهم، واحدًا تلو آخر على غزو مدن ساحليّة مهمّة كانوا يحتاجون إليها لإنشاء طرق تجاريّة بعرض الإمبراطوريّة تصل بين السواحل، مثل: أنطاليا عام ١٢٠٧م، وسينوب عام ١٢١٤م، وأخيرًا ألانيا عام ١٢٢١م، وتمثّلت الخطوة التالية في هذه الرؤية الإصلاحيّة للطُرُق التجاريّة القائمة بالفعل المستمرّة تخدم التجّار أجيالًا؛ كان هؤلاء السلاطين من الفطنة بحيث أدركوا أنّ كسب النقود يستوجب إنفاقها؛ فتضمّن منهجهم العمليّ لبناء مملكتهم الاستثمار في تشييد بنية تحتيّة قويّة من الجسور والطرق؛ فقاموا بإصلاح الطرق والجسور القديمة وتقويتها بعد أن كانت مهملة تالفة طوال سنوات من الحروب المتواصلة والزلازل، وشيّدوا طرقًا وجسورًا جديدة، وأعادوا تمهيد طرق التجارة الآشوريّة، والفارسيّة، والرومانيّة القديمة بين الشرق والغرب، وأضافوا إليها وصلات جديدة بين الشمال والجنوب للربط بين الموانئ المفتوحة حديثًا على ساحلي البحرين الأسود والأبيض المتوسط؛ وبذلك أضحت البلاد مفتوحة أمام التجارة؛ فطريق الحرير القائم، الرابط بين الصين ومنطقة البحر المتوسّط، أصبح يصل إلى قونيا، حيث يبدأ الطريق الطويل الممتدّ حتى قيصري متفرّعًا ليصل، إمّا إلى الشمال نحو: سيواس، أو أرضروم، والبحر الأسود، أو منطقة القوقاز، وأخيرًا إلى شمال إيران، أو يصل جنوبًا إلى ديار بكر، وبلاد ما بين النهرين وجنوب إيران.

كانت آخر خطوة في خِطّتهم التجاريّة المرسومة توفير بنية تحتيّة للتجّار أنفسهم؛ فأنشؤوا -بطول طرق التجارة- ما يزيد عن مئتي محطّة متوسّطة للتجّار، يطلق عليها اسم الخان أو النُزُل؛ ويرجع الفضل إلى هذه الشبكة -المبنيّة لسدّ احتياجات المدن الكبرى في الإمبراطوريّة- في زيادة حجم التجارة المحليّة والدوليّة على سواء.

كانت هذه الأنزال أو الاستراحات تُبنى على مسافات متساوية بامتداد أهمّ الطرق التجاريّة، بحيث يفصل بينها مسيرة يوم على ظهر الجمل -قرابة أربعين ميلًا- بطراز معماريّ يلبّي احتياجات المسافرين كلّها؛ فالجدران منيعة قويّة، بها مساحات لتخزين البضائع، وغُرف للحرّاس، وإسطبلات، وغُرَف للنوم، ومطابخ، ومراحيض، ومساجد، وأقبية، وكانت تعمل بوصفها محطات تجاريّة ونُزُلًا للمبيت في الوقت ذاته، وإذا أردنا أن نصف هذه الأخوان من منظور عصريّ، فهي مزيج من محطّة شواحن، ونُزُل، ومستودع؛ فهي كمحطّة الشواحن؛ لأنّها توفّر مكانًا للتزوّد بالمُؤَن، المتمثّلة يومئذٍ في تهيئة مكان للدوابّ للراحة والسقي وإصلاح نِعالها، وعلاجها من أيّ مرض يصيبها خلال الطريق.

كانت الأخوان تتيح للتجّار فرصة لتناول وجبة مطبوخة، والاستراحة من وعثاء السفر، والحدّ من الشعور بالوحدة أثناء الرحلة من خلال الاختلاط بغيرهم من المسافرين، وهي تشبه النُّزُل؛ لأنّها تتيح للتجّار المبيت في غرف مريحة، ملائمة، تشبه المستودع؛ لأنّها تمنح التجّار الفرصة لتفريغ بضائعهم في مكان آمن، وتخزينها، وتصنيفها، وإعادة تغليفها إذا لزم الأمر، والاستعداد للمرحلة الشاقّة التالية من الرحلة.

يعدّ الخان بما يمنحه من خدمات اجتماعيّة مختلفة من أكثر المؤسّسات المجّانيّة السلجوقيّة؛ إذ بُنيت الأخوان لتكون مؤسّسات خيريّة؛ إذ كان من حقّ أيّ مسافر -بصرف النظر عن جنسيّته، أو دِيانته، أو طبقته الاجتماعيّة- أن ينزل فيها مجّانًا ثلاثة أيّام تشمل المبيت، والمأكل، والرعاية الطبيّة، وخدمات أخرى، وذلك كلّه على نفقة الدولة؛ إذ كان السلطان، أو رجال البلاط، أو الأثرياء ينشئون مؤسّسات للاضطلاع بعمليّة بِنائها، وتمويلها، وصيانتها؛ فستظلّ هذه الأخوان تُذكر لكرمها، ولدورها الخيريّ، وقد شدّت انتباهكِ بالفعل في أدرنة -يا سيّدة ماري-؛ فكان بمقدور التجّار مقابلة غيرهم في الخان، وعقد

تحالفـات تجاريّة، وتكوين صداقات جديدة، ولعبت الأخوان دورًا خيريًّا مهمًّا؛ إذ أسـهمت في نشـر الأخبار والمعلومات في أرجاء الإمبراطوريّة؛ إذ فيهـا يلتقـي أشـخاص مـن كلّ الأنحـاء والبلدان، ويقصّـون القصص، ويتشـاركون مواقف مرّوا بها بمختلـف اللغات، ويتبادلون أخبار بلدانهم، ثـمّ تنتقـل هـذه الأخبـار إلـى القـرى والمـدن؛ فكانـت الأخـوان مركزًا للمعلومات، ومركزًا محليًّا للأخبار، وما يشبه مكتبة عامّة شفهيّة؛ يستطيع أيّ شـخص يسـافر عبـر الطرق الممتـدّة بطـول تركيا اليوم أن يشـاهد ما بقي منها، في شـكل اسـتراحات رائعة على جانبي الطريق، تمنح خدماتها لسائقي الشواحن والمسافرين على حدٍّ سواء.

مـا إن امتـلأت خزائن الدولة بالأمـوال المحصّلة من هـذه الأخوان، حتى تحوّل السلاطين السلاجقة إلى تشييد صروح معماريّة مبتكرة أخرى، اشـتهروا بها، وهي: المدارس -الجامعات-، والمستشـفيات، والجوامع، واستخدم سلاجقة الأناضول الحجارة لتُعمّر المباني طويلًا، ونبذوا الآجُرّ الذي اسـتخدمه أسـلافهم الإيرانيّون، فاخترعوا مباني تناسـب احتياجات إمبراطوريّـة أرادوا تشـييدها، تتّسـم بالنموّ والنشـاط، وقـد تجلّت ألمع مواهبهـم فـي مبانيهـم المدنيّة، ووظيفتها، وشـخصيّتها منذ لحظة تشـييد المدرسـة النقطـة المحوريّـة للمدينة؛ استُخدم تصميـم الأواوين الأربعة فـي المـدارس لبنـاء حرم يتّسـع لغرف دراسـيّة، ومسـاكن الطلبـة، وقاعَ الدرس، بالإضافة إلى الخدمات الملحقة، واستُخدم التصميم نفسه في بناء المستشفيات والمراكز الطبيّة، مع الالتزام دومًا بإضافة منارتين متناظرَتين حـول البوّابـات للترحيـب بالـزوّار؛ وتُعدّ هـذه المدارس والمستشـفيات مـن أروع آثـار تركيـا اليـوم، مثل: مدرسـتي كاراتـاي وإينجه فـي قونيا، والمدرسـة الخاتونيّة في قيصري، ومدرسـة دار الشفاء الطبيّة في سيواس، ونُـزُل جوهر في قيصري؛ بهرني ذلك كلّه بشـدّة؛ لأنّـه بدا تخطيطًا عمليًّا جدًّا، نابعًا من حكمة بالغة، ونابضًا بالحياة في الوقت نفسه.

أحببت دراسة الفنّ الإسلاميّ منذ أن كنت في الجامعة؛ فقد اقتبس الفنّ الإسلاميّ من حضارات كثيرة، ومزج وأضفى رؤيته الخاصّة ليخترع شيئًا فريدًا، كثقافة الولايات المتّحدة من عدّة أوجه، انجذبت أيضًا إلى اختلاف يميّز الفنّ الإسلاميّ، وأردت أن أعبر بوابة حديقة الفن الأوربّيّ الغربيّ المعتاد؛ لأعرف كيف يفكر الآخرون؟ وبمَ يؤمنون؟ وكيف يشيدون؟ أردت أن أتعقّب مجموعة من الفروق الفنيّة، ومن بين فنون العصور الإسلاميّة كلّها كانت فنون سلاجقة الأناضول هي الأقوى تأثيرًا في نفسي، أضف إلى ذلك تميّز القرن الثالث عشر؛ لما شهده من ارتقاء كبير في أنحاء العالم كلّها؛ من الذي يسعه ألّا يتأثر بعصر شهد الحروب الصليبيّة، وجنكيز خان، ودانتي، وشعر التروبادور البروفنساليّ، والماجنا كارتا -ميثاق الحريّات-، والكاتدرائيّات القوطيّة الشاهقة في فرنسا؟ عصر جدير بأن يعيشه المرء، وقد عاش السلاجقة وسط هذا كلّه، ومنحوا إسهاماتهم الخاصّة لإثراء هذا القرن؛ انجذبت بشدّة إلى روح تسامحهم، وتقبّلهم للشعوب الأناضوليّة كلّها بعد دخولهم الأناضول، وأعجبني اجتهادهم العمليّ ورغبتهم في صياغة هُويّة اجتماعيّة جديدة تحترم الأسلاف، لكنّها في الوقت نفسه تمنح جدول أعمال مُلزمًا، وانبهرت انبهارًا خاصًّا بربطهم الفنّ المعماريّ بالتنمية الاجتماعيّة، وبإدراكهم أنّ الفنّ والمعمار يمكنهما، بل ويجب عليهما ألّا يساعدا في بناء نموذج مثاليّ فقط، بل أن يضمنا رخاء المواطنين أيضًا؛ أردت أن أتعرّف إلى هؤلاء الناس وإلى مجتمعهم على نحو أفضل، وفوق هذا كلّه أردت أن أتعرّف إلى فنّهم المعماريّ على نحو أفضل.

من بين المباني السلجوقيّة كلّها بدت الأخوان أكثر جِدّة ونفعًا؛ حيّرتني هذه المجموعة من المباني العمليّة الجامعة بين المنفعة والجمال؛ يعرّف المهندس المعماريّ، المدنيّ، الرومانيّ، الشهير فيتروفيو الفنّ المعماريّ بأنّه: «القوّة، والمنفعة، والجمال»، وهذه الأخوان تضرب خير

مثال على المزج الموفّق بين هذه السمات الثلاث: فالقوّة تتمثّل في أنّها مشيّدة بقوّة بالطبع، والمنفعة تتمثّل في أنّها تفي بغرض تشجيع التجارة، والجمال يتمثّل في بذل الجهد لتشييدها جميلة.

في الواقع وافقت الأخوان ذوقي؛ فهي كبيرة وقويّة ودقيقة ونشيطة، وكلّها سمات لا تحظى بإعجابي في الفنّ المعماريّ فقط، بل أيضًا في الناس، والأطعمة، والأدب، والفنون؛ فقرّرت لحظتها في ذلك المكان دراستها دراسة تفصيليّة؛ فقضيت الثلاثين عامًا الماضية أَتَتَبَّع خطوات السلاجقة، وأفتّش عن آثارهم، وأتعرف إلى تاريخهم، وأقرأ أدبهم، وأتشرّب تعاليم دينهم، وأستوعب عاداتهم العلميّة؛ تعلّمت كثيرًا عن هذه الأمور كلّها، وأصبحت معجبة جدًّا بالسلاجقة لعدّة أسباب واضحة؛ فبالإضافة إلى رؤيتهم العمليّة النشيطة المشجّعة للعمل الحرّ، أرى أنّهم وضعوا الأساس للقيم الإنسانيّة كلّها الملهمة للثقافة التركيّة، مثل: التسامح، والحريّة، والحبّ، والصداقة، والكرم، والتعدّد الثقافيّ، وحسن الجوار، والوطنيّة، واحترام الآخرين، وفي الوقت نفسه شيّدوا طرقهم وأخوانهم، فأرسوا أحجار الأساس لتنمية القيم الثقافيّة، مثل: التقدّم، والتعليم، والنموّ الاقتصاديّ، والتخطيط طويل الأجل، والتوسّع، والسعي الفكريّ، والعدالة، وحريّة الرأي؛ وعمِل حكّامهم على تحسين حياة المواطنين ببناء المدارس، والمساجد، والمستشفيات، والمراصد، وحفز علمائهم ومثقّفيهم إلى التقدّم في الطبّ والكيمياء والقانون والفلك، وتغنّى كتّابهم الشعبيّون وشعراؤهم ومتصوّفوهم بمُثل الحبّ، والودّ، والكرم، والروحانيّة في إبداعاتهم، وحَصَدَ فلّاحوهم الكادحون الرخاء من الأرض السوداء، وحسّن تجّارهم أسواقهم بمهارة وأمانة، وشيّد معماريّوهم وفنّانوهم آثارًا تغنّت روعتها وتفاصيلها بهذه القِيَم عبر سهول الأناضول؛ ليسمعها الناس جميعًا.

أمكـن تشـييد الكنوز المعمارية كلّهـا الباقية لنا من هـذه الحقبة؛ لأنّ هؤلاء السلاطين -أصحاب الرؤية- أمروا ببناء مبانٍ تدفع عجلة التجارة، فحفـزت تشـييد أنواع أخـرى مـن المباني المصمّمـة لتعكـس تطلّعاتهم الثقافيّـة، وبصورة أو بأخرى يبدو هـذا التخطيط مألوفًا لمن يراقبون تركيا المعاصرة أو يعيشـون فيها؛ فنمور تركيا الأقوياء اليوم ليسـوا سوى أحفاد لسـلاجقة قونيـا، وأنا أؤمن أنه لـولا الجهود الجبّارة للسـلاجقة في بداية إنشاء الإمبراطوريّة، لَما قامت الدولة العثمانيّة أو جمهوريّة تركيا الحديثة؛ وليس بمسـتنكَر أن يعود أتاتورك لقلب دولة السـلاجقة الجغرافيّ المثاليّ كي يقيم عاصمته في أنقرة، وينشر من هناك رؤيته لتركيا المستقبل، ويعيد ترسيخ الشعور بالفخر النابع من العمل الجادّ والتقدّم والصناعة بوصفها مقوّمـات المجتمـع الناجح، وهـي مقوّمات نراهـا تتجدّد يوميًّـا بحيويّة في تركيا اليوم.

ولمـا كان كثيـر من الأخوان ما زال قائمًا حتى الآن، أمكنني دراسـتها وتحديـد مبادئ عامّـة تتعلّق بهـا، مثـل: تصاميمها، ورعايتها، وشـبكات الطُّـرُق عليهـا، وزخارفها؛ فاسـتمتعت -بوصفي أمينة مكتبة- بالدراسـة، والتصنيف، وموازنة هذه المجموعة الفريدة الموحّدة، وشـرعت في تنفيذ خُطـة منهجيّـة مدروسـة، لزيـارة منطقة تلو أخـرى كلّ عـام، ورؤية أكبر عـدد ممكن من هذه الأخـوان، كنت أخطّط للرحلات قَبْلًا بمنتهى العناية والاهتمـام، وأزور عـدّة أخوان في المنطقة الواحدة في كلّ رحلة، وكانت جلّ مغامراتي في رحلاتي مثيرة شائقة كالآثار نفسها.

كثيـرًا مـا واجهـت تحدّيـات متزايـدة للعثور علـى خـان، كالخرائط الخاطئـة، والطـرق الوهميّـة، والعلامات الإرشـاديّة الغائبـة... إلخ، لكنّ أكثرهـا خيبـة أمل كانت قلّة عدد الأتراك القادرين على مسـاعدتي، حينما أسـأل عـن الاتّجاهات؛ فاجتمـع ضعف لغتي التركيّـة، ولهجتي الأجنبيّة، واختلاف اللهجات المحليّة؛ ليجعل سؤالي عن الاتّجاهات تحدّيًا إضافيًّا،

ومن الصعوبات الأخرى التي واجهتني أنّ الشخص التركيّ يكره الإقرار أنّه لا يعرف ما تسألين عنه، أو لا يعرف مكانه؛ علمت أنّ الأتراك يفضّلون حفظ ماء وجوههم على الاعتراف بالحقيقة، ويجدون أحيانًا صعوبة في التمييز بين النظريّة، والرغبة في المساعدة، والتطبيق؛ فهم يخبرونك أنّ شيئًا ما موجود، أو أنه في مراحل التخطيط لمجرّد إسعادك، ولا يعرف سائقو سيّارات الأجرة غالبًا المكان المراد الذهاب إليه، لكنّهم نادرًا ما يعترفون بذلك، ويظلّون يدورون في دوائر، ويرفض التركيّ أن يريك شيئًا يعتقد أنّه لا تجدر بك رؤيته، وهذا أشبه بنادل لا يسمح لكِ بتناول ما تشائين في المطعم، إذا لم يعتقد أنّه في مصلحتك، وفي حال عرف سكّان المنطقة كومة صخور قديمة أتحدّث عنها، فإنّهم يحكّون رؤوسهم دهشة من رؤية هذه المرأة الأجنبيّة -السائلة عن الاتّجاهات- لتلك الكومة، أحيانًا أحسدك -يا سيّدة ماري-؛ لأنّك حظيت دائمًا بدليل خاصّ يرشدك أثناء جولاتك في القسطنطينيّة، ولما كنت أوّل من يرتاد هذه الأماكن، كثيرًا ما وجدت نفسي في طُرُق معقّدة ملتوية للعثور على خان، لكنّني حظيت خلال ذلك بفرصة قضاء الوقت في التحدّث مع الناس، وتعلّم عادة محليّة ما كنت لأتعلمها، لو أنّني وصلت وجهتي مباشرة؛ لذا صارت قاعدتي الذهبيّة هي أن أتحلّى بالصبر، وألّا أتعجّل أو أنزعج؛ لأنّني لا أستطيع الحصول على إجابة سريعة عن أسئلتي، وأن أتقبّل حقيقة أنّ أيّة إجابة أحصل عليها قد تشوبها المبالغة، وأن أستغلّ هذه اللحظة في إقامة علاقات مثيرة؛ فالأفضل أن تسألي خمسة أشخاص مختلفين عن الاتجاه، وتأخذي برأي الأغلبيّة، وأن تأملي في العثور على مبتغاكِ بعد السفر خمس مئة ميل إلى مكان حارّ جافّ، وراقبي كلّ شيء حولك جيّدًا، وفي نهاية المطاف ستتمكنين من العثور على خان تبحثين عنه؛ لأنّ التركيّ لن يقول أبدًا: «لا أعرف»، ويتركك حائرة، ثقي من ذلك؛ لن يجيبك التركيّ أبدًا: «لا أعرف»، إذا سألته عن معلومات،

بل سيقضي يومًا كاملًا بصحبتك محاولًا مساعدتك في العثور على كنزك؛ لأنّ التركيّ شخص متفائل دومًا.

ظهر هذا التفاؤل أثناء بحثي عن خان ألتين أبا؛ كنت قد قرأت في عدّة كتب أنّه ما زال قائمًا، ورأيت صورًا قديمة له في كتب عتيقة، لكن كان من المستحيل العثور عليه على الطريق خارج قونيا في البقعة المذكورة؛ أوقفت سيّارتي عند حديقة شاي على جانب الطريق؛ لأسأل عن الاتّجاهات، وما أعقب ذلك كان أحد المشاهد الفوضويّة التركيّة العاديّة، فأنا أمام ستّة أتراك يمنحون ستّ إجابات منقوصة مختلفة؛ في البداية اقتربت من رجل تركيّ في الخمسين من عمره ظنًّا منّي أنّه يعرف جيّدًا منطقة عاش فيها، سكت برهة ثمّ قال:

- نعم، لقد سمعت به، نعم، دعينا نفكّر، هذا صحيح، ثمّة خان في مكان ما...

لم يبدُ أنّه يعرف شيئًا، لكنّه لم يرد أن يبدو عديم النفع، وواصل الحديث محاولًا منحي ألطف إجابة ممكنة، ثمّ ظهر تركيّ آخر، واشترك في الحديث، ثمّ صاح قائلًا:

- أعتقد أنّني أستطيع المساعدة! أنا واثق أنّ أصدقائي سيعرفون!

وأخذني إلى مكان ساحر يحوي طاولات لجلوس المتنزّهين تطلّ على بحيرة تكوّنت بفضل سدّ ألتين أبا؛ فرأينا ثلاثة أتراك جالسين هناك يستمتعون بالمشهد المطلّ على الماء، ويدخّنون اللفائف، ويحتسون الشاي، وضع التركيّ الثالث كوب الشاي، وأشار إلى الجهة الأخرى من البحيرة:

- أترين روضة أشجار الحور الماثلة هناك؟ الخان خلفها، يمكنك العثور على طريق يوصّلك إلى هناك.

فقاطعه رفيقه التركيّ الرابع قائلًا:

- كلّا، -يا أخي- إنّه ليس هناك قطعًا، لقد انهار ذلك الخان تمامًا، ولم يعد له وجود!

وبدأت نبرة الصوت تعلو، ثمّ تدخّل رفيقهم الخامس قائلًا:

يا أخويّ، أنتما مخطئان؛ فالخان في قاع البحيرة!

ثمّ اشتعلت نقاشات حامية تتضمّن كثيرًا من التلويح بالأيدي، والصياح، والوكز، واللكز مع طلب الشاي مرّة أخرى بغية التوصّل إلى الرأي السليم، أمّا التركيّ السادس -بدا أنّه الحكم في هذا الموقف-، فقد أنهى النقاش بقوله:

- أينما كان، فأنا متأكّد أنّه بخير؛ لا تقلقي بشأنه سيّدتي السائحة، وستجدين كثيرًا من الأخوان القديمة في هذه المنطقة، إذا رغبت في رؤية أحدها، ثمّ ما الذي يميّز ذلك الخان خِصّيصًى؟ سأساعدك في العثور على خان آخر سينال إعجابك!

في الحقيقة كان التركيّ الخامس على حقّ؛ إذ راح خان ألتين أبا ضحيّة مأساويّة لتنفيذ مشروع السدّ التركيّ القويّ؛ فقد غمرته المياه، حينما شُيّد السدّ عام ١٩٦٧م.

في مناسبة أخرى واجهت صعوبة في العثور على خان كيركجوز بالقرب من أنطاليا؛ إذ حدث موقف مشابه لما حدث في ألتين أبا، حينما توقّفت لأسأل عن الاتجاهات؛ إذ هرول خمسة أتراك تجاهي، وبدؤوا يتناقشون فيما بينهم، ولكلّ واحد منهم رأيان؛ احتدم النقاش بينهم احتدامًا شديدًا حتى إنّني بدأت أخشى العواقب، وقبل أن أدرك ما يحدث ثارت ثائرتهم وبدؤوا يتدافعون ويتضاربون؛ تراجعت خشية إصابتي بإحدى اللكمات، لكنّ فارسًا شهمًا من بينهم رفض أن يدعني أنسحب خُلسة،

ورغم أنّ صديقيه لم يصدّقاه، وأهاناه، وأوسعاه ضربًا، فإنّه صمد، وأخبرني بدقّة كيف أصل إلى هناك، ووصف لي علامات واضحة أبحث عنها في طريقي، شعرت بالثقة لسماعي وصفه الواضح، وتتبّعت العلامات واحدة تلو أخرى: نقطة شرطة عسكريّة، وشجرة ذات ثلاثة أفرُع، ومنزل بابه أخضر، وتبيّن لي أنّه كان محقًّا؛ وحده التركيّ الحقيقي يتحمّل هذا العناء كلّه؛ ليساعد غريبًا حتى وإن أُصيبَ بكدمة حول العين!

كما ذكرت من قبل، تعلّمت من تجاربي الكثيرة أنّ الأشخاص لا يدركون دائمًا الثروات التاريخيّة في منطقتهم، أو في المناطق المجاورة؛ فلا تشكّل قطعة معماريّة، تاريخيّة، رائعة -قطعْتِ خمسة آلاف ميل لمشاهدتها- لهم سوى كومة من الأحجار؛ يبذل السكّان المحليّون جُهدهم كلّه لفهم سؤالي، لكنّهم في أغلب الأحيان يهزّون رؤوسهم فقط، ويخبرونني: "أنّهم لا يعرفون ألبتّة ما أتحدّث عنه"، ورغم هذا تعلّمت طريقة مفيدة ساعدتني بحقّ، وهي أن أتزوّد بصور أو رسوم كلّما أمكن؛ ذات مرّة خطّطت للقيام برحلة إلى أغيردير لزيارة خان جلاندوست، قرأت أنّه يقع على بُعد ثلاثين ميلًا شمال المدينة؛ توجّهت إلى موقف سيّارات الأجرة البلديّ بجوار محطّة الحوافل، وتحدّثت إلى خمسة عشر سائقًا أو يزيد من الجالسين فوق جدار منخفض يقضون وقتهم في احتساء الشاي، ولعب الطاولة، وقراءة الصُّحُف، والثرثرة، واستخدام السُّبَح، والتدخين؛ عقدت آمالي على أحدهم، علمًا منّي أنّ البقيّة سرعان ما ستشارك في الأمر على أيّة حال، وسألته: إن كان يعرف الخان؟ وما إذا كان بوسعه أن يوصلني إليه؛ تيقّنت فورًا أنّه لا يعرفه، لكن -كالمعتاد- لن يصرّح بذلك، تلا ذلك جلسة استشاريّة، أدلى فيها كلّ سائق من الخمسة عشر سائقًا برأيه، دون أن يكون لدى أيّ منهم علم بمكان الخان؛ علت الأصوات، وبدأ الجدال والتلويح بالأيدي، وخشيت هذه المرّة أيضًا نشوب عراك بالأيدي؛ ولكي أنقذ الموقف، أخرجت

صورة منسوخة من كتاب قديم للخان بغيتي، وعرضتها عليهم، وبالفعل تعرّف أحدهم إلى كومة أحجار أعنيها، رغم أنّه لم يعرف ماذا تمثّل في واقع الأمر؟ فانطلقنا إلى هناك، ولم تواجه السائق أيّة مشكلة في العثور على الموقع، وكم استمتعت في تلك الظهيرة بسرده تاريخ المبنى وتوضيح السبب في أنّه أكثر من مجرّد كومة أحجار؛ أنا واثقة أنّه نقل كلامي كلّه للسائقين الآخرين العائدين إلى منازلهم لينقلوا ما سمعوه إلى أسرهم، ومنذ ذلك الحين اكتشفت أنّ الصورة -إذا توفّرت- تعدّ وسيلة استكشاف قيّمة في موقع البحث!

لم أشعر بالإحباط قطّ بعد انتهاء مغامرة البحث عن خان، كان الشعور نفسه ينتابني، حينما أقف أمام أيّ خان؛ كنت أتأمّله بعيني مراهقة مفتونة برؤية نجم سينمائيّ، وكما هو الحال مع كرات الثلج المتساقطة والقطط، كان كلّ خان يختلف عن الآخر؛ كانت ألوان الأحجار مختلفة، وزخارف البوّابات أقلّ أو أكثر تفصيلًا، والموقع قاحل أو وارف، والمكان وسط حقل أو على جانب الطريق؛ أحببت الوقوف طويلًا أمام الأخوان، كي أستوعب هذه الاختلافات كلّها، وأستشعر تاريخ كلّ منها، وأتصوّر الطاقة المبذولة لتشييدها قبل ثماني مئة عام؛ أردت أن أحفظ شكل واجهاتها وشخصياتها المتفرّدة، وأن أعقد صداقة مع كلّ خان قبل أن أدخله وأنا أكنّ له كلّ احترام!

كان دخول الأخوان يثير المشكلات في أغلب الأحيان؛ فيقودني ذلك إلى المشكلة الثانية التي واجهتني في رِحلاتي؛ فإمكانية دخول الأخوان لم تكن مضمونة قطّ، ودائمًا ما يشكّل تحدّي الدخول مغامرة قائمة بذاتها؛ من المحبط والمخيّب للآمال بعد إنفاق كثير من النقود لزيارة تركيا، وبذل كثير من الجهد في الرحلة الشاقّة إلى سهول الأناضول، ثمّ محاولة العثور على خان، أن ينتهي الأمر برؤية سلسلة حديديّة ضخمة وبوابة موصدة بقُفْل، لكن تَذكّري، هذه تركيا، ولا شيء مستحيل هنا،

يمكن تحقيق كلّ شيء بمساعدة الأصدقاء المستعدّين لفعل أيّ شيء لتلبية مطلبك بأيّة طريقة ممكنة؛ وتركيا عامرة بالأصدقاء، خاصة في حالة امرأة تريد دخول خان!

ذات مرّة حينما وصلت أعتاب خان دوراجان، جفَل قلبي؛ إذ كانت البوّابة موصدة بإحكام بقُفل وسلسلة رهيبين، وفجأة رأيت بائع خَضراوات يعدو نحوي من الناحية الأخرى من الطريق، وكأنّه سمع تنهيدتي بأذنين تسمعان أخفت الهمسات، وطلب منّي أن أنتظر حيث أنا، ثمّ ركض باتجاه آخر الشارع، وأمسك كنّاس بلديّة كان يحمل سلسلة من المفاتيح، لم يفهم المسكين لماذا جذبه البائع من ذراعه؟ وانتزع مِقشّته من يديه، وجرّه نحوي في أول الشارع؛ تجادل بائع الخضراوات مع الكنّاس كثيرًا، وفي النهاية استسلم الكنّاس المسكين المرتبك، واستخرج المفتاح من سلسلته، وفتح لي الباب كي أدخل الخان، كان قد رُمّم ليصبح مركز تسوّق، لكنّ أجنحته لم تؤجّر بعد، وكان المكان خاليًا تمامًا، ثم علمت أنّ الخضريّ لم يقصد أن يقلّل من شأن كنّاس الشارع أو أن يعامله بقلّة احترام؛ فقد أدرك بفطرته أنّ الرجل رغم ضعف حاله، سيشعر بأهميّته، إذا ساعد شخصًا حضر من مسافة بعيدة، وأنّني سوف أمنح الكنّاس مكافأة تقديرًا لوقته وجهده؛ فاصطاد الخضريّ عصفورين بحجر واحد؛ إذ ساعد كلينا على فعل الخير، وتمكّنت أنا من رؤية الخان بغيتي.

مرّة أخرى ذهبت إلى مدينة إنجاجوس؛ لأزور مجمع كارا مصطفى باشا وخانه العثمانيّ الواسع، كان الخان موصدًا بإحكام؛ وجفَل قلبي كالمعتاد، ورآني شخص تركيّ أكتام أي أقف على أطراف أصابعي محاوِلة اختلاس النظر من النوافذ المرتفعة، فاقترب، وطلب منّي أن أصطحبه، وحينما وصلنا إلى ركن بعيد من أركان الجدار الخارجي للخان، طلب منّي أن أنتظر قليلًا، ثمّ اختفى، لم يمرّ وقت طويل

حتى شاهدت حجرًا في الجدار يتحرّك في مكانه، ثمّ يسقط بالداخل، ثمّ امتدّت يد لي من الداخل، وجذبتني عبر الفتحة الصغيرة لأدخل الخان، وبينما تلوّيت خارجة من الفتحة إلى ساحة الخان الفسيحة، رأيت الرجل ينتظرني بابتسامة عريضة، يملؤه الفخر بعمله البطوليّ، لكن مرّات كثيرة أخرى كنت أعثر على الخان الموصد بالقفل في مكان مهجور تمامًا، دون أن تظهر يد تركيّة سحريّة لتجذبني عبر ممرّ سريّ؛ حينئذٍ كانت الشخصيّة الأمريكيّة التقليديّة تتحرّك فيّ، وتمنحني الجرأة بطرق ما كنت أحلم بها وأنا في وطني؛ فكنت أضغط قوامي الكبير نسبيًّا لأمر عبر فتحة صغيرة في الباب، أو أتسلّق الجدران عبر التمسّك بشقوقه لأؤمّن موطئًا لقدمي لأتمكّن من تسلقه، ثمّ أرمي نفسي في ساحته، كقطة متلصّصة، وعندما يكون الجدار بالغ الارتفاع، أكدِس مجموعة من الأحجار لأصنع سلّمًا يعينني على بلوغ القمّة، كنت أجري، ثمّ أثب من كومة أتربة، مثل لاعبي القفز على الزان في الألعاب الأوليمبيّة؛ حقًّا كان الانضغاط للمرور عبر باب ضيّق، وتسلق الجدران لمشاهدة الأخوان من الداخل يهوّن خدوش مفاصل الأصابع، وتكسّر الأظافر، وجرح اليدين، والكدمات، والتواء الكاحلين، وجرح الركبتين؛ لن أنسى أبدًا شعوري في أولى زياراتي لخان بازار، حينما تجرّأت على فتح الباب عَنوة، وتسلّلت إلى الداخل، برغم الصيحات الغاضبة لقطيع الإوَزّ الواقف بالخارج يحرس الخان، وبينما شققت طريقي عبر الشجيرات البرّيّة، والأعشاب الغزيرة منصتة إلى صوت رفرفة لجناحي حمامة في الرواق، استطعت أن أرى ما وراء ركام الأنقاض والأحجار الملقاة؛ اكتشفت خانًا ذا تصميم غاية في القوّة، وعناصر زخرفيّة رائعة تنمّ عن غاية البراعة، الأكثر من هذا أنّني استشعرت روح المكان؛ شعرت أنّ التاريخ يتحدّث إليّ، وأدركت أنّ واجبي منذ تلك اللحظة فصاعدًا أن أعيد الحياة لقصّة هذا الخان ولغيره من الأخوان

الكثيـرة الأخرى، ورغم أنّني كنـت مبدعة ورياضية جدًّا خلال محاولاتي مشـاهدة الأخوان داخلها، لم يسـبق لي أن كسرت قفلًا أو بابًا كي أتمكّن مـن الدخـول؛ فحينمـا كان الأمر يصل إلـى حدّ الكسـر والاقتحام، كنت أعتمد على الأتراك كي يقوموا بهذه المهمّة.

مـرّة أخـرى رأيـت بنفسـي كيـف لا يألـو الأتـراك جهـدًا في سـبيل مسـاعدتك، وخدمتك، والتأكّد من تلبية مطلبك، وغالبًا ما يقومون بذلك بطُـرُق مثيرة، ولعلّك تذكرين -يا سـيّدة ماري- أنّنـي حدّثتك عن زيارتي السـارّة لمدينة سـيرت شـرق تركيا؛ إذ نجوت من هجوم حشـد غوغائيّ مـن أطفال الشـوارع، ولما أفلتّ منهم عزمت علـى تحقيق رغبتي وزيارة المسـجد الكبيـر في المدينة، وهو من أقدم المسـاجد فـي تركيا، بُني عام ١١٢٩م؛ خـرج رجـل من المنـزل المجاور، وأخذني تحـت جناحه، كما لو كان ملاكًا حارسًـا مرسـلًا من السماء، لكنّ المسـجد -وا أسفاه- كان موصدًا بإحكام بالسلسلة والقُفل، فهزّ الرجل رأسه أسفًا، وبعد ثوانٍ قليلة رأيت طفلًا قذرًا من أطفال الشـوارع يحـدّق فيّ ويتعقّبني؛ بدا كأنّه يعتذر عمّا بدر من رفاقه، وقال: إنّه مستعدّ لمساعدتي، ثمّ أخرج الشريد الصغير من جيبه قطعة معدنية طويلة جدًّا تبدو، كنصل سكين مكسور، وبدأ يعبث بالمِـزلاج، ثمّ أمسـك القفـل، كما لو كان لصًّا محنّـكًا، وفي غضون ثوانٍ انفتـح القفل، وفتـح الصغير الباب أمامي في خُيَلاء كـي أدخل؛ فمنحني المتعة المحرّمة لتأمّل هذا المسجد الرائـع من الداخل؛ دخل معي الملاك الحارس والشـريد، شـريكاي فـي جريمة ارتُكبت لخدمـة إحدى الزوائر، ولخدمة التاريخ!

ليـس هناك شـيء يُعدّني لمغامراتي الخارقـة لدخول بعض الأخوان؛ منها ما حدث في نُزُل زازادين خارج قونيا؛ يقـع الخان في منطقة مهجورة إلى حدّ ما، وسط حقول مزروعة، حينما اقتربت من الخان ورأيت الأبقار

ترعى أمامه، تذكّرت منظرًا رأيته، وحينما حدّقت المرّة الأولى في هذه الأحجار الذهبيّة في مدرسة جوك في سيواس قبل عشر سنوات؛ سرت عبر حقل مهجور مليء بالحطام والأشواك لأصل إلى البوّابة الرئيسة الرائعة، وبالطبع كانت مغلقة بالقفل؛ فجفَل قلبي بقوة تضارع قوّة القفل؛ ليس عدلًا أن يخيب أملي بعد تلك الرحلة الشاقّة الحارّة عبر حقل شائك مزّق حاشية ثوبي، وأدمى كاحليّ!

ما من أثر لأيّة حياة في المكان باستثناء تلك الأبقار والذباب الطنّان فوق رأسي؛ وفقدت الأمل في أن تمتدّ إليّ يد العون؛ فجدران الخان بالغة الارتفاع، فأدركت أنّني لن أتمكّن من تنفيذ إحدى محاولاتي المضنية لتسلّقها؛ كنت محبطة، لكنّني عازمة على تحقيق أقصى استفادة من الزيارة؛ فشرعت أسير حول الخان الشاسع كي أشاهد جدرانه الخارجيّة الرائعة، كانت مزيّنة بعدد هائل من أحجار منقوشة أُخذت من الكنائس البيزنطيّة، وبينما وقفت هناك أرسم على ورقة تصاميم إحدى الأحجار المعاد استخدامها، شعرت بشخص جواري؛ ظهر جانبي فجأة دون أن يصدر أيّ صوت، رجل غريب المنظر، أسود الشعر، ذو عينين جاحظتين، يرتدي زيًّا متّسخًا كَعْكيَّ اللون، وحذاء عسكريًّا، ويحمل بندقيّة سوداء طويلة من مقاس اثني عشر؛ تنّهدت، وفكّرت؛ كيف سأخلّص نفسي من هذا الموقف، وأنجو بحياتي؟ حدّق فيّ، ونظر إلى دفتري، وبدأ يتحدّث وعيناه الآبَنُوسيّتان تلمعان في ضوء الشمس؛ واجهت بعض الصعوبة في استيضاح كلامه المتداخل، لكنّني فهمت أنّه بدويّ يقتات على ما يصطاده من الأرض، وأنّه جاء إلى هذا المكان لاصطياد الطيور، وأخبرني أنّ الخان كان عامرًا بأنواع كثيرة من طيور سمينة يستطيع اصطيادها بسهولة، ثمّ قال:

- تعالي؛ سأريك.

وتبعته، رغم أنني كنت قلقة جدًّا؛ هل أتبع رجلًا شريدًا، أشعث، ذا عينين جامحتين، وبيده بندقيّة، إلى منطقة مهجورة في أمريكا؟ لم أكن لأفعل ذلك أبدًا، لكنّنا في تركيا، فشعرت أنّ مغامرتي لن تنتهي نهاية مأساويّة، سرنا حتى وصلنا إلى واجهة الخان مرّة أخرى، فرفع بندقيّته دون أن يتردّد لحظة، وصوّب نحو الهدف؛ ظهر وميض، وسُمعت فرقعة أنهت أمر القُفل؛ فتدلّى من الجزء المعدنيّ المحروق في إطار الباب، ولم يعد يشكّل عائقًا أمام دخولي أو أمام ذلك الباحث عن عشائه؛ وبهذه الطريقة المبتكرة تمكنت أن أدخل أحد أروع الأخوان وأكبرها في تركيا؛ إذ كان -بالفعل- مليئًا بطيور سمينة، وبينما انطلق رفيقي الصيّاد خلفها، غادرت سائلة نفسي: "هل سأحظى مرّة ثانية بزيارة مثيرة كهذه؟"

بالطبع كان عليّ أن أعرف أنّني سأحظى بمغامرات دخول استثنائيّة أخرى؛ فبعد سنوات قليلة أوقفت سيارتي أمام خان قاراتاي بعد قضاء وقت عصيب في محاولة العثور عليه، وقضاء ساعتين محبوسة في السيارة وسط قطيع من الخِرفان كان في طريقه إلى السوق، وهناك أيضًا وجدت قطيعًا رائعًا من الإوَزّ يحرس البوّابة الأماميّة، وكانت الجدران مرتفعة يتعذّر تسلّقها، ورأيت سلسلة وقُفلًا يوحي شكلهما بأنّهما جديران بالتعليق على باب قصر طوب قابي، لا بوّابة خان مهجور؛ شعرت باليأس، فلن أتحمّل مرّة أخرى الفشل في زيارة خان! ركلت الباب محبطة، وحاولت أن أرفع السلسلة لأستشعر ثقلها، فلم يسبق لي أن شاهدت واحدة بهذه الضخامة، ظهر أمامي صبيّ لا يتعدّى الخامسة من عمره، وحدّق في وجهي المحبط، وشعر بتعاستي من زفراتي، وتجهّمي، وركلي الباب؛ جرى مسرعًا وبعد عدّة دقائق سمعت من بعيد صيحة ودّية:

- مرحبًا، حضرتُ لأساعدك.

نظرت لأرى تركيًّا يهرول نحوي، ويلوّح لي مبتسمًا، والصبيّ الصغير يعدو خلفه محاولًا اللّحاق به، عند اقترابه منّي رأيته يحمل فأسًا في يده اليمنى، لم تكن مجرّد فأس صغيرة، بل فأس من شأنه أن يُسقط الشجر الأحمر، سألني:

- أعتقد أنّك ترغبين في الدخول؛ لا تقلقي، حضرت لأهتمّ بذلك؛ اتركي ليَ الأمر!

بينما كان الصبيّ الصغير ذو العينين النجلاوين يقف إلى جواره، رفع الرجل فأسه الضخم وشرع يهوي بها على سلسلة ضخمة كأنها تنّين ناريّ، ولمّا كان فارسِي الشّهم فخورًا باستعراض قوّته ورجولته أمام فتاة تحتاج المساعدة، فقد ظلّ يهوي بقوّة على السلسلة محدثًا جلبة؛ وما هي إلا ضربات أربع قويّة حتى انكسرت إحدى حلقات السلسلة، وتحرّر القُفل، وبجَهد جهيد دفع الباب الخشبيّ صارًّا، ثمّ استدار نحوي، وبابتسامة عريضة عِرَض بوّابة الدخول، وبحركة مسرحيّة من ذراعه أشار لي بالدخول، كما لو كنت السلطان علاء الدين كيقوباد نفسه، ولوهلة شعرت فعلًا أنّني، مثل ذلك السلطان الصالح!

كانت محاولات الاقتحام والدخول كلّها جديرة بالمخاطرة، فلحظات المتعة الناجمة عن اكتشاف هذه الأخوان لا تقدّر بثمن؛ كانت إحدى لحظاتي المفضّلة، حينما عبرت سيرًا على الأقدام الجسر ذا الثلاث عشرة قنطرة -من أطول جسور تركيا- قريبًا من خان كيسك كُبرو، وأنا أنصت إلى صوت البقبقة لمياه النهر الأحمر أسفل الجسر، وصيحات صبية صغار يستحمّون في مياهه، واستمتعت بقضاء وقت بعد الظهيرة في خان إسيز جوار أبوليانت، بات مخزنًا لمنتجات المزارع؛ جلست وسط أكوام البصل الضخمة المخزّنة هناك، وشعرت بالدُّوار من رائحتها المُسكِرة،

ثمّ شرعت أساعد الفلّاحات في صفّ البصل أكوامًا حسب الحجم؛ ضحكْن منّي، حين ترددّت في العمل، أو ربّما ضحكن من لهجتي، أو ثيابي الغريبة، لكنّنا ضحكنا، وتشاركنا لحظة من لحظات الاتّحاد الأنثويّة، رغم ما بيننا من اختلافات؛ أذكر أيضًا أنّني استيقظت مبكّرًا يوم ما، وذهبت لزيارة تمثال السلطان علاء الدين كيقوباد عند مدخل مدينة ألانيا، فكّرت -وأنا واقفة أمامه- في حياة سلطان سلجوقيّ فتح هذه المدينة عام ١٢٢١م، وكان مسؤولًا عن بناء كثير من هذه الأخوان بغيتي، ظهر فجأة أحد عمّال البلديّة، واختفى داخل قاعدة التمثال، ثمّ شغّل الفوّارات كلّها في الحديقة المحيطة ليزيد من تأثير لحظة تقدير تاريخيّ أعيشها، وهذا مثال آخر للفتات لطيفة حدّثتك عنها يا سيّدة ماري.

عشت تجربة أخرى رائعة أثناء بحثي عن خان دوغو بايزيد، تحت ظلال جبل أرارات بالقرب من الحدود الإيرانيّة؛ ذات صباح وأنا واقفة في شرفة غرفتي بالفندق المواجه لمحطّة "سيم أرْ" للشواحن في الساعة السابعة والنصف، سمعت جلبة شواحن النقل الدوليّ المتأهّبة للمغادرة؛ شاهدتها تغادر مواقفها في موكب يضمّ سبعًا وخمسين شاحنة واحدة تلو أخرى؛ فتخيّلت مشهد التجّار وجِمالهم أثناء عبورهم كلّ صباح بوّابات الأخوان الضخمة السلجوقيّة، متأهّبين للانطلاق في الاتّجاهات كلّها ليسلّموا بضاعتهم ويبيعوها؛ لا تزال الطُّرُق التجاريّة السلجوقيّة مفعمة بالحياة حتى اليوم.

يسألني الناس جميعًا دائمًا عن الخان المفضّل لي، لكنّني لا أستطيع التحديد، كما لا أستطيع اختيار أفضل قصيدة، أو لوحة، أو صديقة، لكنّني أتذكّر بعض الأخوان أكثر من غيرها، غالبًا بسبب مغامرات الاقتحام والدخول المثيرة، أو بسبب مواقعها، أو مميّزاتها المعماريّة،

أو عبقهـا التاريخيّ، أو لأسـباب شـخصيّة؛ فأنا أشـعر بالمهابة لدى رؤية خان شارافسـا يقف كالنسر فـي موقعه المثير المطلّ علـى البحر الأبيض المتوسّـط، وتعجبني الأبراج الضخمة لخـان قاراتاي، تعكس قوّة صاحبه الوزير جلال الدين قاراتاي وبأسه، ويروق لي خانا أغزيقارا وساري بفضل أحجارهمـا المتلألئـة بلون السُّكّر المحروق، وخان سـلطان في قيصري بفضل رسـوم الثعبان التنّين الآسـرة المحفورة فوق ساحة جناح المسجد، ويؤثّـر فـيّ موقـع خان كارجي المنعزل تمامًا، وتذهلني المكوّنات المتقنة لخان كيسـك كبرو وذلك الجسـر المجاور لا يُنسـى، وأشعر بالضآلة أمام ضخامة ساحة خان كيركجوز، وبالإلهام من الزخارف الموحية على بوّابة خان إودير، ويحيّرني التفكير في أصول أحجار لامعة أُخذت من الكنائس البيزنطيّـة لترصّـع جدران خانـي أوبروك وزازادين، ثمّة أمـر واحد أكيد؛ فأنـا أسـتطيع فـي تلـك الأخـوان كلّها سـماع أصـوات أصحابهـا تتردّد فـي الأروقـة، مثل السـلاطين: عـلاء الدين كيقوبـاد، وقاراتـاي، ماهبري خاتون، وغياث الدين كيقوباد، كما يتّضح لك من قصص ذكرتها.

علّمتني زيارتي هذه الأخوان كثيرًا عن الأتراك، وعن الفنّ المعماريّ السـلجوقيّ، ورغـم عـدم وجـود خانيـن متشـابهين تمامًا فـي التصميم، فـإنّ الأخـوان جميعهـا تتّخذ شـكل مسـتطيل أو مربـع، مـع وجود قسـم مغطّى أو عدمه في نهاية الساحة المفتوحة، وتعلّمت أن أقدّر كتل الحجر الجيريّ المحليّ عسليّ اللون المنحوتة ببراعة المستخدمة في بناء جدران تلك الأخوان المرتفعة الثخينة، ومررت أيضًا ببوّابات أثريّة رائعة، مزخرفة بأروع نماذج النحت الحجريّ بالطريقة السـلجوقيّة، ودرت حول أسـوار الأخوان لأرى الأبراج الضخمة الشـبيهة بالقلاع الشـامخة فوقها، ووقفت في ساحٍ شاسعةٍ تحيطها غُرَف، وحاولت أن أتخيّل تضارب الأصوات بين نهيق الحَمير ولغات التجّار المتنوّعة أثناء عملية تحميل البضائع، وحينما

أمعنت النظر في الغُرَف المظلمة، حاولت أن أتخيَّل استخدامها؛ هل كانت تُستخدم مخازنَ، أم حماماتٍ، أم متاجر إصلاح، أم صوامع حبوب؟ وتخيّلت أنّني أشعر بحرارة كوانينها، وأرى الضوء المختلج من شموعها يتراقص على الجدران، وحينما دخلت القاعَ الكُبَر المغطّاة وراء الساحة، استشعرت الرائحة النفّاذة للحيوانات في الإسطبلات هنا، وتخيّلت أنّني أسمع الأذان أثناء صعودي السُّلّم المؤدّي إلى منابر المساجد أو الدَّور العلويّ لمسجد مكعّب وسط الساحة؛ كان الصمت التامّ المخيّم على أغلب هذه الأَخوان المهجورة يسهّل عليّ مهمّة تخيّل الضجيج الصاخب الصادر حتمًا من العاملين فيها ومن التجّار والحيوانات.

فور عودتي إلى أرض الوطن وارتيادي قاعَ المطالعة في المكاتب، كنت أقرأ كلّ ما أستطيع عن السلاجقة وعن ثقافتهم وفنّهم المعماريّ؛ عرفت أنّ أهمّ صوادرهم كانت السُّكَّر المكرّر وحجر الشبّ المعدود أهمّ مثبّت كيمياويّ في صباغة الصوف، وعرفت أنّ أنشطة التجارة الرئيسة تركّزت في مُدُن قونيا وسيواس وقيصري، وتعرّفت إلى بضائع كثيرة كانت تفرّغ من فوق ظهور الجِمال القادمة من مصر، والصين، وآسيا الوسطى، وجورجيا، وسوريا، والعراق، والقوقاز، وكانت توضع في نهاية اليوم في ساحِ الأَخوان الكبرى في الأناضول؛ شملت هذه البضائع الأبازير، والأسلحة، والقطن، والصوف، والحرير، والمسك، والعطور، والزجاج، والكوبالت، والبارود، والخزف، واللآلئ، والجواهر، والفلفل، والذهب، والفضة، والعقاقير الطبيّة، والفِراء؛ عرفت أيضًا أنّ هذه القوافل كانت تعود من تركيا محمّلة ببضائع، مثل: القصدير، وحجر الشبّ، والسُّكّر، والبوراكس، واللازورد، والجلود، والموهير، والأخشاب، والمشمش، والزيتون، والقمح، والمنسوجات، والسجاجيد، والملح، فضلًا عن البريد، ووثائق حكوميّة رسميّة كانت تُنقل عبر هذه الطرق التجاريّة.

أذهلتني هذه المعلومات كلّها، واستمتعت بإعداد كراريس ضمّت رسوماتي، وصوري، وأبحاثي، وكان باستطاعتي أن أزور هذه الأخوان كلّها مجدّدًا، كلّما شئت على صفحات هذه الكراريس، وشعرت بالفخر لامتلاكي دليلًا خاصًّا بي فيه حضارة السلاجقة وفنّهم المعماريّ، وذات يوم أدركت أنّ هذه المعلومات يجب ألّا تظلّ حبيسة كراريس مكدوسة فوق مكتبي؛ فقد شعرت -وأنا أمينة مكتبة- بضرورة نشر معلومات جمعتها ونظّمتها، فأردت -وأنا عاشقة تركيا- أن أزيد انفتاح العالم على هذا الفنّ المعماريّ؛ ووجدت أيضًا أنّ المعلومات المتوفّرة في الغرب عن الأخوان السلجوقيّة قليلة جدًّا، فتمنيّت أن أملأ هذا الفراغ؛ فقرّرت عام ٢٠٠٠م مع انتشار الشبكة العنكبوتيّة أن أشارك العالم محتويات كراريسي عبر هذا الموقع الشعبيّ.

كان الهدف الأعمّ لموقعي تثقيف الناس، وغرس شعور عامّ بتقدير فنّ الحقبة السلجوقيّة وتاريخها ومعمارها، كانت أهدافي في بادئ الأمر بالغة السهولة؛ إذ أردت أن أوفّر مصدر معلومات باللغة الإنجليزيّة للتعريف بالخان التركيّ، وأن أسرد قائمة وصفيّة بأخوان لا تزال موجودة، وأن أقدّم موارد للراغبين في دراسة عمارة الأخوان، أو في زيارتها، لم أكن واثقة وقتئذٍ إن كان هناك من يهتم لأمر هذه الأخوان، أو يريد أن يزور موقعي، لكنّني قرّرت إنشاءه على كلّ حال، وصمّمته بنفسي دون مساعدة ألبتّة، ولن أنسى السعادة والشعور بالإنجاز، حينما رُفع عبر الشبكة العنكبوتيّة المرّة الأولى.

كان لي وراء هذه الأهداف العامّة المعلنة عدّة أهداف شخصيّة أساسيّة؛ أردت أن أقدّم هذه المعلومات لـ جموعات المستخدمين المحتملة كلّها، لا المتخصّصين فقط في هذا المجال أو الجامعيّين، وأردت أن يكون هذا

الموقع دراسة جادّة، تتّسم بدرجة عالية من الوضوح تجعل المستخدم العاديّ غير المتخصّص يستمتع بها وفقًا لمستواه، واخترت شكل كتاب المعروضات لتنفيذ ما أردت، بدلًا من كتابة مقالات طويلة عن الموضوع، والأهمّ من الأسباب الأخرى كلّها أنّني أردت أن أشارك العالم حبّي لتركيا وإعجابي بها، وهذا يشبه إلى حدّ بعيد رسائلي أكتبها إليك -يا سيّدة ماري-؛ فقد أردت أن أعبّر عن تأثّري بتركيا وشعوري بالألفة تجاه شعبها وطبيعتها وتاريخها وفنّها ومِعمارها وآمالها؛ ولأنّني كرّست حياتي المهنيّة لمجال العلائق بين الثقافات، شعرت أنّ هذا الموقع وسيلتي لعرض اهتماماتي، ولإشاعة مزيد من التفاهم والاحترام المتبادلين.

على مرّ السنين منحني موقعي -*www.turkishhan.org*- كثيرًا من السعادة؛ فقد سُررت بتنظيم الصور، وكتابة النصوص، واختيار شكل لتقديم المعلومات، وتصميم الشكل العامّ، منحني الموقع مباهج أخرى، كالدافع إلى مواصلة بحثي، والتحدّث إلى الطلبة والصِّحافيّين عن عملي، لكنّ أكبر مكافأة حصلت عليها تمثّلت في رصد ردّ فعل الأتراك تُجاه رأيي في فنّهم المعماريّ وتاريخهم.

حينما أقول للغربيّين: "إنّني مهتمّة بهذه الفئة المتناهية الصغر من التاريخ"، أجدني أقضي وقتًا طويلًا أشرح لهم مميّزات هذا العصر والسبب في إعجابي بهذه الحضارة، لكنّني أقضي وقتًا طويلًا أيضًا في شرح الشيء ذاته للأتراك غير المدركين غالبًا مدى ثراء هذه الحقبة من تاريخهم؛ غاب العصر السلجوقيّ تمامًا عن النظر لتواريه ظلال العصر العثمانيّ الحافل بمجد الأتراك وشهرتهم؛ فيقتصر ذكر السلاجقة في الكتب الدراسيّة على أقسام مختصرة، وكلّما عاش المرء بعيدًا عن مثلّث قونيا وسيواس وقيصري، قلّت معرفته بالحضارة السلجوقيّة؛ شعرت

بالسرور البالغ والرضا على مرّ السنين، كلّما شاركت الأتراك حماسي لهذه الحقبة، عِلاوة على أنّ بهجة تعلو وجوههم حين يشاركونني افتتاني بها تفوق في قيمتها أيّ ردّ فعل تلقّيته في الغرب.

استضافني التِلفاز التركيّ، وحالفني الحظّ أن أكون موضوع مقال من صفحة كاملة نُشر في إحدى الصُحُف التركيّة، مدعّمًا بصور لي وللأخوان، بالإضافة إلى حوار عن عملي؛ هذه سيّدة أمريكيّة أجنبيّة اتّخذت (قدريّة) اسمًا لها شغَلت اهتمام الأتراك؛ بدأتُ أتلقّى رسائل من أنحاء تركيا كلّها بسبب المقال، يخبرني مرسلوها: "أنّهم استمتعوا بقراءته وبمعرفة المزيد عن هذه الحقبة"، ومن خلال هذه الرسائل عرفت أنّ كثيرًا من الأتراك اكتشفوا هذه الحقبة من خلال موقعي، وأخبرني بعض الأتراك أنّهم يخطّطون لقضاء عُطَلهم بصحبة الأسرة في زيارة الأخوان، وأرسلوا لي صورًا، وكتبًا، وقصائد، ودعوات لزيارتهم؛ إنّه عرض بالغ الكرم للطيبة والاحترام المميّزين، وقد أشرت إليهما كثيرًا في حديثي معك -يا سيّدة ماري-؛ زرت بالفعل بعض تلك الأسر، وعقدت صداقاتٍ أساسُها هذا الاحترام المتبادل للتاريخ، وشاهدت كيف ملأ هذا الموقع المتواضع الأتراك فخرًا بتراثهم؛ فأثلج ذلك صدري أكثر من أيّ شيء آخر كنت أتصوّره، حينما قرّرت في بادئ الأمر أن أنشئه.

عرفت أيضًا من ردود الأفعال على موقعي أنّ فنون الزخرفة السلجوقيّة، رغم طول فترة تواريها خلف شهرة الفنون العثمانيّة، بدأت تلقى التقدير في عيون الأتراك، والفنّ السلجوقيّ شأنه شأن أيّ فنّ يشكّل أساسًا لحضارة ما، يسعى للتأكيد أو التعبير في كلّ عمل عن روح الإنسان وتكوينه الجسمانيّ وعلاقته بالمجتمع وبالطبيعة، مع العناية بالتفاصيل وإبراز التقنيات والبراعة والأناقة؛ ماذا يخبرنا الفنّ السلجوقيّ إذًا عن

السلاجقة؟ يخبرنا أنهم أشخاص واثقون، أقوياء، مسؤولون، يتّسمون بالصلابة، ميّالون لعبادة الله وخدمة الناس.

لم يغب عن ذهن الأتراك أنّ هذه الفنون يجب أن تُصان لضمان الهُويّة الثقافيّة؛ وبالفعل أُنشئ متحفان جديدان للسجاجيد في إسطنبول، وتمتلئ قاع مَزَادات لندن الإسلاميّة بمؤسّسة سوثبي بمُزَايِدِين أتراك، وطرحت مؤسّسة باشا بهجة الشهيرة للمنتجات الزجاجيّة مجموعة رائعة من قطع تحاكي نماذج القرون الوسطى؛ وذلك كلّه يدل على اهتمام الأتراك المتجدّد بثقافتهم وافتخارهم بها.

أتذكر جيّدًا، حينما زرت تركيا عام ١٩٧٨م، وتمنيّت شراء سجّادة؛ وا أسفاه! لم تسمح لي ميزانيّتي -وأنا طالبة- بشراء سجّادة أحلامي؛ لذا خفضت سقف أحلامي من سجّادة إلى مجرّد خُرْج، وهو عبارة عن إحدى الحقائب المستخدمة لتخزين أيّ شيء من الملح إلى الملاعق؛ ظللت ألحّ على صديقي التركيّ ليساعدني في العثور على واحدة، فنظر إليّ متحيّرًا؛ لم يفهم طلبي، وبدأ كلانا يشعر بالإحباط؛ وأخيرًا رأيت واحدة في زقاق خلفيّ، وأريته إياها؛ فحدّق فيّ مندهشًا، وقال: "خُرج حمار! أتريدين خُرْج حمار! هل جننت؟ لماذا تريدين خُرجًا قديمًا، رثًّا، قذرًا، مليئًا بالبراغيث والشعر؟"، لو طلبتُ هذا الطلب اليوم، فلن يُقابل بردّ فعل كهذا؛ لأنّ الأتراك -في رأيي- اكتسبوا احترامًا لتراثهم وفخرًا به؛ إذ تسمح لهم حِرَفهم التقليديّة اليوم بالاتّصال بالماضي، وهو أمر بالغ الأهميّة لهم؛ فبينما تمضي تركيا قُدُمًا نحو مستقبل جديد بسرعة هائلة، لا تزال هذه إحدى مجالات تُشكِّلُ نقطة تواصل مع أسرهم وأسلافهم.

من دوافعي السّريّة لإطلاق موقعي عن الأَخوان السلجوقيّة الرغبة في تحفيز الناس للمحافظة على التاريخ؛ فمنذ زيارتي أوّل خان، لاحظت

تغيّرًا هائلًا في طريقة صيانة الأَخوان واستخدامها؛ فلكي أمعن النظر في جواهر رُصِّعَت بها دائرة البروج بواجهة مدرسة جوك في سيواس عام ١٩٧٨م، اضطُررت أن أمرّ بين أبقار تطحن الحشائش بأسنانها في سلام أمام بوابة المدرسة، أمّا الآن فقد صارت المدرسة مصونة وسط عمران حديث، كما هو الحال في كثير من الأَخوان؛ من الضروريّ الحفاظ على الأَخوان الباقية حاليًا للأجيال القادمة، لا أقصد معماريّين سيأتون لدراستها فحسب، بل أيضًا لأطفال أتراك سيقرؤون سيرة حضارتهم من خلال زيارتها.

تحوّلت آثار العهد العثمانيّ إلى متاحف فُتحت للجمهور، أو رُمّمت بمهارة لإعادة استخدامها على النحو الملائم في المدينتين السياحيّتين الرئيستين إسطنبول وأنقرة، وتحوّلت المدارس العثمانيّة بمهارة إلى عيادات طبيّة: بورصة يلدرم؛ وأيوب سوكولو؛ وأوسكودار ميهريماه، ومكتبات: شمسي باشا في إسطنبول، ومكتبة ميهريماه في أوسكودار، أو مستودعات تجاريّة: خان أكوز محمّد في ألوكيشلا، وخان أدرنة، وخضعت بيوت مدن عثمانيّة بأكملها، مثل: سافرانبولو، لأعمال الصيانة؛ ولاقت آثار العهد السلجوقيّ اهتمامًا مماثلًا؛ فالمدارس والمساجد الرائعة في قونيا، وسيواس، وأنطاليا، وقيصري تقدّم للطلبة المهتمّين بدراسة المعمار السلجوقيّ مادّة ثريّة لمعاينة هذا الفنّ.

تُشكّل الأَخوان أيضًا تراثًا معماريًّا جديرًا بالاهتمام، وعندما بدأت أبحث عنها في بداية الثمانينيّات، لم تكن الحكومة التركيّة قد صانت سوى قليل منها، وحوّلته إلى متاحف، من أبرزها خانان للسلطان علاء الدين كيقوباد، أحدهما يقع على الطريق بين قيصري وقونيا، والآخر يقع على طريق قيصري سيواس، ومنذ ذلك الحين حوّلت الحكومة

التركيّـة عـدّة أَخوان أخـرى إلى متاحف، من أبرزها خـان أغزيقارا وخان سـاري، نعـم هـذه أمثلة مثيرة للإعجـاب ولكن ما تزال هنـاك آثار أخرى مهجـورة تتداعـى، ويُعتقـد أنّ نحـو نصـف الأخـوان المبنيّة فـي الأصل قد ضاعت، وليست هذه مفاجأة في أرض دكّتها حشود الصليبيّين والمغول وهزّتهـا الـزلازل المروّعـة، ورغم هذا لم تتهدّم أَخوان كثيرة بسـبب هذه الأحداث، بل بأيدي مواطنين معاصرين غافلين؛ فقد هُدمت أخوان كثيرة لتحقيـق الربـح، عن طريق بيع أحجارها بوصفها عناصـر للبناء، أو بيعها لهـواة جمع القطع الأثريّة، وهي ظاهرة شـائعة فـي أوربّا، ومن العواقب المأسـاويّة الأخـرى اختفـاء خان نتيجة فيضان سـدّ، حـدث هذا في خان ألتين أبا الغامض، الواقـع على الطريق بين قونيا وبيشـهير؛ لحسـن الحظّ لا يزال كثير من الأخوان باقيًا في حالة جيّدة؛ إذ كانت في أغلب الأحوال تُسـتخدم في قراهـا مخازن للمخزون المحلـيّ، أو مبانـي زراعيّة تعاونيّة لتخزين المِـكَان الزراعيّة، والماعز، والغنم، والمحاصيل، وهو اسـتخدام ليس ببعيد عن غرض إنشائها الأصليّ.

على مدار خَمْس السـنوات الماضية انتهجت الحكومة التركيّة سياسة إبـرام عقـود من الباطن مـع شـركات خاصّـة أو متعهّديـن لتنفيذ عمليّات لتجديـد أثـر على أن تسـتغلّه هذه الجهة تجاريًا فـور الانتهاء من عمليّات التجديـد؛ وهكـذا تحوّلت بعض المدارس السـلجوقيّة في قيصري، مثل: الصاحبيّـة، وأفجونو، وسـراج الديـن، إلى متاجر لبيـع الكتب، وتحوّلت مدرسة دار الشفاء في سيواس وخان خاتون في قيصري إلى مراكز تسوّق وحدائق شـاي، ويجري حاليًا تنفيذ الإجراء نفسـه على الأخوان المعدّلة لتلائـم الاحتياجـات المعاصرة؛ إذ يُسـتخدم خان دورأغـان مركزًا تجاريًا للتسـوق، وتستخدم أخوان أخـرى مطاعم للسـائحين، مثـل: هوروزلو، ونيـدي، وتَسـتخدم البلديّـة خان كيسـك كبرو دارًا للمناسـبات وحفلات

الأعراس، ويُستخدم خان ساري الآن مركزًا ثقافيًا متعدّد الاستخدامات يرتاده السائحون، ويحوي خان ألارا كثيرًا من أجنحة بيع تعرض المنتجات اليدويّة والحِرْفيّة للسائحين القادمين من ألانيا بالحوافل، ثمّة استخدامات أخرى أقلّ شيوعًا للأخوان؛ إذ تحوّل خان قادين إلى متجر للأثاث، وتحوّل خان شارافسا إلى ملهى للرقص، وتحوّل خان تَرَجان إلى قاعة ألعاب رياضيّة، وافتتح مسؤولو بلديّة قونيا خان زازادين بعد تجديده عام ٢٠٠٧م؛ يراودني شعور غريب حين أفكّر أن بوّابته الأماميّة تُقتحم أمامي بطريقة مثيرة بطلقة من بندقيّة صديق، لتُفتح الآن أمام جموع الزائرين، وثمّة مشاريع أخرى نُفّذت في أخوان خاتون، وأزينا، وحكيم؛ إذ جرى تنظيف مواقعها وتأجيرها دون تخصيص مشاريع كبرى فيها.

أصبح الأتراك في حياتهم اليوميّة أكثر وعيًا بالحاجة إلى الحفاظ على آثارهم المعماريّة التاريخيّة؛ فخلال السنوات القليلة الماضية، زاد صدور كتب عالية الجودة تضمّ صورًا جيّدة وتوثيقًا شاملًا للآثار، واعتاد الأتراك سنوات كثيرة نشر كتب تحمل الطابع العرقيّ عن مختلف مناطق تركيا، وتحوي صورًا بالأبيض والأسود للآثار التاريخيّة المحليّة، وأسطول شواحن القمامة، وعربات الإطفاء، والمحاصيل، والأزياء المحليّة؛ تشكّل هذه الكتب مجتمعة مع مفردات العاميّة المحليّة، والأمثال، والأغاني الشعبيّة كتاب معروضات يضمّ لمحات لشعب فخور، وقد بدأت هذه الكتب تزداد رقيًّا، وباتت الآن مدعومة بأسطوانات مضغوطة وأسطوانات فيديو رقميّة تحوي صورًا ذات جودة احترافيّة؛ التقيت ثلاثة مصوّرين مشهورين في قونيا -أحمد كوش، وإبراهيم ديفارجي، وفوزي شيمشك- شرعوا في تنفيذ مهمّة لإنتاج صور رائعة عالية الجودة للآثار الثقافيّة كلّها في قونيا وتركيا، لضمان تسجيل تراثهم؛ بدأ الأتراك يتنبهون لتراثهم الثقافيّ، وينشرون الوعي به.

جدير بالثناء ما تبذله الحكومة التركيّة من جهد للحفاظ على هذه الأخوان؛ فلا أحد يتوقّع بقاء المباني كلّها على حالها مع مرور الزمن، مع احتفاظها بشكلها واستخدامها الأصليّين؛ فالحياة تمضي، وفي مجال الحفاظ على الآثار التاريخيّة لا بدّ أن يبعث المرء حياة جديدة في المباني؛ فأيّ مبنى -شأنه شأن حضارته- يشكّل كائنًا حيًّا يولَد ثم يشِبّ ثم يشيب، وفي هذا السياق من المشجّع رؤية هذه الأخوان يُنتفع بها في القرن الحادي والعشرين؛ فمن خلال تشجيع استخدامها لأداء وظيفة اجتماعيّة معاصرة، تصبح صيانتها أمرًا مؤكّدًا لإعادتها للحياة في العالم المعاصر؛ في شهر مايو/أيّار عام ٢٠٠٨م أقيم حفل زفاف جماعيّ لخمسة وثلاثين زوجًا في قونيا بخان زازادين المُجدَّد حديثًا، وهي بداية عظيمة لحياة هذا الخان الجديدة، كما هي بداية لحياة هؤلاء الأزواج المحظوظين؛ فاحترام الإرث الثقافيّ جزء لا يتجزّأ من التحوّل إلى دولة حديثة، ومن المأمول أن يستمرّ حماس الأتراك للحفاظ على الآثار بقدر تحمّسهم لجوانب حياتهم الأخرى؛ فهل رأيتِ -يا سيّدة ماري- كيف أثْرَت الأخوان حياتي؟ فقد عرّفتني دراستُها الفنَّ المعماريّ، ومنحتني الوعي الثقافيّ، وقدّمت لي مغامرات خياليّة، وألقت لي الضوء على الأتراك أنفسهم، وعرضت عليّ دَينًا يدين به الأتراك لأسلافهم السلاجقة؛ إنّه دَيْن كبير حقًّا!

أستطيع أن أرى بوضوح أنّ قادة تركيا ومواطنيها يستخدمون اليوم في القرن الحادي والعشرين في إقامة إمبراطوريّتهم الجديدة أساليب استخدمها السلاطين السلاجقة قديمًا، واليوم يطبّق الأتراك بنجاح الخِطَط السلجوقيّة الخاصّة بالعولمة، والتجارة الدوليّة، وحريّة التجارة على الطرق والموانئ الآمنة، وتحسين البنية التحتيّة، واحترام المدنيّة والحوار، وتهيئة مناخ من التسامح والتنمية الثقافيّة؛ أرسى السلاجقة شعورًا بالهويّة في نفوس الأتراك، ومنحوهم الثقة ليتعاملوا بكرم مع الأجانب،

وليشاركوهم طعامهم وأرضهم وثقافتهم بمنتهى الحريّة؛ لقد ربّوا مواطنين واثقيـن، فخورين بما حقّقوه وبما يسـتطيعون تحقيقه، وليس من الصعب رؤية آثار الروح السلجوقيّة في أتراك اليوم الكادحين، بأكمامهم المشمّرة، وهم يضطلعون ببناء بلادهم بالهمّة وروح المبادرة والعزيمة نفسها.

كم كان السلاطين السـلاجقة سيفخرون برؤية مملكتهم في الوقت الحالي مربوطة بشـبكة من الطُرُق الممتازة القائمة مكان طُرُقهم التجاريّة! كـم كانـوا سيفخرون بسـدود ورخـاء اقتصـاديّ جلبَتْـه! ورغـم أنّ دولة السـلاجقة اسـتمرّت مئتي عام تقريبًا؛ فقد أرست أحجارُ آثارها وأعمدتها الثقافيّـة أسـاسَ تركيـا اليوم، ذلك الأسـاس القـادر دون شـكّ على دعم مستقبل ستبنيه تركيا في القرن الحادي والعشرين.

"الفنُّ باقٍ"

قدرية برانج



نسر برأسين رمز السلاجقة



مدرسة طاش في أكساراي



تذكرة نُزُل، قرية خان أغزيقارا



ضريح هودافنت خاتون في نيدي



كيسيك كبرو في سيواس



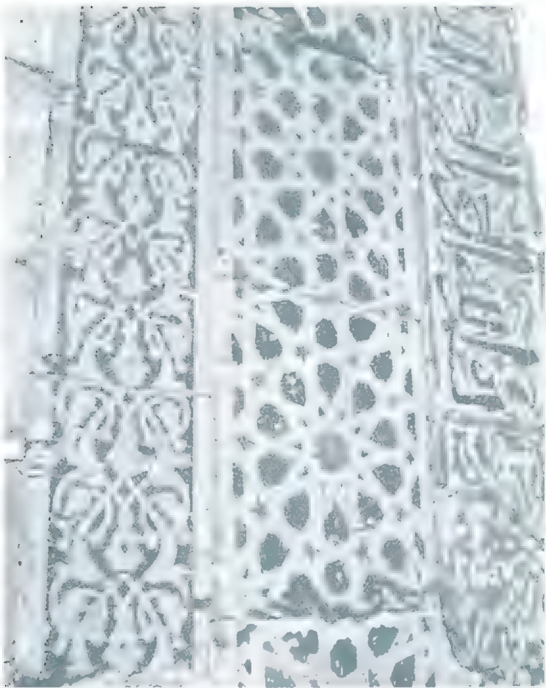
ضريح الملك غازي



روح السلاجقة مستمرّة



مجمع صاحيباتا المرمّم في قونيا
عام ٢٠٠٧م



مدرسة برفاني في توقات



ديار بكر



خان أزينا بازار

الرسالة السادسة والعشرون

عُقد سريعة نشيطة

عزيزتي السّيدة ماري،

ثمّة وجه تشابه آخر بين تجربتَيْنا في تركيا؛ فكلتانا شهدت هذا البلد خلال فترة نشوء اجتماعيّ ثقافيّ مهمّة؛ إذ أقمت أنتِ في تركيا إبّان عهد لاله -التوليب-، وهو عصر شهد انفتاح الإمبراطوريّة العثمانيّة على الرُّؤَى والمُثُل الغربيّة؛ وأنا أيضًا أقمت فيها فترة شهدت تغيّرًا ملحوظًا، تحديدًا خلال ثمانينيّات القرن العشرين، حينما تطلّعت تركيا بعناية إلى رُؤَى الغرب وأساليب حياته؛ فأتاحت لي رِحلاتي إلى تركيا كلّ عام فرصة ملاحظة التغيّرات الطفيفة والمتوسّطة في أسلوب الحياة؛ إذ يفصل بين زيارة وأخرى فترة كافية تسمح لي بإحصاء عدد لَبِنات التغيير في جدار أساس تركيا الناشئة؛ تبرز أمامي كلّ عام اختلافات محدّدة، وقد سجّلتها كلّها في يوميّاتي بدقّة، حتى أكثرها تفاهة.

لا شكّ أنّ بعض الأمور لا تتغيّر في تركيا؛ كرائحة كولونيا الليمون، وفوضى أمين أنو، وجلجلة الأبواق لدى نفير مراكب البوسفور، ونداء المؤذن، ورائحة الشِّواء للحم الضأن، وصوت الملاعق في كؤوس شاي تشبه زهرة التيولب، ومذاق اللبن الخثير في كانليجا، ولون تلال الأناضول

البنيّة المائلة للصفرة، إنها مُتع خالدة، ورغم ذلك فكلّ عام يشهد ولادة عدد من المُتَع الأخرى!

لطالما أدهشتني مفارقة معالم جغرافيّة تركيّة تتبع القاعدة الذهبيّة نفسها في النظام النسبيّ (٢/٣) المعمول به في سجاجيدها؛ فمن عدّة أوجه أرى أنّ السجّادة ذات العُقَد ترمز لتركيا الحديثة المنسوجة حاليًا؛ سجّادة يمكنك أن ترى فيها زخارف الماضي وألوان المستقبل، ونولها هو جغرافية تركيا ذاتها بما تحويه من جبال، وأودية، وغاب، وبحار؛ نَوْلٌ قويّ قوّةَ أشجار الدُّلْب البالغ عمرها خمس مئة عام، المنتشرة هناك، وتنتظم في هذا النول خيوط رأسيّة مضفورة، تمثّل القيم الاجتماعيّة التركيّة التقليديّة الأساسيّة للدين واللغة، والعادات، والهيكل الأسريّ، بينما تمثّل الخيوط الأفقيّة الحمراء المتقاطعة مع الخيوط الرأسيّة براعم ابتكار وتقدّم، وتواصِلُ ملءَ هذه السجّادة التركيّة من الأسفل إلى الأعلى حتى تكتمل، وتثبّت أيضًا كلّ صفّ من العُقَد في مكانه، وأخيرًا أرى العُقَد الصوفيّة مربوطة في هذه الخيوط الرأسيّة والأفقيّة لتمثّل حبكة وضفرة فريدتين تميّزان هذا التقليد والتغيير، ويبقى اختيار ألوان الصوف، وتصميم أشكال هذه العُقَد، وإظهارها، وتزيينها في يدي النسّاجة نفسها ورهن رؤيتها؛ إذ هي حينئذٍ شعب الجمهوريّة التركيّة أجمع؛ فحينما تجلس النسّاجة أمام نول فارغ، وتلتقط الصوف لتغزل أوّل صفّ من العُقَد، تكون قد رسمت بالفعل تصميم السجّادة في عقلها، لكنّها تعي جيّدًا أنّ التصميم المنشود ربّما لا يخرج دائمًا على نحو خطّطت له، وأنّ قوّة شدّ عُقَدها ستتغيّر من يوم إلى آخر؛ فالسجّادة كالحياة تبدأ بمقاصد ثابتة، لكنّها تتكيّف، وتتغيّر خلال سيرها.

راقبت شهورًا وسنوات صفوف العقد المتراكمة بعضها فوق بعض باتّجاه قمّة النول لسجّادة تركيا، والآن تنعقد العُقَد بسرعة ونشاط مع سعي السجّادة لبلوغ قمّة النول، ورغم هذا يبدو أنّ هناك نوعين

من الأيدي يعقدان هذه العُقَد السريعة النشيطة، وهذان النوعان لنسّاجتين مختلفتين، تعمل كلتاهما بقوّة، وجذبة، وشدّة، مختلفة؛ إحدى الأيدي لحِرَفيّي تركيا الحديثة، والأيدي الأخرى لتركيا التقليديّة، ويمكن رؤية هذين النوعين من الأيدي في أبراج الشِّقَق الخرسانيّة المصقولة، والبيوت الخشبيّة القديمة المتواضعة، وفي الشوارع الواسعة والأزقّة الخلفيّة الضيّقة، وفي الثراء الفاحش والفقر المدقع، ويمكن رؤيتهما في الصراع بين الشرق والغرب، وفي الرغبة في التغيير وضرورة تحقيق النجاح الاقتصاديّ في دنيا العولمة مقابل حنين ملحوظ لأسلوب الحياة التركيّ التقليديّ، وفي الارتباط القويّ بالدين الإسلاميّ مقابل الإعجاب بالعالم الأوربّيّ، وفي الالتزام الصادق بثقافة أتاتورك مقابل الحاجة الملحوظة لمزيد من الديمقراطيّة الحديثة، لكنّني أعتقد أنّه في خِضَمّ هذا الصراع لا يزال جلال تركيا العثمانيّة التي عرفتِها -يا سيّدة ماري- مغروسًا في نفوس شباب الأتراك المتفرنجين اليوم تحت القشرة الخارجيّة؛ يكفي فقط أن تخدشي هذه القشرة لتعرفي أنّ التركيّ سيظلّ تركيًا، مهما تغيّر العالم من حوله، ومهما ارتقى مظهره وفكره؛ فلطالما حظي شعب تركيا الممتدّة بين قارتين بالفرصة النادرة للنظر إلى العالم بمنظارين مختلفين؛ أحدهما غربيّ والآخر شرقيّ؛ لذا فإنّهم يحدّقون في العالم عبر نظّارة مزدوجة الرؤية، ويُميلون رؤوسهم باستمرار لتعديل الصورة اللحظيّة، سواءً كانت قريبة مباشرة أم بعيدة على امتداد الأفق؛ لهذا -يا سيّدة ماري- أودّ أن أطلعك على بعض صفوف عُقَد رأيتها تُنسج في هذه السجّادة، وكما منحتِنا صورًا لدقائق الحياة اليوميّة في عهد التوليب، أودّ أن أصف لكِ بعض أمور شاهدتها خلال أربع فترات مختلفة للنموّ على مدار ثلاثين عامًا من السفر إلى تركيا؛ لا أسرد هذه القصص بغرض التحليل التاريخيّ أو السياسيّ، بل تسجيلًا للحياة اليوميّة؛ وهذه الفترات الأربعة نِتاج تصنيفي الخاصّ، لكنّني ألتمس العذر للمؤرّخين، والاقتصاديّين،

وعلماء الاجتماع، إن لم يوافقوا على تصنيفي هذا؛ بدءًا من تاريخ أولى رِحلاتي إلى تركيا عام ١٩٧٨م، وتأتي هذه الفترات على النحو التالي: سنوات الظلام من عام ١٩٧٨م إلى عام ١٩٨٥م، وعِقْد الصحوة من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م، والعهد الاستهلاكيّ من عام ١٩٩٥م إلى عام ٢٠٠٠م، والانطلاق نحو الحداثة من عام ٢٠٠٠م حتى الوقت الحالي، وامتدادًا نحو المستقبل.

كما ذكرتُ لك -يا سيّدة ماري- كانت زيارتي الأولى إلى تركيا عام ١٩٧٨م خلال سنوات أعُدّها الآن سنوات الظلام، وأنا لا أصف هذه الفترة بهذا الوصف لكونها كانت فترة عصيبة فحسب؛ بل لأنّها كانت مظلمة بكلّ ما تعنيه الكلمة؛ إذ لم يكن لدى أحد في البلاد بأسرها مصباح كهربيّ؛ كان أصدقائي وأسرتي -لا سيّما أمّي المشغولة بحالي- يقولون لي في ذلك الوقت: "لماذا تسافرين إلى بلد يعاني المشكلات، وبه خطر داهم، وتعمّه الفوضى، فضلًا عن كونه عُرضة لتلك الزلازل كلّها؟"، كانت أمّي محقّة بالفعل؛ فقد كانت السبعينيّات فترة عصيبة على تركيا.

مرّت تركيا خلال سنوات سبقت زيارتي بعقد حافل بالاضطرابات، والصراعات السياسيّة، والعنف والبؤس، وهي عقبات اجتمعت، كما يبدو لتقويض أساس تركيا وأهدافها وهُويّتها العلمانيّة الموروثة عن أتاتورك؛ كان الواضح على السطح أنّ المجتمع ماضٍ نحو تدمير نفسه؛ في عام وصولي تركيا أُعلنت الأحكام العرفيّة في المناطق الكرديّة منها، وكانت الصراعات دائرة بين اليمين واليسار، وساد عنف سياسيّ في الشوارع، وطرأت تغيّرات متواصلة على الحكومة، وانتشرت مقاطعات للبضائع، وأُغلقت المحاكم، وعمّت الإضرابات، والاعتقالات، والبِطالة، والتضخّم الهائل، وشحّت الفرص الاجتماعيّة والتعليميّة، واُقتُحمت السجون، وارتفعت أسعار النفط ارتفاعًا جنونيًّا، وانقسم الداخل بين العلويّين والسنيّين، وبين الأكراد؛ سار كلّ شيء في الاتّجاه الخاطئ.

في فرنسا حيث كنت أقيم وقتئذٍ، كانت تلك الأخبار السياسيّة العصيبة تُنشر في الصحف، لكن تردّدت أصداؤها أيضًا داخل فرنسا؛ ففي الفترة بين عامي ١٩٧٥م و١٩٨١م تعقّب ثلاث مرّات مسلّحون أرمن سِفاريّين أتراكًا إلى باريس وقتلوهم، وفجّروا مكتبًا للخطوط الجويّة التركيّة في شارع الشانزلزيه عقب أقلّ من عشر دقائق من مروري أمامه أثناء إحدى جولاتي بالشارع، وليس ذلك فقط، بل وقعت أكثر الحوادث تدميرًا عندما تحطّمت طائرة الخطوط الجويّة التركيّة للرحلة رقم تسع مئة وواحد وثمانين في الثالث من مارس/آذار عام ١٩٧٤م؛ لن أنسى ما حييت سماع نبأ سقوطها في المذياع فور استيقاظي صباح يوم أحد ربيعيّ مشرق؛ سقطت هذه الطائرة في غابات أرمينوفيل شمال باريس، وأسفر الحادث عن مقتل ثلاث المئة والستّة والأربعين راكبًا عن آخرهم؛ كان الحادث أسوأ كارثة جويّة في التاريخ، وأسهم إلى حدّ بعيد في تشويه سمعة الخطوط الجويّة التركيّة وسمعة الدولة التركيّة؛ إذ بدت أمام العالم ضعيفة، غير مسؤولة، لكنّ أشدّ ما لطّخ صورة تركيا من هجمات هو الفنون؛ إذ عُرض فيلم "ميدنايت إكسبريس" عام ١٩٧٩م؛ نجح الفيلم -أخرجه ألان باركر- في تصوير التعذيب والعنف السائدين في السجون التركيّة، وفي حشد الكراهيّة العالميّة ضد الأتراك، بعد أن ركّز على أسوأ مخاوف الغرب وتصوراته الخاطئة عن تركيا؛ سدّ الفيلم الآفاق المفتوحة كلّها أمام تركيا، وترك نُدوبًا عميقة ما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا؛ أفضى هذا الظلام الدامس كلّه إلى انقلاب عسكريّ في الثاني عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٩٨٠م؛ تمخّض الانقلاب -المسمّى: "عمليّة العَلم"- عن ثلاث سنوات من الحكم العسكريّ من عام ١٩٨٠م إلى عام ١٩٨٣م؛ تمركزت الدبّابات في أركان الشوارع، ووقف الجنود ببندقيّاتهم الآليّة في كلّ شارع، وقُطعت الاتّصالات الداخليّة، وفُرض حظر تجوّل يبدأ من الساعة العاشرة مساء، وفُرض حظر على السفر للخارج.

أقمت في تركيا خلال الفترة الأولى من الانقلاب العسكريّ، في شهر ديسمبر عام ١٩٨٠م؛ ولأنني لا أعي جَسامة الموقف، قرّرت أن أزور أحد الأصدقاء أسبوعًا؛ لأتعرّف إلى شكل الحياة في إسطنبول في فصل الشتاء، ولم أتوقع ما كان ينتظرني؛ إذ جعلني كلّ ما قرأته في الصحف عن الانقلاب العسكريّ أعتقد أنّ الحياة تسير كالمعتاد؛ بالفعل كانت الأمور طبيعيّة في جوانب كثيرة، لكنّ الحياة اليوميّة كانت عسيرة جدًّا؛ أوّل ما أثار دهشتي انتشار الجنود برشّاشاتهم في كلّ مكان؛ في مهابط الطائرات بالمطار، وفي كلّ مكان عامّ، وفي كلّ ركن من أركان الشوارع، وأمام كلّ متجر من المتاجر الكبرى، وفي دوريّات متواصلة ذهابًا وإيابًا.

كان الصوت المهيب للبيانات العامّة المدوّية من مكبّرات الصوت الضخمة يداهم المرء في الشارع، ولأنّ معرفتي باللغة التركيّة وقتئذٍ كانت شبه معدومة، استحال عليّ فهم فحواها، لكنّ نبرتها كانت كافية لأن أدرك جديّتها، وزادت رائحة الفحم الحجريّ الكريهة -المستخدم في التدفئة- الشوارع كآبة؛ إذ كان الجوّ قارسًا، وفي إحدى الليالي بدأت الثلوج تتساقط واستمرت ثلاثة أيّام؛ فكست الشوارع كساءً جميلًا لحظات قبل أن يغمرها الطين مجدّدًا، ويتركها فوضى موحشة؛ لست متأكدة من السبب، أهو البرد القارس أم تساقط الثلوج أم الخوف وعدم اليقين؟ لكنّ الصمت المخيف خيّم على أرصفة إسطنبول؛ فأسكت السمر، والصخب المألوفين لحياة الشارع التركيّ؛ لم تكن المنازل التركيّة أحسن حالًا، بل سادت حالة من العَوَز، وحاول الناس جميعًا مواجهة الموقف بكلّ ما أوتوا من قوّة صابرين، وظهر أفضل مثال على الالتزام القويّ بمبدأ التلاحم الاجتماعيّ -حدّثتك عنه من قبل يا سيّدة ماري-؛ إنّها روح العشيرة الموروثة عن أسلافهم تظهر على السطح، لتربط بينهم في أوقات التحدّيات والصِعاب؛ كانت أقسى صِعاب واجهتهم عدم توفّر التدفئة؛

فلـم يكـن هناك وقـود، وكما هي الحال دائمًا في مثـل هذه المِحَن، هجم فصل الشتاء ببرد لا يرحم!

قصصتِ ذات مرّة -يا سيّدة مـاري-: "كيف جلسـت في حديقتك المشمسـة بمدينة بيرا عصر يوم من شـهر يناير/كانون الثاني، واسـتمتعت بالجوّ اللطيـف العـذب"، لكنّنـي أؤكّـد لـكِ أنّ الجوّ لـم يكـن كذلك فـي شـهر يناير/كانون الثانـي أمضيته هنـاك؛ ظهرتْ وقتئذٍ وسـيلة مبتكرة لضمان الحياة؛ ففي كلّ مسـاء كان أفـراد عائلة صديقتي جميعًا يتجمعون فـي بيـت أحدهم، ويقضون كلّ ليلـة في بيت مختلف من بيـوت العائلة؛ كانوا يشـعلون المدفأة الثمينة وقتًا محدّدًا، فيحظى كلّ واحد منهم ببعض الدفء عدّة ساعات على الأقلّ، واعتدنا أن نرتدي عدّة طبقات من السُّتَر، والقفافيز، والأوشحة، والجوارب مجتمعين كلّنا في غرفة واحدة مكدوسين على أرائك منخفضة، نحتسـي الشـاي، ونتسـامر، ونشـاهد التلفاز انتظارًا لسـماع أيّ جديـد؛ أمضينـا ليلة تلو أخرى على هذا النحو، بلا أيّ نشـاط آخـر؛ لأنّ معظـم الأنشـطة المعتـادة كانت متوقّفـة أثناء فتـرة الانقلاب، لكنّ أغرب شـيء لاحظته كان نقص المصابيـح الكهربائيّة؛ عادة لم يكن في كلّ بيت سوى مصباح واحد، وكان كالتعويذة السحريّة يُنقل من مكان لآخـر، ويُفـكّ ويُركّب، حيثمـا دعت الحاجة للضـوء، فيُضطرّ أهل البيت جميعًا للبقاء معًا كي يتمكّنوا من الرؤية أو القراءة!

كان الليل يحلّ مبكّرًا، في السـاعة الرابعة عصرًا، وكان الظلام الدامس يخيّم على الشـوارع؛ فيجبرك على العودة إلى بيت يضاهيه ظلمة، ووقت الأصيـل لـم يكن ثمّة مـا يمكن فعله عـدا الجلوس في صمـت في غرفة مظلمـة، والتكـوّر فـي معطفـك بصحبة شـمعة متآكلة؛ لم يعوزنـا الوقود اللازم للتدفئة فقط، بل اللازم أيضًا لتسخين الماء؛ فبات الاستحمام تحدّيًا صعبًـا، وكان الطعـام متوفّرًا من دون زبـد، أو قهوة، أو كثير من الصابون، وكانـت المطاعـم خاويـة تمامًـا، والمتاحف مغلقـة، وأصبحـت مواعيد

العمل للمتاجر والمصارف مضطربة، وحينما حان وقت رحيلي، توجّهت إلى المطار للّحاق برحلتي لأكتشف أنّ المطار مغلق، وأنّ الرحلات جميعًا عُلّقت حتى إشعار آخر؛ فتحوّلت خِطَطي لعطلة أسبوعيّة قصيرة إلى محنة استمرّت شهرًا كاملًا، قبل أن أتمكّن أخيرًا من العثور على رحلة تقلّني إلى منزلي في باريس.

رغم انتشار حالة اليأس والإحباط، لم يفقد هؤلاء الأتراك إقبالهم على الحياة خلال الانقلاب؛ فقد عبرت جسر البوسفور أوّل مرة حينئذ في سيّارة عتيقة، وكانت عمّة صديقتي تدرُس الرقص العثمانيّ التقليديّ، وتعطيني دروسًا في الرقص كلّ مساء، واعتادت أن تضحك من حركاتي الرعناء ضحكًا طويلًا كصبرها؛ رأيتُ بهجتها ورشاقتها، حينما رقصت رمزًا لما في تركيا كلّه من تفاؤل؛ فاقتنعت أنّ الأتراك سيساعدون البلاد على المرح حتى انتهاء هذه الفترة المظلمة الباردة.

أحمل ذكريات مؤلمة عن أعوام الانقلاب المظلمة من زيارات تالية؛ فبعد انتهاء فترة الانقلاب وعودة المصابيح الكهربائيّة للمنازل، خلت المصارف والمباني العامّة من الإضاءة، وتكرّر انقطاع التيار الكهربيّ؛ فكم من وجبة عشاء أُكلت على أضواء الشموع للضرورة لا للشاعرية! واكتظّت شوارع إسطنبول بسيّارات أمريكيّة ضخمة ثقيلة الحركة من الخمسينيّات، تعمل سيّارات أجرة شعبيّة، مثل: "دي سوتو"، و"ريجال شيفروليه" طراز عام ٥٨م، و"بونتياك" ذات اللون الأحمر الملكيّ؛ وبفضل هذه البلاد العامرة بالحِرفيّين المهرة ظلّت هذه الخيل العصريّة الأصيلة في أبهى حُلّة، تنشر الأضواء الكاشفة المبهرة فوق صفحة البوسفور الزرقاء؛ وعجّت شوارع إسطنبول أيضًا بأسراب من الباعة الجائلين منادين على بضاعتهم نداءات أشبه بالأغاني، ينادون على: الخبز بالسمسم، والقَشد الصابح، والحليب، ولفائف التبغ المفردة، والماء، والصُّحُف، وتذاكر اليانصيب؛ وفي المناطق التجاريّة المزدحمة في بيوغلو وأمين أنو،

تدافع الحمّالون يحملون البضائع على ظهورهم كالإبل، وجابوا الأحياء المزدحمة المحيطة بالسوق بكفاءة وسرعة أكبر من أيّة شاحنة أو عربة تجرّها الحيوانات؛ ذات مرّة رأيت حمّالًا يحمل على ظهره أثاث حجرة طعام كاملًا حتى الطاولة، وخزانة الأدوات، والمقاعد! -خَفِي هؤلاء الحمّالون الآن-، وكان كتّاب العرائض والنسّاخ ينصِبون طاولاتهم في أغلب الحدائق والأسواق، ويستخدمون آلاتهم الكاتبة لكتابة كلّ شيء؛ بدءًا من العرائض الرسميّة إلى الوثائق الحكوميّة إلى الرسائل الغراميّة للمحبوبات البعيدات لخدمة قرويّين قصدوهم.

برغم ما حَفِلت به إسطنبول من بقايا مجد إمبراطوريّتها العثمانيّة وذكريات شوارع رائعة ورَدَ ذكرها في روايات بيير لوتي، ظلّت في معظمها مدينة تتداعى وقتئذٍ؛ كانت هناك مبانٍ مهجورة، وجدران متصدّعة، وخرائب للقُمامة، وأزقّة مليئة بالنباتات المعترشة والنُّفايات، وكانت المنازل الخشبيّة المهدّمة، بأبوابها وأُطُر نوافذها المتداعية، تميل للأمام بدرجة تجعل السائر في الشارع يخشى أن تسقط عليه، وأُضيف إلى هذه الأزمات الحضريّة بدءُ غزو الفلّاحين الريفيّين، وازديادُ الأحياء العشوائيّة؛ كان عدد السكّان عام ١٩٧٨م، حينما زرت إسطنبول أوّل مرّة أربعة ملايين نسمة، وبحلول عام ١٩٨٨م بلغ عدد السكّان اثني عشر مليون نسمة.

تطاير دخان اللفائف في كلّ مكان، وكانت سحب دخان اللفائف المنبعثة من على متن مراكب البوسفور كثيفة كثافة الدخان المنبعث من مداخنها؛ نفث التجّار والزبائن الدخان وهم يعقدون صفقاتهم، ونفث موظفو المصارف الدخان في أوجه العملاء وهم يحصون ليراتهم، وقد فحصني عام ١٩٧٩م طبيب يمسك بإحدى يديه لفافة، ويفحص بيده الأخرى غُدّتَيَّ المتورّمتين، وكانت صديقاتي الممرّضات في أيوب يدخّنّ في أماكن عملهنّ؛ بالفعل كان التدخين جزءًا لا مفرّ منه

مـن الحياة التركيّة؛ يغمرك برائحته في سيّارات الأجرة، وداخل المتاجر، وفـي المطـارات، ومكاتب البريد، والحوافـل، والمطاعم، أمّا أكثر مدخّن قابلتُه إثارةً للدهشة، فهو أمين مكتبة يُتبِع اللفافةَ الأخرى بمنتهى السهولة أثناء قيامه بفهرسة كتب نادرة!

ربّمـا كانت الشـوارع متهالكة، لكنّهـا بدت مفعمة بالحيـاة والبهجة؛ وقتئـذٍ لـم تكـن الأكيـاس والزجاجـات البلاسـتيكيّة قد ظهـرت، حينما كانت كلّ سـلعة تُشـترى تُلفّ بإحكام في ورق الصُّحُف أو ورق تغليف أنيـق التصميـم، وتُربـط بخيـط بحيـث تبـدو كالهديّـة حتى المشـتريات مـن الصيدليّـات، ولـو كانـت عُبـوّة أسـبرين صغيـرة، كانـت تُلـفّ فـي ورق لضمان سـتر محتواها، وكانت مئـات القِطط في كلّ مكان قِططًا هزيلـة، أو قـذرة، أو عرجـاء، أو عـوراء، أو عاجزة عن اصطيـاد الفئران، أو ذات آذان مشرشـرة، أو أنـوف مدمّمة، أو ذيـول معقوفة، أو فراء ملبّد، وبيـن حيـن وآخر تدخل قطّـة أنقريّة رائعة الجمال من بـاب أحد المتاجر بخُيَـلاء سـلطان فـي موكبـه، وكثيـرًا مـا كان المـرء يشـعر فـي المطاعم أو المتاجر بفراء القِطط يتمسّح في كاحليه.

سـاد الطابـع الريفيّ في المدن خارج إسـطنبول، فـي زيارتي الأولى لسـيواس كان الطريـق المـؤدّي للفنـدق وعـرًا، وكانـت الأبقـار ترعـى في هدوء حول مدرسـة جوك في البلدة؛ في تلك الأيّام كانت عربات جرّ الخيل تفوق السـيّارات عددًا في شـوارع الأناضول، كانت سنوات الظلام واضحـة الأثر على السـائحين أيضًـا؛ ورغم محاولات الأتـراك الجاهدة للظهور بمظهر جيّد، تعذّر غالبًا إخفاء مُلاءات الأسـرّة المبقّعة والمرتوقة بعنايـة، وأكوام التراب في قصر طوب قابي، وأسـراب البعوض في فنادق مدينـة لالالـي، أو مِشـنّ يغـرق الغرفـة كلّهـا حتـى المرحـاض بالطبع؛ لا عجب أن احتوت أرضيّات الغرف على بواليـع كبيرة، وخفّ بلاستيكيّ جانب الفراش.

عندمـا كنـت أعود لوطنـي، لم أقرأ قـطّ مقالات رائعـة في الصحف أو المجلّات عن السـفر إلى تركيا، ولم يكن هناك سـوى كتيّبين سياحيّين مطبوعين فقط عن تركيا؛ كنت أقف في أيّ مطار أو محطّة حوافل جانب حقائب أمتعتي الأنيقة المتشابهة، بينما كان الأتراك يجرّون صُرَرًا، وغرائر، وصناديـق المقـوّى مربوطـة بخيـط القِنّـب، وحقائب صوفيّـة، وُوضعت فوق طاولات المطاعم أوعية بلاستيكيّة زرقاء مليئة بشرائح الخبز، وأباريق مـن الألمونيـوم مليئة بمياه الشـرب، ورغم اسـتغراق وقـت طويل مضنٍ فـي تغييـر العُمـلات، كان السـائح يتجنّـب تغييـر مبلـغ كبير فـي المرّة الواحـدة؛ لأنّ متوسّـط التضخّم كان يشـهد تغيّرات كبيـرة بين يوم وآخر -أثّـر ذلـك باسـتمرار علـى سـعر الصـرف-، وباتـت جـولات الحوافل عبـر سـهول الأناضـول معانـاة لا تطاق بسـبب دُخـان اللفائـف، وافتقار الحوافل إلى مكيّف.

اجتـازت تركيـا مرحلة الأحكام العرفيّة وسـنوات الأزمـات، وكانت تلك هي المرّة الأخيرة يخيّم فيها الظلام والبرد على تركيا؛ لأنّ المجتمـع منـذ ذلك الحين بدأ ينفتح على مسـتقبل أكثر إشـراقًا، رغم الاضطرابات السياسـيّة، ظللـت أعـود إلى تركيـا لاقتناعي منـذ أولى نُزَهي عبر جسـر البوسـفور -حدّثتكِ عنها يا سـيّدة ماري- بأنّ هذا البلد مقدّر له أن يحتلّ مكانة مرموقة؛ صيـغ دسـتور جديد عام ١٩٨٢م، وافتتـح مشـروع جنوب شـرق الأناضـول، وعادت حبوب القهـوة مجدّدًا عـام ١٩٨١م، وإن كان ذلك للسـيّاح فقط؛ أُطلق على هذا العام اسـم "عام أتاتورك" -إذ صادف الذكرى المئويّة لميلاده-، ونقشت المدارس والحدائق المفتتحة في ذلك العـام جانـب لافتاتها عبـارة: "مئة عام" بكلّ اعتزاز؛ لم يعد هناك سـبيل للقهقرى؛ فأخذ المجتمـع التركيّ ينفتح على المسـتقبل، وينطلق، كطائرة من المَدْرَج نحو أفق جديد.

بدأت تظهر بواكير المستقبل المشرق عام ١٩٨٥م؛ إذ انفتحت تركيا على العالم من خلال التجارة والسياحة؛ كان الأتراك عازمين على محو الذكرى السيئة لهذه السنوات المظلمة، فانطلقت خيل السباق بسرعة مذهلة، وأنا أعُدّ العقد الممتدّ من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م سنوات الصحوة؛ فعقب صياغة الدستور عام ١٩٨٢م ظهرت على الساحة قوّة سياسيّة يقودها تورجوت أوزال بحزبه الجديد "الوطن الأمّ"؛ فتح هذا الزعيم الإصلاحيّ الاقتصاد التركيّ على التجارة الحرّة، ووضع حدًّا للاعتماد الكبير على المساعدات الخارجيّة، وأطلق العِنان للطاقة الحبيسة لجيل شابّ طموح من روّاد الأعمال، وتزامنت رؤيته مع اندلاع ثورة الحاسوب؛ فبدأت التقنية تجتاح القطاعات كلّها، وافتُتحت المصانع في أرجاء تركيا جميعًا، وزادت الصوادر لا سيّما المنسوجات والسِلَع الغذائية، كانت خُطّة تورجوت أوزال تشكّل ثورة لتركيا المعتمِدة قبل ظهوره على القمح والبندق فقط بوصفها صوادر رئيسة، واستيقظت تركيا بين عشية وضحاها على جينز أزرق ضيّق غدت تشتهر بتصديره لأسواق العالم، وكان طرازه ناجمًا عن نموّها السريع وعن تغيّر حلّ عقب سنوات الظلام؛ إذ واصل الأتراك كفاحهم للارتقاء؛ فأصبحت عقولهم تجاريّة في المقام الأوّل، وأثبتوا لأنفسهم وللعالم أنّ النفط أو المعادن أو الألماس ليست أكثر مواردهم الطبيعيّة ثراء، بل العمل الجادّ والإصرار والجرأة؛ وهكذا وُلد النَّمِر التركيّ.

اليوم يرى السائحون تركيا واعدة راقية، لكنّ الحال لم تكن دائمًا كذلك؛ عاصرتُ افتتاح سوق الأوراق المالية التركيّ، واندماج تركيا في أسواق العالم، وخصخصة الصناعة، ولاحظت في دقائق الحياة اليوميّة ميلاد جمعيّات ومؤسّسات مدنيّة وإنشاء وسائل إعلام وقنوات فضائيّة ومحطّات تلفازيّة خاصّة تتمتّع بحريّة الإعلام؛ غُمِرت المتاجر بالسلع المستوردة والخدمات حتى الحاسوب؛ أتذكّر أنّني كنت أسير

في ضاحية تشكيرجا بمدينة بورصة ورأيت لافتة تعلن عن صفوف لدراسة حاسوب المعرفة، ولم أعرف ماذا يكون ذلك، لكنّني عرفت فيما بعد أنّ هذا هو الوصف التركيّ لجهاز الحاسوب؛ الأهمّ من ذلك أنّ تركيا بدأت تتودّد لأوربّا أوّل مرّة؛ فتقدّم أوزال، حينما كان رئيسًا للوزراء -في لفتة مفاجئة خياليّة كانت الأولى من نوعها- بطلب لحصول تركيا على عضويّة المفوضيّة الأوربيّة عام ١٩٨٧م.

في رأيي كان أكبر تغيير حدث في تلك الفترة هو سرعة تشييد مشاريع بناء هزت البلاد كالزلزال؛ يمكن القول: ''إنّ تركيا بنَتْ نفسها من العدم بين عشية وضحاها، بكلّ ما تحمله كلمة البناء من معنى''، وكما فعل السلاطين السلاجقة من قبل، أعاد قادة تركيا ورجال أعمالها بناء البنية التحتيّة للبلاد بأسرها؛ فأُصلحت الطُّرق، وبُنيت المطارات، وحُسّنت محطّات الطاقة الكهربيّة، وحمدًا لله؛ إذ أُعيد بناء المطار المخيف الذي كان يخدُم عاصمة البلاد في أنقرة، ولم يكن في إسطنبول سوى فندقين فقط من طراز خمسة نجوم عام ١٩٨٧م، واليوم يزيد عدد الفنادق عن عشرين فندقًا جميعها محجوزة بالكامل، وباتت شواطئ بحر إيجة والبحر المتوسّط -وكانت خاوية تمامًا عقب الحرب العالميّة الثانية- تحمل لافتة ''الكراسي كلها محجوزة''، وطبّقت البلاد سياسة مدروسة لتوزيع السُّلطات؛ فصارت مُدُن، مثل: بورصة وقيصري وأضنة في الصدارة تنافس أختيها الكبيرتين أنقرة وإسطنبول، وفي عام ١٩٩٠م اكتمل بناء سدّ أتاتورك المحور المركزيّ لمشروع شمال شرق الأناضول المحتوي على اثنين وعشرين سدًّا وتسع عشرة محطّة لتوليد الطاقة الكهربائيّة المائيّة؛ ويبدأ المشروع يوفّر مقادير ضخمة من مياه الريّ والطاقة الكهربيّة للمناطق القاحلة في جنوب شرق تركيا؛ فزاد من إنتاج الماء وهو مورد آخر من الموارد الطبيعيّة التركيّة؛ فمشروع شمال شرق الأناضول من أضخم مشاريع التنمية في العالم، وقد وضع تركيا على خريطة العالم؛

ليس لأنّه مشروع مبتكر فقط، بل أيضًا لما أثاره من جدل؛ إذ غمر مواقع تاريخيّة، وحوّل المسارات المائيّة في المناطق الواقعة على مجرى النهر.

خضعت إسطنبول لعمليّة تجميل هائلة خلال تلك الفترة؛ إذ نُقلت مدابغ الجلود خارج أسوار المدينة في يديكولي بين عامي ١٩٨٥م و١٩٩١م، ومن حسن الحظّ أنّ الشخص القادم من المطار لم يعد مضطرًا لتحمّل رائحة كريهة تنبعث من تلك المدابغ وتترك انطباعًا مبدئيًا سيّئًا عن إسطنبول، وأعلنت منظّمة اليونسكو عام ١٩٨٥م أنّ أسوار إسطنبول البيزنطيّة ضمن المواقع التراثيّة في العالم؛ أدّى ذلك إلى تنفيذ خِطّة جادّة لصيانة المواقع الأثريّة، وإنشاء الحدائق، وهدم كثير من المباني القديمة المجاورة، وبدءًا من عام ١٩٩٣م تقريبًا جرت تنقية المياه الراكدة في القرن الذهبيّ، وتوسيع الطرق الساحليّة الضيّقة المطلّة على البوسفور، لكن لسوء الحظّ نُقلت أيضًا الطاولات اللطيفة لمطاعم المأكولات البحريّة المتراصّة على جانبي الأرصفة بالجهة المقابلة من الطريق، وهذا طبع الحياة؛ فهي لم تصبح مشرقة ورديّة بلا منغّصات؛ فارتفعت الأسعار، وزاد متوسّط التضخّم حتى تجاوز حاجز العشرة، وارتفع متوسّط البِطالة، وظلّ فقراء الريف يتدفّقون على المدن، فأسفر ذلك عن اتّساع الفجوة الاجتماعيّة بين أسلوب الحياة الإسلاميّ المتحفّظ والأسلوب النُّخبيّ العِلمانيّ المتأثّر بالغرب.

شهد صيف عام ١٩٨٩م نشوب مشكلات تتعلّق بلاجئين بلغاريّين، وبدء حرب كرديّة؛ واستمرّت الهجمات على الشركات التركيّة في باريس، فوقع تفجير مطار أورلي عام ١٩٩٣م مسفرًا عن مصرع ثمانية أشخاص، وفي أغسطس ١٩٩٠م غزت العراق الكويت؛ فنشبت أولى الحروب العراقيّة الأمريكيّة، وفي عام ١٩٩٤م أدّت أزمة ماليّة مصحوبة بكساد وتراجع اقتصاديّ إلى هبوط قيمة الليرة إلى النصف على مدى عدّة أشهر، فساءت أحوال البلاد، وظلّ سعر صرف السوق السوداء أعلى

بنحو ٣٠٪ عن أسعار صرف المصارف طوال عام ١٩٨٨م، لكنّ تركيا ظلّت تكافح على طريق التقدّم في مجالات أخرى خلاف مجالي الصوادر والبناء، على سبيل المثال فإنّ الربّاع نعيم سليمان أوغلو -ذا الوزن الخفيف، الملقّب باسم: "هرقل الصغير"- أسر قلوب الأتراك ورفع رؤوسهم، حينما أحرز القلادة الذهبيّة في دورات الألعاب الأوليمبيّة أعوام ١٩٨٨م، و١٩٩٢م، و١٩٩٦م؛ إذ أظهر أنّ رجلًا صغير الحجم -مثّل تركيا بلاده- يستطيع أن يحقّق فوزًا كبيرًا في مجالات الرياضة الدوليّة، وعلى الصعيد السياسيّ أيضًا أرسلت تركيا رسائل مهمّة إلى العالم؛ فرشّحت امرأة، هي تانسو تشيلر لتولّي منصب رئيس الوزراء من عام ١٩٩٣م إلى عام ١٩٩٦م؛ فعُدّ ذلك إنجازًا في مجال المساواة بين الجنسين سبقت به تركيا أيّ بلد غربيّ آخر بمراحل، وبدأت الحكومة التركيّة تقيم المعارض الثقافيّة في الخارج، وهي طريقة ذكيّة لجذب أنظار مستهلكي الثقافة الأجنبيّة؛ أذكر أنّني حضرت بكلّ فخر حفل افتتاح المعرض الضخم: "عصر السلطان سليمان العظيم" المقام في المتحف الوطنيّ للفنون بواشنطن في يناير/كانون الثاني عام ١٩٨٧م، بحضور شخصيّات عالمية مرموقة في المجالين السياسيّ والثقافيّ.

شهد بلدي أمريكا التغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة والماديّة الهائلة نفسها خلال الثمانينيات، وكان وراءها بزوغ فجر عصر الحاسوب، كلّما فكّرت كيف تغيّرت حياتنا بفضل "حاسب المعرفة"، بدت لي التغيّرات السريعة الطارئة على تركيا أكثر إذهالًا؛ فبعد أن أيقظ أوزال تركيا في الثمانينيّات، بدا أنّ كلّ شيء متعلّق بالنظام السابق رُمِي في أعمق هوّة؛ في تلك الفترة أعجبني التقدّم المتحقّق، وفي الوقت ذاته بدأت أشعر بالحنين للماضي؛ إذ أصبح كلّ شخص يرغب في العيش في شِقق بالبنايات الخرسانيّة أو في مبانٍ مقامة في الضواحي بدلًا من بيوت خشبيّة تحوّلت إلى فنادق سياحيّة، ولم يعد أحد يرغب في التسوّق في السوق المغطّاة،

بـل في السـوق المركزيّـة، ولم يعد أحـد يفخر بارتداء الأزيـاء والجواهر التقليديّة، وحلّت الحقائب البلاستيكيّة محلّ الأخراج المنسوجة يدويًّا.

تركـت هـذه التغيّـرات آثارهـا على أمثالـي من السـائحين الأجانب؛ فقد سعدت لرؤية مستجدّات كثيرة؛ فسيّارات الأجرة لها عدّادات جديدة، وَضعت حدًّا للمسـاومة والجدال والاسـتغلال، ولم أعد مضطرّة للإقامة في فنادق متهالكة، والمراحيض والمِشـنّات أصبحت تعمل، والمواطنون غدوا قادرين على الانتقال بقطار الأنفاق في أنقرة وإسطنبول بكفاءة عالية وتكلفـة معقولة، وكنت أتحرّق شـوقًا لاكتشـاف الموسـيقى الكرديّة عام ١٩٩١م، حينما رُفع الحظر عن بيع أشرطة تسجيل تحوي هذه الموسيقى المميـزة، وظلّـت لفائف التبـغ والقدّاحات والفيتامينـات الأمريكيّة هديّة مفضّلة تقدِّمُها لأيّ تركيّ؛ لأنّها كانت شحيحة آنذاك في تركيا، وظلّت أوّل قاعة تابعة للخطوط الجويّة التركيّة في مطار نيويورك بأمريكا -المخصّصة لتسليم الركاب أمتعتهم- تشبه محطّة حوافل في قلب تركيا؛ صاخبة تعجّ بمسافرين يجرّون أجهزة ميكروويف في صناديق المقوّى، وغرائر ملفوفة بشـرائط، ولافتـة دائمـة في القاعـة تحمل اسـم الخطوط الجويّـة التركيّة حتـى الآن، بل أدّت هـذه المهمّة قطعةٌ من الورق المقـوّى، مكتوبة بخطّ اليد بقلم أسـود ثخين خطُّه، معلّقة بخيطين فوق مكتب تسـجيل الأمتعة، ولم توفّر الخطوط الجويّة التركيّة رحلات مباشـرة من الولايات المتّحدة إلى إسطنبول أو أنقرة، بل يجب الهبوط أولًا في مدينة بروكسل.

تغيّـر أيضًا شـكل الشـوارع؛ فمنـذ عـام ١٩٨٩م تقريبًـا خاصّة عقب سـقوط الشـيوعيّة في روسـيا عام ١٩٩١م امتلأت منطقة لالالي بمواطني دول أوربّا الشـرقيّة، لم تظهر علامات إرشـاديّة في الشوارع، لكنّني بدأت أرى أوّل مـرّة مَـن يقتنـون الكلاب -كلاب البـودل الفرنسـية!- بوصفها حيوانات مدلّلة، وقلّ عدد القِطط الضالّة، وأصبح مطعم إسكندر للكباب -مكانـي المفضّـل في قيصري- مكيّف الهواء مزوّدًا بسـتائر ورديّة رائعة،

أمّا بلدات، مثل: نيدي وأفيون -كنت وجدتهما في رحلتي الأولى عام ١٩٧٨م ضائعتين وسط السهول المغبّرة السرمديّة-، فقد بدتا الآن كأنهما عاصمة عمرانيّة مكتظّة بالسكّان، وشُيّدت مشاريع معماريّة عملاقة في جميع أنحاء تركيا، غير أنّ عددًا لا يحصى من المواقع لم يكتمل بناؤه وبات مهجورًا، وظلّت المتاحف الكبرى مغلقة للتحسينات، ورفعت لافتات تعلن إعادة افتتاحها في تاريخ أقدم بسنتين من تاريخ وقوفك أمام أبوابها!

لعلّ أعظم تغيير في رأيي هو ما رأيته في مدينة أنطاليا المزدهرة ازدهارًا هائلًا عقب ظهور سلسلة من فنادق النجوم الخمسة الفخمة، مثل: "فالاز" و"شيراتون فويدجار" عام ١٩٩١م، حينما زرت تركيا أوّل مرّة عام ١٩٧٨م كانت أنطاليا بلدة صاخبة بها ميناء تاريخيّ داخليّ خلّاب مليء بالآثار السلجوقيّة ومراكب الصيد الراسية عند واجهات بحريّة قديمة؛ أقمت في نُزُل صغير على طريق لارا شرق البلدة، كان متهالكًا جدًّا، لكنّه ساحر بفضل موقعه الرائع على الساحل، أهمّ ما يلفت الانتباه لهذا النُّزُل المتواضع شجرة دُلْب ضخمة، قد يصل عمرها إلى ثلاث مئة عام في حديقته المطلّة على الجُرْف؛ كان شكل الشجرة مميّزًا بأغصانها الطويلة الممتدّة أفقيًّا بطول حافة الجُرْف الصخريّ، كما لو كانت تحاول توفير أقصى قدر من الحماية؛ اعتدت تناول وجباتي تحت فيء هذه الأغصان الطويلة وأوراقها العريضة، وتنسّمت النسمات المنعشة، وقرأت، وتمشّيت، وتأمّلت المنظر الرائع لميناء أنطاليا؛ قدّمت لي هذه الشجرة ملاذًا آمنًا يفيض سلامًا ومحبّة وسكينة نادرًا ما شعَرت بها.

بعد مرور سنوات، وتحديدًا في عام ١٩٩١م، قرّرت أن أعود للإقامة في ذلك المكان المتواضع لأنعم ثانية بتلك السكينة تحت شجرته، في محاولة للهرب من تلك الفنادق الحديثة المفتقرة إلى الحميميّة؛ جفَل قلبي حين وصلت إلى الطريق المؤدّي إليه، ورأيت أنّ الأرض قد حُفرت،

وأحيطت بسياج من الأسلاك الشائكة؛ كانت اللافتة المثبّتة أعلى السياج تقول: "موقع بناء؛ ممنوع الدخول، أعمال هدم خطرة"، شجرتي الحبيبة، هل اقتلعتها الجرّافة وألقتها في البحر؟ انتابني حزن شديد ذلك اليوم، وسألت نفسي: هل تدرك تركيا أنّ التقدّم يحمل في طيّاته مسؤوليّات محدّدة تجاه التراث والتقاليد من دونها يصبح التقدّم وعدًا أجوف لا أساس له؟

بدءًا من عام ١٩٩٥م تقريبًا، وفور انطلاق خيل سباق أوزال، بدأت تقطع المضمار، كما لو أنّ شيئًا لا يقف في طريقها، وطرأ تغيّر مجتمعيّ آخر على تركيا استمرّ نحو خمس سنوات؛ إذ برز اتّجاه معيّن، وبدأت الأمور تتصاعد حتى باتت معها القهقرى مستحيلة؛ فقد فتح أوزال الباب على مصراعيه أمام الاستهلاك؛ فهُرع الأتراك إليه برغبتهم العارمة في التقدّم والتغيير، والتزمت تركيا مسارًا محدّدًا نحو العصريّة؛ فانطلقت لتصبح أكبر وأفضل من أيّة دولة أوربيّة أو من أمريكا، ونجحت على عدّة أصعدة، وفي غضون خمس سنوات، كان المارد النائم -المستيقظ في العقد السابق- قد اتّخذ مكانه على الساحة العالميّة، وصاح: "أخلوا لي الطريق، فأنا قادم!"؛ فبدأت تركيا تشقّ طريقها صبيّة تكبر، وتتّجه نحو البلوغ، وكلّ ذلك من خلال اندماج سريع سلِس مع الثقافة الاستهلاكيّة العالميّة، تغيّرت الحياة اليوميّة تغيرًا ملحوظًا حتى أثناء فترات قصيرة كانت تفصل بين زياراتي، ولو أنّني زرت تركيا بعد غياب عشرين عامًا، لا مرّة كلّ عام، فلم أكن لأصدّق ما رأته عيناي؛ تزامنت تلك الفترة من التقدّم السريع أيضًا مع ظهور شبكة المعلومات الدوليّة بوصفها قوّة محرّكة عالميّة متفجّرة، وشهد هذا العصر المزيد والمزيد من الاستهلاك الملحوظ تدفعه نُخبة جديدة ظهرت بفضل التعليم والكفاءة المِهْنيّة، كما فعلت الإنكشاريّة في عهد الدولة العثمانيّة.

كان عام ١٩٩٦م عامًا حافلًا بالتغيير، وهو عام عُقد فيه مؤتمر الأمم

المتّحدة للمستوطنات البشريّة -الموئل الثاني- بمدينة إسطنبول؛ فلإظهار إسطنبول مشاركًا فاعلًا في الساحة الثقافيّة العالميّة، خضعت المدينة لعمليّة تزيين شاملة، وزُوّدت الشوارع بالعلامات الإرشاديّة، وحُسّنت وسائل المواصلات العامّة، وخفيت الكلاب والقِطط الضالّة الكثيرة من الشوارع بين عشيةٍ وضحاها، وخفيت الإشارات الأهليّة للطريق في الأحياء، ووُضعت العلامات الإرشاديّة في مكانها الصحيح، لكن فقدت إسطنبول الجديدة النظيفة من عدّة أوجه كثيرًا من غموض خَلَب لبّ بيير لوتي، وبحلول عام ١٩٩٦م زاد عدد سكّانها البالغ أربعة ملايين نسمة لدى وصولي عام ١٩٧٨م ليتجاوز اثني عشر مليون نسمة؛ وبات ازدحام المدينة ملحوظًا.

عددتُ من سمات هذه الفترة ظهور ثروة جديدة على كثير من الأصعدة، خاصّة في ازدهار حركة تشييد المنازل والمراكز التجاريّة الحضريّة؛ فقد أُنشئت في منطقة لَوانت في إسطنبول مجمّعات عمرانيّة فخمة مغلقة ببوّابات -يطلق عليها اسم (موقع)، ينطقونها بالطريقة الفرنسيّة- توفّر بيئة معيشة كاملة تضمّ منازل، وطرقًا، وحدائق، ومروجًا خاصّة، ودُور سينما، وساح تسوّق، ونوادي صحّيّة، وملاعب لكرة المِضرب، وحمّامات سباحة، وشهدت تركيا وقتئذٍ حركة نموّ سريعة في تشييد مراكز التسوق التجاريّة المخطّطة لتكون بمنزلة منتديات اجتماعيّة؛ بدأ ظهور هذه المراكز التجاريّة في كلّ مكان في نهاية التسعينيّات، بدءًا من مركز "جاليريا" المشيّد عام ١٩٨٨م، و"أكميركز" و"كانيون" في إسطنبول، و"مترو" و"أتاكولا" في أنقرة، ومركز "كولا سيتي" المكوّن من اثنين وأربعين دورًا أنشئ في قونيا عام ٢٠٠٦م، وانقلبت أجواء الأسواق الشعبيّة التي يغلب عليها الطابع الذكوريّ إلى أجواء مراكز التسوّق الأكثر ميلًا للطابع الأنثويّ، ورأيت أوّل مرّة سيّدات يعملن بائعات، لم تكن هناك موازنة بين الأرضيّات الرخاميّة

اللامعـة لهذه المراكز والشـوارع الموحلة للأسـواق القديمـة في المدينة، ويُضطـرّ المرء للذهاب إلى تلك المراكز بالسـيّارة لا سـيرًا على الأقدام؛ وهـي علامـة أخرى على السـمة الاسـتهلاكيّة المتزايـدة؛ تضمّنت مراكز التسـوق سـاحًا لتناول الطعام حافلة بسلاسـل المطاعـم الغربيّة، مـع بقاء بعض أكواخ الكباب، حمدًا لله! هُرع تجّار التجزئة الأجانب لشغل متاجر هذه المراكز، بدءًا من مقهى "ستاربُك" إلى متجر "هارفي نيكلز".

شهدت هذه الفترة، بالإضافة إلى ظاهرة مراكز التسوّق، تحوّلًا كاملًا لمتجر عَمّ البدّال، من شكل المتجر العاديّ إلى شكل مركز التسوّق، مثل: "إسـمار"، وأخيرًا إلى شـكل مركز التسوق المتكامل، مثل: "ميجروس" و"كارفـور"، واسـتمرّت موجـة تشـييد الفنـادق أيضًا، مـع التركيز على الفخامـة، فكلّمـا كانت التجهيـزات أكثر ترفًا كان الفنـدق أفضل، وبصفة عامّـة أعادت موجة ازدهار حركة البناء رسـم شـبكة المناطـق الحضريّة، وتفـكّكَ الرابـطُ القويّ بيـن العناصـر التقليديّـة الثلاثة للمدينـة العثمانيّة -الحيّ، السـوق، المسـجد المحليّ- وأعيد تشـكيلها على نحو مختلف؛ إذ لـم يعد الأطفال الصغار يترعرعون في حيّ السلطان أحمد في إسطنبول المتحوّل إلى منطقة سياحيّة حافلة بالبيوت العثمانيّة.

راقبـتُ هذه التغيّرات أيضًا على صعيـد الاتّصالات والطراز والطعام وقطـع أوقات الفراغ بأشـكال متباينة، لكنّني أعتقد أنّ النزعة الاسـتهلاكيّة المحمومة هي السـمة الغالبة لتلك الفترة؛ شـعر كلّ شخص بحتميّة اقتناء هاتف نقّال وسـيّارة وشـراء احتياجاته من مركز التسوّق المركزيّ؛ لطالما كانت إسطنبول بوّابة للتجارة، وفي تلك الفترة طرق الأوربيّون والغربيّون هـذه البوّابـة، لا ليروّجـوا لبضاعتهـم فقط، بل أيضًا لأسـلوب معيشـتهم في مجتمـع متعطّش لذلك، ورغم التحمّس للتقدّم والاستهلاك، ظلّ هناك تناقض شاسـع بين الثروة الهائلة والأموال المتدفّقة بظهور الأغنياء الجدد

فـي إسـطنبول من جهة، والفقر المدقـع البادي في المناطـق الريفيّة عادة في الشرق من جهة أخرى.

أقبـل الأتـراك علـى الاستهلاك، لكنّهـم أقبلوا علـى الإنتـاج أيضًا؛ فخـلال هـذه الفتـرة فاجـأت تركيـا العالـم بحُنْكتهـا وإنجازاتهـا التقنيّـة فـي الداخـل والخـارج، وصارت مشـاركًا بارزًا على السـاحة بمـا حقّقته فـي مجـال الاتّصـالات، وحينمـا اُفتُتحت القاعـة (١) الجديـدة المجهّزة بأحـدث التجهيـزات فـي مطـار "جـون إف كينيـدي" في نيويـورك عام ١٩٨٨م، ارتقـت الخطـوط الجويّـة التركيّـة لتصبح من الخطـوط الجويّة الدوليّة الخمس المستخدِمة هذه القاعة، مثل: شركتي الطيران المرموقتين "إيرفرانـس" و"لوفتهانـزا"، وصـارت رحلات الخطـوط الجويّة التركيّة من الولايات المتّحدة إلى إسـطنبول رحلات مباشـرة تقلع كاملة العدد، واستُبدلت قاعـة تسـجيل الأمتعـة -الشـبيهة بمحطّـة حوافـل- بخدمـة سـريعة سلسـة راقية، وأضحى الأتراك يحملون أمتعة أنيقة ذات علامات تجاريّـة شـهيرة، ومـن مظاهر التقـدّم التقنـيّ المبهـر المميّز لهـذه الفترة في تركيا، أنّني اسـتخدمت أوّل مرّة في حياتي مَكِنة صرف آليّ لأسـحب نقـودًا فـي بلـدة أفيـون الزراعيّـة المتربة، لا في شـارع "وول سـتريت" فـي مانهاتـن، واسـتخدمت أوّل مـرّة فـي حياتي نظـام ترشـيد الطاقة عن طريق تشـغيل الإضـاءة بالبطاقات المُمغنطـة في فنـدق بمدينة قيصري، لا في لاس فيجاس أو باريس، واستمتعت بالهواء البارد المنعش المنبعث من وحدات تكييف حائطيّة ذات كفاءة عالية في أكساراي، وافتُتح مشروع قطار الأنفاق بين تكسـيم ولونت عام ١٩٩٩م، وقد جلسـت في سـيّارتي أوّل مـرّة أنتظـر تغيّـر الإشـارة الحمراء وأنا أتابـع العدّ التنازلـيّ بالثواني على شاشة عدّاد رقميّ، لم يكن هذا في نيويورك، بل في بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأسود، وهدر قطار "الطلقة الفضيّة" السريـع في أولى

رحلاتـه من سـيركجي إلـى أمين أنو عبـر طريق "ديفان يولـو" التاريخيّ فـي إسـطنبول، كان قـد شـهد مـن قبل مسيرات الإنكشـاريّة فـي زمنكِ يا سيّدة ماري.

تغيّـر شـكل الشـوارع تغيّـرًا سـريعًا أيضًـا، وبـدأتُ أرى عربـات يد تبيـع الأطعمـة الغربية، مثل: الـذرة الحلوة المسـلوقة والبطاطس الحارّة والمنفـوش (الفشـار)، فضـلًا عن مظاهـر التفاخر بالكلاب في سلاسـلها والسـيارات الفخمة أمام الأكواخ القديمة، وحلّ الغاز الطبيعيّ محلّ فحم حجريّ بطيء الاشـتعال منح إسـطنبول رائحة مميّزة خلال فصل الشتاء، وانتشرت مقاهي شبكة المعلومات الدوليّة في كلّ مكان بعد عام ١٩٩٥م، وأزهرت أسـطح المنازل بأطباق اسـتقبال القنوات الفضائيّة بسرعة تعادل سرعة نموّ نبات إبرة الراعي في صفائح زيت الزيتون المنتشرة أمام أبواب المنـازل، وبـدأ ظهور الدرّاجات عام ١٩٩٦م مـع ظهور عربات الأطفال -لم يكن لها وجود من قبل في تركيا-؛ إذ شاعت ثقافة حمل المرأة طفلها قريبًا منها، سـواءً علـى ذراعيها أو فوق وركيها، ورُمّمت منطقة السـلطان أحمـد عام ١٩٩٧م، مع إقامة حديقة جديـدة وتنظيف الخرائب القديمة، وأقيم سياج خاصّ حول حمّام السباحة العميق الحالم في مدرسة كاراتاي في قونيا لحماية السائحين الحمقى، وأقيم دور جديد في السوق المغطّى عام ١٩٨٨م.

لـم يقتصر الأمر على تدفّق سـلع وأسـاليب اسـتهلاكيّة جديدة على تركيـا، بـل انعكسـت أيضًـا العولمة فـي الصور والأسـماء ونجـوم الفنّ والأطعمـة وأسـاليب الحياة بفضل وسـائل الإعلام والمحطّـات التلفازيّة الفضائيّة، وبدأ الشـباب الأتراك يعتمدون المظهر العالميّ؛ الجينز ونصف الكُمّ والحذاء الرياضيّ وقميص البيسـبول (بلا كُمّ)، ورسـومات الوشـم علـى الجلد، واستشـرت ظاهرة البدانـة بين الأطفـال، وتألّقت المجلّات

اللامعة في أكواخ بيع الصُّحُف؛ فظهرت النُّسَخ التركيّة من مجلّتي "كوزموبوليتان" و"ماري كلير"، وتنافست مجلّات التزيين ومجلات الطراز ذات الورق المصقول على جذب الاهتمام، وصار مصمّمو الأزياء الأتراك يتبخترون على ممشى عروض الأزياء الدوليّة، بدءًا من رفعت أوزبك وأتيل كوتوغلو، قدّما في منتصف التسعينيّات مجموعة أزياء مبتكرة تتّسم بطابعها الشرقيّ الخياليّ؛ وقتئذٍ لاحظت أنّ فرع متجر "كي مارت" القريب منّي في أمريكا يستورد من تركيا الجينز الأزرق وقمصان بولو.

نقل الأتراك أساليب الحياة الاستهلاكيّة الغربيّة المترفة بطريقتهم التركيّة، فبدأت المرأة تهتمّ بصحّتها وجمالها، ليس فقط بمتابعة المقالات المنشورة في مجلّات الطراز الراقية، بل أيضًا من خلال متابعة المقالات المنشورة في الصحافة المحليّة والإعلان، وبالاستعانة بمنتجات التجميل العالميّة في السوق التركيّة، وممّا لا يُصدّق أنّ في هذا البلد المشهور بتدخين النارجيلة والمرتبط اسمه بتدخين التبغ، حظر الأتراك التدخين في الأماكن العامّة قبل أوربّا بوقت طويل، وبعد الولايات المتّحدة مباشرة، وظهرت المقاهي العصريّة ومطاعم الوجبات السريعة، وشاهدت منتجات غذائيّة جديدة في تركيا قبل أن أشاهدها في نيويورك، وصارت الهواتف النقّالة في يد الناس جميعًا، وأصبحت أطعمة، مثل: كعك الشيكولاتة، ومكعّبات السُّكّر، والقهوة، من الرموز المألوفة في الحياة اليوميّة.

لم يقنع الأتراك بجلب السلع الاستهلاكيّة فقط، بل سعوا أيضًا لتوفير فرص تعليم أفضل لأبنائهم؛ فظهرت الجامعات الخاصّة في وقتٍ تدفّق فيه الأتراك بأعداد غير مسبوقة على الالتحاق بمعاهد التعليم العالي في أمريكا؛ فالحصول على شهادة أمريكيّة كان جواز مرور لتحقيق النجاح في تركيا، ومثلما بُعث الأمراء العثمانيّون في الماضي إلى المدن القرويّة ليتعلموا الحِرف على يد معلّم خاصّ، بات ورثتهم الشرعيّون المعاصرون

يُبتعثـون إلـى الولايـات المتّحـدة للالتحـاق بأرقـى الكليّـات والحصول على أرفـع الشهادات العلميّة.

لم يقتصر التغيير على إسطنبول وحدها، بل على البلاد بأسرها، لكنّه اتّخـذ منحـى مختلفًـا في الأناضـول؛ إذ تضافـرت الجهود لنبـذ الماضي واتّبـاع أسـاليب الحيـاة الغربيّـة للتدليـل علـى طابـع الحداثـة، وحلّـت أدوات عمليّـة فعّالـة محـلّ الأدوات المنزليّة التقليديّـة، فحلّت مجموعة أوانـي ألمونيـوم روّجت لهـا إعلانات الصُّحُـف محلّ الأواني النحاسـيّة القديمـة يدويَّة الصنـع، وحلّت أدوات المائـدة المصنوعة من الإينوكس محـلّ الملاعـق الخشـبيّة المنحوتة يدويًّا، وحـلّ الموكيت محـلّ الكِلِيم والسـجاجيد المنسـوجة يدويًّا، وحلّت الأرائك والكراسـيّ المنمّقة محلّ مصاطب "صدر البيت" المنخفضة التي اسـتمتعتِ كثيرًا بالجلوس عليها يـا سـيّدة مـاري؛ أذكر أنّني فـي إحدى زياراتـي قونيا عـام ١٩٨١م كدت أتعَـرض للدهس تحت عجلات مئات عربـات تجرّها الخيل أمام مجمـع "صاحـب عطـا"، وهي منطقة مخصّصة لمحـلّات الصيانة وقطـع الغيار؛ لـم تكن هناك سـيّارة واحدة وسـط مئات عربـات تجرّها الخيـل، لكنّني حينمـا عدت إلى المنطقة نفسـها عام ١٩٩٥م، كانـت برمّتها تخلو من أيّة عربة تجرّها الخيل.

لا شـكّ أنّ التغييـر يسـتتبـع لا محالـة عواقـب عارضـة، وقـد كانت مظاهـر التلـوّث البصـريّ على جانبـي الطريق أكثر تغيّر مؤسـف لاحظته في الأناضول وقتئذٍ؛ ففي السـابق كان المرء يتجوّل سـاعات دون أن تقـع عيناه على أيّة لوحة إعلانات؛ لا شـيء سـوى أميال من مناطق ريفيّة نقيّة ممتدّة؛ كان الريف بالـغ النقاء حتى إنّه يُشعر المرء بالانفصال عن العالم، وأنّـه قـادر على مدّ بصره وخياله نحو الأفق ومـا ورائه، أمّا الآن فلوحات الإعلانات في كلّ مكان، مليئة بمعلومات فجّة لا أهميّة لها؛ لم تكن هذه اللوحات وحدها تلوّث الريف، بل كانت هناك قُمامة أيضًا، لا سيّما تلك

الزجاجات والأكياس البلاستيكيّة غير القابلة للتحلّل؛ في السابق لم يكن للقمامة وجود قطّ على طرقات تركيا، لكنّها الآن في كلّ مكان.

رأيت تغيّرًا مؤسفًا آخر في قونيا عام ١٩٩٦م، إذ اختفت التشكيلة الزاهية لسجاجيد الصلاة المنسوجة يدويًّا السابغة لأرضيّات مسجد علاء الدين، وحلّت محلّها مساحات ساذجة من الموكيت الأزرق المائل للخضرة؛ تغيّر هذا المسجد الفخم، أشهر وأقدس المساجد السلجوقيّة، بمنبره المزخرف الشهير المصنوع من خشب الجوز منذ عام ١١٥٥م، وبمحرابه ذي البلاطات الفيروزيّة المزجّجة الرائعة، وسجاجيده الأصليّة البديعة، أمر السلطان علاء الدين كيقوباد بصنعها، والآن سُلب من المسجد مجده التاريخيّ بسبب تلك السجاجيد الصناعيّة، وكلّ هذا باسم التقدّم والتنمية.

في ظل تلك النزعة الاستهلاكيّة والتغيّر الطارئ على الحياة التركيّة خلال الفترة من ١٩٩٥م إلى ٢٠٠٠م، لعلّ المشهد السياسيّ الناشئ كان إرثًا خالدًا لهذه الفترة، ترك أكبر أثر على مستقبل تركيا؛ فقد شهدت هذه السنوات الخمس كفاح بلد للتكيّف مع تغيّر كان في أغلب الحالات مربكًا يصعب استيعابه؛ فقد تركت النزعة الاستهلاكيّة الغربيّة شعورًا بالإقصاء لدى قطاع كبير من المجتمع، خاصّة أولئك الذين يعيشون خارج المراكز الحضريّة، وكما هو متوقّع تحوّل كثيرون إلى شيء أكثر أمنًا وألفة وملاءمة مع نظام القيم، وتطلّعوا إلى نظام يقبل أساليب الحياة المختلفة ويحقّق الاستقرار الاقتصاديّ؛ لذا لم تكن مفاجأة أن تنتخب تركيا نجم الدين أربكان أوّل رئيس وزراء إسلاميّ في يوليو ١٩٩٦م، إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في الحكم.

أمّا فترة النشوء الرابعة والأخيرة -عايشتُها في تركيا-، فقد بدأت منذ عام ٢٠٠٠م إلى اليوم في أعقاب حادثين مدمّرين؛ هما زلزال إزميت

عام ١٩٩٩م وتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م في نيويورك؛ فقد تغيّرت تركيا والعالم بعد هذين الحدثين، وقادوا حملة حماسيّة أخيرة للتحديث رغبت تركيا في تحقيقها؛ تتّسم هذه الفترة -من وجهة نظري- بتدفّق سياحيّ هائل، وحملة مكثّفة من التودّد لأوربّا، وظهور شعور بالعداء تجاه الثقافة الأمريكيّة بسبب حربها الثانية على العراق، وبروز أحزاب سياسيّة دينيّة قويّة على الساحة، وتصدّر تركيا الساحة العالميّة على الصعيدين السياسيّ والاقتصاديّ.

تغيّر المناخ السياسيّ تغيّرًا سريعًا، وشهد إلغاء عقوبة الإعدام عام ٢٠٠٢م، ورغم انتهاء التمرّد الكرديّ عام ١٩٩٩م بإلغاء قانون الطوارئ في نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠٢م، ظلّ من الشائع جدًّا رؤية جنود يحملون البندقيّات الرشّاشة يقفون في مداخل الفنادق والأماكن العامة حتى عام ٢٠٠٤م، عام بثّت قناة "تي آر تي (*TRT*)" التلفازيّة التركيّة المرّة الأولى برنامجًا باللّغة الكرديّة؛ ولما تسبّبت أزمة ماليّة -وقعت عام ٢٠٠١م- في هبوط سعر العملة التركيّة وخسارتها نصف قيمتها، طبقّت البلاد إصلاحات اقترحها صندوق النقد الدوليّ، والتزمت بتنفيذها؛ نتيجة لذلك لم تحقّق تركيا نموًّا هائلًا في متوسّط الناتج المحليّ الإجماليّ فقط، بل خلّصت نفسها أيضًا من تضخّم شديد أصابها خلال معظم سنوات التسعينيّات.

واصلت تغيّرات العقد السابق ظهورها السريع؛ إذ استمرّت عمليّة ازدهار البناء، فشُيّدت مشاريع إسكان ضخمة على أراض خارج مدن، مثل: قيصري ومالاطيا وقونيا، وشُيّدت أبراج إداريّة في أنقرة وإسطنبول، ومراكز تسوّق تجاريّة ومتاجر متكاملة في أنحاء البلاد كلّها، وباتت الطُّرق المتقاطعة بطول البلاد وعرضها تضارع نظيراتها في الدول الأوربيّة، وواصلت التقنية تقدّمها؛ فشهد عام ٢٠٠١م افتتاحًا لمشروع قطار أنفاق جديد في أنقرة ولمطار دوليّ في إسطنبول، وفي إشارة لتغيّر الزمن،

أصبحت المساجد تضع لافتات كُتب عليها: "برجاء إغلاق الهاتف النقّال"، ووُضعت في بلدة صغيرة خارج توقات شاشة رقميّة فوق المسجد لتعلن مواقيت الصلاة بحروف حمراء ساطعة.

في الأول من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٥م أُلغِيَت من العملة التركيّة ستّة أصفار، وصدرت الليرة التركيّة الجديدة؛ وبكفاءة مذهلة استطعت أن أسحب أولى الليرات التركيّة الجديدة من مَكِنة الصرف الآليّ في الساعة العاشرة من صباح يومئذٍ، ولم أتوقّع يومها أن تُخرج لي المَكِنة العملة الجديدة، لكنّ كلّ شيء مضى بسلاسة، بل بسلاسة أكثر ممّا حدث، حينما تحوّلت أوربّا إلى اليورو.

ما من إعلان يظهر الآن دون أن يكون مصحوبًا بعنوان موقعه على شبكة المعلومات الدوليّة، علاوة على أنّ استخدام أجهزة التقاط إشارة الشبكة الهوائيّة -واي فاي- في تركيا أكثر شيوعًا وفعاليّة منها في أمريكا، ناهيك عن أنّها أكثر تقدّمًا من مثيلتها في أوربّا، علاوة على ذلك أصبحت تركيا تهتمّ بحماية البيئة، فظلّت تقيّد نموّ المناطق الحضريّة، وتنشئ حدائق جديدة ومواقف للسيّارات، وخصّصت شوارع تسوّق للمَرَرَة فقط مغلقة أمام السيّارات كما في شارع "استقلال" والشوارع الفرنسيّة في إسطنبول، ووزِّعت الطُّرُق المروريّة المؤدّيَة إلى مداخل المدن، ومن الشائع الآن رؤية عمال غربيّين يعيشون في إسطنبول؛ فقد أصبحت إسطنبول تستقبل نحو ثلاث مئة ألف إلى أربع مئة ألف مهاجر سنويًّا، وأصبح قطار "الطلقة الفضيّة" الآن مكيّف الهواء لراحة الركاب.

تواصل السوق الدوليّة نموّها، مع تصدير الأتراك نسبة ٩٠٪ من سيّاراتهم إلى أوربّا، وقد رأيت في أبريل/نيسان عام ٢٠٠٧م بعض المشروبات التركيّة تُباع في زاوية صغيرة بمتجر البقالة في شارعِي بنيويورك، وصارت لافتة الرِّحلات المغادرة في مطار إسطنبول تعلن

عن قيام رحلات جويّة إلى كلّ مكان يتصوّره المرء؛ فما أبعد هذا عن تلك اللافتة من المقوَّى المعلّقة يومًا ما فوق مكتب الخطوط الجويّة التركية في مطار نيويورك! لكنّ أكبر تغيّر شهدته تلك الفترة تمثّل في التدفق السياحيّ الهائل على تركيا؛ إذ لم أعد أستطيع المشي في شوارع إسطنبول دون أن أقابل أجانب، وتحوّلت إسطنبول إلى روما الجديدة؛ والأتراك شعب مضياف كريم كعادته، لا يدخّر جهدًا للترحيب بالسيّاح.

وضعت تركيا منظومة مواصلات ممتازة تشمل وسائل راقية لنقل الركّاب في المدن بحوافل وقطارات وخطوط قطار بطيء ومراكب وحوافل عائمة وسيّارات أجرة وخطوط قطار أنفاق يجري تحسينها حاليًّا، وتخضع خطوط السِكك الحديديّة والطُّرُق العامة للتحسين؛ إذ ضمّ كثير من الطُّرُق أربع مسارات، وشُقّت طُرُق سريعة بضرائب واجبة التحصيل لتيسير الحركة فيها، وستجدين دائمًا على هذه الطُّرُق ضبّاطًا مبتسمين يتقنون عدّة لغات لضمان سلامة الروّاد، وتُعدّ نافذة تقديم المعلومات للسائحين في منطقة السلطان أحمد أعجوبة من حيث كفاءة الأداء، وتُستخدم البيوت والأخوان العثمانيّة التاريخيّة في سافرانبولو وديار بكر وأماسيا دُورًا للضيافة، وسيجد السائح مقهى "ستاربك" في انتظاره بشارعي "ديوان يولو" و"استقلال"، في حال لم يكتفِ بكؤوس الشاي التقليديّة الصغيرة والقهوة بالحليب، والقهوة التركيّة، وتنتشر مِكان المثلّجات في الفنادق، ويستطيع السيّاح أن يرقصوا على أنغام الأغاني العالميّة الشهيرة وإيقاعات الراب التركيّ في عدد لا يحصى من ملاهي ديسكو شبابيّة افتُتحت خِصّيصى لهم.

من بين الثمار الناضجة لانفتاح تركيا نحو وُجهة ثقافيّة عالميّة زيادةُ الوعي بكيفيّة عرض تراثها القوميّ؛ فبالإضافة إلى تحسينات المتاحف التركيّة المرموقة في أنقرة وإسطنبول وأنطاليا، فُتحت سلسلة من متاحف القطاع الخاصّ، مثل: متاحف "قادر هاس"، و"كوتش"، و"صابانجي"،

و"بيـرا"، و"صدبـرك هانـم" في إسـطنبول لاسـتقبال الأجانـب وأتراك استيقظ اهتمامهم بهُويّتهم الثقافيّة؛ إذ ترسّخ تركيا قدميها بوصفها مشاركًا رئيسًـا في السـاحة الثقافيّة العالميّة بفضل هذه المتاحف، لا سيّما متحف إسـطنبول للفـنّ الحديث المقام عام ٢٠٠٤م، وهـو أوّل متحف من نوعه فـي تركيـا للفنّ المعاصر، غيـر أنّ الفنون التقليديّة حاضـرة؛ فهناك خِطَط حاليّة في إسـطنبول لإنشاء متحف خاصّ للسجاد المسطّح، أمّا الكتيّبات السـياحيّة وكتيّبـات المتاحـف التي كانت مـن قبل عصيّة علـى الفهم لِما تحفـل بـه من أخطـاء لغويّة فادحـة، فقد صـارت الآن أنيقـة مكتوبة بلغة راقية، وتتوافر الأدلة السياحيّة المسموعة الآن بمجموعة كبيرة من اللغات الأجنبيّـة، وتُطبع الكتيّبات الإرشـاديّة باللغات كلّها، إضافة إلى ذلك فقد بدأ الشعب التركيّ يزداد وعيه الثقافيّ، مثله مثل السائحين؛ فأصبح إصدار الكتـب أكثـر رقيًّا وتعقيدًا، وزُوّدت الكتب بأغلفـة ملّونة مصمّمة تصميمًا فنيًّا وبورق أبيض عالي الجودة؛ وهو تحسّن ملحوظ في الأغلفة الشاحبة المضجِرة وورق الصُّحُف المستخدم في الماضي.

في السابق كانت تركيا تصدّر عشرة آلاف كتاب تقريبًا سنويًّا، وفي عام ٢٠٠٦م أصدرت نحو ثلاثين ألف كتاب، والآن صارت متاجر بيـع الكتب الراقيـة فـي كلّ مكان، بواجهات تقدّم عروضًا جذّابة للكتب المتوفّرة بها، ولما أعلنت منظمة اليونسـكو عدّ تسـعة مواقـع فـي تركيا ضمن المواقـع التراثيّـة العالميّـة، وأعقبَه اهتمـام مثقّفي العالم بالاكتشـافات الأثريّة؛ زاد الوعـي فـي تركيا بوجـوب الحفـاظ على التـراث وتقديره والاعتـزاز به؛ والآن أصبـح الأتـراك أكثر إدراكًا أنّ ثقافتهم تتّسـم بثراء هائل يسـتوجب الاعتزاز به وصيانته مـع مراعاة العناية والحِرفيّة اللازمة.

ألاحـظ تغيّـرات كثيرة تعدّ مؤشـرًا لي؛ إذ أصبـح مـن الصعب العثور علـى خبز جيّد، وصار شـراب الخثير متوفرًا في أكـواب معقّمة، ولم يعد يُصنـع منزليًّا ويقدّم في أباريق، وسـمعت هذا العام أوّل مرّة في الشـوارع

صوافر سيّارات الشرطة والإسعاف، وبات من النادر رؤية الأكواخ القديمة وبائعي اليانصيب الجائلين، وصارت العصائر معلّبة في عُلَب المقوّى، لا في قوارير مخروطيّة صغيرة الحجم زاهية اللون، ولم يعد بمقدورك تناول رشفة ماء في أيّ مكان إلّا إذا كانت معلّبة في زجاجات بلاستيكيّة؛ إذ باتت أباريق الألمونيوم -كانت توضع فوق طاولات المطاعم- أو الكؤوس التي يقدّمها الباعة الجائلون غير صحّيّة في نظر الناس جميعًا، وأصبح الأطفال الرضّع صعاب الإرضاء، وصار الأطفال أكثر وقاحة وبدانة، وفقد سوق الأبازير أصالته، بعد أن خبا زهو تلاله الشهيرة من التوابل الملّونة، وتحوّل لبيع هدايا وتذكارات رخيصة وقمصان نصف كُم للسيّاح، أضف إلى ذلك أنّ متاجر الجواهر صارت تزحف عليه، فقد رأيت هذا العام أحد هذه المتاجر بواجهة زجاجيّة متطفّلة دون أدنى احترام لملاءمة معماريّة يتّسم به هذا الأثر التاريخيّ.

في خِضَمّ هذه التغيّرات كلّها، أدعو الله أن يظلّ التميّز المحليّ لكلّ إقليم في تركيا -بثرائه كلّه وتفرده- صامدًا أمام العولمة وقالبها العالميّ القياسيّ المانح الأماكن كلّها طابعًا موحّدًا؛ لأنّ ذلك التنوّع الإقليميّ هو أحد الموارد المهمّة في تركيا، ولا بدّ من الحفاظ على العاد المحليّة والأزياء التقليديّة والأغاني الشعبيّة واللهجات واللكنات المحليّة والأطعمة والموسيقى والنماذج الفنيّة؛ فأنا أريد قونيا مختلفة عن شانليورفا، ولا أريد أرضروم الغالب عليها الطابع الرماديّ أن تشبه أنقرة الذهبيّة، أو أن تستخفي اللهجات الإقليميّة التركيّة؛ أريد أن أسمع الموسيقى العلويّة في إلبيستان وأن آكل المثلجات المكثفة في قهرمان ماراش، وأن أنبهر بزرقة البحر الأبيض المتوسّط في أنطاليا، وبصفرة السهول المتربة في نيدة، وخلال مسيرة التحسين الحاليّة آمل على وجه الخصوص ألّا يخسر الشعب التركيّ رقّته الأصيلة وروحه النقيّة؛ فلا شكّ أن عمليّات سطو وسرقات وأعمال إجراميّة قد تحدث، وكلّها عناصر

ناجمة عن تأثير الغرب على القيم التقليديّة؛ أذكر حينما زرت إسبارطة عام ١٩٩١م وأغلقت مزلاج سيّارتي، ضحك المسؤول عن موقف السيّارات وسخر منّي قائلًا: "يا لك من امرأة حمقاء! لا تحتاجين لذلك هنا؛ فنحن في تركيا حيث لا يسرق أحد غيره!"؛ كم أتمنّى أن يظلّ دومًا على حقّ!

كلّ ما ذكرت ليس سوى عقبات صغيرة في طريق التقدّم الفائق السرعة؛ أنا أيضًا أشارك الأتراك حماسهم عند ركوب سفينة البوسفور العظيمة المنطلقة نحو المستقبل؛ فثمة مشروعان كبيران يُخطّط لإقامتهما على البوسفور، يذكّران الناس جميعًا بمدى التغيّر الطارئ على تركيا منذ أن حلَم السلطان سليمان العظيم بتشييد جسر فوق البوسفور: مشروع "مرمراي"، المتوقّع إتمامه عام ٢٠١٢م، سيربط شطري إسطنبول الأوربّيّ والآسيويّ بنفق سِكّك حديديّة يمتدّ أسفل البوسفور مسافة ثلاثة عشر كيلومترًا، ليكون بذلك أعمق نفق تحت الماء في العالم، ومن المخطّط أيضًا أن ينتهي في ذلك الوقت نفسه تشييد جسر ثالث فوق مياه البوسفور، ورغم هذا القدر الهائل من النشوء والتقدّم، سرعان ما سيصبح من الصعب على فرنسا أو النمسا أو أيّة دولة أخرى في العالم تجاهل تركيا؛ إذ يعمل في الوقت الحاليّ جيل من عابري الجسور على قدم وساق لتصميم مخطّطات تنفيذ هذه المشاريع، ولا يسعني إلّا أن آمل أن تكون تجربتهم مع تركيا ثريّة كتجربتي منذ بدأت أعمل على ترجمة وثائق مشروع جسر الفاتح!

هل أصابك الدُّوار لقراءة هذا كلّه يا سيّدة ماري؟ رجاء لا تقلقي؛ فعلى الرغم من ظهور هذه التغيّرات كلّها التي وصفتها لكِ، ستظلّ كثير من انطباعات ومباهج أمتعتكِ خلال إقامتك في تركيا كما هي دون تغيير مهما أغذت تركيا في طريقها نحو التقدّم؛ ستظلّ تلك الجدران المكسوّة بالبلاط المزجّج قائمة في جامع السليميّة بأدرنة لتثير إعجابك، وسيبقى مشهد رأيته من نافذتك أعلى مرتفعات بيرا، وستبقى متعة نُزُه الزوارق

في مياه البوسفور الزرقاء، وستبقى النسوة الفواتن المرتديات ماسًا كبارًا بحجم ثمار البندق، وستبقى ثمار بندق منطقة البحر الأسود، وسيبقى ولع الأتراك بالأطفال، وحبّ العائلة، وسجاجيد تُبسط في النُّزَه الخلويّة.

سيّدة ماري، أنا معجبة إعجابًا عميقًا بمدينة قيصري، وكم تمنّيت لو أنك زرتها! أعتقد أنّ من أسباب إعجابي بها أنّها ترمز للملاءمة الدائمة بين الأساليب القديمة والحديثة، حينما أقف في الميدان الرئيس ناظرة حولي في الاتّجاهات جميعها، أرى مشهدًا كاملًا لتاريخ تركيا وقوّة تقدّمها؛ فجبل أرجيز البركانيّ يمثّل بدء الزمن، والسوق الصاخبة تعيد أصداء لخطوات التجّار الآشوريّين والحيثيّين، وجدران المدينة الحجريّة تشهد على عهد الرومان والبيزنطيّين، ومدرستا ماهبري خاتون والصاحبيّة تبرزان أهميّة هذه العاصمة السلجوقيّة، ومسجد علي باشا -بناه سِنان- يلخّص عظمة الإمبراطوريّة العثمانيّة، وقيم المد الجمهوريّ تتماشى مع تمثال أتاتورك الممتطي صهوة جواده وسط الميدان؛ وتلمّع تركيا الأحلام الأوربيّة في الواجهة الزجاجيّة لفندق هيلتون، المصمّم ليعكس منظر جبل أرجيز المهيب في الجهة الأخرى؛ أتمنّى أن يستطيع كلّ مواطن تركيّ أن ينظر حوله في مدينته، وأن يشعر بالفخر نفسه بمسيرة التاريخ والتقدّم الرائعة!

أنا على ثقة تامّة أنّ سجّادة تركيا العملاقة المنسوجة الآن بطول ألف ميل وعرض ثلاث مئة ميل ستصبح سجّادة خلّابة تنال إعجاب العالم أجمع، وآمل أن يدرك الأتراك أنّ الموكيّت الأزرق الساذج المفروش في مسجد علاء الدين بقونيا حاليًّا لن يعْلَق بالذاكرة كالسجاجيد المنسوجة إبّان عهد السلطان علاء الدين كيقوباد المزيّنة أرضيّات هذا المسجد في الأصل؛ إذ دخلَت سجاجيد هذا السلطان العظيمة كتب تاريخ الفنّ بوصفها من أروع أمثلة فنّ النسيج، وتُعدّ الآن دُرَرًا نادرة تتوّج متحف الفنّ الإسلاميّ بإسطنبول، وتجذب ملايين الزوّار سنويًّا؛ وهكذا أتمنّى

لتركيا أن تظلّ هي وشعبها ينسجون سجّادة البلاد المتلألئة ذات التفرّد والتميّز العظيمين، وروعة التصميم، وبراعة التنفيذ.

لم أنسَ قطّ شجرتي في ذلك النُّزُل المتهالك في أنطاليا؛ إذ سكنت ذاكرتي وأحلامي منذ خشيتُ تدميرها خلف ذلك السياج من الأسلاك الشائكة؛ فعدت هذا العام إلى أنطاليا عازمةً على أن أعثر عليها؛ إذ كنت مقتنعة أنّها ما زالت على قيد الحياة؛ لأنّني لا أصدق أنّ شيئًا نفيسًا ونبيلًا مثلها يمكن اقتلاعه لتنفيذ مشروع إنشاء؛ سرت في طريق لارا إلى أن وصلت مكانًا ظننت أنها كانت فيه، ودخلت منطقة مقامًا عليها فندق حديث الآن، وحينما كنت على وشك فقدان الأمل في العثور عليها، رأيتها فجأة تقف في متاهة الممرّات أمامي؛ لم تنجُ الشجرة فقط، بل أصبحت محور تصميم المنظر المطلّ عليه الفندق كلّه؛ فبُنيت حولها شرفة واسعة كي تشرف على عظمتها، ووقفت الشجرة -كعادتها- ترحّب بالجَلَسة تحت ظلالها الوارفة لينعموا بسكينتها وإطلالتها الرائعة على خليج أنطاليا؛ أعتقد أنّ تركيا سوف تلقى مصير شجرتي نفسه؛ ستبقى دائمًا، لكنّها ستتغيّر، وستنشأ نشوءًا محمودًا بمرور الزمن، وستتكيّف كي تظلّ دومًا واقفة بفخر وشَمم، وجذورها ضاربة في عمق الأرض للأجيال القادمة، وأغصانها ممتدّة نحو القمر والنجوم!

صديقتكم

قدرية برانتج



فندق شينار المؤسّس عام ١٩٥٨م، من أوّل الفنادق في إسطنبول
ذات النجوم الخمسة



شارع سغوق جشمة "السبيل البارد"، إسطنبول، عام ١٩٧٨م



شارع سغوق جشمة "السبيل البارد"، إسطنبول عام ٢٠٠٨م



حافلة قديمة في توقات



تخلّصوا من هذه الأصفار!



عملية إنشاء جارية



الموكيت المبسوط في مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٩٩٦م



سجّادة صوف من مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٢٢٠م، متحف الفنون التركيّة والإسلاميّة، إسطنبول، قطعة رقم ٦٨١



مدرسة جوهر في قيصري عام ١٩٨٥م



مدرسة جوهر في قيصري عام ٢٠٠٤م



عيون تنظر إليك في الشارع وفراء يتمسّح بقدميك



مجمع "صاحب عطا" في قونيا



امتزاج القديم بالحديث في بيشهير



أسوار المدينة البيزنطيّة المرمّمة في إسطنبول



عتبة أبلاها الزائرون في مدخل منطقة ضريح السلطان سليمان العظيم في إسطنبول



أعمال ترميم بمجمع إسماعيل بك في قاسطمونى



فوّارة عثمانيّة عامّة في إسطنبول توزّع الآن الكوكاكولا وزجاجات المياه المعلّبة



كاتب عرائض عامّ



فندق هيلتون في قيصري المشيّد عام ٢٠٠٢م يقف في ظلّ جبل أرجيز



فندق هيلتون في قونيا المشيّد عام ٢٠٠٢م، نُزُل حديث في سهول الأناضول



شجرة الدُّلْب في نُزُل بأنطاليا، طريق لارا بيتش عام ١٩٨١م

الرسالة السابعة والعشرون

طاقة أزهار التوليب

عزيزتي السّيدة ماري،

ليتك تستطيعين رؤية مدى ما أحرزه هذا البلد من تقدّم منذ أن كنتِ هنا! فلو أنّك هنا الآن، فلن تعرفي تركيا؛ إنّها مختلفة تمامًا عن تلك التي حكمها سلطانٌ أثِرٌ أشِر عرفتِه؛ هذا البلد مسالم، ولم يعد عازمًا على تحقيق فتوحات خارجيّة، بل بات يركّز على خوض حرب داخليّة لضمان مكانة سياسيّة، وماليّة، واجتماعيّة، وأخلاقيّة لمواطنيه؛ لا شكّ أنّ تركيا تنمو؛ فشبابها -وفقًا لإحصائياتها ٧٠ ٪ من السكّان تحت سنّ الخامسة والثلاثين- يضطلعون الآن بالمسؤولية، وهم شباب متحمّسون، ينظرون عن يمينه وعن شِماله قبل عبور الطريق، ويرغبون في أن يكونوا سعداء متعلّمين، يحلمون بمشاركة الرؤية الأوربيّة لتحقيق التقدّم الاجتماعيّ، والعدالة، وحريّة التعبير، والتقدّم التقنيّ، والرخاء الماليّ؛ لا شكّ أنّهم سيصبحون سادة هذه البلاد في غضون سنوات قليلة، وورثة تراث غنيّ جدًّا، تركه لهم السلاجقة، والعثمانيّون، ولن يخشوا التحرُّر من الماضي، وتقديم التضحيات والمخاطرة، وسيخرج من جموعهم الغفيرة آخران على شاكلة علاء الدين كيقوباد وسليمان العظيم ليحدّدا شكل مستقبل تركيا؛ بلد يمكن أن يفاجئ الناس جميعًا ويصبح من أنجح الدول في القرن الحادي والعشرين!

في رسالة لأليكساندر بوب بتاريخ الحادي والعشرين من فبراير/شباط عام ١٧١٧م، تَصِفين المرور في ساحة قتال كارلوفيتز؛ ساحة كانت فيها الغلَبة للضابط النمساويّ يوجين أمير سافوي على العثمانيّين في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ١٦٩٧م؛ دفعكِ منظر الميدان المتناثرة فيه الجماجم والأشلاء للتصريح ببعض التعليقات السياسيّة النادرة، لكنّك سرعان ما توقّفت قائلة: "لن أشغلك بهم، لنعدْ لأحداث رِحلاتي"؛ في الواقع يصعب دائمًا على أيّ أجنبيّ أن يعلّق على الأحداث دون أن يبدو نزّاعًا لانتقاد مسائل يفتقر إلى المعرفة العميقة بها، وهذا من أصعب الدروس المستفادة من التطواف في العالَم؛ أن يتعلّم المرء متى يكفّ لسانه.

وفي رسائل كتبتها إليكِ أمسكتُ قلمي عن تناول الجوانب المظلمة في الثقافة التركيّة؛ لعلّك تظنّين أنّني رسمت صورة بالغة المثاليّة لهذا البلد، وتغاضيت عن مواطن الضعف، كما ذكرتِ في رسالة بتاريخ ثلاثين من أغسطس/آب ١٧١٦م من مدينة راتيسبون: "أعتقد أنّ من الحكمة البالغة أن يظلّ المرء محايدًا"، وقد اخترت السير على النهج نفسه؛ لأنّني مثلك رحّالة، لست صحفية ولا عالمة سياسيّة متمرّسة؛ لذا أترك لهؤلاء تحليل مسائل الفروق المجتمعيّة والمشكلات المتعلّقة بالسياسة والدين والثقافة والعِرق، وأنتِ أيضًا عشتِ عصرًا كانت المشكلات فيه تُلقي بظلالها على المجتمع، لكن كلّ شيء بدا على حقيقته، ومن ذلك عصر التوليب البهيج في زمن السلطان أحمد الثالث، المكرّس للحفلات والشعر وزهور التوليب، غير أنّ ضرائب فرضها السلطان أحمد لتمويل أسلوب حياته المترف تسبّبت في اندلاع ثورة شعبيّة أدّت إلى خلعه عن العرش عام ١٧٣٠م، بعد مغادرتك تركيا باثني عشر عامًا، لكن مَن ذا الذي يتذكّر الآن -وقد مرّ أكثر من مئتين وثمانين عامًا- تلك المشكلات الاجتماعيّة في عصره؟ فلم يبقَ في ذاكرة العالم سوى زهور التوليب بألوانها الزاهية وسوقها المتمايلة، وبعد أن حصلت عليها

هولندا، بات العالم بأسره ينظر إليها بوصفها رمزًا لتجدّد فصل الربيع وللأمل البهيج، لكنّني سأظلّ أنظر إلى تركيا بلدًا يحمل طاقة كبيرة من التوليب للعالم!

حينما أحدّث من حولي عن تركيا، غالبًا ما أجد مشقّة في تجاوز رؤى سلبيّة تسبّبت فيها جوانب مظلمة قرؤوا عنها في الصُّحُف، يبدو أنّها تؤثّر على رؤيتهم الفعليَّة لهذا البلد، لكنّ الجوانب المظلمة في كلّ ثقافة وشعب وبلد، وقد تكون أشدّ ظلمة أو أكثر إشراقًا وفقًا لرؤيتك أنت؛ يمكنني أن أرى بوضوح الجوانب المظلمة في تركيا؛ لأنّ كثيرًا منها في بلادي، وقد ساعدني السفر إلى تركيا ورؤية صراعاتها مع هذه المشكلات ذاتها على رؤية بلادي ومؤسّساتها من منظور مختلف؛ فالتعامل مع الجوانب المظلمة لا يعني الشعور بالخزي منها، بل يعني مواجهتها وبحثها، ومناقشة وجهات النظر المختلفة، وتحليل المشكلات، ثمّ التحرّك واتخاذ إجراءات لمنع تَكرارها.

بلغت تركيا الآن درجة من النضج تستتبع تحمل المسؤوليّة، وباتت البلاد مستعدّة لإجراء تغييرات استثنائيّة؛ كبِر البلد النامي وصار قادرًا على اتخاذ قراراته بنفسه؛ فتركيا الراشدة تكافح لتقرّر شكل ديمقراطيّة مستقبلها وكيفيّة دعمها، وأنا على يقين تامّ أنّ الشعب التركيّ بما تعلّمه وبذكائه وقوّته وعزمه وقيمه المجتمعيّة، سيتمكّن دومًا من اختيار طريق يحقّق أفضل أحلامه للمستقبل؛ ستقف تركيا على الساحة العالميّة بفخر على مرأى ومسمع من مواطني العالم أجمع.

قبل أن أختتم مجموعة رسائلي إليكِ، أودّ أن أعبّر لك -يا سيّدة ماري- عن إلهام شديد استوحيته منك عند كتابتها؛ وكيف ساعدتني دروسها أن أجيد عبور الجسور، ومن أكثر ما أعجبني في رسائلكِ -بجانب مرحها وتفاؤلها وأسلوبها الساحر السهل المعبّر عن فِكَرك- هو أنّك

كنت صادقة ومتفتّحة بشأن ما شاهدتِه كلّه في تركيا؛ ولأنّك كاتبة موهوبة تمكّنت من وصف محيطك وصفًا مفعمًا بالحيويّة، بأسلوب يجعلنا نشعر أنّنا إلى جوارك، لكنّني أعتقد أنّ الهديّة الحقيقية في رسائلكِ هي أنّك لم تترفّعي عمّا دار حولك، فليس فيها نبرة استهزاء أو تعالٍ؛ كيف استطعت أن تظلّي بعيدة كلّ البعد عن تعصّب وتحيّز كانا سمة كثير من معاصريك الإنجليز؟ يسعدني أيضًا أنّك صغت فِكَرك بأسلوب متّزن، يحترم مشاعر قرّاء رسائلك أيًّا كانوا، وأيًّا كانت مواقفهم وقيمهم، وأقدّر كذلك انتقاءك قصصك بعناية بالغة، حين أردت توضيح نقطة معيّنة لأصدقائك المثقّفين في إنجلترا أو دحض فِكَرهم السلبيّة أو المتحيّزة عن الأتراك؛ رسائلكِ ليست مجرّد ثرثرة جوفاء تسرد أنشطتك اليوميّة، بل هي رؤى مهمّة نابضة بالحياة للعالم من حولك، كما كتبتِ للسيّدة ريتش: "دخلتُ الآن عالمًا جديدًا؛ إذ يبدو كلّ شيء أراه مختلفًا عمّا اعتدته"، لكنّك بدلًا من التركيز فقط على الاختلافات، أدركت النقاط المشتركة بين الثقافات، وحينما لاحظت اختلافات، قرّرت ألّا تتناوليها بأسلوب متحيّز، وتحسّنت نظرتك إلى نفسك، ورأيت حضارتك بوضوح أكبر، وأخذت بأيدينا كي نحذو حذوك؛ وكتبت: "الحال عندهم كما هو عندنا"؛ لهذه الأسباب كلّها، أعلن أنّني لست وحدي أقول: إنّ رسائلك تُقرأ اليوم بالحماسة نفسها المقروءة بها عندما كتبتِها أوّل مرّة؛ لذا كان من دواعي سروري أن أكتب لك هذه الرسائل -يا سيّدة ماري-، ويسعدني أن تتاح لي الفرصة كي أعبّر لا عن تقديري لتركيا وشعبها الذي نشترك في حبّه واحترامه فحسب، بل عن تقديري لكِ أنت أيضًا!

رغم أنني سأحرص على اتّباع نصيحتك بأنّ أظلّ محايدة؛ فسأختتم رسائلي ببعض معتقداتي، مع ثقتي بأنّك -يا سيّدة ماري- امرأة مستنيرة جدًّا وستشاركينني الرأي في معظمها؛ أنا أومن بالعلم وبقدرته على دفع عجلة التقدّم وتحقيق الرخاء في العالم، وأومن بالقانون وسلطته لضمان

المساواة، وأومن بالتعليم وقدرته على مساعدة الناس علي رؤية الأمور بحجمها الكبير لا كما يتصوّرونها وتجنّب شِراك الجهل والحمق والتحيّز، وأومن أنّ التعليم قادر على تبديد ظلمة البشر وخلق دافع للتعاطف والتفاهم والتغيير، وأومن أنّ الحكمة يمكن أن تُؤتى بكثير من المصادر والأساليب، وأومن بالمجتمع وبقدرة البشر على التعاون في المجتمع وفي الحكم لإقامة عالم عادل لمواطنيه، وأومن بوجود يد خفيّة تدفع الناس دائمًا في اتجاه يحتاجونه لاتخاذ القرارات السليمة، وأومن أنّ هذه اليد ذات السلطة قد تنبثق من رسائل سماويّة أو من سوق المال، وقد تأتي من الطب، أو من قاعة المحكمة، لكنّها تأتي دائمًا للشعب الديمقراطيّ، وأومن أنّ كلّ لقاء بين شخصين، وكلّ محادثة قصيرة، وكلّ كوب يحتسيانه من الشاي يمثّل صدعًا في جدار التعصّب، ومع احتساء كوب تلو آخر، ربّما يصبح عالم أحلامي حقيقة يومًا ما!

هل لمثل هذا العالم وجود؟ ربّما ليس الآن، لكنّ الاستبداد لن ينتصر أبدًا؛ ستظلّ حقوق الإنسان فوق كلّ شيء، وسينتصر دائمًا حبّ الحريّة، أتمنّى لتركيا -مواطنيها وسياسيّيها ومشرّعيها وجيشها وعلمائها- أن تعبر عدّة جسور أخرى لتحقيق هذه الأهداف، وأن تزرع بستانًا جميلًا جمال بستان رائع يرسمه الأتراك على أواني مدينة إزنيك الخزفيّة المزخرفة بزهور التوليب، وأهمّ من كلّ شيء آخر: أنا أومن بشعب تركيا!

صديقتكم

كاثرين برانسج

الرسالة الثامنة والعشرون

ما شاء الله!

عزيزتي السّيدة ماري،

لا شكّ أنّك نجوتِ من بعض المخاطر الجسيمة خلال رِحلاتك، سواءٌ في طريقك إلى تركيا أو في رحلة عودتك إلى لندن؛ في رسالتك المؤرّخة بالحادي والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧١٦م تسردين قصّة مثيرة عن عبورك جبال الألب خلال رحلة ذهابك إلى تركيا:

«...على ضوء القمر عبرنا المنحدرات المرعبة الفاصلة بوهيميا عن ساكسونيا الجاري أسفلها نهر ألبي، لكنّني لم أخشَ الغرق؛ لأنّني كنت مقتنعة تمامًا أنّني لو تعثّرت، فمن المستحيل أن أصل إلى الأسفل حيّة، كان الطريق يضيق في عدّة أماكن حتى إنّني لم أستطع رؤية بوصة واحدة بين العَجَل والمنحدر، ورغم هذا كنت نِعم الزوجة؛ فلم أوقظ السيّد ورتلي، الغارق في سُبات عميق جواري، ليشاركني مخاوفي... قيل لي بعدها: "إنّ من الشائع العثور على جُثث المسافرين في نهر ألبي".

لكن حمدًا لله أنّنا نجونا من هذا المصير، بالرغم من القصص المرعبة لمخاطر السفر المحتملة كلّها المنتظرة في الطريق، فقد سافرتِ لاحقًا بكلّ جسارة من فيينا:

"لم أصدق كلام الناس هنا؛ حذّروني من أنواع الأهوال كلّها؛ وبالفعل فقِلّة من الناس جرؤت على السفر في مثل هذا الجوّ، وفي الوقت نفسه يتهدّدني خطر أن أتجمّد حتى الموت، وأدفن في الثلوج، وأن يختطفني التتار المهاجمون هذا الجزء الذي سأعبره من المجر...".

وكأنّ صِعابًا مررتِ بها في رحلتك إلى تركيا لم تكن كافية، فقد شهد الجزء قبل الأخير من رحلتك إلى وطنك عبورًا شاقًّا، وهذه المرّة كان عبورُ مسطّحٍ مائيّ بدلًا من جبال مغطّاة بالثلوج:

"وصلت هذا الصباح إلى دوفر عقب أن تقاذفتني سفينة البريد طَوال الليل بحركات عنيفة حتى إنّ الرُّبّان أعطانا إنذارًا بالخطر؛ اتّصلنا بمركب صيد صغير تمكّن بصعوبة من الوصول إلينا، بينما ظلّ ركاب سفينتنا جميعًا يتضرّعون إلى الله؛ لا أتخيّل نفسي في موقف أشدّ رعبًا من هذا الموقف...»

تعرّضتُ أنا أيضًا إلى بعض الأحداث الخطيرة وأنا أسافر في طرقات تركيا؛ فقد شاهدت بعض شواحن النقل الضخمة وهي تنقلب على جوانبها على حَيَف طُرُق ليليّة سريعة محفوفة بالمخاطر، وخاطرت -مثلك- بالوقوع في بعض الكمائن عندما سافرت إلى مناطق نائية شرق تركيا أثناء الأزمة الكرديّة، وقد نجوت من بعض أفظع الحوادث لتحطّم السيّارات، وتعرّضت لبعضها الآخر، وشاهدت حوادث تصادم تقذف الأشخاص في الهواء كالدُّمَى المهلهلة، وشاهدت من الأسفل ذات مرّة حادثًا وقع في جنوب تركيا لسيارة تحمل أسرة من أربعة أفراد سقطت عموديًا من أعلى طريق الشاطئ الصخريّ لترقد كالجثّة الهامدة أمامي؛ تذكّرني هذه المواقف

كلّها بأعياد شكر قلتِ عنها -يا سيّدة ماري-: "وصلت سالمة... خائرة القوى من الرعب والإنهاك؛ فلا أستطيع حمل نفسي على الكتابة..."

أريد أن أقصّ عليك قصّة مختلفة عن تجربة سفر صعبة مررت بها، وهي رحلة عودة إلى وطني مليئة بالأحداث، لكنّني بخلافك لم أجد نفسي وحيدة خائفة في عَربة سفر إلى جوار زوج نائم قليل الحيلة، بل كان أفراد الشعب التركيّ جميعًا إلى جواري في هذه المحنة؛ توجِز هذه القصة من عدّة جوانب طبيعةَ الشعب التركيّ والجمهوريّة التركيّة؛ بدأت هذه الرحلة في صباح يوم دافئ منعش في أواخر فصل الصيف في إسطنبول؛ كان اليوم الأخير في رحلة رائعة إلى شرق تركيا، حيث شاهدت بعض أجمل مناظر طبيعيّة عرفها الإنسان؛ بدءًا من الثلج الأبيض الكاسي قمّة جبل أرارات -يُعتقد أنّه جبل النبيّ نوح-، والمياه شديدة الزرقة لبحيرة وان وبهاء اللون الزمرديّ القاتم لجبال كاتشكار؛ شعرت في ذلك اليوم بسعادة غامرة لأنّني كنت محظوظة، إذ أشاهد هذه المناظر الطبيعيّة الخلابة؛ أثمن نِعَم الله إلى الإنسان، وكنت أتطلّع بشوق إلى العودة إلى زوجي الحنون ودفء علاقات زملائي في المكتبة، وكانت سماء ذلك اليوم صافية بلون الياقوت والشمسُ ساطعةٌ؛ إنّه صباح الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م.

بدأت رحلة عودتي إلى وطني كغيرها من الرحلات السابقة؛ خرجت في طريقي المعتاد إلى المطار، يملؤني حزن شديد لفراق تركيا بعد فترة حيويّة مثيرة من التعلّم والاستمتاع ومعايشة التاريخ، تختلط بمشاعر الترقّب والسعادة للقاء الأحباب في وطني؛ اشتريت الحلويات والحلوى الطحينيّة والمَلْبَن والقهوة التركيّة من متجر السوق الحرّة، ودسست في حقيبة يدي آخِر نسخة من صحيفة "حريت" التركيّة، واشتريت بالعملات المعدنيّة التركيّة المتبقّية معي عِقدًا من حبّات الخرز الزرقاء، وأثناء مروري عبر نقاط التفتيش الأولى والثانية والثالثة، علّقت في نفسي

علـى دقّـة الأتـراك فيما يتعلّـق بالأمـن خاصّة في هـذا العالـم المتقلّب؛ شعرت بالأمان!

حـدث تأخيـر سـاعتين تقريبًـا، سُـوّغ بالكلمـات الغامضة الشـهيرة: "عُطل فنيّ"، أثناء تلك الفترة قُدّمت لنا شطائر الجبن الأبيض والطماطم اللذيذة، وأخيرًا أقلعت الطائرة، لكن بعد مرور سـاعة واحدة أعلن الرُّبّان عبـر مكبّر الصوت أنّنا مضطرّون للعودة إلى إسـطنبول، لظهور المشـكلة المزعجـة مـرّة أخـرى علـى ما يبـدو؛ أعـادت المضيفات عربـات تقديم الطعـام، ورُبطت أحزمة المقاعد، وعدنا إلى إسـطنبول، ونزلنا من الطائرة وانتظرنا ساعتين إضافيّتين في نفس منطقة الإقلاع نفسها؛ بدأ الحال يصبح مرهقًا؛ لهذا سـعدنا، حينما أعلنت موظّفة الخطوط الجويّة التركيّة العثور علـى طائـرة جديدة من المتوقّـع أن نغادر فيها خلال وقـت قصير، ومرّة أخرى أقلعت الطائرة وكلّنا يقين أنّ المشكلات جميعها حُلّت هذه المرّة.

المفاجأة أن الرُّبّان تحدّث بعد مرور سـاعة، وأعلن باللغة التركيّة أنّنا مضطـرّون للعودة إلى إسـطنبول المـرّة الثانية؛ امتعض الـركّاب جميعهم وتأفّفـوا، وبـدأت أيأس من عودتـي إلى وطني ذلك اليوم، غيـر أنّ الربّان تحدّث تلك المرّة بصوت تشوبه نبرة غريبة، وقال كلمات مبهمة فحواها: "أنّنا مضطرّون للعودة؛ لأنّه تمّ إغلاق المجال الجويّ الأمريكيّ بأكمله"؛ فأصابنـي الذعـر فـورًا لإدراكـي أنّ شـيئًا رهيبًـا قـد حـدث لأنّ المجال الجويّ الأمريكيّ لم يُغلق قطّ على مدار تاريخنا كلّه؛ شرعت أبكي خوفًا مـن المجهـول؛ إذ إنّني لم أتمكّن مـن معرفة ما حدث لكنّني كنت متأكّدة أنّه أمرٌ جلل؛ اقترب منّي صبيّ تركيّ، وسألني عن سبب بكائي، وعجزت عـن إخبـاره بمصيبـة أتوقّعهـا؛ لم أشـأ أن أخيفه هـو والأتـراك الآخرين علـى متـن الطائـرة؛ فأجبتـه أنّنـي أبكـي لحزنـي الشـديد علـى فـراق أصدقائي في إسطنبول.

بعد مرور نصف ساعة، تحدّث الرُّبّان مرّة أخرى باللغة التركيّة، وأبلغنا أنّ المشكلة على ما يبدو كانت "تعرّض أحد مباني نيويورك الكبيرة لهجوم ما"؛ فشعرت في قرارة نفسي أنّني أعرف المبنى الكبير المقصود؛ فلا يمكن أن يكون أيّ شيء سوى ذلك المبنى الذي أراه ليل نهار من نافذة شِقّتي يقف شامخًا، كحارس جسور ليراه العالم أجمع: إنّه برج التجارة العالميّ، وشعرت بطريقة ما أنّ ما حدث لم يكن مجرّد حادث، بل لا بدّ أنّها كانت هجمة إرهابيّة، أخيرًا هبطت الطائرة في إسطنبول، وتحدّثت المضيفة في مكبّر الصوت تطلب من الركّاب جميعًا البقاء في مقاعدهم، ثمّ تحدّث الرُّبّان باللغة التركيّة، أعقبها بعبارات إنجليزية كي يتمكّن الأمريكان القليل على متن الطائرة من فهم ما يحدث؛ تحدّث بوضوح وبطء، لا لضعف لغته الإنجليزيّة، بل ليتيح لنفسه فرصة انتقاء الكلمات المناسبة لنقل رسالته بأكبر قدر ممكن من الرقّة والحذر؛ فقال بصوت مرتعد مفعم بالمشاعر: "السيّدات والسادة، يؤسفني أنّ أحمل لكم بعض الأنباء المحزنة؛ وقعت هجمة إرهابيّة على المبنى الشاهق في نيويورك، مبنى مركز التجارة العالميّ؛ الحال سيّء جدًّا، وقد أصيب كثير؛ وللأمريكيّين جميعًا على متن الطائرة، أتقدّم اليوم بخالص عزائي لكم ولبلدكم"، ثمّ سمعناه يبكي؛ جعلني صوت بكائه أدرك محنته؛ فهو مجبر على إبلاغنا بهذه الأخبار، ذلك المضيف التركيّ الكريم اضطرّ لإبلاغ ضيوفه الجالسين في طائرته بما يزعجهم ويعكّر صفوهم؛ لا بدّ أن الرُّبّان شعر بالحزن الشديد لاستخدام أحدهم الطائرة، مصدر رزقه أداة للتدمير؛ لعلّه استاء أيضًا لأنّه تدرّب في الأغلب على يد ربابين أمريكيّين، ولأنّه يمرّ كثيرًا بأمريكا خلال رحلاته، ويدور حول هذين البرجين المميّزين بجزيرة مانهاتن، لا شكّ أنّه أصيب بالحسرة والمرارة لأنّه قيل: إنّ الإرهابيّين يُظَن أنهم مسلمون مثله؛ ضاعف بكاؤه صوتَ انفجار الاصطدام في أذنيّ، ورأيت الحادث في مخيّلتي بوضوح، رغم أنّني

لم أعلم حينئذ أنّ البرجين سيسقطان، وأنّ الفاعِلين يُزعم أنّهم مسلمون.

بفضـل ذلك "العُطل الفنـيّ" نجونا من مصير كثيرين عادوا إلى أمريكا بالطائرة في ذلك اليوم، وبدلًا من أن نتوه، كان الأمريكيون القليلون على متن تلك الطائرة التابعة للخطوط الجويّة التركيّة محظوظين؛ ففي خِضَمّ الفوضى اللاحقة عادوا إلى بلد مستعدّ لاحتضانهم والاعتناء بهم.

عندمـا نزلنا من الطائـرة ودخلنا قاعة المطار، وجدنا أمامنا أشـخاصًا مـن الأشـكال والألـوان كلِّهـا مصطفّين فـي صمـت تـامّ؛ كان العاملون في المطارِ جميعًا قد اجتمعوا لاستقبالنا؛ فمنهم الموظّفون بزيّهم الرسميّ ذي الأُزْبـة المرسـلة أو بزيّ الخطـوط الجويّة التركيّة والأُزَب المرسـلة، ومنهـم الحمّالـون بسُـتَرهم الرماديّـة، ومنهم عوامـل النظافـة بمراويلهنّ الزهريّـة الواقفـات بحـذر إلـى جـوار عرباتهـن، ومنهـم رجال الشـرطة بأحزمتهم الجلديّة السـوداء الثخينة، ومنهم المسـؤولون عن خدمة تقديم الطعام بقبّعاتهم الورقيّة البيضاء، وضبّاط الأمن بسُتَرهـم السوداء، وآخرون كُثـر وسـط زحام الألـوان والملابس؛ بدا أنّ مَن فـي المطار جميعًا حضر ليشـكل حائطًا بشـريًا يحيطنا برعايته وعنايته؛ منذ تلك اللحظة وكلّ شيء مشـوّش فـي ذاكرتـي، كأنّما كنـت على وشْـك أن أفقد الوعـي، أو كأنّما كنـت تحـت الماء أرى أشـخاصًا تقترب منّي وتتحدّث، لكنّني لا أسـمع كلامهـم، غير أنّني أتذكّر بوضوح كلّ يد امتدّت -تلك أيادٍ تركيّة سـحريّة شـهيرة تظهر وقت الحاجة- لتأخذنا من مِرفقنا وتدلنا على منطقة اسـتلام الأمتعـة؛ لا أذكـر ما وُجّه لي من كلام في تلك الفترة، لكنّني أذكر نظرات العيـون؛ فحـزنٌ رأيته في تلك العيون جعلني أدرك فداحة الموقف، ورغم هـذا أتذكّر بوضـوح أنّ رجلًا أنيقًا رماديّ الشـعر يرتدي زيًّا أسـود وبيده جهاز لاسـلكيّ اقترب منّـي، وقال بعبارات إنجليزيّـة متقنة: "من فضلك لا تقلقي؛ فسنعتني بكم؛ سنصطحبك في سيّارة مغلقة لتنزلي في فندق قريب،

هـو مـكان جميـل وممتـع، لا تقلقي؛ يمكنـك الإقامة هناك حتى تسـتقر الأحـوال، وحينهـا يمكنـك العـودة إلى وطنـك؛ لا تقلقي، سـنعتني بك، لكـن اعلمـي أنّـك حينمـا سـتدخلين غرفتـك وتفتحيـن التلفاز، سـترين مشـاهد وحشـيّة لم تريها من قبل وستزعجك جدًّا، سيكون هناك شخص في انتظارك على طاولة في ردهة الفندق، هو طبيب نفسيّ مستعدّ للإنصات إليك إذا كان الحال غير محتمل لك؛ بالتوفيق والشـفاء''؛ أسـتطيع حتى يومنـا هذا رؤية القَسِـمات الحادّة للوجه الأدكن غيـر الحليق لهذا الرجل النحيـف المرتدي سُـترة سـوداء بالية، والمـادّ يده ليرفـع حقيبتي بسـرعة ويضعها في العربة المغلقة.

علـى مَـن يعـود الضميـر ''نحـن'' فـي كلام الرجـل، حينمـا قـال: ''إنهم سـيعتنون بنا''؟ لا شـكّ أنّـه يعني الخطوط الجويّـة التركيّة، لكنّني شـعرت أنّ كلّ شـخص في البلاد سيشارك في هذه المهمّة؛ كيف تمكّنت دولة يُشـاع أنّها فوضويّة أن تجهّز في أقلّ من سـاعتين عمليّة رعايّة كاملة، تشـمل الإقامة ووسائل المواصلات وطبيبًا نفسيًّا ينتظر على طاولة؟ كيف تصرّفـوا بهـذه المهنيّة والهدوء، وقدّموا المسـاعدة لكـي نركّز نحن على مصيبتنـا، ونواجههـا؟ كنت فاقدة الحـسّ، فلم أتمكّن من اسـتيعاب ذلك كلّه، عندما وصلنا أنا والأمريكيون القلّة على متن تلك الرحلة إلى الفندق، أرشـدونا إلى غُرفنا في حالة من صمت ومراعاة تراها في الجنائز؛ دخلت غرفتـي فـي ذلك الفنـدق الجميل بالفعل، وجلسـت على حافـة الفراش، وشـاهدت تلك المشـاهد على شاشـة التلفاز؛ فعلمت أنّ الرجل ذا الشعر الرمـاديّ لم يكـن مبالغًا؛ عرفت تفاصيل قصّة تحكي تعرُّض أحد المباني الكبيـرة فـي نيويورك لهجوم مـا''، وعرفت أنّه هجوم أُلصِق باسـم الدين وباسم الله الرحمن الرحيم!

أقمت في الفندق أسبوعًا لم أتمكن خلاله من الحصول على أخبار شخصيّة عن الحادث المأساويّ، بل تابعت تقارير إخباريّة مملّة أذاعتها شبكة "سي إن إن"، وشاهدت صورًا لا تنتهي لحادث الاصطدام تُعرض مرّة تلو أخرى، وكأنّ مرّة واحدة ليست كافية لتُحفر الصورة في أذهاننا للأبد؛ هل مازال زوجي بخير؟ هل مازالت مساعدتي بخير، اعتادت أن تمرّ كلّ صباح وهي في طريقها لعملها من نيو جيرزي أسفلَ البرجين اللذين وارتهما أطنان الحطام؟ كيف حال الأشخاص كلّهم في جيرتي بوسط المدينة المعزولة عن باقي العالم، وكيف تعاملوا مع المأساة؟

كلّما شاهدتُ تلك الصور واللقطات للثقب في البرج، شعرت بثقب يُفتَح في قلبي، وكلّما شاهدت تلك العوارض المهشّمة، شعرت بتهّشم عظام جسدي، بعد ساعات قليلة اشتعلت النيران في كلّ شيء، كأنّ الوقت توقّف وتوقّفت معه أنفاسي، لكنّني أذكر بوضوح أنّني خرجت من الفندق في الصباح التالي لأستنشق الهواء، فرأيت العلم التركيّ المرفرف أمامي منكّسًا بمنتصف السارية العملاقة؛ يرمز لونه الأحمر لدماء ضحاياه، في تلك اللحظة أدركت أنّ هذه المأساة لم تحلّ بمدينتي فقط، بل تركت آثارها على العالم أجمع.

حيّانا الأتراك في الشوارع كلّها وأعينُهم تفيض حزنًا بكلمة عزاء أو ابتسامة شاحبة أو تربيتة على الكتف، وتحدّث كثير منهم عن مأساة حلّت بهم في يوم من شهر آب/ أغسطس الحارّ قبل عامين؛ مأساة زلزال إزميت؛ كانت أربعون ثانية -استمرّ خلالها الزلزال في جنح ظلام ليل السابع عشر من أغسطس/آب عام ١٩٩٩م- كافية لقتل ما يُقدّر بنحو أربعين ألف شخص أثناء نومهم، أما زلزال عام ٢٠٠١م المستمرّ خمس ثوانٍ، فقد أودى بحياة ثلاثة آلاف شخص في أماكن عملهم؛

لـم يغفل الأتراك أوجه الشبه بين الحادثيـن المروّعين؛ فقد تجرّعوا قبلي مرارة خشية أن يكون الأحباب محبوسين أسفل العوارض المتحطّمة، يستنشقون التراب بدلًا من الهواء النقيّ.

جافاني النوم ذات ليلة، فنهضت لأكتب رسالة شكر، لم أعلم لمن سأوجّهها بالضبط أو كيف سأوصلها إليه، لكنّني شعرت أنّ كتابة رسالة في تلك اللحظة ستخفّف من حدّة توتري؛ إذ بدا لي أنّ التنفيس عن مشاعر حزن تكتنفني هو السبيل الوحيد المتاح أمامي، بعد أن امتلأت مرارة بسبب الصدمة؛ على الأقلّ سأشعر في تلك اللحظة بالذات أنّني أتحكّم في شيء واحد في العالم؛ ألا وهو تدفّق كلماتي على الورق في عالمي الخاصّ.

بعد ثمانية أيّام تقريبًا، اتّصل العاملون في الفندق ذات صباح ليطلبوا منّا الاستعداد للمغادرة خلال ساعة؛ فقد فُتح المجال الجويّ الأمريكيّ وسنعود إلى وطننا، وكان من المقرّر أن تحضر سيّارة خاصّة تابعة للخطوط الجويّة التركيّة إلى الفندق لتقلّنا إلى المطار، وقبل أن أغادر توجّهت إلى المكتب الأماميّ في الفندق لأستعلم عن تكاليف الأجر المستحقّ نظير إقامتي في غرفة فاخرة، وتناولي وجبات الإفطار، وإجرائي مكالمات هاتفيّة غير مجدية، وإرسالي برقيّات للوطن؛ لم أعرف التصرّف الملائم في تلك الأحوال، لكنّني أردت تصفية كلّ شيء؛ وقفت الشابّة في المكتب الأماميّ تنظر إليّ، وأومأت برأسها، ثمّ قالت بصوت رقيق: "لا تدينين لنا بشيء"، كأنّها استحيت أن ترفع بصرها وتنظر إليّ لإدراكها مدى ألمي وأنا في كنفها؛ استحييتُ أنا أيضًا أن أنظر في عينيها بعد أن غمرني كرم الفندق؛ لأنّني كنت سأرى فيهما انعكاسات تلك المأساة، ولم أكن سأتمكّن من شكرها على ما فعلته لضمان راحتي؛ لم أتكلّم، بل أعطيتها ظرفًا فيه رسالة كتبتها ليلة جافاني النوم؛ نظرت الشابّة

إلى اسـم المُرسَـل إليه وبدا عليهـا التأثّر، ثمّ نظرت إلـيّ، وقالت بصوت خفيض: "شكرًا لك!"، حينها فقط سالت دموعي، وكأنّ كلّ لمسات عزاء ولفتات حانية تلقّيتها على مدار الأسبوع السابق جعلت شدة المحنة فجأة أكثر ممّا يمكنني أن أتحمّل.

أقلّتنـا الحوافل ووصلنـا مطارًا يخيّم عليه الصمـت، وصعدنا الطائرة المتّجهة إلى مدينة نيويورك، في محاكاة لخطوات الأسبوع السابق نفسها، ومررنا بنقاط التفتيش الثلاثة نفسـها، ولاحظت الاهتمام نفسـه بالتفاصيل والإجـراءات والكفـاءة نفسـها فـي العمل، لم تـدُر أحاديـث كثيرة خلال تلـك الرحلـة العائـدة إلى الوطن المسـتمرّة إحدى عشـرة سـاعة؛ فنحن إمّا خائفون وإما متشائمون من التحليق في السماء على متن إحدى الطائرات التـي غـدت مرتبطة بأسـلحة الدمار الشـامل، دعـكَ مما سيلقاه كلّ فرد لدى وصوله.

كانـت المدينـة التـي وصلـت إليها تلـك الليلة واجمة وجـوم ركاب الطائرة، والمشـهد الرائـع السـابق لمركز التجارة العالميّ من نافذة شِـقّتي بحـيّ "قريـة جرينيتـش" خيّمـت عليـه الآن كُتَل مـن الضبـاب الرماديّ المصفرّ، تشـعّ نهارًا فيظهر غبارها في أشـعّة الشـمس المنعكسة، وتشـعّ ليلًا في أضواء المصابيح الشـديدة العملاقة المثبّتة في الموقـع؛ اكتسـت مفروشـات منزلـي، في ذلك اليوم ولعّدة أشـهر تالية، بغبـار تحطّم هذين البرجيـن ورمـاد ضحاياه ثلاثـة الآلاف؛ وأنا أنظف المنـزل كلّ يوم لعدّة أشـهر، ظللت أتلـو صلوات وآيات من الكتاب المقـدس للأرواح البريئة كلّها المستحيلة غبارًا أكنسه!

تعافـت مدينـة نيويورك، وتعافت الولايات المتّحـدة، وكذلك فعلتُ؛ مـا زلنـا نعيـش تبعـات ذلـك الحـدث المشـين حتـى اليـوم، البسـيط

منهـا والمعقّد، المحليّ منها والعالميّ؛ أسـأل نفسـي كثيرًا إن كان تجاوز أحداث ذلك اليوم أصعب عليّ من أغلب الأمريكيّين، فرغم أنّني لم أُمْنَ بخسائر شخصيّة في الأرواح، فقد شعرت بخسارة مدينتي الهائلة وفقدت الثقـة فـي إخواني البشـر؛ شـعرت أنّ لصيقة الإرهاب بالمسـلمين كارثة، فالإسلام دين ذو مكانة خاصّة في قلبي؛ شعرت بخيانة أشخاص متعصّبين يُقال إنهم ينتمون لدين عددته طاهرًا نبيلًا لطّخوا سمعته ولوّثوه بما لا يدع مجالًا للغفران، لم أصدق أنّ إسلامًا عرفته، من خلال دراستي ومعايشتي للمسـلمين ومن خلال مسـلمين كُثر قابلتهم في تركيـا ووجدتهم يؤمنون بالله الرحمن الرحيم، لم أصدِّق أن له صلة بأولئك مرتكبي تلك الفعلة.

حينمـا أدركـت منحنـى خطيـرًا يدفعنـي إليـه حزنـي باتّجـاه الشـكّ والمـرارة والخـداع، تيقّنـت أنّ ذلـك كلّه لا بـدّ أن ينتهـي، فقطعت عهدًا على نفسـي؛ قلت لنفسـي: "ربّما لا أسـتطيع السـيطرة على ما تؤول إليه أحداث العالم كلّها، لكنّني أستطيـع السيطرة على محيطي القريب؛ محيط يمكنني التأثير فيه"؛ يُقال: "إنّ كلّ شـيء يحدث في الحياة ليسـاعدنا أن نعيـش"؛ لهـذا علمـت أنّني يجب أن أسـتغلّ ذلك اليـوم وأوجّه جهودي لدعـم التفاهـم بيـن الشـعوب والأديـان، وأن أواصل تكريـس وقتي أكثر من ذي قبل لإرسـاء علاقات بين الثقافات؛ قلت في نفسي: لو أنّ شخصًا مثلي يكنّ كلّ الاحترام للإسلام تراوده تلك المشاعر السلبيّة ضد المسلمين، فبمـاذا يشـعر الأمريكـيّ العاديّ؟ شـعرت بضـرورة أن أبني جسـورًا أكثر من أيّ وقت مضى.

لم تنتهِ قصّتي في تركيا مـع أحداث الحادي عشـر من سـبتمبر/أيلول؛ فبعـد مرور خمسـة أشـهر على الحادث، عـدت إلى عملي من اسـتراحة الغـداء ذات يوم لأجد موظفة الاسـتقبال تنتظرني بصندوق خشـبيّ كبير،

ملصـق بـه ظرف من الخطـوط الجويّة التركيّة يحمل اسـمي؛ غاصَ قلبي في صدري، وفاضت عليّ الذكريات -الحسـنة والسيئة- لأسـبوع قضيته فـي إسـطنبول، لـم أفتـح الصنـدوق علـى المـلأ، وانتظرت حتـى أعود إلى المنزل لأنّني كنت متأكّدة أنه شيء خاصّ، أو لمسة إضافيّة من الطيبة التركيّـة الموجّهـة إليّ؛ كانت الرسـالة مـن مدير الخطوط الجويّـة التركيّة فـي نيويـورك، تمنّـى لي السـعادة وأخبرني برغبتـه في أن يقـدّم لي هديّة رمزيّـة بالنيابـة عـن العاملين في الخطـوط الجويّة التركيّة بسـبب رسـالة إلى الخطوط الجويّة التركيّة والشـعب التركيّ، تركتها بمكتب الاسـتقبال في الفندق منذ أشـهر، وقد وصلت إليه أخيرًا؛ لم أصدق أن بعد ما قدمه الأتراك كلّه لي من مساعدات معنويّة وحسيّة، ما زالت اليد التركيّة الدافئة قادرة على احتضاني بحنانها وطيبتها؛ في الصندوق الضخم وجدت لوحة بيضيّـة كبيـرة يحيطها إطار أنيق من خشـب الجوز والزجـاج، مغلّفة برقّة، وعلى اللوح نقش بحروف رائعة للرسـالة الخالدة "ما شـاء الله"، الحاملة معنى الثناء على خلق الله، ويستخدمها الأتراك بمعنى "حفظك الله من كل شرا"؛ أثبتت لي تركيا -تلك الأمة العظيمة السخيّة- أنّني لا ينبغي أن أفقد الثقة في الطيبة الدائمة لإخوتي البشر.

صديقتكم

قدرية برانج

رحلة الخطوط الجويّة التركية رقم: ٠٠٠١،

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م



"ما شاء الله"



مشهد من نافذة شِقّة المؤلفة في نيويورك قبل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول
عام ٢٠٠١م